الألف كتاب
الثانى
٢٦٧

تاريخ الشعوب العربية

الجزء الأول



تأليف : د . ألبرت حورانى
ترجمة : نبيل صلاح الدين

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

تاريخ الشعوب العربية

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبوشادى

تاريخ الشعوب العربية

الجزء الأول

تأليف

د. ألبرت حوراني

ترجمة

نبيل صلاح الدين

مراجعة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية لكتاب

A HISTORY OF THE

ARAB PEOPLES

By : Albert Hourani

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

كلمة المترجم

كتابى الأول بين أيديكم ، له قصة تحكى ٠٠ فمنذ الطفولة المبكرة ٠٠ كانت القراءة عشقى الأول ٠٠ قلبى معلق بها ٠٠ قلبى معلق بالكتاب ٠٠ قلبى معلق بالكتابة ٠٠ أحب فعل الكتابة لذاته ٠ قرأت بنهم قبل أن أفهم ما قرأته ٠٠ أنهى الكتاب تلو الكتاب ٠٠ كل ما تقع عليه يداى ٠٠ ورغم الحصيلة الضئيلة ، الا أننى لم أتوقف يوما ٠ والآن وأنا على أعتاب الخمسين ٠٠ ما تزال هى الحب الحقيقى ٠٠ والصديق والأثير ٠

عندما حان أوان اختيار المستقبل العملى ٠٠ اختاروا لى دراسة الهندسة ٠٠ جريا على عادة المتفوقين آنذاك ٠٠ لم أقو على اعلان حقيقتى ٠٠ فلم أتبينها أو أتيقن منها ، على الأقل بهذا الوضوح ، سوى الآن ٠

حاولت لفترة تربو على ربع قرن ، أن أعمل بالهندسة ٠٠ وأن أكتفى ، من حين لآخر ، بالكتابة كقارىء لا كاتب ٠٠ فلم أحقق ذاتى ولا أذكر أن غامرنى شعور بالانجاز ، أو احساس بالرضا عن النفس على تباين واختلاف ما مارست من أعمال ٠ واستقر بى المطاف فى وظيفة ٠٠ سرعان ما تبينت أنها ليست مجزية ولا هى مشبعة ، عندها حزنت وساء حالى ٠٠ والتوت سحنتى بتعبير جلى مقيم من التبرم والاستياء ، لم يكن فى حقيقته ، الا انعكاسا لحالة انتابتنى ، من عدم الرضا ، بل واختوتنى ٠

كنت مدركا على الدوام ، أن الكتابة راحتى ، فيها راحتى وخلاصى ٠٠ حسنا فلأبدأ بالترجمة ٠ وكان على أن أبحث عن كتاب كبير ٠٠ عمل ضخم ٠٠ وقد وفقنى الله لهذا الاختيار الرشيد بعد بحث وتدقيق ، كان المعيار الأساسى فى الاختيار ، أن يحظى العمل باهتمام أعرض قاعدة ممكنة من القراء ٠ وعندى أن للترجمة سبع فوائد (ان لم تزد) : ـ

١ ـ انجليزية أفضل ٠
٢ ـ عربية أفضل ٠
٣ ـ معارف جديدة ٠
٤ ـ قضاء الوقت بشكل ايجابى ٠
٥ ـ عائد مادى ٠
٦ ـ مهمة قومية ٠٠ (لمن استطاع اليه سبيلا) ٠
٧ ـ صدقة جارية ٠

وبدأت متوكلا على العليم الخبير ٠٠ لم ألزم نفسى ببرنامج عمل يومى أو منتظم ٠٠ أينما وحيثما وجدت الفرصة سانحة ، كنت أعمل بهمة واستمتاع ، يتزايد حماسى مع كل صفحة أنتهى منها ، ويشتد تصميمى وعزمى على اتمام هذا العمل الكبير ليكون أول أعمالى المنشورة ٠

استغرقنى العمل سنة كاملة ٠٠ لكن رحلة النشر دامت خمسة أعوام ٠٠ وخلال نفس الفترة انتهيت بحمد الله من ترجمة « أينشتين » لمؤلفيه ، هابيش هوفمان وهيلين دوكاس ، وهو ما يزال تحت المراجعة ٠٠ علاوة على ست مقالات للموسوعة الاسلامية (من اصدارات الهيئة ٩٧) ٠

وبعد ، فلا يبقى الا توجيه الشكر لكل من قدم يد العون ، أخص منهم بالذكر ، الصديق العزيز والمثقف الكبير الأستاذ عمر الفاروق عمر فله اسهام كبير فى الجهد المبذول ٠ كذلك الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الرحمن الشيخ الذى تعلمت منه الكثير خلال فترة عملنا المشترك ٠٠ على قصرها ٠ وأسرة العاملين فى سلسلة « الألف كتاب » ، فلولا ترحيبهم واهتمامهم وصدق عونهم ، لما خرج الكتاب للنور ٠

عفوا ٠٠ أنا لم أقدم للكتاب ، ففى المقدمة الضافية للدكتور الشيخ أوفى التقديم ٠

وختاما ٠٠ أهدى باكورة أعمالى ، لكل من آمن صدقا وحقا بقدرتى على التصدى لمثل هذا العمل الكبير ٠٠ عرفانا وامتنانا ٠٠ ووعدا بالسعى لتقديم المزيد والجديد ٠

رب بارك عملى ، وهب الحصاد الوفير ٠٠ انك نعم المولى ، ونعم النصير ٠

نبيل صلاح الدين
القاهرة ، فبراير سنة ١٩٩٧

مقدمة المراجع

يستعرض هذا الكتاب تاريخ العالم العربى منذ ظهور الاسلام حتى التاريخ المعاصر ، مع عدم اغفال للروابط بينه وبين امتداده الاسلامى شرقا • تلك الروابط التى وصلت لدرجة كبيرة من التلاحم الثقافى فى مرحلة من المراحل ، وتبادلت التأثير والتأثر معه • فالعالم العربى ـ فيما يرى حورانى ـ جزء من العالم الاسلامى ، كما أن الاسلام مكون أساسى من مكونات الحضارة العربية فيما يرى حورانى أيضا ، كما تشكل المسيحية واليهودية مكونا أساسيا من مكونات العالم العربى ، بل والعالم الاسلامى ، وقد أشار المؤلف بشىء من التفصيل الى دور العلماء والأدباء النصارى فى الحضارة الاسلامية ، وكذلك أشار لدور بعض العلماء اليهود• فقد تفاعل أصحاب الديانات السماوية الأخرى مع الحضارة الاسلامية ، لسبب بسيط وهو أن الحضارة الاسلامية ـ بما فيها الدين الاسلامى ـ لم تكن غريبة على الديانات الأخرى وانما تمثل امتدادا لها •

وكان من الطبيعى وقد تناول المؤلف ـ فى كتاب واحد ـ منطقة شاسعة كالعالم العربى فى فترة زمنية طويلة ممتدة (منذ ظهور الاسلام حتى الأحداث المعاصرة) ألا يهتم بالتفاصيل ، ومن ثم لم يكن كتابه هذا من نوع التاريخ الاخبارى أو الذى يهتم بأحداث فردية بعينها ، وانما من نوع التاريخ التحليلى الشامل الذى يبحث عن الصورة العامة، بصرف النظر عن التفاصيل ، ويبحث عن الروابط أو أوجه الشبه العامة بصرف النظر عن الاختلافات الجزئية التى لا تؤثر كثيرا فى المسار العام للأحداث • والتاريخ الاخبارى الذى يحقق حادثة أو واقعة فرسانه كثيرون ، أما التاريخ التحليلى ذو الرؤية الشاملة ففرسانه قليلون ، أو لنقل ان القادرين على خوض غماره قليلون •

ومن هنا فقد أرخ حورانى للعالم العربى ، وأحيانا للعالم الاسلامى من خلال مجتمعاته وثقافته وخصائصه العامة ، فليس بدعا اذن أن يرى فيه كيانا واحدا ونسيجا متشابك الخيوط حتى فى أكثر مراحل التفكك السياسى وضوحا ، ومن هنا لم يعر حورانى التفاتا لتفكك الدولة العباسية

أو حتى لوجود خلافتين : عباسية في بغداد ، وفاطمية في القاهرة ، ولم ير في اجتياح المغول للعالم الاسلامي حدثا غير من وحدة ثقافة المنطقة لسبب بسيط وهو أن المغول — في نهاية المطاف — أصبحوا جزءا من العالم الاسلامي • ولم يؤرخ حوراني للطوائف المسيحية في العالم العربي بعيدا عن الفكر الاسلامي وانما جعلها في حوار معه ، وذكرنا بكتابات جورج قنواتي الذي ألف عن دور المسيحية في الحضارة الاسلامية ، وكتابات نويس شيخو عن الشعراء المسيحيين في الحضارة العربية والاسلامية • وقد أدلى حوراني بدلوه في كثير من القضايا الفكرية المتعلقة بالتاريخ الاسلامي والتي كانت تثور أو تثار على الساحة الثقافية بين الحين والحين ، ووجدنا أنفسنا في كثير من الأحيان في اتفاق كامل معه • وهذا لا يمنع أن الرجل قد أورد بعض الأفكار التي اختلف معه فيها آخرون ، وقد علقنا على ذلك في حواشي الكتاب •

★★★

ويقدم لنا ألبرت حوراني تفسيرات لأمور كان يتداولها المثقفون — بل والمتخصصون — الى عهد قريب ، على أنها من المعضلات التي تحتاج الى شرح وتعليل وتفسير ، ومن ذلك : كيف استطاع العرب وكانوا بدوا — بالمفهوم التقليدي للبداوة — أن يحققوا انتصارات ساحقة على امبراطوريتين عريقتين هما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية ، والأهم من ذلك كيف قبل المسيحيون والزرادشتيون والمانويون أن يعيشوا في ظلال الحكم الاسلامي ، بل ويرحبون به ؟

هنا يوضح ألبرت حوراني (وقد سبقه الى هذا التوضيح آخرون) أن العرب الفاتحين لم يكونوا مجرد طغمة من البدو أو الرعاة ، وانما كانوا جماعات منظمة لها تراث حضاري نشأ عن التفاعل الحي مع الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية • ويعتبر حوراني أن مقدرة هؤلاء العرب على استخدام الابل أفادتهم في نقل البضائع والعتاد عبر مساحات شاسعة ، بالاضافة لحرارة الايمان ، مما أتاح لهم الانتصار • هذا القول الذي انتهى اليه ألبرت حوراني ، ودلل عليه ، ووجد فيه اجابة شافية لسر انتصار العرب على الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية — سبقه اليه باحثون آخرون ربما كان شرحهم أعمق بحكم ما لديهم من تفاصيل ثرية كثيرة • ولعل من المفيد أن نستعرض بعض أفكار شبيهة ساقها باحث آخر هو الدكتور جورج شحاتة قنواتي (١) ، الذي يرى أن الجنس النقي خرافة ، ومن ثم فالحديث

---

(١) في كتابه المسيحية والحضارة العربية ، القاهرة ، دار الثقافة المسيحية ، ١٩٩٢ •

عن جنس عربي خالص غير مخلط هو بالتالى من قبيل الأكاذيب (١) ، وقد رحل العرب قبل الاسلام الى مناطق واسعة خارج شبه الجزيرة العربية ، وقد ورد فى سفر أعمال الرسل (٢ : ١١) أنه كان يوجد عرب فى أورشليم، لا شك أن بعضهم قد اعتنق اليهودية (٢) ٠ وكان حاكم دمشق على أيام بولس القديس هو الحارث Aretas وهو عربى تابع لقيصر الرومان واستمر حكم الحارث منذ سنة ٩ ق٠م٠ الى سنة ٤٠ ب٠م٠ وبعد سنة ١٠٥ م أسس الرومان مقاطعة جديدة أسموها آرابيا Arabia ، وامتدت هذه المقاطعة بعد ذلك الى شمال حوران ٠ وكان للعرب أسقف عربى فى بصرى(٣) ، ولم يكن بين العرب قبل الاسلام أساقفة مسيحيون فحسب، وانما نجد أنه فى الفترة من ٢٤٤ الى ٢٤٩ اعتلى الكرسى الامبراطورى مسيحى عربى (أصله عربى) وهو فيليوس ، ورغم أنه حذا حذو الأباطرة السابقين وتصرف كامبراطور وثنى الا أنه ــ فيما يقول قنواتى ــ لم يجحد عقيدته المسيحية (٤) ٠٠ وعندما استولت الزباء على زمام الحكم فى تدمر كوصية على ابنها وادبلاتوس أثينودورس Ouadaballatus Athenadorus تسامحت كثيرا مع المسيحيين مع أنها كانت متعاطفة أكثر مع اليهودية ٠ والمتأمل لاسم ابنها يجد أنه منسوب للالهة العربية اللات ــ والالهة اليونانية أثينا ، وحضر مجمع خلقدونية عرب (٥) ، وكان فى جزيرة يوتابى ، وهى جزيرة تيران فى مدخل خليج العقبة أسقف مسيحى قبل الاسلام (٦) ، واعتنق عدد كبير من العرب الغساسنة الذين شكل الرومان منهم دولة عازلة الدين المسيحى (٧) ، وكان فى مملكة الحيرة بيع (معابد) ورجال دين وعباد وهم المستقرون ، أما الرحل فكانوا من قبائل يدين بعضها بالمسيحية (٨) ٠

أما فى الحجاز فيحدثنا جورج قنواتى معتمدا على مصادر اسلامية عن مسيحيين فى أيلة (ايلات) ودومة الجندل وتيماء وتبوك ووادى القرى ويثرب ، وأن هؤلاء المسيحيين كانوا عربا ، بل وكان بعضهم من العرب

---

(١) نفسه ، ص ٥٧ ٠

(٢) نفسه ، ص ٥٨ ٠

(٣) نفسه ، ص ٥٩ ٠

(٤) نفسه ، ص ٦٠ ٠

(٥) نفسه ، ص ٦٢ ٠

(٦) نفسه ، ص ٦٥ ٠

(٧) نفسه صص ٦٧ــ٧٣ ٠

(٨) نفسه . صص ٧٤ــ٧٩ ٠

البداة ، كما يحدثنا عن « أساقفة المضارب » أى الأساقفة البدو الذين يتنقلون بين مضارب (خيام) البدو الرحل (١) ، وكان في مكة المكرمة بعض المسيحيين منهم مينا القبطي نجار الرسول ، وهو الذى صنع له منبرا ، وكان هناك باخوم البناء الذى اشترك فى بناء الكعبة المشرفة قبل الاسلام (٢) • وان بدا أن أمثال هؤلاء غير عرب فانهم عاشوا حياة العرب، وليس هناك ما يمنع ـ بل هو الأرجح ـ أن يكونوا عربا بالفعل •

لم تنشأ دولة الاسلام اذن بين أصحاب أوثان فقط ، ولكنها نشأت وانتشرت منذ البداية بين أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، بالاضافة طبعا للوثنيين وأصحاب الديانات غير السماوية •

فمن غير المنطقي اذن أن نعتبر العرب الفاتحين مجرد طغمة بدو انتصروا بطريقة اعجازية على حضارات عريقة ، وانما لابد أن يكونوا هم أنفسهم على قدر راق من الفكر وعلى قدر كبير من الالمام بتراث الأديان الأخـــرى •

ولا يبعد اتجاه الأستاذ أحمد أمين فى كتابه فجر الاسلام (٣) ، ومجموعة كتبه الأخرى عن منحى ألبرت حوراني ، وجورج قنواتي ، الا أن قنواتي أورد كثيرا من التفاصيل وأشار لكثير من المصادر وتتبع شعراء النصرانية ، معتمدا على كتابات لويس شيخو وغيره •

وقد أكد هؤلاء الباحثون أن النصرانية أو اليهودية لم تشكل أى منهما مستقرات أو مستوطنات منعزلة ، وانما هنــاك عرب أقحاح كانوا على النصرانية أو اليهودية ، أو تسربت اليهم أفكار نصرانية أو يهودية ، أو حتى أفكار من ديانات أخرى كديانات فارس وغيرها •

واذا أخـذنا بالدليل الأنثروبولوجي فى البحوث التاريخية بمعنى الاسترشاد بأحداث ووقائع حديثة أو معاصرة (أى فى أيامنا هذه) لنقرأ منها وقائع الماضي ، فاننا نجد بعض الرحالة الذين زاروا شبه الجزيرة العربية فى القرن التاسع عشر ، بل وبعد ذلك يحدثوننا عن جماعات بدو

---

(١) نفسه ، صص ٨٠ ـ ٨٣ •

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى : سيرة الرسول وتأسيس الدولة الاسلامية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٧ ، تحقيق محمد عمارة ، ص ٧٣٧ •

(٣) فجر الاسلام ، ط ١٢ ، صص ٢٥ـ٢٩ •

الصلب (بتشديد الصاد وفتحها وفتح اللام) أو الصلبة (١) ، وهم بدو يستخدمون الصليب شعارا لهم فى بعض المناسبات رغم أنهم من المسلمين، وقد صور لنا الرحالة (بلى) ما يرجح أنه بقايا مبنى دينى نقشت عليه بعض الصلبان ، فى منطقة نجد ، وقد أرجعه الى فترة ما قبل الاسلام (٢) ، ويحدثنا توماس أرنولد (٣) عن بعض نصارى ظلوا فى شبه جزيرة سيناء حتى بدايات القرن العشرين ، وان احدى البدويات المسيحيات دفنت فى هذه الفترة فى دير سانت كاترين ٠

اذن ، فالعرب الذين فتحوا مصر لم يكونوا ــ فى جانب كبير منهم ــ مجرد بدو يعرفون التوحيد أو الأديان السماوية للمرة الأولى ، وانما كان منهم البدوى المسيحى الذى أسلم ، والبدوى اليهودى الذى أسلم ، والبدوى الزرادشتى الذى أسلم ، بالاضافة طبعا الى البدو الوثنيين الخلص عبدة اللات والعزى ، وحتى هؤلاء فان بعض آلهتهم تعود لأصول يونانية فيما يرى بعض الباحثين (٤) ٠

***

ثم نأتى الى القضية الثانية وهى مرتبطة بالأولى ، وهى كيف قبل أصحاب الديانات السماوية حكم المسلمين ، بل ورحبوا به فى بعض الأحيان ؟ وهنا نجد ألبرت حورانى يقدم لنا تفسيرا مقنعا سبقه اليه باحثون آخرون ٠ يقول حورانى : « ربما كان هناك تفسير آخر لقبول سكان البلاد المفتوحة لحكم العرب ، ذلك أنه لم يكن هناك فارق كبير عند كثير منهم بين أن يحكمهم ايرانيون أو يونانيون أو عرب ، باستثناء المسئولين والحكام والطبقات ذات المصالح المرتبطة بهم ٠٠٠ فسكان المدن لم يكونوا يبالون بمن يحكمهم طالما كانوا آمنين يعيشون فى سلام ويدفعون ضرائب معتدلة ، أما سكان الريف ٠٠ فقد عاشوا تحت امرة زعمائهم وفقا لعاداتهم الخاصة، وكان حلول العرب محل اليونانيين أو الايرانيين ، وضعا أفضل بالنسبة لهم ٠٠ أما الذين تجلت معارضتهم للحكم البيزنطى فى صورة انشقاق دينى ، فقد كان من الأيسر لهم أن يعيشوا تحت امرة حاكم لا ينحاز لأى مذهب من المذاهب ، خاصة وأن الدين الجديد لم يكن قد اتضح ٠٠ » ٠

---

(١) رحلة الكولونيل لويس بلى للرياض ٠ ترجمة د٠ عبد الرحمن الشيخ ود٠ عويضة الجهنى ، الرياض ، ١٩٩١ ، صص ١٤٩ ــ ١٥٠ ٠

(٢) المرجع نفسه ، صص ٦٦ ، ١٩٢ ٠٠

(٣) فى كتابه الدعوة للاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧١ ٠

(٤) العزى فيما يرى جورج قنواتى هى افروديت ٠

لقد رحب أصحاب المذاهب المسيحية المختلفة ـ اذن ـ بحكم المسلمين لاسباب أوضحها ـ بايجاز ـ ألبرت حوراني ، لكن باحثين آخرين يزيدون هذا الأمر تفصيلا ، ومن هؤلاء جورج قنواتي الذي يفصل ما أوجزه حوراني ، فيبين لنا أن السبب الجوهري لقبول الحكم الاسلامي والعيش مع المسلمين بتآلف هو وجود أرضية عقائدية مشتركة وواسعة ، فالمسلمون والمسيحيون ـ فيما يقول الدكتور قنواتي ـ يؤمنون باله واحد ، وأنه حي قيوم ، وأنه خالق السموات والأرض ، وأنه محب للبشر ، وأنه غفور رحيم وحميد مجيد وأنه يحيي ويميت ويرضي الأنفس ويرسل الرسل ، ويسوق قنواتي آيات من العهدين القديم والجديد ومن القرآن الكريم لتأكيد هذه السمات المشتركة ، ويقرر أن أهل الكتاب أتيح لهم أن يعيشوا مع المسلمين حياة مدنية مشتركة في ذمة الاسلام (١) ، ولا يرى غضاضة في هذا التعبير الأخـــير ·

وقد وضح بعض الرحالة الأوروبيين المثقفين هذه الفكرة وأعطوها أبعـــادا أعمق ، ومن هؤلاء الأمير ردولف من الهبسبرج الأسرة الحاكمة النمساوية الشهيرة ، اذ انه يذكر لنا عند زيارته لمصر والقدس الشريف في أواخر عهد اسماعيل أن الاسلام يضم الأديان الأخرى بين جانبيه وهو يكملها أكثر من كونه يعاديها ، لذلك فلم يكن غريبا ما رآه وقرره في القدس الشريف من أن المسيحيين واليهود يعيشون معا في وئام ويمارس كل منهم شعائر دينه بحرية ، ولم يندهش ردولف عندما وجد أن المسلمين يوقرون كثيرا من المزارات التي يوقرها المسيحيون واليهود ، فموسى عليه السلام والمسيح عليه السلام كلاهما من أنبياء الله من وجهة نظر اسلامية (٢) ·

والحقيقة أن كثيرا من الأفكار التي ترددت في الفكر المسيحي قبل الاسلام وجدت لها صدى في الاسلام نفسه ، فكثير من أفكار الآريوسيين (أتباع آريوس الذي عاش في القرن الثالث للميلاد ـ ولد سنة ٢٥٦ م) وأفكار النسطوريين أو النساطرة (أتباع نسطور الذي انتخب لكرسي القسطنطينية سنة ٤٢٨) لا تبعد كثيرا عن الفكر الاسلامي فيما يتعلق بطبيعة المسيح عليه السلام · ومن الطريف أن بعض المفكرين المزامنين لحركة مارتن لوثر الاصلاحية كانوا يعتبرون الاسلام مذهبا مسيحيا ، لأن

---

(١) جورج قنواتي : المسيحية والحضارة العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٦ـ٣٢ ·

(٢) ترجمت رحلة ردولف الى مصر والقدس ، ونشرت في سلسلة الألف كتاب الثاني ٣ ج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، راجع مقدمة المترجم (د· عبد الرحمن الشيخ للجزأين الأول والثالث) ·

أفكاره لا تختلف كثيرا عن أفكار كثير من المصلحين والمسيحيين ، وهي مشابهة تماما من حيث التوحيد الخالص لحركة زامنت لوثر وعرفت بحركة الموحدين المسيحيين Unitarianism (١) ·

***

قضية أخرى لا تخلو من طرافة ، فحوراني لم يعتبر المد العربي أو حركة البدو سببا في تدهور الأراضي الزراعية في العالم العربي والاسلامي (المناطق المفتوحة) حتى قبل الإسلام ، وانما هو يرى العكس ، بمعنى أن تدهور الزراعة في العراق والشام — وربما مصر — هو الذي شجع العرب البداة على الحركة ، وجعل حرفة الرعي تطغى على حرفة الزراعة في وقت من الأوقات ·

ونرى أن ذلك قول لا يخلو من صحة ، فلا شك أن أحد أسباب انتصار المسلمين على الدولتين الساسانية والبيزنطية هو الضعف الذي حاق بهاتين الدولتين ، ولا شك أن تدهور الزراعة كان أحد مظاهر هذا الضعف ·

***

وكثير من الأفكار التي أوردها حوراني عن الشريعة الاسلامية وعلم الكلام ، نجد لها نظيرا لدى باحثين آخرين ، ونفضل هنا الرجوع لتراث الاسلام تأليف شاخت وبوزورث(٢) : « لقد شهد النصف الثاني من القرن الأول للهجرة (٦٧٠ — ٧٢٠م) بعثا للمعتقدات والعادات العربية التي لم يستطع علم الكلام الاسلامي ولا الشريعة الاسلام Islamic Religious Law التخلص منها بصورة كلية ، وبقي البحث عن التوازن بين العنصرين سمة مميزة للحياة الفكرية لدى المسلمين مدة طويلة من الزمن ، وقد استبدل بذلك في العصر الحديث البحث عن التوازن بين قيم القومية (أو أية أيديولوجية سياسية أخرى) وقيم الاسلام ·

ويمكن القول بصورة عامة ان المسائل الكبرى التي تواجه المفكرين

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحركة في : حركة اصلاح ديني أوربية لم تلق الاهتمام الكافي · تأليف د· عبد الرحمن عبد الله الشيخ · مجلة الآداب — جامعة الملك سعود ·

(٢) ترجمة محمد زهير السمهوري ومراجعة فؤاد زكريا ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب — عالم المعرفة — ٨ ·

المسلمين في العصر الحديث (١) هي نفسها التي واجهتهم في القرنين الأول والثاني للهجرة (القرنين السابع والثامن للميلاد) ... وهناك توترات عديدة ظلت بلا حل طوال تاريخ الاسلام ، ومعظمها ناجم عن أن المثل الديني الأعلى لا يمكن تحقيقه في العالم كما هو ، وأهمها ذلك التنازع القائم بين التقوى والاستقامة ، أو في المصطلح الدقيق بين التصوف والشريعة... وبعد ذلك (أي بعد القرن الحادي عشر للميلاد) أصبح كل من الشريعة الاسلامية وعلم الكلام الاسلامي يميلان لأن يكونا ضربا من التمارين التقنية (خليا من الروح) وحل الأمر نفسه في التصوف الاسلامي ... وكان الاسلام منذ بدايته دين عمل أكثر منه دين ايمان ، ولم يكن النصف الأول من اعلان الايمان الاسلامي وهو (لا اله الا الله محمد رسول الله) ليشكل أية مشكلة لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الوثنيين ، بل كان أقل اشكالا بالنسبة لأتباع الأديان السماوية في الأراضي المحيطة بها ، حتى اعتنقوا دين الطبقة الحاكمة بعد الفتح العربي للبلاد ... ولهذا السبب نفسه نجد أن الشريعة — وليس علم الكلام — كانت دائما محور العلوم الدينية الاسلامية ، فحتى الغزالي .. رغم أنه اعتبر الشريعة علما دنيويا وليست من علوم الآخرة ، فقد ظل يعدها علما دينيا وليس دنيويا ... وكذلك فان أنصار الاتجاهات العصرية من رجال التشريع الذين يقسون على الشريعة الاسلامية التقليدية برمتها .. لا يستطيعون التهرب من المبدأ الأساسي القائل بأن القانون (الشريعة) ليس مؤسسة دنيوية بل يجب أن يخضع للدين ... ».

★★★

... مسألة أخرى ثار بشأنها خلاف بين الباحثين العرب أدلى فيها ألبرت حوراني بدلوه ، وهي الدولة الأموية التي تحول على يديها نظام الخلافة من الشورى والمبايعة الى الوراثة أو الى حكم الأسرة ، وأصبحت عملية المبايعة مسألة شكلية لا تغير من جوهر كون الحكم وراثيا . وحوراني يلتمس العذر للدولة الأموية في هذا التغيير الجوهري الذي ترك بصماته فترة طويلة على التاريخ الاسلامي ، وهو كمؤرخ ينظر للأمور نظرة واقعية من خلال الظروف التي سادت هذه الحقبة ، فقد كان العرب الفاتحون أقلية بالنسبة للشعوب

---

(١) يرى شاخت وبوزورث أن العصور الوسطى الاسلامية تمتد حتى سنة ١٨٠٠ اى بدايات القرن التاسع عشر ، وهو رأى غير مأخوذ به في التقسيمات التاريخية المعمول بها ، أما حوراني فهو يقسم كتابه التقسيم المعتاد ، ويعتبر تاريخ الدولة العثمانية مرحلة جديدة ، لذا فهو يدرجها في الجزء الثاني من كتابه هذا والذي يتناول التاريخ الحديث — (المراجع)

كثيرة العدد التي ضمتها الدولة الاسلامية ، وكان معاوية بن أبي سفيان يخشى هذه الكثرة (١) ونرى أنه من غير المنطقي ـ من وجهة نظر تاريخية وسياسية لا من وجهة نظر مثالية ـ أن يتم تعيين الولاة أو الحكام أو قادة الجيوش من هؤلاء في هذه المرحلة الباكرة من تكوين الدولة ، فولاء مثل هذه العناصر في هذه المرحلة لازال تحت التجربة ، ولا وجه للمقارنة بالاستشهاد بسلمان الفارسي وبلال بن رباح وغيرهما في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فهؤلاء كان اسلامهم قد حسن ، وكانوا صحابة ولا مجال للشك في ولائهم ٠

وكان معاوية بن أبي سفيان يخشى أيضا من التكتلات القبلية ضده فعمل على استمالة القبائل والتودد الى شيوخها (٢) ٠ والأخذ بالشورى بمعناها المثالي الخالد هنا لا معنى له أيضا ، لأن الشورى أو المبايعة أو أخذ رأى الرعية أو أهل الحل والعقد أو حتى الديمقراطية بمعناها المعاصر تحتاج الى بيئة مهيئة لذلك ، والى نوع من التجانس يضم الشعب أو الرعية كلهم في نسيج متشابه ، ولم يكن الأمر كذلك في عهد الدولة الأموية ، فقد كان من الرعية فرس وروم وقبائل عربية مختلفة الأهواء والمشارب ٠ لقد التزم حوراني بعقلية المؤرخ وحكم على الأمور من خلال الظروف التاريخية ٠ وهو في هذا على أية حال ليس متفردا وانما ينحو منحاه باحثون آخرون ، ننقل هنا قبسا من كتاباتهم :

« فالدولة الأموية كانت بالفعل دولة عامة إكملت بناء العالم الإسلامي في دور توسعه الأول ، ووصلت بحدوده من فرغانة والسند في الشرق الى المحيط الأطلسي في الغرب وتخطت جبال البرت المعروفة بالبرانس وواصلت ففتحت بلاد غاله (فرنسا) حتى أوقف تقدمها الفرنجة بانتصارهم على المسلمين في واقعة بلاط الشهداء في رمضان ١١٤ هـ ـ أكتوبر ٧٣٢م٠٠ وقد بدأت الدولة الأموية حكمها سنة ٤١ هـ ـ ٦٦١م وعلى رأسها معاوية ابن أبي سفيان في نهاية الفتنة التي بدأت في منتصف خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه حوالى ٣٠ هـ ـ ٦٥١ م وبولايته عاد نشاط التوسع والفتوح واستمرت خلافته من ربيع الأول سنة ٤١ هـ ـ يونيو ٦٦١ م الى رجب ٦٠ هـ ـ أبريل ٦٧٩ م ، وخلفه ابنه يزيد الذى حدثت في عهده مأساة استشهاد الحسين بن على ١٠ محرم ٦١ هـ ـ ١١ أكتوبر ٦٨٠ م التي حولت التشيع لعلى بن أبي طالب وآل البيت الى حركة سياسية خطيرة

---

(١) انظر ما نقله احمد امين عن العقد الفريد لابن عبد ربه في كتابه فجر الاسلام ط ١٢ القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٩٠ ٠

(٢) انظر : احمد امين : فجر الاسلام ، ط ١٢ ، ص ١٨٧ ٠

استمر نطاقها يتسع حتى قسمت العالم الاسلامي الى سنة من ناحية وشيعة من ناحية أخرى » (١) .

★★★

وبين الحين والحين كانت الساحة الثقافية في مصر تشهد آراء على شاكلة أن الاسلام مرتبط ببيئة بعينها ، أو أنه دين صحراوى مقتصر على البدو ولا يصلح الا لهم ، وسواء أكانت مثل هذه القضايا تثار على سبيل المزاح ، أم أن القائلين بها جادون ، فان باحثا مثل ألبرت حوراني يسخر من مثل هذه الآراء ويعتبرها آراء خطيرة بعيدة عن منهج البحث العلمي (لاحظ أن حوراني يخاطب القراء الأوروبيين) ، ويرى من خلال الحقائق التاريخية أن الاسلام دين عالمي غير مقتصر على جنس دون جنس أو بيئة مناخية دون أخرى . ونفضل هنا نقل عبارات حوراني بنصها الانجليزي :

... It has sometimes been claimed that these two factors were closely Connected that the religion of Islam was particularly suitable to a certain kind of environment, or indeed had created it : that Muslim Societies were dominated by the desert, or at least by a certain relationship between the desert and the city. Such theories are dangerous,, however, there are countries with a different kind of climate and Society, such as parts of south and southeast Asia, Where Islam has spread and taken root ...

وحوراني هنا يثبت فعلا أنه باحث موضوعي بعيد عن الهوى ، فمن الناحية الاحصائية الواقعية نجد أن الاسلام قد تمركز في شرق أوروبا حتى قبل سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح ، ولسبب أو لآخر فان المجتمعات الاسلامية في شرق أوروبا لم تحظ بالدراسة الكافية (٢) ، كذلك جمهوريات نهر الفولجا ، وهى داخلة ضمن الحدود الجغرافية لأوروبا باعتبار الأورال هى الفاصل المتفق عليه — جغرافيا على الأقل — بين آسيا وأوروبا .

★★★

---

(١) حسين مؤنس : اطلس التاريخ الاسلامي ، ص ١٥١ .

(٢) حاولنا سد القصور في هذا المضمار بقدر ما نستطيع بترجمة كتاب « العثمانيون في أوربا » للمؤرخ بول كولز ، ونشر في سلسلة الألف كتاب الثاني (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، ١٩٩٤ — (المراجع) .

ملاحظات حوراني عن انتشار الاسلام :

لاحظ حوراني (كما هو واضح في الباب الثاني بفصوله المختلفة) ان العالم الاسلامي وان بدا ــ من ناحية الشكل الخارجي على الأقل ــ في حالة تفكك وانهيار بعد سقوط بغداد ، الا أن هذا الشكل الخارجي لم يكن يمثل الجوهر الحقيقي للأمور « فلم تقض الخلافات السياسية على الوحدة الثقافية لعالم الاسلام ، وقد عبر الدين عن نفسه في نظم التفكير وفي المؤسسات ٠٠ » وحتى بعد سقوط غرناطة وخروج المسلمين من الأندلس كانت حقيقة الأمر رغم كل هذا أن الاسلام يزداد انتشارا وأن خريطته في اتساع ، واذا كان حوراني قد أشار لذلك بايجاز ، فاننا نود في هذه المقدمة أن نوضح هذه النقطة المهمة ونحاول شرحها شرحا تاريخيا واضحا قدر الامكان ٠

فمنذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، كان الوجود الاسلامي في تقهقر مستمر في شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس) ، ففي سنة ١٠٨٥ سقطت طليطلة ، لكن في الفترة ذاتها تقريبا كان ألب أرسلان السلجوقي (١٠٦٣ ــ ١٠٧٢) يطرد البيزنطيين من معظم آسيا الصغرى (لاحظ : تقهقر في الغرب يوازنه تقدم في الشرق) ، وطوال هذه الفترة وما بعدها كان الأتراك يهاجرون من أواسط آسيا الى آسيا الصغرى متتبعين آثار السلاجقة أبناء عمومتهم (لاحظ : المسلمون يخرجون من الأندلس في غرب العالم الاسلامي ، والمسلمون يزحفون على آسيا الصغرى في شرق العالم الاسلامي) ٠ وفي سنة ١٢٣٦ سقطت قرطبة الاسلامية في الأندلس ثم سقطت اشبيلية سنة ١٢٤٨ وبدا الاسلام في الأندلس مضعضعا وبدت دولته في الأندلس على وشك الانهيار ، وفي سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في يد المسلمين الأتراك العثمانيين ، وفزعت أوروبا كلها واستدارت تاركة الانتصارات المسيحية في أيبيريا لتواجه نكسات وهزائم خطيرة عقب سقوط القسطنطينية ٠

ان الاسلام من هذا الباب القسطنطيني صار أقرب لقلب أوروبا من حبل الوريد ٠ توازن غريب ومدهش ٠ وعندما سقطت آخر القلاع الاسلامية في الأندلس ، ونعني بها غرناطة ، سنة ١٤٩٢ كان الاسلام متمركزا في شرق أوروبا في مرحلة بعث وانتشار ٠ وهكذا لم تنقص مساحة العالم الاسلامي ولا تقلصت عملية انتشار الاسلام ٠

مثال آخر يؤكد ما ذهب اليه ألبرت حوراني ، فبعد سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٦ ، والذي كان قد اجتاح بجيشه المغولي المناطق

المحيطة ببحر قزوين (الخزر) وبحر آرال بحيرة خوارزم) وضم كل مناطق وسط آسيا التى تعرف باسم بلاد ما وراء النهر Trans oxania ووصل جنوبا حتى ما بعد ممر خيبر (فى أفغانستان الحالية) ، وكانت سيطرتهم تمتد من كاشغر شرقا (ضمن الصين الحالية) ، وكان الاسلام أثناء هذه الغزوة التترية موجودا ، بل ومنتشرا فى كل هذه المناطق ، وكان فى صفوف التتر (المغول) أنفسهم عدد من المسلمين وصلوا لدرجة الوزارة وتولوا حكم بعض الولايات ، بل لقد كان بركة التترى أو المغولى — منافس هولاكو على العرش — مسلما · وتولى بركة التترى المسلم حكم منطقة واسعة عرفت بالأوردو الذهبى فى الفترة من سنة ١٢٥٧ الى سنة ١٢٦٦ ، وتولى مباركشاه التترى المسلم حكم خانية آل جفتاى بصفة غير رسمية قبل سنة ١٢٦٦ (١) ·

والمهم أن حركة المغول هذه قد أدت الى انتشار الاسلام ، وليس العكس ، فمع أول هزيمة حاقت بالمغول ، انصرفوا الى تعمير الأراضى التى خربوها دون رحمة · يقول روم لاندو — وهو أستاذ للتاريخ الاسلامى بجامعة كاليفورنيا : « ان هذا التغيير المدهش الذى طرأ على سياسة المغول، انما هو ثمرة من ثمار نفوذ الاسلام المرسخ الممدين ، فبعد أن احتل المغول الامبراطورية الاسلامية وجدوا أنفسهم فى وضع كالوضع الذى جابهه كثير من المنتصرين قبلهم : لقد خضعوا لدين ضحاياهم وثقافتهم » · وهكذا كان من نتائج الغزو المغولى مزيد من التفاعل بين رقعة العالم الاسلامى(٢) ·

★★★

وقد اهتم حورانى فى هـذا الجزء بالعلاقات بين القوى المختلفة ، وبالجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، مما جعل كتابه مقروءا ممتعا للقارىء الأوروبى والأمريكى ، ونرجو أن يكون كذلك بالنسبة للقارىء العربى ·

ولم يستخدم حورانى المصطلحات التاريخية غير المفهومة للقـارىء العام ، وانما استخدم الألفاظ والمصطلحات المعاصرة فى حالات كثيرة ليشير للأماكن والبلدان ، فقد كان حورانى يكتب عن الماضى وعينه على الحاضر ،

---

(١) اعتمدنا فى تحقيق التواريخ وضبط الوقائع على : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى تاليف فاسيلى فلاديمير بارتولد · ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشـم · نشره المجلس الوطنى للثقافـة بالكويت ، ١٩٨١ ، وهو من الكتب الامهات ·

(٢) روم لاندو : الاسلام والعرب · ترجمة منير البعلبكى · بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٧٧ ·

وعند تعرضه للحياة الثقافية والاجتماعية أفاض فى الحديث عن المذاهب الدينية المسيحية والاسلامية وأحيانا اليهودية ، مبينا الفروق بينها ببساطة شديدة ، ودون أن يغرق فى التفاصيل اللاهوتية ، وانما ركز على الفروق التى تؤدى الى نتائج عملية • فالنساطرة لايمانهم بطبيعتين منفصلتين للسيد المسيح ، قد جعلهم هذا أكثر تفاعلا مع المجتمعات الاسلامية فى العراق وايران ، كما فصل حورانى بين اليهود التلموديين واليهود غير التلموديين ، وهذه أمور – كما قلنا – لها مردود عملى ، وليست مجرد خلافات لاهوتية أو فقهية •

وقد يهتم القارىء الغربى بمعرفة بعض التفاصيل عن المذاهب والفرق الاسلامية المختلفة ، لذلك أوردنا فى الحواشى بعض التعليقات الموجزة جدا ، وعلى القارىء المهتم مراجعة الملل والنحل للشهرستانى ودائرة المعارف الاسلامية • وقد آثرنا أن تكون الحواشى موجزة قدر الامكان لنعطى للكتاب ما أراده له المؤلف – وهو طابع العمومية •



ولا شك أن الأستاذ نبيل صلاح الدين قد بذل جهدا كبيرا فى ترجمة هذا الكتاب ، وسعدت عندما كلفت بمراجعة هذا العمل المهم ، وكنت حريصا على أن تكون تعديلاتى وتعليقاتى فى أضيق الحدود ، واحترمت تماما منهج المترجم ، مع تعليقات فى الهوامش أحيانا ، فقد لا يوافق بعض القراء مثلا على عبارات مثل (القانون المالكى أو القانون الحنفى •••) Hanafi law ، لكن هذا فى الواقع ما يريد المؤلف قوله للقارىء الأوروبى ، لذا أشرنا للمصطلح العربى (الفقه المالكى ، الفقه الحنفى•••) فى الهوامش عند المراجعة ، مع ابقاء النص المترجم كما هو ، وعند الحديث عن علوم الحديث وعلوم القرآن ، أقرنا الترجمة غير الاصطلاحية مع اشارات للمصطلحات فى الهوامش ، وبالتالى فلم يستخدم المترجم فى النص عبارات مثل (علم الرجال) ، وانما (سيرة رواة الحديث) أو (الجرح والتعديل) وانما (الحكم على رواة الحديث) ، وعند الحديث عن التصوف لم تستخدم فى النص عبارات مثل (العلم اللدنى) وانما العلم المستوحى من الباطل بالتأمل••• بل عند ترجمته نصوصا عن العمارة الاسلامية آثر المترجم الاشارة الى فناء مكشوف للمسجد بدلا من (الصحن) والى المساحات المغطاة بدلا من (الأروقة) ••••• وهكذا •

وأجد من واجبى أن أنوه هنا بتشجيع الأستاذ أحمد صليحة وهيئة تحرير هذه السلسلة لمثل هذه الجهود الطيبة فى ترجمة الأعمال المهمة فى مجال العلوم الاجتماعية والانسانية ٠

وعلى الله قصد السبيل ٠٠

د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ

مقـــــدمة

موضوع هذا الكتاب هو تاريخ الأجزاء الناطقة بالعربية من العالم الاسلامى منذ ظهور الاسلام وحتى وقتنا الحالى ، الا أننى اضطررت خلال بعض الفترات للخروج عن الموضوع ، على سبيل المثال عندما تعرضت للتاريخ المبكر للخلافة ، وكذلك عند تعرضى للامبراطورية العثمانية أو للتوسع فى التجارة أو للامبراطورية الأوروبية ، فقد يقال ان الموضـوع أكبر أو أصغر مما ينبغى ، أو ان تاريخ المغرب مختلف عن تاريخ الشرق الأوسط ، أو ان تاريخ البلاد الناطقة بالعربية لا يمكن النظر اليه بمعزل عن البلاد الاسلامية الأخرى ، ولابد من وضع فاصل ، ورغم أن الموضع الذى اخترته لهذا الخط راجع جزئيا لحدود معرفتى الشخصية ، الا أننى آمل أن يوضح هذا الكتاب أن هناك وحدة كافية من التجربة التاريخية بين المناطق المختلفة التى يغطيها مما جعل من الممكن النظر اليها ، أو الكتابة عنها فى اطار واحد ·

وقد وضع هذا الكتاب للقراء الذين يرغبون فى معرفة بعض الأمور عن العالم العربى وللدارسين الذين يبدأون فى دراسة هذا الموضوع ، وسيكون واضحا للمتخصصين أن كتابا بهذا الاتساع فى مجال البحث مبنى على أبحاث الآخرين ، وقد حاولت بيان الحقائق الأساسية وترجمتها فى ضوء كتاباتهم وعبرت عن كونى مدينا لهم بادراج أعمالهم فى قائمة المراجـــع ·

وأود أن أعبر عن شكرى تجاه باتريك سيل الذى شجعنى على انجاز هذا الكتاب وساهم فى الترتيب لنشره ، والأصدقاء الذين قضوا ساعات طويلة فى قراءته وتصحيح الأخطاء واقتراح كيفية تحسينها ، وهـــم باتريشنا كرون ، وبول دريتشى ، وليلى فواز ، وكورنيل فليتشر ، والمرحوم مارتن هانيدز ، وشارلز عيسوى ، وظارف خالدى ، وفيليب خورى ، وايرالابيدوس ، وويلفريد ماديلونج ، وباسم مسلم ، وروبن أوستل ، وروجر أوين ، ومايكل روجرز ، ومارى ويلسون ، وأخص من بينهم

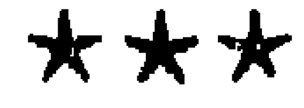
بول دريتش بدين خاص ، اذ انه تابع خطى الفكر برؤية عميقة ومعرفة واسعة ٠

وأتوجه بالشكر للأصدقاء والزملاء الذين ساهموا فى امدادى بالمعلومات التى احتجتها ، وللقائمين على كتابة المسودات والتحرير والتصحيح والاعداد والطباعة ، وللناشرين الذين تكرموا بالسماح باستخدام فقرات من منشوراتهم لنصوص مترجمة عن العربية ٠

الأسماء الجغرافية

وعندما وضعت كتابا يغطى مثل هذه الحقبة الطويلة من الزمان ، كان على اتخاذ قرارات بخصوص الأسماء ، فاستخدمت الأسماء الحديثة للبلدان عند الاشارة الى مناطق جغرافية حتى لو لم تكن هذه الأسماء مستخدمة فى الماضى ، وكان من الأسهل استخدام نفس الأسماء خلال الكتاب بدلا من تغييرها من فترة لأخرى ، وعليه فان « الجزائر » تعبر عن منطقة معينة فى شمال أفريقيا ، رغم أن هذا الاسم لم يستخدم الا فى القرون الحديثة ، وبشكل عام فقد استخدمت الألفاظ التى ألفها قراء الانجليزية ، فلفظ « مغرب » قد يكون مألوفا وأكثر استعمالا من « شمال غرب أفريقيا » ولكن لفظ «المشرق» ليس كذلك ، ولهذا فقد استخدمت لفظ « الشرق الأوسط » بدلا منه ، وأطلقت أيضا على الجزء الاسلامى من شبه جزيرة (أيبريا) لفظ الأندلس ، فمن الأسهل أن نستخدم لفظة واحدة بدلا من جملة بأكملها ، وعندما أستخدم اسما ، أصبح الآن لدولة ذات سيادة ، عند الكتابة عن الفترة قبل ظهور هذه الدولة ، فان المقصود هو الاشارة الى منطقة معينة محددة تقريبا ، الا أنه عند الكتابة عن الفترات الحديثة يكون المقصود هو المنطقة التى تشملها حدود هذه الدولة ، وعلى سبيل المثال فان (سوريا) خلال معظم الكتاب تعنى منطقة محددة لها خصائص مشتركة طبيعية واجتماعية ، وكانت لها بشكل عام تجربة تاريخية واحدة ولكنى أشير بها فقط الى دولة (سوريا) منذ ظهورها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولست بحاجة للقول ان مثل هذه الاستخدامات لا تتضمن أى آراء سياسية حول وجود أية دولة أو مواقع حدودها ٠

والأسماء الجغرافية المستخدمة مبينة فى الخريطة رقم (١) ٠



تمهيـــــد

فى عـــام ١٣٨٢ م التمس عالم الاذن من حاكم تونس للقيـــام بالحج الى مكة ، وعندما سمح له بذلك استقل السفينة قاصدا الاسكندرية بمصر ، عندما غادر كان فى الخمسين من عمره وكان خروجه من بلاد المغرب - التي لعب هو وأسلافه فيها دورا مهما ومتغيرا - خروجا بلا عودة .

ينحدر عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) من عائلة انتقلت من جنوب الجزيرة العربية الى أسبانيا بعد الفتح العربى واستقرت فى اشبيليه ، وعندما توسعت الممالك المسيحية من شمال أسبانيا باتجاه الجنوب نزحت العائلة الى تونس كشأن العديد من العائلات ذات العراقة والتقاليد والثقافة والمناصب الرفيعة فى الدولة ، وشكلت هذه العائلات فى بلاد المغرب العربى (الجزء الغربى من العالم الاسلامى) طبقة من النبلاء تقدم خدماتها للحكام المحليين ، وقد لعب الجد الأكبر لابن خلدون دورا كبيرا فى سياسات القصور فى تونس حتى فقد الحظوة وقتل فى النهاية ، كذلك كان جده مسئولا فى الدولة ولكن والده هجر السياسة وعاش حياة طالب العلم المعتزل ، وتلقى ابن خلدون تعليما جيدا بمقاييس ذلك العصر عن أبيه وعن العلماء بالمساجد والمدارس فى تونس ، وواصل تعليمه خلال شبابه المبكر عندما عاش فى مدن أخرى لأن ذلك كان جزءا من التقاليد التى توارثها ، فقد كان على الرجل أن يبحث عن العلم فى أى مكان . وفى ســيرته الذاتية يورد أسماء أولئك الذين حاضروه والموضـــوعات التى تعلمهـــا عنهم : القـرآن الذى هـو كلمـــة الله الموحـــاة باللغـــة العربية من خـــلال النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، والحديث ، والسيرة حول ما فعله أو قاله النبى صلى الله عليه وسلم ، والتشريع والأخلاق الاجتماعية على أسس من القرآن والحديث ، واللغة العربية التى لولاها لما أمكن فهم علوم الدين والعلوم العقلانية والحساب والمنطق والفلسفة ، كما يذكر أمورا عن حياة وشخصيات أساتذته ، ويحكى عن أغلبهم ، وكذلك عن أبويه اللذين قضيا فى « الموت الأسود » وهو الطاعون الكبير الذى اكتسح العالم فى منتصف القرن الرابع عشر .

وقد تمكن ابن خلدون فى سن مبكرة من اللغة والتشريع مما أهله للخدمة لدى حاكم تونس ككاتب فى البداية ثم تحمل فيما بعد مسئوليات أكبر ، ولكن فى مناصب غير مستقرة ، وتلا ذلك عشرون عاما من الأحداث الحافلة ، فقد غادر تونس وعمل لدى حكام آخرين فى المغرب ، ثم انتقل الى غرناطة عاصمة آخر الممالك الاسلامية فى أسبانيا حيث اكتسب حظوة هناك ، وأرسل فى مهمة رسمية للحاكم المسيحى لمدينة اشبيليه موطن أسلافه ، ولكن حامت حوله الشكوك فاضطر الى الاسراع بالانتقال الى الجزائر حيث حصل مجددا على عمل حكومى فى الصباح وبعده يقوم بالتدريس فى المسجد ، وقد لعب ابن خلدون دورا فى اجتذاب العرب وزعماء البربر من السهوب والجبال للتحالف السياسى مع الحكام الذين عمل لديهم ، وكان للنفوذ الذى استطاع اكتسابه منهم فائدة كبرى عندما تكرر ما حدث كثيرا طيلة حياته من فقدان الحظوة لدى مستخدميه ، وفى احدى هذه المرات قضى أربع سنوات (١٣٧٥ — ١٣٧٩ م) فى قلعة فى ريف الجزائر فى حماية زعيم قبيلة عربية ، وخلال هذه السنوات تحرر من انشغالات الدنيا وعكف على كتابة تاريخ الأسر الحاكمة فى المغرب من خلال منظور واسع ٠

وقد ظل الجزء الأول من هذا التاريخ (مقدمة ابن خلدون) يحظى باهتمام كبير حتى الآن ، وفيه حاول شرح صعود وانهيار هذه الأسر الحاكمة بطريقة يمكن أن تكون محكا للحكم على مصداقية الروايات التاريخية ، وقد بين أن أبسط وأول أشكال المجتمعات الانسانية هى تلك التى يتميز بها سكان السهوب والجبال الذين يزرعون المحاصيل أو يربون الماشية ويتبعون زعماء ليس لهم قوة مسيطرة منظمة ، يتمتعون بالطيبة الطبيعية التلقائية والطاقة والحيوية ، ولم يكن بامكانهم تكوين حكومات مستقرة أو مدن ذات ثقافة رفيعة عالية ، ولا يمكن لأحدهم فرض نفسه الا اذا تمكن من السيطرة على مجموعة من التابعين حوله ممن تتوافر فيهم العصبية ، وهى روح جماعية تنحو للحصول على السلطة أو القوة والتمسك بهما ، وكان من الأفضل تجنيد هذه المجموعة من الأتباع من بين رجال الوديان والجبال ذوى النشاط والحيوية ، والذين يمكن ضمان تماسكهم والتفافهم حوله من خلال الاحساس بالأسلاف المشتركة صحيحة كانت أو مختلقة ، أو روابط الاعتماد المتبادل ، ويدعمها القبول المشترك بالدين ، وكان بامكان الحاكم الذى يتمتع بمجموعة قوية متماسكة من الأتباع أن يؤسس أسرة حاكمة ، وباستقرار حكمه تزدهر المدن وتكتظ بالسكان وتنمو وتتكون فيها الحرف المتخصصة وأنماط الحياة المرفهة والثقافة ، وقد

حملت كل أسرة حاكمة بداخلهـا بذور انهيارها ، فيمـكن أن يضعفها الطغيان أو الاسراف أو غياب مقومات الزعامة ، وقد تتحول السلطة الفعلية من الحاكم الى بعض أفراد جماعته ، ولكن عاجلا أو آجلا تخلف الأسرة أسرة أخرى تشكلت بنفس الطريقة ، وعندما يحدث ذلك لا يختفى الحاكم فقط وانما أيضا جماعة الناس الذين قام عليهم سلطانه وكذلك نمط الحياة الذى أوجده ، وكما يقول ابن خلدون : « عندما يكون هناك تغير عام فى الظروف فكأن الخلق كله قد تغير ، وتعدل العالم بكامله » (١) ، فاليونان والفرس وهما القوتان الأعظم في العالم في ذلك الوقت حل محلهما العرب الذين أوجدت قوتهم وتماسكهم أسرة حاكمة امتد سلطانها من الجزيرة العربية حتى أسبانيا ، والعرب بدورهم خلفهم البربر فى المغرب وأسبانيا والأتراك في المشرق (٢) .

وما جرى للحكام جرى أيضا للعاملين تحت امرتهم ، فعنـدما غادر ابن خلدون الى الاسكندرية كان على أعتاب مستقبل جديد ، فلم يذهب للحج آنذاك رغم أنه قام به فيما بعد ، لكنه انتقل الى القاهرة التى أذهلته كمدينة على مستوى مختلف ، عما شـاهده من المدن ، فكتب عنها أنها : حاضرة العالم وحديقة الدنيا وموقع التقاء الأمم والشعوب ومركز الاسلام ومكمن القوة (٣) ، وكانت القاهرة عاصمة للسلطة المملوكية ــ احدى أعظم الدول الاسلامية ــ فى ذلك الوقت وتشمل الشام الى جانب مصر . وتقدم للحاكم واكتسب ثقته ، فمنحه معاشا . وحصل فيما بعد على وظيفة مدرس فى بعض المدارس السلطانية عنـدها أرسـل فى طلب أسرته ، ولكنهم غرقوا جميعا خلال الرحلة البحرية من تونس .

وعاش ابن خلدون فى القاهرة حتى مماته ، وأنفق جل وقته فى الكتابة والقراءة ، ولكن نمط حياته المبكرة تكرر من تغير السلطة وفقدان الحظوة التى كان يلقى فيها اللوم على أعدائه ، ويحتمل أنه كانت لها أسباب كامنة فى شخصيته نفسها ، فقد اختاره الحاكم عدة مرات كقاض فى المحاكم الرئيسية ولكنه فقد المنصب أو تركه فى كل مرة ، ورافق السلطان الى الشام وزار الأماكن المقدسة وحيفـا ، وزارها مرة أخرى عنـدما كانت دمشق محاصرة بقوات « تيمور لنك » أحد كبار الغزاة الآسيويين الذين أسسوا امبراطورية تمتد من شمال الهند الى الشام والأناضول ، وكانت له حوارات مع « تيمور لنك » حيث رأى فيه مثالا لقوة الزعامة المبنية على قوة الجيش والشعب مما مكنـه من تأسيس أسرة حاكمة جـديدة ، ولم يستطع انقاذ دمشق من السلب والنهب ، ولكنه أمن لنفسه طريقا للعودة الى مصر ، وفى طريق عودته تعرض للسرقة فى تلال فلسطين .

كانت حيـــاة ابن خلدون كمـا يصفها معبرة عن العـــالم الذى ينتمى اليه ، عالم ملىء بعوامل الضـعف ، وأظهـر مساره الشخصى مدى عـــدم ثبـات المصـــالح والتحـالفات التى اعتمـــدت عليهـا الأسر الحاكمة فى الحفاظ على سلطتها ، وأوضح لقاؤه مع « تيمور لنك » خارج دمشق ، كيف يمكن أن يؤثر قيام قوة جديدة على حياة المدن والشعوب ، أما خارج المدن فقد كان الأمن مزعزعا ، فيمكن لمندوب الحاكم أن يتعرض للسلب والنهب ، ويمكن عند فقدان الحظوة ، أن يجد أحد جلساء أو ندماء الحاكم لنفسه ملجأ خارج حدود المناطق الحضرية ، وقد علمته وفاة الأبوين بالوباء والأسرة فى الحادثة البحرية درسا عن عجز الانسان حيال تصاريف القدر . شيء واحد كان مستقرا أو على الأقل كان يبدو كذلك ، وهو أن عالما تنتقـل فيه عائلة من جنوب الجزيرة العربية الى أسبانيا ثم تعود بعد ستة قرون الى مكان قريب من المنشـأ لتجد نفسـها فى محيط مألوف ، مثل هذه الأسرة كانت على حال من التوحد يسمو على انقسامات الزمان والمكان ، اذن يمكن للغة العربية أن تفتح الأبواب للمناصب والنفوذ فى أنحاء العالم ، وقد حافظ كم العلوم الذى انتقل عبر القرون خلال سلسلة معروفة من المعلمين على وحدة أخلاقية برغم تغير الحكام ، وظلت أماكن الحج : مكة والقدس قطبين لم يتبدلا فى العالم الانسانى ، وان انتقلت مراكز القوة من مدينة الى أخرى ، فالايمان بالله الذى خلق ونظم الكون يمكن أن يعطى معنى لضربات القدر .

الجـزء الأول

عالـم يتشـكل

بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين

فى بدايات القرن السابع للميلاد ظهرت حركة دينية على حدود الامبراطوريتين الكبريين : البيزنطية والساسانية اللتين حكمتا النصف الغربى من العالم ، ففى مكة ، وهى مدينة فى غرب الجزيرة العربية ، بدأ النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوة الرجال والنساء الى اصلاح أخلاقى ، والخضوع لارادة الله ، كما عبر عنها فيما تقبله هو ومن اتبعوه ، الوحى السماوى الذى أبلغ اليه ، والذى احتواه فيما بعد كتاب هو القرآن الكريم (*) ، وباسم هذا الدين الجديد « الاسلام » قهرت الجيوش المؤلفة من سكان الجزيرة العربية الدول والبلدان المحيطة وأسست امبراطورية جديدة . وتوسعت الخلافة التى شملت معظم مناطق الامبراطورية البيزنطية ، وكل الامبراطورية الساسانية وامتد الاسلام ليشمل المناطق من آسيا الوسطى حتى أسبانيا ، وقد انتقل مركز القوة من الجزيرة العربية الى دمشق فى الشام فى ظل الخلفاء الأمويين ، وبعدها الى بغداد بالعراق فى ظل العباسيين .

وبحلول القرن العاشر للميلاد بدأت الخلافة فى التمزق ، وظهرت (خلافتان) متنافستان فى مصر وأسبانيا ، وان استمرت الوحدة الثقافية التى نمت بداخلهما ، وأصبح قسم كبير من السكان مسلمين رغم بقاء الجاليات اليهودية والمسيحية وجاليات أخرى ، وانتشرت اللغة العربية

(*) المقصود كما لا يخفى على فطنة القارىء أنه جمع فى (مصحف) أو (امام) كما كان يطلق عليه فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فالقرآن الكريم لم يظهر (فيما بعد) وانما نزل منجما أى متفرقا وفقا للحوادث أو رغبة فى استيعابه جزءا جزءا أو اية آية . ومن المعروف تاريخيا أن القرآن الكريم بدأ ينزل مع بداية نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت أول آية هى « اقرأ » ... فالمقصود اذن هو جمع القرآن فى مصحف متفق عليه - وهذا حقيقة تم (فيما بعد) أى فى عهد عثمان رضى الله عنه - (المراجع) .

واصبحت وسيلة التعبير عن ثقافة تضمنت عناصر من تراث الشعوب التى انضمت للعالم الاسلامى ، وعبرت عن نفسها فى الآداب والنظم القانونية والدينية والروحية ، ثم تطورت المجتمعات الاسلامية فى بيئات طبيعية مختلفة من خلال مؤسسات مميزة ، أوجدت روابط بين دول حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندى فى نظام تجارى واحد ، وجلبت تغييرات فى الزراعة والحرف ، ووفرت أسس نمو المدن الكبرى فى مدنية حضرية تجلت فى المبانى ذات الطابع الاسلامى المميز .

الفصل الأول

قوة جديدة فى عالم قديم

عالم ما قبل الاسلام

لابد وأن عالم ابن خلدون بدا لكل من عاصره ، كما لو كان أزليا ، ولكن ابن خلدون نفسه كان يعرف أنه عالم حل محل عالم آخر سابق عليه • فقبل زمن ابن خلدون بسبعة قرون كان للبلدان التى عرفها وجه مختلف فى ظل تبادل سيطرة القوتين العظميين عليها •

لقد ظلت دول حوض البحر المتوسط لعدة قرون جزءا من الامبراطورية الرومانية ، وريفا مستقرا ، ينتج الحنطة والفواكه والنبيذ والزيوت ، وكانت للتجارة طرق مأمونة فى المدن الكبيرة ، وعبر مسارات بحرية آمنة ، وكانت هناك طبقة موسرة ذات أصول متعددة أسهمت فى الثقافة اليونانية اللاتينية للامبراطورية ، ومنذ القرن الرابع من الحقبة المسيحية انتقل مركز القوة الامبراطورى شرقا ، فحلت القسطنطينية محل روما كعاصمة حيث الامبراطور بؤرة الولاء ورمز التماسك ، وفيما بعد ظهر ما سمى « بالانقسام الأفقى » الذى استمر موجودا بشكل أو بآخر حتى وقتنا الحاضر ، وحكم ملوك برابرة فى ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا وشمال ايطاليا ، ورغم ذلك ظل الاحساس بالانتماء للامبراطور الرومانى موجودا ، بينما ظل جنوب ايطاليا وصقلية وساحل أفريقيا الشمالى ومصر وسوريا والأناضول واليونان كلها تحت حكم امبراطورى مباشر من القسطنطينية ، وفى هذا الوضع المنكمش كانت الامبراطورية يونانية أكثر منها رومانية ، وفى مراحلها اللاحقة شاعت تسميتها (بالبيزنطية) أكثر من انتسابها الى الرومانية وذلك نسبة الى الاسم السابق للقسطنطينية وهو (بيزنطة) ، وقد حكم الامبراطور المدن الكبرى فى شرق البحر المتوسط : أنطاكية فى سوريا ، والاسكندرية فى مصر ، وأصبحت تلك المدن مراكز للثقافة والحضارة اليونانية أمدت الامبراطورية بأعضاء من الصفوة المحلية للعمل فى مجال الخدمات الامبراطورية •

وحدث تطور آخر أكثر عمقا ، فقد أصبحت الامبراطورية مسيحية ، ليس فقط بمرسوم رسمي من الحاكم ، لكن بفضل تغير العقيدة في مستويات اجتماعية مختلفة ، وأصبحت غالبية السكان من المسيحيين رغم أن فلاسفة الوثنية ظلوا يدرسون في مدرسة أثينا حتى القرن السادس ، وعاشت الطوائف اليهودية في المدن ، الا أن ذكريات آلهة الوثنية ظلت تحوم في المعابد التي تحولت الى كنائس ، وقد أعطت المسيحية بعدا جديدا للاخلاص والولاء للامبراطور ، وظهر اطار جديد من الوحدة للثقافات المحلية للخاضعين له ، ووجدت الأفكار والصور المسيحية تعبيرا عنها في اللغات الأدبية المحلية للمناطق المختلفة من الامبراطورية الى جانب اليونانية في تلك المدن : الآرامية في شرق الأناضول والسريانية في سوريا والقبطية في مصر ، وكان من الممكن أن تحتفظ مقابر القديسين ومزارات الحج بالمعتقدات والممارسات القديمة للمنطقة ، وان كان ذلك في اطار مسيحي ·

وقد اختفت مؤسسات الادارة الذاتية للمدن اليونانية مع توسع البيروقراطية الامبراطورية ، ولكن كان من الممكن أن يقوم الأساقفة بدور الزعامات المحلية · وعندما كان الامبراطور يغادر روما كان في وسع مطران المدينة والبابا ممارسة السلطة بطريقة تستحيل على المطارنة والفساوسة في المدن الرومانية الشرقية ، الذين كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالحكومة الامبراطورية ، ولكنهم مع ذلك كانوا يستطيعون التعبير عن مشاعر السكان والدفاع عن مصالحهم المحلية ، كذلك كان الناسك أو القديس صاحب الكرامات يعيش على أطراف المدينة أو في الأراضي المأهولة في الأناضول أو سوريا ، وكان بامكانه التحكيم في منازعات السكان المحليين والنطق باسمهم ، كما كان الراهب في الصحارى المصرية نموذجا لمجتمع مختلف عن ذلك العالم الحضري · والى جوار الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية ظهرت كنائس أخرى اختلفت عنها في المذاهب والشعائر ، وكانت بمثابة تعبير من غير الناطقين باليونانية عن اعتراضهم على السلطة أو ولائهم لها ·

وكانت الاختلافات المذهبية الأساسية تتعلق بطبيعة المسيح ، حيث كان مجمع خلقدونية في عام ٤٥١ م قد عرف الأقنوم الثاني في الثالوث المقدس بأن له طبيعتين : قدسية وأخرى بشرية وهي الصيغة التي قبلتها المؤسسة الرئيسية للكنيسة سواء في الشرق أو الغرب ، كما كانت تدعمها الحكومة الامبراطورية ، ولكن حدثت فيما بعد وبالتدريج انقسامات حول قضية السلطة بين الكنيسة في المناطق البيزنطية هي : الكنيسة

الأرثوذكسية الشرقيـة ، وبطاركتها على رأس الكهنـوت ، وبين تلك الكنائس فى غـــرب أوروبا التى ارتضـت السلطة للبـــابا فى روما ، وكانت هنـاك بعض الطوائف التى تعتقـد بأن للمسيح طبيعـــة واحدة مؤلفة من عنصرين وهـو ما عـــرف بمذهب الطبيعـــة الواحـدة الذى اعتنقته الكنيسة الأرمنية فى الأناضـول ، وكذلك معظم المسيحيين من المصريين (الذين يعرفون بالأقباط نسبة للاسم القديم لمصر) ، والكثير من مسيحيى سوريا من متحدثى السريانية ـ ويعرفون بالسوريين الأرثوذوكس أو اليعاقبة نسبة لأبرز علماء اللاهوت لديهم ٠ كما أن هناك آخرين فصلوا فصلا حادا بين الطبيعتين وذلك لتأكيد الطبيعة البشرية الكاملة للمسيح ، واعتقدوا أن كلمة الله تسكن المسيح الانسان منذ حملت به أمه ، وكان ذلك هو مذهب أولئك الذين عرفوا بالنسطوريين نسبة الى المفكر الذى ارتبط بهذا ، وكانت لكنيستهم أهمية كبرى بين المسيحيين فى العراق فيما وراء الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية ، وفى القرن السابع ظهرت جماعة أخرى كنتيجة لمحاولة التوفيق بين الأرثوذوكس وأتبـاع مذهب الطبيعة الواحدة ، وفى رأى هذه الجماعة أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة فقط ٠

والى الشرق من الامبراطورية البيزنطية وعبر نهر الفرات كانت هناك امبراطورية عظيمة أخرى هى الامبراطورية الساسانية ، التى امتد حكمها ليشمل ما يعرف الآن باسم ايران أو بلاد فارس فكانت تضم مجموعة من المناطق المتحضرة ومدنا قديمة تسكنها مجموعات عرقية مختلفة يفصلها عن بعضها البعض وديان أو سهوب ، وليست بها أنهار كبيرة توفر اتصالات سهلة ، ومن حين لآخر كانت تحكمها أسر حاكمة قوية مستقرة كان آخرها الساســانيون الذين كانت قوتهم الأصـلية تكمن فى الشعوب النـاطقة بالفارسية فى جنوب ايران ، وكانت تلك أسرة حاكمة تحكم من خلال هيكل من المسئولين الذين حاولوا توفير أسس ثابتة قوية من الوحدة والولاء باحياء الدين القديم لايران والمرتبط تقليديا بالمعلم (زرادشت) ، وبالنسبة لهذا الدين فان العالم هو ساحة قتال ـ تحت مظلة الاله الأعلى ـ بين الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة حيث ينتصر الخير فى النهاية ولكن الرجال والنساء من ذوى الفضيلة والطهر فى العبادة يمكن أن يعجلوا بالنصر لقوى الخير ٠

بعد أن فتح الاسـكندر الأكبر ايران فى ٣٣٣ ـ ٣٣٦ قبل الميلاد وربطها بأواصر أقوى مع عالم شرق البحر المتوسط ـ اتجهت أفكار من اليونان شرقا بينما اتجهت أفكار (مانى) غربا ، وهو معلم من العراق حاول ضـم وتوحيد كل الأنبياء والمعلمين فى نظـــام دينى واحد عـرف

بالمانوية (*) • وتحت حكم الساسانيين ، جرى احياء التعاليم المرتبطة بزرادشت فى شكل فلسفى مع مزيد من التركيز على ثنائية الخير والشر وصار لها كهنوت وأصبحت عبادة رسمية تعرف باسم المازدية أو الزرادشتية • وساندت المازدية، باعتبارها دينا رسميا للدولة، سلطة الحاكم الذى كان ينظر اليه كملك عادل يحافظ على الانسجام بين طبقات المجتمع المختلفة (**) •

ولم تكن عاصمة الساسانيين واقعة فى هضبة ايران وانما كانت فى المدائن Ctesiphon (***) فى المنطقة الخصبة المزدحمة بالسكان فى وسط العراق التى يرويها نهرا دجلة والفرات، والى جانب الزرادشتيين والمانويين كان بالعراق مسيحيون من أتباع الكنيسة النسطوريه وكان لهم اهميتهم فى خدمة الدولة ، وكانت هذه المنطقة أيضا هى المركز الرئيسى للتعليم الدينى اليهودى وملجأ للفلاسفة الوثنيين وعلماء الطب من المدن اليونانية • وفى شرق البحر المتوسط انتشرت أشكال مختلفة من اللغة الفارسية عرف المكتوب منها ذاك الوقت بالبهلوية ، كما انتشرت أيضا الآرامية ، وهى احدى اللغات السامية ذات الصلة باللغتين العربية والعبرية، وشاع فى الشرق الأوسط فى الوقت نفسه أحد فروعها الذى عرف بالسريانية •

(★) المانوية احد فروع الديانات الثنوية نسبة الى الاثنين الأزليين : النور والظلمة ، وقد ظهر مانى بن فاتك فى زمن سابور بن أردشير ، ويقول الشهرستانى فى كتابه المعروف (الملل والنحل) انه حاول التوفيق بين المجوسية والمسيحية • الملل والنحل ، ج ۱ ، صص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ـ (المراجع) •

(★★) الزرادشتية احد فروع المجوسية ، وهى نسبة الى زرادشت (توفى سنة ٥٥١ ق٠م) ، وسميت الزرادشتية بالمازدية أو الأورمزدية نسبة الى أورمزد وهو الاله أو المعبود عند زرادشت ، ويقال ان الزرادشتية كانت فى بدايتها من أديان التوحيد • الملل والنحل للشهرستانى • ج ۱ ، صص ۲۳۸ ـ ۲۳۹ • ويرى آرثر كريستنسون فى كتابه ايران فى عهد الساسانيين أن الزرادشتية ما هى الا تطوير للديانة المزدية التى أسسها الحكيم الايرانى مزدا ، لذا سميت الزرادشتية بالمازدية ، ص ١٩ ـ (المراجع) •

(★★★) وهى طيسفون Ctesiphon أو المدائن • والواقع أنها لم تكن عاصمة للدولة الساسانية منذ بدايتها اذ كانت اصطخر هى العاصمة ، ثم نقلت العاصمة بعد ذلك (بعد القرن الثالث للميلاد) الى طيسفون • يقول كريستنسون فى كتابه الشهير عن ايران فى عهد الساسانيين : « •• ولكن أقليم فارس وعاصمته اصطخر لم يعودا صالحين لاقامة الشاهنشاه ، فقد صارت بلاد ما بين النهرين المركز الرئيسى للامبراطورية الشرقية تبعا لضرورات التطور التاريخى ، وانتقل دور بابل التاريخى الى سلوقية ـ طيسفون •• التى كانت خارج الأراضى الايرانية بالمعنى الحقيقى ••• » ص ۸۲ وما بعدها ـ (المراجع) •

وقد شملت الامبراطوريتان المناطق الرئيسية للحياة المستقرة والثقافة الرفيعة فى النصف الغربى من العالم · ولكن الى الجنوب ، وعلى جانبى البحر الأحمر كان هناك مجتمعان آخران لهما تراث من السلطة المنظمة وثقافة دعمتها الزراعة وكذا التجارة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط · الأولى كانت أثيوبيا وهى مملكة قديمة ديانتها الرسمية المسيحية فى صورتها القبطية ، والأخرى كانت اليمن فى جنوب غرب الجزيرة العربية وهى : أراض من وديان الجبال الخصبة ، ونقطة التقاء للتجارة بعيدة المدى · وفى مرحلة معينة اتحدت دويلاتها الصغيرة المحلية فى مملكة كبيرة تعرضت للضعف عندما كسدت التجارة فى بدايات الحقبة المسيحية ، ولكنها عادت للازدهار فيما بعد ·

وكانت لليمن لغتها الخاصة المختلفة عن العربية المنتشرة فى بقية الجزيرة ، كما كانت لها ديانتها الخاصة المرتكزة على عدة آلهة يقوم على خدمتها كهان فى معابد ، كانت مزارات للوفاء بالنذور وتقديم القرابين والصلوات الخاصة غير الجماعية ، كما كانت مراكز للضياع الشاسعة ·· ولعدة قرون تالية انتقلت التأثيرات المسيحية واليهودية من سوريا خلال طرق التجارة أو عبر البحر من أثيوبيا الى اليمن · وفى القرن السادس دمر أحد الملوك الذى كان يميل الى اليهودية أحد المراكز المسيحية ، ولكن الغزوات الأثيوبية استعادت بعضا من النفوذ المسيحى ، وقد شاركت الامبراطوريتان البيزنطية والساسانية فى هذه الأحداث ·

وفيما بين الامبراطوريات الكبرى فى الشمال ، وممالك البحر الأحمر — كانت هناك أرض من نوع مختلف ، فكان الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية سهوبا وصحارى مع واحات معزولة بها ماء كاف للزراعة المنتظمة ، وكان سكانها يتحدثون لهجات محلية مختلفة ولهم أنماط معيشة مختلفة وبعضهم كان من البدو الرحل من رعاة الابل والأغنام والماعز اعتمادا على مصادر المياه المتواضعة فى الصحراء وهم من عرفوا تقليديا بالبدو · أما البعض الآخر فكانوا مزارعين مستقرين قائمين على زراعة القمح وأشجار النخيل فى الواحات أو تجارا وحرفيين فى مدن الأسواق الصغيرة ، فى حين جمع بعضهم بين أكثر من مهنة من هذه المهن ، أما التوازن بين الشعوب الرحل والشعوب المستقرة فكان مزعزعا ، فرغم أن الرعاة الرحل كانوا أقلية بين السكان الا أنهم كانوا يتحركون مسلحين ، وقد سيطروا هم وجماعات التجار فى المدن على المزارعين الحرفيين ، كانت خصالهم السائدة هى الشجاعة والكرم والانتماء والولاء للقبيلة والفخر بالأنساب والأسلاف ولم يكونوا محكومين بسلطة مهيمنة مستقرة أو ثابتة ، ولكن يقودهم زعماء

من القبائل التى تجمعت حولها جماعات من الأنصار يعبرون عن تماسكهم واخلاصهم بلهجة أو لغة الأسلاف ٠

وقد مارس زعماء القبائل سلطتهم من الواحات حيث كانت لهم روابط وثيقة بالتجار الذين نظموا التجارة خلال المناطق التى سيطرت عليها القبيلة ، وفى الواحات كان بامكان العائلات الأخرى فرض سيطرتها بشكل مختلف من خلال قوة الدين ، ولم يكن لديانات الرعاة أو المزارعين شكل واضح، فالآلهة المحلية التى كانت تعرف بكواكب من السماء كان من المعتقد أنها تتجسد في الأحجار والأشجار والأشياء الطبيعية الأخرى ، وكان من المعتقد أيضا أن أرواح الخير والشر تهيم فى العالم على صورة حيوانات ، وادعى العرافون أنهم يتحدثون بلسان حكمة ما وراء الطبيعة ، وعلى أسس الممارسات الحديثة فى جنوب الجزيرة كان من المعتقد أن الآلهة تسكن قدسا أو محرابا (حرما) وهو مكان أو بلدة تحرم فيها الصراعات القبلية وتعتبر مزارا لتقديم القرابين وملتقى للتحكيم تشرف عليه عائلة تحت حماية من القبيلة المجاورة (١) ويمكن لهذه العائلة أن تكتسب سلطة أو قوة بالاستغلال الذكى لسمعتها الدينية ودورها كمحكم فى المنازعات القبلية وكذلك فرص التجارة ٠

وقد تغير الكثير فى عالم الشرق الأدنى هذا خلال القرن السادس وبدايات القرن السابع،حين انشغلت الامبراطوريتان البيزنطية والساسانية فى حروب طويلة دامت مع بعض التوقفات من ٥٤٠ الى ٦٩٢م وجرت المعارك أساسا فى الشام والعراق ، وفى مرحلة معينة وصلت الجيوش الساسانية الى حوض البحر المتوسط بعد احتلالها للمدن الكبرى انطاكية والاسكندرية ومدينة القدس المقدسة ، ولكن فى العشرينات من القرن السابع تقهقرت هذه الجيوش أمام الامبراطور هرقل ، وفى مرحلة أخرى امتد حكم الدولة الساسانية ليشمل جنوب غرب الجزيرة العربية حيث فقدت مملكة اليمن الكثير من قوتها السابقة بفعل الغزو الأثيوبى وتدهور الزراعة ، أما المجتمعات المستقرة تحت الحكم الامبراطورى فكانت تزخر بالأسئلة حول معنى الحياة وكيف يجب أن تعاش كما عبرت عنها لغات الديانات الكبرى٠

وقد مست قوى ونفوذ هذه الامبراطوريات أجزاء من شبه الجزيرة العربية ، ولقرون طويلة كان الرعاة الرحل العرب من شمال وأواسط شبه الجزيرة يتحركون فى المنطقة التى تسمى الآن بالهلال الخصيب وهو : الجزء الداخلى من سوريا ، والأرض الواقعة غرب الفرات فى جنوب العراق ، والمنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة فى شمال العراق (الجزيرة) وكان

أغلبهم من العرب الذين جلبوا معهم خصالهم وأخلاقياتهم وأنماطهم فى التنظيم الاجتماعى • ومارس بعض زعماء القبائل منهم الزعامة من مدن فى الواحات واستخدمتهم الحكومات الامبراطورية لابعاد البدو الرحل الآخرين عن الأراضى المستقرة وفى جباية الضرائب ، لذلك كانوا قادرين على تكوين وحدات سياسية أكثر استقرارا كتلك التى أقامها المناذرة (*) وعاصمتها (الحيرة) فى منطقة لم يكن للساسانيين فيها تأثير مباشر ، كذلك الغساسنة فى منطقة مماثلة من الامبراطورية البيزنطية • وقد اكتسبت شعوب هذه الدول المعرفة السياسية والعسكرية وكانوا منفتحين على الأفكار والمعتقدات السائدة فى الأراضى الامبراطورية ، فقد كانت الحيرة مركزا مسيحيا • وقد دخلت الجزيرة العربية بعض المعارف عن العالم الخارجى وثقافته عن طريق هذه الدول ، ومن اليمن ، وأيضا بعبور التجارة ، ومن خلال المسارات التجارية ، وكذلك بعض من وفد للاستقرار بالجزيرة ومنهم: الحرفيون اليهود والتجار والزراع فى واحات الحجاز فى غرب الجزيرة العربية ، والرهبان المسيحيون والحنفاء فى أواسط الجزيرة •

لغـــة الشـــعر

يبدو أنه كان هناك احساس متنام بالهوية الثقافية بين الرعاة من رجال القبائل تجلى فى ظهور لغة شعرية مشتركة من اللهجات العربية ، وكانت لغة رسمية تميزت بالتهذيب فى القواعد والمفردات والتى تطورت تدريجيا ربما من خلال بلورة احدى هذه اللهجات المحلية وربما بتجميع العديد منها ، وقد عبر بها شعراء من مختلف القبائل أو من مدن الواحات، وقد يكون شعرهم قد تطور من استعمال الايقاع المتصاعد للغة التعاويذ المسجوعة المقفاة ، والرقيات السحرية ، لكن ما وصلنا منه ليس بدائيا بأى شكل ، فهو نتاج طويل من أحاديث منقولة وتقاليد متراكمة أثرت فيها الاجتماعيات القبلية وأسواق المدن ، وأيضا قصور الأسر الحاكمة العربية على حدود الامبراطوريات الكبرى مثل : الحيرة على نهر الفرات بوجه خاص ، لما كانت عليه من انفتاح أمام التأثيرات المسيحية والمازدية •

وكانت المصطلحات الشعرية التى برزت من خلال هذه التقاليد محكمة الصنعة ، وكان أرقى هذه الأشكال القصيدة وهى : مقطوعة شعرية تصل الى مائة بيت ، منظومة من أحد بحور الشعر المتعارف عليها ، وكل بيت ينقسم الى شطرين وينتظم الشطر الثانى فى قافية موحدة على طول القصيدة •• واجمالا كان البيت وحدة المعنى •••• ونادرا ما كان المعنى

(*) أو اللخميون Lakhmids (المراجع) •

يمتد من بيت الى بيت يليه ، ولكن ذلك لم يمنع استمرارية الفكرة ، أو الاحساس من بيت لآخر على مدى القصيدة ٠

ولم يكن الشعر مكتوبا رغم أن ذلك كان ممكنا ، لأن الكتابة كانت معروفة فى شبه الجزيرة ، فالمخطوطات بلغات جنوب الجزيرة تعود الى عدة قرون سابقة وأول المخطوطات العربية مستند باللغة الآرامية يعود الى القرن الرابع ، وبعدها تطور الخط العربى ، فالى جانب النقوش كانت الكتابة معروفة ومستخدمة فى تجارة البلاد البعيدة ، وكان الشعر مؤلفا ويلقى على الجماهير اما بواسطة الشاعر نفسه أو الراوى أو القارىء ، وكان ذلك يعنى : نقل الاحساس فى بيت واحد يمكن من خلاله للمستمعين أن يستوعبوا المعنى ، وكان كل أداء مختلفا ومتفردا عن الآخرين،وكان للشاعر أو الراوى مجال للارتجال فى اطار من الأنساق المتعارف عليها واستخدام كلمات معينة أو تركيبات منها للتعبير عن أفكار أو مشاعر محددة ، لهذا قد لا يكون هناك نص واحد أصلى للقصيدة الواحدة ، وعندما وصلتنا فان النصوص قد وضعها فيما بعد علماء اللغة أو نقاد الأدب فى ضوء المعايير والنماذج والقواعد اللغوية أو الشعرية السائدة فى وقتهم ، وخلال ذلك قد يدخلون بعض العناصر الجديدة للقصائد مع تغيير اللغة لتلائم أفكارهم حول ما هو صحيح ، حتى انهم قد يذهبون الى تشكيل قصائد بتجميع قطع صغيرة الى بعضها البعض ، وفى العشرينات من القرن الحالى بنى عالمان انجليزى ومصرى على أساس هذه الحقائق الثابتة نظرية بأن القصائد نفسها كانت نتاجا لفترة لاحقة لكن معظم من تصدوا بالدراسة لهذا الموضوع يتفقون الآن على أنه من حيث الجوهر فان هذه القصائد هى من نفس العصر الذى نسبت اليه (*) ٠

وقد كان من الشائع بين الدارسين والنقاد فى الفترات المتأخرة أن يشار الى قصائد محددة من بين هذا الكم الذى عاش مع الزمن كنماذج كاملة رفيعة للشعر العربى القديم وهى التى عرفت فيما بعد (بالمعلقات) ، وهو اسم مبهم المصدر والمعنى ، والشعراء الذين كتبوها : لبيد ، الزهير ، القيس وبعض شعراء آخرين يعتبرون من أساتذة هذا الفن ، وكان من المعتاد أن يطلق على شعر ذلك العصر « ديوان العرب » وهو سجل لأعمالهم أو تعبير عن الذاكرة الجمعية ، ولكن البصمة الشخصية الفردية للشاعر ظلت باقية ٠

(*) يشير المؤلف هنا الى قضية وضع الشعر الجاهلى أو انتحاله ، والمصرى المشار اليه هنا هو الدكتور طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) وقد استقر الباحثون الآن على ان وضع بيت او بيتين أو قصيدة أو قصيدتين لا يعنى أن كل الشعر الجاهلى منحول وهو تقريبا ما ذكره المؤلف ـ (المراجع) ٠

وفيما بعد اعتاد الدارسون والنقـاد التفريق بين ثلاثة عناصر فى القصيدة ، وكان ذلك لاعطاء الشكل أو الصيغة لممارسات كانت فضفاضة ومتنوعة وغير محددة ، وكانت القصيدة تبدأ باثارة ذكريات عن الأماكن التى كان بها الشاعر ومن الممكن أن تكون ذكريات حب ضائع ، ولم يكن التعبير جنسيا أو حسيا ولكن يهدف الى التذكير بأن الحياة البشرية عابرة :

فتصف القصيدة الأطلال المهجورة التى توقف فيها الركب فى منى والغيل والريحان ، ومجرى نهر الريان الذى نحرته السيول فبات عاريا أملس ، كما لو كان كتابة على حجر ، وكادت تنمحى آثار من سبق لطول العهد عليها منذ أن سقتهم ينابيع تفيض من الكواكب ، وغذتهم أمطار تهطل من بروق السحب ، سحب الليل التى تكسو سماء الصبح ، وسحب النهار التى تتجاوب بالرعود (٢) ٠

بعدها قد تكون هناك رحلة على ظهر البعير وفيها يتحدث الشاعر عن الجمل والريف وصيد الحيوانات ويتعرض ضمنا لاستعادته لقوته وثقته بنفسه حيال قوى الطبيعة ، ثم تبلغ القصيدة ذروتها عندما يمدح الشاعر قبيلته :

فتتحدث القصيدة عن بيت شامخ العلو ، يحاول الكبير والصغير أن يرتفع الى سمته ، يدرأون الخطوب عن القبيلة ، فهم فرسانها وحكامها الذين يفيض نبعهم على طالبه ، يواسون الأرامل اللائى طالت بهن سنوات الحداد ، انها قبيلة لا ينال منها الحسد ، وليس فيها من يزدريه عدو (٣) ٠

وتبدو ، بالرغم من ذلك الفخر والمديح ، نغمة يتغنى فيهـا الشاعر بقصور قوى الانسان عن مواجهة قوى الطبيعة اللانهائية ٠

فيصف الشاعر سأمه من هموم الحياة بعد أن جاوز الثمانين (*) ، ويعلم ما يحدث اليوم وما مضى بالأمس ، ولكنه لا يعلم ما يأتى به الغد ، بعد أن عاصر المنايا التى تدهس كالبعير مصائر الناس ، فيموت من تناله ويطعن فى السن من ينجو منها (٤) ٠

(★) اشارة الى قول زهير بن أبى سلمى :

سئمت تكاليـف الحيـاة ومن يعش ... ثمانين حـولا ـ لا أبا لك ـ يسـأم

واعلم ما فى اليـوم والأمس قبـله ... ولكننى عن علـم ما فى غـد عم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمتـه ومن تخطىء يعمر فيهـرم

(المواجع)

محمد صلى الله عليه وسلم وظهور الاسلام

في بدايات القرن السابع كانت هناك تركيبة من عالم مستقر ولكنه فاقد لبعض من قوته وثقته بذاته ، وعالم آخر على حدوده أقرب اتصالا بجيرانه في الشمال ومنفتح على ثقافاتهم ، وكان اللقاء الفاصل بينهما في منتصف ذلك القرن حين تخلق نظام سياسي جديد شمل كل شبه الجزيرة العربية ، وكل أراضي الساسانيين والأقاليم المصرية والسورية من الامبراطورية البيزنطية ، بحيث اختفت الحدود القديمة ووضعت حدود جديدة ، وفي هذا العالم الجديد لم تكن المجموعة الحاكمة من شعوب هاتين الامبراطوريتين وانما من العرب من غرب شبه الجزيرة العربية ، وعلى وجه الخصوص من مكة ٠

وقبل نهاية القرن السابع كانت هذه الجماعة العربية الحاكمة تضع نظامها الجديد من خلال هدى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، **وهو مواطن من مكة ــ في شكل كتاب مقدس هو القرآن** (*) ، وهو الوحي الذي أكمل رسالات الأنبياء والرسل ، ووضع دينا جديدا هو الاسلام منفصلا عن اليهودية والمسيحية (**) ، وهناك مجال للمناقشات العلمية حول كيفية تطور هذه المعتقدات ، والمصادر العربية التي تقص سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وتكون المجتمع من حوله في فترة لاحقة ٠ وأول كتاب سيرة معروف لم يكتب الا بعد قرن ونيف من وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمصادر المكتوبة بلغات أخرى تشيد بالامبراطورية التي سادها العرب ، ولكن ما تقوله عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم مختلف عما يقوله التراث الاسلامي ، مما يحتاج الى المزيد من الدراسة والمناقشة ، ومن ناحية أخرى ، فليس هناك ما يدعو للشك **بأن القرآن هو اساسا وثيقة من الجزيرة العربية في القرن السابع رغم انها قد تكون قد احتاجت بعض الوقت لتاخذ شكلها الأدبي المحدد** (***) ، والأكثر من ذلك ، فثمة عناصر

(*) ذكرنا في حاشية سابقة أن القرآن الكريم لم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة ــ (المراجع) ٠

(**) لم ينفصل الاسلام أبدا عن الديانات السابقة ، وانما تشير آيات القرآن الكريم الى أن الاسلام مجرد تصويب لبعض ما ورد في الديانات السابقة ٠

(المراجع) ٠

(***) هذا خطأ تاريخي فادح وقع فيه المؤلف ، فالنص القرآني كان محفوظا ومكتوبا في عهد الرسول ، وقام ابو بكر بجمعه في مكان واحد ، وقام عثمان ــ الذي اتسعت الفتوح في عهده ــ باعداد نسخ منه أرسل الى كل مصر نسخة عرفت بالامام أو مصحف عثمان ، ولم يحدث تغيير في النص القرآني أو تعديل لأسلوبه ، وكل ما في =

من السير التقليدية والتاريخية يرجح أنها ليست مختلقة ، وبلا شك ، فان هذه الكتابات تعكس محاولات لاحقة لتصوير محمد صلى الله عليه وسلم على النسق الشرق أوسطى للرجل الصالح المقدس ، وعلى النسق العربى للرجل نبيل المنبت والمحتد ، وتعكس أيضا الخلافات المذهبية لذلك العصر والمكان والزمان اللذين وجدت فيهما ، أى العراق فى القرن الثامن ، وأنها تحوى بلا شك حقائق عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم وعائلته وصحابته التى لا يمكن أن تكون مختلقة ، ولذلك يحسن الأخذ بتلك الوقائع التاريخية عن منشأ الاسلام وان يكن بتحفظ ، وفى ذلك ميزة حيث انه اذا كان وصف وذكر تلك الوقائع ونصها قد بقيت فى القرآن بلا تغيرات تذكر ، فى عقول وتصورات المؤمنين بديانة الاسلام فان تصديقها واتباعها يجعل من الممكن تفهم نظرتهم للتاريخ وما يجب أن تكون عليه حياة البشر .

وقد كان أكثر جوانب حياة محمد صلى الله عليه وسلم غموضا وابهاما، كما يقص كتاب السيرة ، هو الجزء المبكر منها ، اذ يقولون لنا بأنه ولد فى مكة ، وهى بلدة فى غرب الجزيرة فيما يعتقد أنه فى عام ٥٧٠ تقريبا ، وتنتمى عائلته لقبيلة قريش ، وان لم تكن من أكثر أفخاذها قوة ، كان وجهاء القبيلة من التجار الذين لهم تحالفات مع القبائل الرعوية حول مكة ، ويقال أيضا ان لهم روابط بالشام وجنوب غرب الجزيرة ، كما يقال ان لهم صلة بمعبد البلدة (الكعبة) حيث كانوا يحتفظون بصور آلهتهم المحلية ، وقد تزوج محمد صلى الله عليه وسلم خديجة وهى أرملة تمارس

= الأمر أن الرسول عليه الصلاة والسلام رخص بقراءة القرآن الكريم بلهجات القبائل وهو أحد تفسيرات حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها » فحتى هذه القراءات لم تظهر فى وقت متأخر وانما كانت منذ البداية ، أما ما قيل وما يقال عن حذف بعض آيات القرآن الكريم ، أو وجود آيات أو سورة أخرى لم تصلنا فيما يعرف بمصحف فاطمة ، فان هذه أقوال لم يقم عليها دليل ، والأهم من كل هذا ان أحدا لم يذكر لنا آية واحدة من هذه الآيات المحذوفة سواء أكان من الشيعة أم السنة . ولأننا فى مجال التعليق على مبحث تاريخى فى المقام الأول فمن الأهمية بمكان أن نشير الى أن الكتاب الأوربيين الذين اطلعنا على كتاباتهم لم يشيروا لشىء كهذا ، فلم يشر اليه آرثر جفرى فى كتابه :

Materials for the history of the text of the Quran. Leiden, 1937.

ومن خلال الكتابات العربية التى عرضت كتاب نولدكه عن تاريخ القرآن Geschichte des Quran, 1961. وطبعته الأولى ١٨٦٠ ، ولم نقرأ هذا الكتاب وانما قرأنا عرضا لأفكاره لأكثر من مؤلف (على سبيل المثال : د. عبد الصبور شاهين فى كتابه تاريخ القرآن ، ص ١٠٠) – (المراجع) .

التجارة ، وتـولى ادارة أعمالها نيابة عنها ، وتشمل الحكايات القصص المختلفة التى سجلها أولئك الذين كتبوا حياته فيما بعد ، وتصور عالما ينتظر هاديا ، ورجلا يبحث عن رسالة ، باحثا عن الله يعبر عن رغبته فى أن يتعلم « الهى لو كنت أعلم كيف ترى أن تعبد لعبدتك • ولكننى لا أعلم » ، وقد تكهن الأحبار اليهود والرهبان المسيحيون والكهنة والعرافون العرب جميعا بمجىء نبى كما أن أحد الرهبان المسيحيين الذين قابلهم محمد صلى الله عليه وسلم خلال رحلة تجارية الى جنوب الشام نظر الى ظهره ورأى خاتم النبوة بين كتفيه ، وكانت الأشياء فى الطبيعة تحييه وما من حجر أو شىء الا وحياه قائلا « عليك السلام يا رسول الله » (*) •

ثم انه أصبح هائما وحيدا بين الجبال ، وفى يوم عندما كان عمره قرابة الأربعين عاما حـدث شىء ما : اتصـال مع قوى ما وراء الطبيعـة فيما عرفته الأجيال اللاحقة بليلة القدر ، وفى احدى الروايات أن ملاكا على هيئة رجل فى الأفق دعاه ليكون رسول الله ، فى رواية أخرى سمع صوت الملك يدعوه للقراءة فسأل : « ماذا أقرأ ؟ » وأجاب الصوت :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم) •

عندها حدث شىء عرفته حياة كل من اتصل بقوى ما وراء الطبيعة ، اذ آمن به بعض من عرفوا وصدقوا • أولئك الذين صدقوا كانوا قلة فى العدد وشملوا زوجته السيدة خديجة التى قالت : « اخرج يا ابن عم وكن سعيدا والذى نفس خديجة بيده سوف تكون نبى هذه الأمة » •

ومنذ ذلك الوقت ، بدأ محمد صلى الله عليه وسلم فى نقل سلسلة من الرسائل لمن تبعه، والتى نقلها اليه ملك من عند الله ، وتقول بأن العالم سوف ينتهى ، وأن الله القادر الذى خلق بنى الانسان سوف يحاسبهم جميعا ، وقد صـور لهم مسرات الجنـة وعذابات النار بألوان واضحة ساطعة ، فاذا التزموا فى حياتهم ورضخوا لمشيئة الله وارادته ، يمكنهم الاعتماد على رحمته عندما يأتون للحساب ، وأن ارادة الله أن عليهم اظهار

(*) البرت حورانى هنا يخاطب القارىء الاوربى وهو يعلم – بالتأكيد – أنه – أى القارىء الاوربى – سيرفض هذا الكلام ، ولكن المؤلف يعرضه بطريقة يبدو فيها حياديا ، لكن الحقيقة أن السنة الصحيحة لا تؤيد شيئا كهـذا ، وليس بين أيدينـا ما يفيد أن الأحجار كانت تكلم الرسول ، وهذه روايات ظهرت بعد ذلك روج لها القصاصون ورواة الأخبار ، وهى غير موثقة تاريخيا ، ولا يقف عندهـا المثقفون المسلمون كثيرا – (المراجع) •

عرفانهم بالصلاة المنتظمة والتعاليم الأخرى وعمل الخير والتعفف، كان اللفظ المستخدم للرب هو (الله) وهو اسم أحد الآلهة المحلية (*) (يستخدمه الآن متحدثو العربية من اليهود والمسيحيين) ، وأولئك الذين يرضخون لمشيئته أصبحوا يعرفون فيما بعد بالمسلمين واسم دينهم الاسلام مشتق من نفس هذا المصدر اللغوى ٠

وتكونت تدريجيا جمـاعة صغيرة حول محمد صلى الله عليه وسلم بصحبة بعض الشباب من العائلات النافذة من قريش ، وبعض الأعضاء من العائلات الصغيرة ، وحلفاء من قبائل أخرى وضعوا أنفسهم تحت حماية قريش ، مع بعض الحرفيين والعبيد ، وبتصاعد التأييد لمحمد (ص) ، ساءت علاقته مع العائلات النافذة من قريش ، فلم يقبلوا ادعاءه بأنه مبعوث من الله ، من ناحيتهم ، كانوا يرون فيه رجلا يهاجم نمط حياتهم ، فقالوا لعمـه وحميه أبى طالب : « يا أبا طالب لقـد سب ابن أخيك آلهتنـا وأهان ديننا وسخر من طريقة حياتنا ، واتهم أجدادنا بالضلال » وزاد من سوء موقفه موت زوجته خديجة وعمه أبى طالب فى العام نفسه ٠

ومع تطور تعاليمه ، وضحت الاختـلافات عن معتقداتهم الثـابتة الموروثة ، فقد هوجمت الطقوس المتعلقة بهم وما كانوا يعبدون ، ومورست أشكال أخرى من العبـادة ، وبالتحديد الصـلاة العامة المنتظمة على وجه الخصوص ، وأشكال جديدة من حسن السلوك ، ووضع نفسه فى صورة أكثر وضوحا على خط أنبياء اليهودية والمسيحية ٠

وفى النهاية أصبح وضعه غاية فى الصعوبة حتى انه هاجر من مكة فى ٦٢٢ قاصدا واحة تبعد مائتى ميل الى الشمال هى « يثرب » ، والتى عرفت فيما بعد بالمدينة ، وقد مهد لهذه الرحلة رجال من يثرب كانوا قد أتوا الى مكة للتجارة ، وكانوا ينتمون لقبيلتين ، وفى احتيـاج لمحكم فى النزاعات القبلية ، ولأنهم عاشوا جنبا الى جنب مع السكان من اليهود فى الواحة ، فقد كانوا مستعدين لقبول تعاليم فى شكل نبى وكتاب مقدس ٠

(*) هذه سقطة خطيرة للأستاذ المؤلف ، فالله (لفظ الجلالة) ليس له صلة البتة بالوثن المعروف باسم اللات ، وللفظ الجلالة خواص لغوية واضحة ، فكتابته أو رسمه لا تختلف فى كل الاحوال وهو لا يجمع ، فكلمة (آلهة) هى جمع (اله) وليست جمعا لكلمة (الله) كما أن لفظ الجلالة (الله) لا ينون أما اله فتنون وتجمع كسائر الكلمات ، كذلك لفظ « الله » لا يمكن حذف لام التعريف منه ، وقد وردت اللات والعزى وغيرهما فى القرآن الكريم كأوثان ، ولم نسمع أحد قال ان الله Allah ما هو الا تطوير للوثن اللات ٠ واللات لفظ مؤنث وهو اسم الهة ، والعزى هى أفروديت فيما يقول الباحث جورج قنواتى ــ (المراجع) ٠

هذه النقلة الى المدينة والتى اتخـذتها الأجيال من بعدها بداية التقويم الاسلامى تعرف بالهجرة ، وليس للفظة بساطة المعنى السلبى للهروب من مكة ، لكن المعنى الايجابى من ناحية البحث عن الحماية بالاستقرار فى مكان آخر ، وفى القرون الاسلامية اللاحقة أصبح للكلمة معنى هجرة المجتمع الوثنى أو الفاسد الى مجتمع آخر يعيش وفقا للتعاليم الأخلاقية للاسلام ، ويورد كتاب السيرة المبكرون نصـوص الاتفاقات التى أبرمت بين محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من القبيلتين الكبيرتين من ناحية ، ومع بعض الجماعات اليهودية من ناحية أخرى ، وهى اتفاقيات لم تكن مختلفة عما كان معمولا به فى جنوب الجزيرة حديثا عندما يتفق على حرم للجميع ، ويكون على كل فريق أن يحافظ على قوانينه الخاصة وعاداته ، ولكن منطقة الحرم تظل بكاملها منطقة سلام ، ولا تحل المنازعات أو تسوى بالقوة ، ولكن القاضى ، كلمة الله وسنة محمد (ص) وان على هـذا التحالف أن يعمل متوحدا حيال أولئك الذين ينتهكون السلام ·

ومن المدينة بدأ محمد صلى الله عليه وسلم فى جمع قوة انتشرت خلال الواحة والصحارى المحيطة ، وسرعان ما اضطر الى خوض صراع مسلح مع قريش ، وربما كان ذلك للسيطرة على الممرات التجارية · فى مسار الصراع تشكلت طبيعة المجتمع ، حيث توصلوا الى قنـاعة أن من الضرورى أن يقاتلوا فى سبيل الحق ، وعندما تغطرست قريش على الله ورفضته ، أعطى الاذن لرسـوله بالقتال دفاعا عن نفسه ، واكتسبوا الايمان من الاعتقاد بان الله والملائكة تقاتل الى جانبهم وتقبلوا المحن والمصاعب عندما حلت باعتبارها اختبارا من الله للمؤمنين ·

وفى هذه الفترة من الصراعات القوية المتنامية ، اتخذت تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم شكلها النهائى ، وفى سور القرآن التى نزلت حتى ذلك الحين ، ظهر اهتمام متزايد بتعريف الالتزام بالشعائر والأخلاقيات الاجتماعية ، وقواعد السلام الاجتماعى والملكية الخاصة والزواج والميراث ، وقد كانت هناك تنبيهات محددة فى بعض الشئون ، ومبادىء عامة فى بعضها الآخر ، وفى نفس الوقت أصبح للتعاليم صيغة أكثر عالمية ، اتجهت الى مخاطبة كل الوثنيين فى الجزيرة العربية ، وبالتالى للعالم كله ، وتفصل نفسها بشكل أكثر وضوحا عن تعاليم اليهودية والمسيحية ·

وربما كان التطور فى تعـاليم النبى صلى الله عليه وسلم مرتبطـا بالتغيرات فى علاقاته مع اليهود فى المدينة ، فرغم أنهم كانوا جزءا من التحالف الأول الأصلى الا أن موقفهم أصبح أكثر صعوبة بانتشار دعوة محمد

صلى الله عليه وسلم فلم يستطيعوا قبوله كرسول حقيقى للاله فى اطار تقاليدهم • ومن ناحية أخرى يقال انه اتهمهم بتحريف الوحى الذى نزل عليهم « لقد أخفيتم ما أمرتم بكشفه » ، وفى النهـاية طردت بعض هذه الجماعات اليهودية وقتل البعض الآخر •

وربما كان من ظواهر التناقض مع اليهود أن تغير اتجاه الجماعة فى الصلاة من القدس الى مكة (القبلة) وأصبح التركيز على خط من السلالة الروحية التى تربط محمدا صلى الله عليه وسلم بابراهيم عليه السلام ، ولقد كانت الفكرة القائلة بأن ابراهيم هو مؤسس دين التوحيد والبيت المقدس (الكعبـــة) فى مكة موجـودة بالفعل ، أما حينئذ ، فلم يعـــد ينظر اليه كيهودى أو مسيحى ، ولكن باعتباره السلف المشترك لكليهما وكذلك للمسلمين ، وكان هذا الاختلاف مرتبطا أيضا بعلاقات محمد (ص) بقريش مكة • فحدث نوع من التوفيق أو التسوية بين مصالح الطرفين • فقد كان تجار مكة معرضين لفقدان تحالفهم مع زعماء القبائل وسيطرتهم على التجارة ، وفى المدينة نفسها كان هناك عدد متزايد من أتباع الاسلام ، وشعر الجميع بأن عقد اتفاقية مع القوة الجديدة سوف يزيل مخاطر معينة ، بينما لم يكن مجتمع محمد صلى الله عليه وسلم من ناحيته يشعر بالأمن طالما ظلت مكة عدائية ، وكانوا فى احتياج لقدرات أشراف مكة ، ولما كان المعتقد أن الحرم فى مكة قد أسسه ابراهيم ، فمن الممكن القبول به كمزار للحج وان كان المعنى مختلفا •

وبحلول عام ٦٢٩ ، أصبحت العلاقات وثيقـة بما يسمح لجماعة المسلمين بالذهاب الى مكة للحج ، وفى العـام التالى سلم زعماء مكة ، مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم الذى فتحها فعليا وواقعيا بلا مقاومة ، وأعلن مبـادىء النظام الجديد « الغاء كل ادعاءات النسب والممتلكات ما عـدا السيطرة على الحرم وسقاية الحجيج » رغم ذلك ظلت المدينة عاصمته حيث مارس نفوذه على أعوانه بالمناورات السياسية والسطوة والنفوذ الشخصى، اكثر منها بوسائل الحكم المعتادة (*) ، ومن بين زيجاته العديدة بعد وفاة

(*) ليس من المتوقع ان يحكم (نبى) باساليب الحكم المعتادة فى عصره (ملك وحاشية وحجاب ووزراء ••) فهو نبى يأتيه الخبر من السماء ، وهو لا يضع تشريعا وانما تأتيه التشريعات من السماء ، وان كان هذا لا يمنع من انه استشار أصحابه وأولى الرأى فى كثير من الأمور ، والنبى – أى نبى – اذا أمر بحرب فانما هو يتحدث عن الله ، واذا حرم او حلل فهو يجعل ذلك كله باسم الله ، أما النفوذ الشخصى فهى كلمة غير مزعجة ، فالنبى – أى نبى – له من الهيبة والقبول ما يجعل الناس يتحلقون حوله ويطيعونه ويسلمون عقولهم له ، فالتراث اليهودى والاسلامى لا ينكران =

خديجة كان بعضها ــ وليست جميعها ــ لأسباب سياسية ، ولم يكن هناك نظام حكم مدروس أو جيش، فقد كان محمد (ص) ببساطة قاضيا أعلى يعاونه عدد من النواب ، ونشأ تجنيد عسكرى عام للمؤمنين ، وبيت مال تغذيه الزكاة ، وفرض الخراج والجزية على القبائل التى رضخت ، وخارج هذه البلدان انتشر الاسلام على مساحة واسعة ، وكان زعماء القبائل محتاجين للاتفاق معه ، لأنه كان مسيطرا على الواحات والاسواق ، وقد أختلفت طبيعة هذه الاتفاقيات ، ففى بعض الحالات كان هناك مجرد تحالف ونبذ للصراعات ، وفى حالات أخرى كان القبول بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والالتزام بالصلاة والاسهام المالى المنتظم لبيت المال بالزكاة ٠

وفى عام ٦٣٢ قام محمد صلى الله عليه وسلم بزيارته الأخيرة لمكة وأصبحت خطبته فى الكتابات التقليدية البيان الأخير لرسالته :

« أيها الناس ، ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله لا ربا ٠٠٠٠ اللهم هل بلغت » ٠

وتوفى عليه الصلاة والسلام فى ذلك العام وترك أكثر من ميراث : الأول شخصيته كما رآها صحابته ورفاقه المقربون وان كانت شهاداتهم

= النفوذ الشخصى او التأثير لموسى عليه السلام ، والتراث المسيحى وكذلك الاسلام لا ينكران الجاذبية الشخصية أو النفوذ الشخصى ، (والمعنيان قريبان) لعيسى يسوع عليه السلام ، فقد قال للعشار « قم فاتبعنى » فتبعه العشار وترك أمواله ، دون سؤال عن السبب ٠ والنبى ــ أى نبى ــ يستخدم المعجزة لاقناع الناس ، وليس استخدام المعجزة من أساليب الحكم المعتادة (حديث عيسى فى المهد ليس من الأمور المعتادة ، وان كان التراث المسيحى لا يوافق على حديثه فى المهد ولا يقره ، وانما يقر بمعجزات أخرى كاحياء الموتى ، وابراء المرضى باذن الله ٠٠ الخ ، ومعجزات موسى عليه السلام معروفة فى التراثين اليهودى والاسلامى ، أما معجزة محمد صلى الله عليه وسلم فتجلت فى القرآن الكريم الذى أتاه من عند الله ، والحقيقة أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو اقل الأنبياء استخداما للمعجزة بمعناها المادى ــ أى الأمر الخارق للعادة وقوانين الطبيعة ــ وانما خاطب الناس بمبادىء الحق والعدل فأطاعوه) كل هذا لا يمنع من ان النبى ــ أى نبى ــ قد استخدم أيضا الأساليب التى ألفها الناس فى الحياة ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول ان « الحرب خدعة » وكانت قمة الدبلوماسية هى التى تجلت فى قول المسيح عليه السلام (أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله) ولم يكن معناها الحرفى هو المقصود بالتأكيد ٠ والخلاصة أنه ليس فى عبارات حورانى تجاوز كبير ، وان كان من الممكن استخدام ألفاظ أكثر دقة حتى لا ينزعج القارىء المسلم ــ (المراجع) ٠

التي انتقلت شفاهة ، لم تأخذ شكلها النهائي الا بعد ذلك بكثير ، وكانت بالتأكيد موشاة بالمبالغات ، ولكن يبدو من المعقول الاعتقاد بأنه منذ وقت مبكر حاول أولئك الذين عرفوه واتبعوه أن يقتدوا بتصرفاته وسلوكه ، وبمرور الوقت تطور نمط من الشخصية الانسانية هو الى حد كبير انعكاس لشخصيته في أعين أتباعه ، كرجل باحث عن الحقيقة منذ بواكير حياته وقع في حيرة بفعل قوى علوية ، **وهو حريص على توصيل ما أوحي اليه مكتسبا الثقة في رســالته من احســاس بالسلطة والقوة بتحلق الأنصار من حوله** ، وكان قاضيا ومحكما لتحقيق السلام وتسوية المنازعات في ضوء مبادىء العدل التي يؤمن بأنها من مصادر الهية قدسية ، وكان مناورا بارعا بين القوى السياسية ، ورجلا لم يتخل عن أنماط وعادات التصرف الانساني لكن مع محاولة حصرها ضمن الحدود التي آمن بأنها مفروضة بمشيئة الله ٠

وتشكلت صورة محمد صلى الله عليه وسلم تدريجيا وانتقلت من جيل الى جيل ، كذلك كان الحال مع المجتمع الذي أنشأه وأوجده ، فقد صورته عصور لاحقة بأنه كان مجتمعا وقر محمدا (ص) واعتز بذكرياته محاولا اتباع سيرته وطريقته ، وجاهد على طريق الاسلام في سبيل الله ، وربطت أركان الدين هـذا المجتمع ببعضه البعض ، وكلهـا ذات صبغة جماعية ، فالحج في موعد واحد ، والصيام خلال شهر واحد (رمضان) ، ومتوحدين أيضا خلال الصلاة المنتظمة ، وهو النشاط الذي ميزهم بشكل واضح عن بقية العالم ٠

وقبل كل شيء كان تراث القرآن ، وهو كتاب يصور في بلاغة لغوية ذات جمال وتأثير عظيمين ، جلال الله المتعالي ، مصدر كل القوة والخير في العالم البشري الدنيوي الذي خلقه ، وتنزيل رسالته على أنبياء متتابعين أرسلهم لتحذير الناس واعادتهم الى ذواتهم الحقيقيـة كمخلوقات مطيعة خامدة ، ثم يحكم الله على الناس في نهاية الزمان بالثواب والعقاب ٠

وقد آمن المسلمون السنة دائما بأن القرآن هو كلمة الله تجلت باللغة العربية من خلال ملك الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي أوقات مختلفة بطرق تناسب احتياجات المجتمع ٠ وقلة من غير المسلمين يمكنهم القبول الكامل بهذا الاعتقاد ، وعلى أحسن الفروض ، فان البعض منهم يعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم تلقى الهاما من خارج العالم البشري انتقل من خلال شخصيته وعبر عنه بكلماته هو ، وليس هناك من طريقة عقلانية بحتة يمكن بها حل ذلك الخلاف في الاعتقاد ، ولكن أولئك المنقسمين حوله يمكنهم

الاتفاق بشكل مشروع حول بعض النقاط التى يمكن مناقشتها فى القرآن .

ويرد أولا السؤال حول متى وكيف اتخذ القرآن شكله النهائى ؟ اذ ان محمدا (ص) قد نقل الوحى الى أتباعه فى أوقات مختلفة ، وقاموا بتسجيله أو حفظه فى ذاكرتهم ، ويتفق معظم الدارسين أن العملية التى تم بها جمع الروايات المختلفة ثم وضع النص الذى اتفق عليه ، لم تتم الا بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم (*) ، أما الروايات التقليدية فتقول بأن ذلك حدث خلال عهد ثالث من خلفه فى زعامة الجماعة عثمان بن عفان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) وهناك اعتقاد بوقوع ذلك فى تواريخ لاحقة ويتهم بعض فرقاء الاسلام آخرين بادخال اضافات على هذه النصوص ليست مأخوذة مما روى عن محمد صلى الله عليه وسلم (**) .

(★) ليس فى كتب تاريخ القرآن التى بين أيدينا على اختلاف مذاهب مؤلفيها ما يشير من قريب أو بعيد الى أن النص القرآنى كان محل جدال او خلاف فى حياة الرسول او بعد وفاته . راجع : أبو القاسم الموسوى الخولى : البيان فى تفسير القرآن . النجف ، ١٩٥٧ (والمؤلف شيعى) ، ومحمد بن عبد الله الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ١٩٥٧ ، وأبو عبد الله الزنجانى : تاريخ القرآن . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٥ ، وراجع ايضا كتاب عبد الله ابن أبى داود السجستانى المعروف بكتاب المصاحف ، وطبعته الأولى حققها ونشرها المستشرق آرثر جفرى ، وتعرض الشهرستانى فى كتابه الشهير الملل والنحل لكل المذاهب والفرق الاسلامية بل وغير الاسلامية ، وقد تصفحنا الكتاب صفحة صفحة فلم نجده يشير الى أن أصحاب مذهب قالوا ان خلافا حدث أو تعديلا تم (الملل والنحل ، لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر الشهرستانى . مجلدان . بيروت ، ١٩٨٠) . ولم نسمع او نقرأ أن موضوعا كهذا أثير فى عهد الراشدين ، ورغم كثرة الخارجين على الدولة الأموية فان كل المصادر لا تشير الى أن فرقة او مذهبا قالت ان هناك آيات او حتى آية من القرآن الكريم قد أضيفت اليه وكل كتب حوليات التاريخ الاسلامى (ابن خياط ، الطبرى ، ابن كثير .. الخ) لم تشر لشىء كهذا لكننا سمعنا ان بعض فرق الشيعة منذ القرن الثالث الهجرى تحدثوا عن أن القرآن الكريم كان به بعض آيات عن حق فاطمة رضى الله عنها ، وحق الامام على فى الخلافة وأن هذه الآيات قد حذفت ، لكن أحدا لم يذكر لنا هذه الآيات بنصها ، ولم يفسر لنا سر السكوت على هذا الحذف لمدة تزيد على مائتى سنة ، اما الاختلاف فى طريقة القراءة فيما يعرف بالقراءات فامر وارد ـ (المراجع) .

(★★) ليست هناك اتهامات باضافات ، وانما اتهامات بحذف ، لكن الذين اتهموا ابا بكر وعثمان رضى الله عنهما بحذف بعض الآيات لم يذكروا مثلا واحدا أو آية واحدة ، والقرآن الكريم يقرؤه الآن كل المسلمين سنة وشيعة وتردده الاذاعات بسور متفق عليها وآيات لا يحيدون عنها ـ (المراجع) .

ويدور السؤال الأهم حول أصالة القرآن ، فقد حاول الدارسون وضعه في سياق الأفكار السائدة في ذلك الزمان والمكان ولا شك أن به أصداء من تعاليم الأديان السابقة (*) : الأفكار اليهودية في مذاهبها ، وبعض الانعكاسات من ورع وتقى من المسيحية الشرقية في الأديرة من التأمل واطالة التفكير في هول يوم القيامة وأوصاف الجنة والجحيم (مع قليل من الاشارات للدين المسيحي وشعائره) ، القصص التوراتية في أشكال مختلفة عن تلك التي جاءت في العهدين القديم والجديد ، وهناك صدى للفكرة المانوية عن تعاقب الرسالات والوحي الذي نزل على مختلف الشعوب، هناك أيضا آثار من التقاليد المحلية ، حيث ان الأفكار الأخلاقية بشكل ما هي استمرار لتلك السائدة في الجزيرة العربية وان كانت تختلف عن بعضها • وفي بدايات النبوة كان الوحي يصدر كما لو كان على لسان الكهان أو العرافين العرب المغيبين عن وعيهم نتيجة لقائهم مع قوى ما وراء الطبيعة، ومثل هذه الآثار من الماضي لا تسبب ازعاجا للمسلم الذي يعتبرها علامة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء في نهاية سلسلة من الأنبياء الذين علموا نفس الحقيقة لتكون فعالة ، فان الوحي النهائي قد استخدم صورا وألفاظا معلومة معروفة ومفهومة ، واذا كانت القصص والأفكار قد أخذت شكلا مختلفا في القرآن ، فان ذلك راجع لأن أتباع الأنبياء السابقين قد حرفوا الرسالات التي نزلت عليهم ، وبعض الدارسين من غير المسلمين توصلوا الى استنتاج آخر ، بأن القرآن يحتوي على القليل مما يزيد عما كان متاحا لمحمد صلى الله عليه وسلم في الزمان والمكان (**) ، والقول بهذا المعنى سوء فهم لما هو حقيقي ، فان ما أخذ من التراث والثقافة الدينية لذلك العصر قد تحول وانصهر ، لذلك كان الاسلام بالنسبة لأولئك المؤمنين بالرسالة هو نفس العالم المعهود قد خلق من جديد •

(★) من وجهة النظر التاريخية فان الاسلام لابد أن يشتمل على عناصر من الديانات التي سبقته ، فهو يضم كل التراث السابق عليه بين احضانه ، وهذا يفسر تسامح المسلمين مع أصحاب الديانات الأخرى ، كما يفسر عدم امعانهم في سفك الدماء أثناء حركة الفتوح ــ (المراجع) •

(★★) وهو ما يعرف بالاعجاز التاريخي والعلمي للقرآن الكريم ــ (المراجع) •

الفصـــل الثـــانى

خلافة محمد صلى الله عليه وسلم ـ تكوين الامبراطورية (الدولة الاســلامية)

أعقبت وفاة محمد صلى الله عليه وسلم حالة من البلبلة بين أتباعه ، واعلن أبو بكر أحد زعماء الجماعة : « أيها الناس ٠٠ من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فان الله حي لا يموت » ٠ وتحت المستوى الالهى كان هناك دور لابد من ملئه : التحكيم فى النزاعات واتخاذ القرارات بين الجماعة ، وكانت هنـاك ثلاث مجموعات رئيسية بين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم : الصحابة الأوائل الذين هاجروا معه وهم مجموعة ارتبطت فيما بينها بالتزاوج ، وكبار رجالات المدينة الذين أبرموا معه الاتفاقية هناك ، وأفراد العائلات المكية النافذة الذين أسلموا حديثا ٠ وفى اجتماع للزعماء والأعوان المقربين وقع الاختيار على أحد أفراد المجموعة الأولى ليكون خليفة للنبى صلى الله عليه وسلم وهو « أبو بكر » رفيقه الذى أسلم منذ البداية الأولى ووالد عائشة احدى زوجاته ٠

ولم يكن الخليفة نبيا وانما قائدا للجماعة وليس رسولا من الله بأية صورة ولم يكن بامكانه التحدث باسم الوحى المستمر ، ولكن هالة من القدسية ظلت تحيط بشخصية ومكانة الخلفاء الأوائل ، وكان بامكانهم القول بأن لهم نوعا من السلطة الدينيـــة ولكن سرعان ما وجد أبو بكر وخلفاؤه أنفسهم مطالبين بممارسة القيادة فى مجال أوسع من المجال الذى مارسها الرسول فيه ، وكانت لتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم وأفعاله صبغة عالمية وطالب بسلطة عالمية ، كما أن الحرم الذى أنشأه لم تكن له حدود طبيعية (*) ، وفى سنواته الأخيرة أرســل حملاته العسكرية الى

(*) استخدم المؤلف هنا اللفظ العربى Haram (حرم) وذكر أن الحرم الذى أنشأه النبى لم تكن له حدود طبيعية

The haram which he established had no natural limits.

ومن الواضح هنا انه لا يقصد الحرم المقدس المحيط بالكعبة المشرفة وانما هو يقصد ان الاسلام دين عالمى النزعة لا تقف دعوته عند حد ، او بعبارة أخرى انه دين ليس مقتصرا على العرب ٠ وان كان هذا هو المعنى المقصود ، فهو قول صحيح ، ويصبح =

الحدود البيزنطية ، ومن المعتقد أنه بعث رسلا الى حكام الدول الكبرى يدعوهم للاعتراف برسالته ، وعندما توفي كاد التحالف الذى أبرمه مع زعماء القبائل أن ينفرط ، وبدأ بعضهم في رفض مبدأ نبوته (*) أو على الأقل سيطرته السياسية على المدينة ، وفي مواجهة هذا التحدى فرضت الجماعة تحت قيادة أبى بكر نفوذها بالعمل العسكرى (حروب الردة) وخلالها تشكل جيش حملته قوة الدفع الى مناطق الحدود مع الامبراطوريات الكبرى وبعدها ـ وبفعل ضعف المقاومة ـ الى قلب تلك الامبراطوريات ، وبنهاية حكم الخليفة الثانى عمر بن الخطاب(٦٣٤-٦٤٤) كانت كل الجزيرة العربية وجزء من الامبراطورية الساسانية ، علاوة على الأقاليم السورية والمصرية من الامبراطورية البيزنطية قد تم فتحها ، واكتمل فتح بقية الامبراطورية الساسانية بعد ذلك بقليل ٠

حينئذ وفي غضون بضع سنوات تغيرت حدود الشرق الأدنى وانتقل مركز الحياة السياسية من الأراضى الغنية المأهولة فى الهلال الخصيب ، الى بلدة صغيرة واقعة على حافة عالم الثروة والثقافة الرفيعة ، وكان التغير مفاجئا وغير متوقع الى الحد الذى يتطلب تفسيرا ، وتشير الدلائل التى كشف عنها علماء الآثار أن قوة عالم البحر المتوسط كانت فى انحدار بفعل الغزوات البربرية والاخفاق فى الحفاظ على المناطق الرعوية والزراعية وانكماش السوق الحضرية ، كما أضعفت الأوبئة والطاعون والحروب الطويلة كلا من الامبراطورية الساسانية والبيزنطية ، وقد استعاد البيزنطيون سيطرتهم على سوريا بعد هزيمة الساسانيين فى ٦٢٩ وان ظلت دولتهم ضعيفة ، ولم يكن العرب الذين غزوا الامبراطوريتين مجرد طغمة قبلية من البدو الرحل وانما قوة منظمة اكتسب بعض أفرادها المهارة والخبرة العسكريتين ، من خلال خدمة الامبراطوريات أو فى القتال فى أعقاب موت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان استخدام الابل فى النقل قد أفادهم فى حملات القتال على مساحات واسعة من الأرض وحفز الطموح الى الثروة نوعا من التحالف المبنى على المصالح بينهم ، كما أن حرارة الايمان أعطت البعض قوة من نوع خاص ٠

= فهم البرت حورانى لروح النصوص الاسلامية ومسار التاريخ الاسلامى اكثر اعتدالا من رأى باحثين آخرين رأوا فى الاسلام دينا مقتصرا على العرب ـ (المراجع) ٠

(*) اصبح معروفا الآن ان حركة المرتدين التى عرفت بهذا الاسم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن فى مجملها حركة خروج عن الاسلام او ارتداد عنه ـ وانما اطلق عليها هذا الاسم اصطلاحا ، فقد كانت هذه الحركة فى جميعها حركة قبلية ضد وحدة الدولة الاسلامية ٠ بدليل ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان من رأيه فى البداية عدم خوض الحرب ضد المرتدين أو من اطلق عليهم اصطلاحا اسم المرتدين =

= على أساس أن الخليفة أبا بكر لا طاقة له بحربهم ، لكن الخليفة الرقيق الرديع قريب الدمع قال له قولته المشهورة (أجبار فى الجاهلية ، خوار فى الاسلام) ثم قال أبو بكر قولته الشهيرة أيضا التى تبين طبيعة الحركة التى أطلق عليها تجاوزا اسم حركة المرتدين ، قال أبو بكر : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » . المعنى اذن أن هناك أقواما رفضوا دفع الزكاة لأبى بكر انفة وعصبية اذ كان قائلهم يقول مستنكرا : « انعطى الزكاة لابن أبى قحافة ! » ومعنى هذا أنه على استعداد لدفعها لكن ليس لابن أبى قحافة . انهـــا اذن حركة انفصـــالية وليست حركة ارتداد عن الاسلام للعودة إلى عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . كانت حرب المرتدين اذن حربا وطنية لتاكيد سلطة الدولة والزام القبائل بطاعتها .

أما فيما يتعلق بأن اتجاها ظهر بين المسلمين فى أواخر حياته بانكار نبوته ، فهو قول يخالف بشكل صارخ روح النصوص التاريخية المتاحة كما يخالف بشكل صارخ تطورات الحركة التاريخية ، فالاسلام بعد وفاة الرسول لم يضعف وانما انتشر ، ومن الطريف أن نوضح أنه حتى مسيلمة الكذاب ، وهو النجدى المعروف الذى ادعى النبوة لم ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانما قال له (أشركت فى الأمر معك) يعنى أنا نبى وأنت نبى ، فالتامل فى النصوص يفضى بنا الى حقائق جديدة غير تلك الافكار التى خرج بها من النصوص نفسها باحثون آخرون . ولتاكيد هذه المعانى الواردة فى هذا التعليق أجد من المفيد نقل نص كامل عن حروب الردة من كتـاب فتوح البلدان للبلاذرى ، وهو نص لا يختلف فى معناه عما ورد فى الكتب التاريخية التراثية الأخرى الا فى أنه موجز :

ملاحظات مبدئية على النص

(١) ما أورده البلاذرى عن حروب الردة لا يختلف فى مضمونه عما أوردته كتب التاريخ الاسلامى التراثية الأخرى (ابن خياط ، الطبرى ، ابن كثير ، ابن الأثير .. وغيرهم) ولكننا تخيرناه دون غيره لأنه موجز ــ بما يتناسب مع حجم كتابنا هذا .

(٢) استخدم البلاذرى ــ مثل غيره من المؤلفين التراثيين بعض الاختصارات قد يكون من المفيد ذكرها للقارىء العادى :

رحه : رحمه الله .
رضه : رضى الله عنه .
رضها : رضى الله عنها .
رضهما : رضى الله عنهما .

(٣) يفهم من النص بشكل عام ــ أن الحركة التى سميت بحركة المرتدين ، لم تكن خروجا عن الاسلام بقدر ما هى خروج عن الدولة ــ أى أنها حركة انفصالية أو حركة قبلية يقصد بها عدم دفع الزكاة والصدقات للحكومة المركزية فى مكة المكرمة . ونقتبس من نص البلاذرى ما يفيد ذلك :

ــ قال قوم من المرتدين : « نقيم الصلاة ولا نؤتى الزكاة » .

ــ قول أبى بكر الصديق : « لو منعونى عقالا لقاتلتهم عليه » .

. . . .

= ـ بعض رءوس المرتدين كطليحة بن خويلد رجع عن دعواه وحارب فى صفوف المسلمين وأبلى بلاء حسنا . وعندما عاتبه عمر بن الخطاب على ما كان منه قال : ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه » .

ـ قال قرة بن هبيرة الذى كان قد امتنع عن اداء الزكاة : « والله ما كفرت منذ آمنت » ... الخ .

ـ ارتدت كندة فقاتلهم المسلمون . « حتى أقروا بالصدقة » .

(٤) لا يفهم من النص أن حروب الردة تمثل مذابح جماعية ، وانما كانت حروبا بين ممثلى الدولة من ناحية والانفصاليين من ناحية ، وأن الحرب كانت تتوقف على الفور عند أداء الزكاة .

(٥) دخل فى حروب المرتدين قوم من قطاع الطرق والصعاليك الذين لا يهمهم المسلمون أو غير المسلمين ـ وانما جل همهم الافساد والسلب والنهب ، ومن ذلك رجل يقال له الفجاءة وهو بجير بن اياس السلمى . وكان يهاجم جيوش الدولة وجيوش المرتدين على سواء ، وقد قتله أبو بكر الصديق .

(٦) يقال ان بعض التجاوزات قد حصلت فى هذه الحروب ، ومن ذلك أن مالك بن نويرة قال لخالد بن الوليد : « والله ما ارتددت » ومع ذلك قتله خالد بن الوليد ، وقد قال عمر بن الخطاب لأبى بكر معترضا : « أبعثت رجلا يقتل المسلمين » ؟

(٧) لم ترو المصادر أن احراقا بالنار تم ، الا فى حالات قليلة جدا ، ومن ذلك قول أبى بكر الصديق :

« ثلاث تركتهن ، ووددت أنى لم أفعل ، وددت انى يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه ، فانه تخيل الى أنه لا يرى شرا الا سعى اليه وأعان عليه . ووددت أنى يوم أتيت بالفجاءة قتلته ولم أحرقه .. الخ » .

خبر ردة العرب فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قالوا : لما استخلف أبو بكر « رحه » ارتدت طوائف من العرب ومنعت الصدقة ، وقال قوم منهم نقيم الصلاة ، ولا نؤدى الزكاة ، فقال أبو بكر « رضه » لو منعونى عقالا لقاتلتهم . وبعض الرواة يقول : لو منعونى عناقا . والعقال صدقة السنة .

وحدثنى عبد الله بن صالح العجلى ، عن يحيى بن آدم ، عن عوانة بن الحكم ، عن جرير بن يزيد ، عن الشعبى قال : قال عبد الله بن مسعود ، لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن الله من علينا بأبى بكر اجتمع رأينا جميعا على ألا نقاتل على بنت مخاض وابن لبون ، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، وعزم الله لأبى بكر « رضه » على قتالهم فوالله ما رضى منهم الا بالخطة المخزية ، أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فان أقروا بأن من قتل منهم فى النار ، وان ما أخذوا من أموالنا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم .

حدثنا ابراهيم بن محمد عن عرعرة قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدى قال أخبرنا سفيان الثورى ، عن قيس بن مسلم ، عن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال قدم وفد بزاخة على أبى بكر فخيرهم بين الحرب المجلية ، والسلم المخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب المجلية فما السلم المخزية ؟ : قال : ان ننزع منكم الحلقة والكراع ونغنم ما أصابنا =

= منكم ، وتردوا الينا ما أصبتم منا ، وتدوا قتلانا ويكون قتلاكم في النــار • حدثنا شجاع ابن مخلد الفلاس قال حدثنا بشر بن المفضل مولى بني رقاش قال عن عبد العزيز بن عبد الله بن ابى سلمة الماجشون ، عن عبد الواحد ، عن القـاسم بن محمـد بن أبي بكر ، عن عمته عائشة أم المؤمنين « رضها » أنها قالت توفى الرسول والنفاق بالمدينة ، وارتدت العرب فوالله ما اختلفوا في واحدة الا طار بحظها وغنـائها عن الاســلام • قالـوا فخـرج أبو بـكر الى القصـة من ارض محـارب لتوجيـه الزحـوف الى أهل الردة ، ومعه المسلمون ، فسار اليهم خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى ، ومنظور بن زيان بن سيار الفزارى أحد بنى العشراء فى غطفان فقاتلوهم قتالا شديدا ، فانهزم المشركون واتبعهم طلحة بن عبيد الله التيمى فلحقه بأسفل ثنايا عوسجة ، فقتل منهم رجلا وفاته الباقون فاعجزوه هربا فجعل خارجة بن حصن يقول : ويل للعرب من ابن أبى قحافة ، ثم عقد أبو بكر وهو بالقصة لخالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى على الناس ، وجعل على الانصار ثابت بن قيس بن شماس الانصارى ، وهو أحد من استشهد يوم اليمامة الا أنه كان من تحت يد خالد ، وأمر خالدا أن يصمد لطليحة بن خويلد الأسدى وكان قد ادعى النبوة ، وهو يومئذ ببزاخة ، وبزاخة ماء لبنى أسد بن خزيمة ، فسار اليه خالد وقدم أمامه عكاشة بن محصن الأسدى ، حليف بنى عبد شمس ، وثابت بن اقرم البلوى • حليف الانصار ، فلقيهما ، حبـال بن خـويلد ، فقتـلاه وخـرج طليحـة وسلمه أخوه ، وقد بلغهما الخبر فلقيا عكاشة وثابتا فقتلاهما فقال طليحة :

ذكرت أخى لما عرفت وجوههم ... وأيقنت انى ثائر بحبـــــال

عشية غادرت ابن أقرم ثاويا ... وعكاشة الغنمى عنـد مجـال

ثم التقى المسلمون وعدوهم واقتتلوا قتالا شديدا ، وكان عيينة بن حصن بن حذيفـة ابن بدر مع طليحة فى سبعمائة من بنى فزارة ، فلما رأى سيوف المسـلمين قد استلحمت المشركين أتاه فقـال له : اما ترى ما يصنع جيش ابى الفصيل ، فهل جاءك جبريل بشىء قال نعم جاءنى فقال : ان لك رحا كرحاه ، ويوما لا تنســاه فقـال عيينـة أرى والله ان لك يوما لا تنساه ، يابنى فزارة هذا كذاب ، وولى عن عسكره فانهزم النـاس وظهر المسلمون ، وأسر عيينة بن حصن فقدم به المدينة فحقن ابو بكر دمه وخلى سبيله وهرب طليحة بن خويلد فدخل خباء له فاغتسل ، وخرج فركب فرســه وأهل بعمرة ثم مضى الى مكة ثم اتى المدينة مسلما وقيل بل اتى الشام ، فاخذه المسلمون ممن كان غاديا ، وبعثوا به الى ابى بكر بالمدينة فاسلم ، وأبلى بعد فى فتح العراق ونهاوند ، وقال له عمر اقتلت العبد الصالح عكاشة بن محصن فقـال ان عكاشـة بن محصن سعد بى وشقيت به وانا أستغفر الله •

وأخبرنى داود بن حبال الأسدى عن أشياخ من قومه ان عمر بن الخطاب قال لطليحة : أنت الكاذب على الله حين زعمت انه انزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئا ، فاذكروا الله أعفة قياما فان الرغوة فوق الصريح ، فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه فاسكت عمر • قالوا : وأتى خالد بن الوليد رمان وأبانين ، وهناك فل بزاخة فلم يقاتلوه وبايعوه لأبى بكر ، وبعث خالد بن هشام بن العاص بن وائل السهمى اخا عمرو بن العاص ، وكان قديم الاسلام ، وهو من مهاجرة الحبشـة الى بنى عامر بن صعصعة ، فلم يقاتلوه وأظهروا =

. . . .

= الاسلام والاذان فانصرف عنهم ، وكان قرة بن هبيرة القشيرى امتنع من اداء الصدقة وامد طليحة فاخذه هشام بن العاص واتى به خالدا فحمله الى ابى بكر فقال « والله ما كفرت مذ امنت ولقد مر بى عمرو بن العاص منصرفا من عمان فاكرمته وبررته » فسأل ابو بكر عمرا « رضهما » عن ذلك فصدقه فحقن ابو بكر دمه . ويقال ان خالدا كان سار الى بلاد بنى عامر فاخذ قرة وبعث به الى ابى بكر . قال ، ثم سار خالد ابن الوليد الى الغمر وهناك جماعة من بنى اسد وغطفان وغيرهم ، وعليهم خارجة بن حصن بن حذيفة ، ويقال انهم كانوا متسايدين قد جعل كل قوم عليهم رئيسا منهم قاتلوا خالدا والمسلمين فقتلوا منهم جماعة ، وانهزم الباقون ، وفي يوم الغمر يقول الحطيئة العبسى :

الا كل أرماح قصار اذله فداء لأرماح الفوارس بالغمر

ثم أتى خالد جو قراقر ويقال اتى النقرة وكان هناك جمع لبنى سليم عليهم ابو شجرة عمرو بن عبد العزى السلمى وأمه الخنساء ، فقاتلوه فاستشهد رجل من المسلمين ، ثم فض الله جمع المشركين ، وجعل خالد يومئذ يحرق المرتدين فقيل لابى بكر فى ذلك فقال لا أشيم سيفا سله الله على الكفار . وأسلم ابو شجرة فقدم على عمر وهو يعطى المساكين فاستعطاه فقال له الست القائل :

ورويت رمحى من كتيبة خالد وانى لأرجو بعدها أن اعمرا

وعلاه بالدرة فقال : قد محا الاسلام ذلك يا أمير المؤمنين .

قالوا : « وأتى الفجاءة وهو بحير بن اياس بن عبد الله السلمى ابا بكر فقال : احملنى وقونى أقاتل المرتدين ، فحمله وأعطاه سلاحا ، فخرج يعترض الناس ، فيقتل المسلمين والمرتدين وجمع جمعا فكتب ابو بكر الى طريفة بن حاجزة اخى معين بن حاجزة يأمره بقتاله ، فقاتله وأسره ابن حاجزة ، فبعث به الى أبى بكر فأمر ابو بكر باحراقه فى ناحية المصلى . ويقال ، ان أبا بكر كتب الى معن فى امر الفجاءة ، فوجه معن اليه طريفة اخاه فاسره ، ثم سار خالد الى من بالبطاح والبعوضة من بنى تميم فقاتلوه ففض جمعهم ، وقتل مالك بن نويرة اخا متمم بن نويرة ، وكان مالك عاملا للنبى ص على صدقات بنى حنظلة ، فلما قبض خلى ما كان فى يده من الفرائض . وقال شأنكم بأموالكم يابنى حنظلة وقد قيل ان خالدا لم يلق بالبطاح والبعوضة احدا ولكنه بث السرايا فى بنى تميم ، وكانت منها سرية عليها ضرار بن الازور الأسدى فلقى ضرار مالكا فاقتتلوا ، وأسره وجماعة معه فاتى بهم خالدا فأمر بهم فضربت أعناقهم وتولى ضرار ضرب عنق مالك . ويقال ان مالكا قال لخالد والله ما ارتددت وشهد ابو قتادة الانصارى ان بنى حنظلة وضعوا السلاح ، واذنوا ، فقال عمر بن الخطاب لابى بكر « رضهما » بعثت رجلا يقتل المسلمين ، ويعذب بالنار . وقد روى ان متمم بن نويرة دخل على عمر بن الخطاب فقال له ما بلغ من وجدك على اخيك مالك ، قال بكيته حولا حتى أسعدت عينى الذاهبة عينى الصحيحة وما رأيت نارا الا كدت انقطع لها أسفا عليه لانه كان يوقد ناره الى الصبح مخافة ان يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه ، قال فصفه لى « قال : كان يركب الفرس الجرور ويقود الجمل الثفال – وهو بين المزادتين النضوحين ، فى الليلة القرة ، وعليه شملة فلوت معتقلا رمحا خطلا فيسرى ليلته ، ثم يصبح ، وكان وجهه فلقة قمر ، قال فانشدنى بعض ما قلت فيه فأنشده مرثيته التى يقول فيها : =

. . . .

= وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فقال عمر : لو كنت احسن قول الشعر لرثيت اخي زيدا ، فقال متمم ولا سواء يا أمير المؤمنين لو كان اخي صرع مصرع أخيك ما بكيته ، فقال ما عزاني احد بأحسن مما عزيتني ٠

قالوا : وتنبت أم صادر سجاح بنت اوس بن حق بن اسامة بن الغنبز ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ٠ ويقال هى سجاح بنت الحارث ابن عقفان بن سويد بن خالد بن أسامة وتكهنت فاتبعها قوم من بنى تميم ، وقوم من اخوالهم بنى تغلب ، ثم انها سجعت ذات يوم فقالت : ان رب السحاب ، يأمركم أن تغزو الرباب ، فغزتهم فهزموها ولم يقاتلها أحد غيرهم فأتت مسيلمة الكذاب وهو بحجر فتزوجته ، وجعلت دينها ودينه واحدا فلما قتل صارت الى اخوانها فماتت عندهم ٠ وقال ابن الكلبى أسلمت سجاح وهاجرت الى البصرة وحسن اسلامها ٠ وقال عبد الأعلى ابن حماد النرسى سمعت مشايخ من البصريين يقولون ، ان سمرة بن جندب الفزارى صلى عليها وهو يلى البصرة من قبل معاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة ٠ وقال ابن الكلبى كان مؤذن سجاح الجنبة بن طارق بن عمرو بن حوط الرياحى وقوم يقولون ان شبث بن ربعى الرياحى كان يؤذن لها ٠

قالوا وارتدت خولان باليمن ، فوجه أبو بكر اليهم يعلى بن منية ، وهى أمة وهى من بنى مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر وأبوه أمية بن أبى عبيدة من ولد مالك بن حنظلة بن مالك حليف بنى نوفل بن عبد مناف فظهر بهم وأصاب منهم غنيمة وسبايا ويقال لم يلق حربا فرجع القوم الى الاسلام ٠

ردة بنى وليعة والأشعث بن قيس بن معدى كرب بن معاوية الكندى :

قالوا : ولى رسول الله ص زياد بن لبيد البياض « من الانصار » حضرموت ثم ضم اليه كندة ، ويقال ان الذى ضم اليه كندة أبو بكر الصديق ٠ وكان زياد ابن لبيد رجلا حازما صليبا ، فأخذ فى الصدقة من بعض كندة قلوصا ، فسأله الكندى ردها عليه وأخذ غيرها وكان قد وسمها بميسم الصدقة فأبى ذلك ، وكلمه الأشعث ابن قيس فيه فلم يجبه وقال لست براد شيئا قد وقع الميسم عليه ٠ فانتقضت عليه كندة كلها الا السكون فانهم كانوا معه فقال شاعرهم :

ونحن نصرنا الدين اذ ضل قومنا شقاء وشايعنا ابن أم زياد
ولم نبغ عن حق البياضى مزحلا وكان تقى الرحمن افضل زاد

وجمع له بنو عمرو بن معاوية بن الحارث الكندى فبيتهم فيمن معه من المسلمين فقتل منهم بشرا فيهم مخوس ، ومشرح ، وجمد وأبضعة بنو معديكرب ابن وليعة بن شرحبيل بن معاوية بن حجر القرد (والقرد الجواد فى كلامهم) بن الحارث الولادة بن عمرو بن معاوية بن الحارث وكانت لهؤلاء الأخوة أودية يملكونها فسموا الملوك الأربعة ، وكانوا وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم ثم ارتدوا وقتلت أخت لهم يقال لها العمردة وقاتلها يحسبها رجلا ثم ان زيادا أقبل بالسبى ، والأموال فمر على الأشعث بن قيس وقومه فصرخ النساء والصبيان ، وبكوا فحمى الأشعث أنفا وخرج فى جماعة من قومه فعرض لزياد ومن معه ، فأصيب ناس من المسلمين ثم هزموا فاجتمعت عظماء كندة الى الأشعث بن قيس ، فلما رأى زياد ذلك كتب الى أبى بكر =

. . . .

= يستمده ، وكتب أبو بكر الى المهاجر بن أبى أمية يأمره بانجاده فلقيا الأشعث ابن قيس فيمن معهما من المسلمين ففضا جمعه ، وأوقعا باصحابه فقتلا منهم مقتلة عظيمة ، ثم انهم لجاوا الى النجير وهو حصن لهم فحصرهم المسلمون حتى جهدوا ، فطلب الاشعث الامان لعدة منهم ، وأخرج نفسه من العدة ، وذلك ان الجفشيش الكندى ، واسمه معدان بن الاسود بن معد يكرب ، اخذ بحقوه وقال : اجعلنى من العدة فأدخله وأخرج نفسه ونزل الي زياد بن لبيد والمهاجر فبعثا به الى أبى بكر الصديق فمن عليه وزوجه أخته أم فروة بنت أبى قحافة ، فولدت له محمدا واسحاق وقريبة وحبابة وجعدة ، وبعضهم يقول : زوجه اخته قريبة ولما تزوجها اتى السوق فلم ير بها جزورا الا كشف عرقوبيها واعطى ثمنها وأطعمها الناس ، وقام بالمدينة ثم سار الى الشام والعراق غازيا ، ومات بالكوفة وصلى عليه الحسن بن على بن أبى طالب بعد صلحه معاوية ، وكان الأشعث يكنى أبا محمد ويلقب عرف النار . وقال بعض الرواة : ارتد بنو وليعة قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت زياد بن لبيد وفاته صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى بيعة أبى بكر فبايعوه ، خلا بنى وليعة فبيتهم وقتلهم ، وارتد الأشعث وتحصن فى النجير فحاصره زياد بن لبيد والمهاجر اجتمعا عليه ، وأمدهما ابو بكر « رضه » بعكرمة بن أبى جهل بعد انصرافه من عمان فقدم عليهما وقد فتح النجير . فسأل ابو بكر المسلمين أن يشركوه فى الغنيمة ففعلوا . قالوا وكان بالنجير نسوة شمتن بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب أبو بكر « رضه » فى قطع أيديهن وارجلهن ، منهن الثبجاء الحضرمية ، وهند بنت يامين اليهودية .

وحدثنى بكر بن الهيثم قال : حدثنى عبد الرزاق بن همام اليمانى ، عن مشايخ حدثوه من اهل اليمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى خالد بن سعيد بن العاص صنعاء ، فأخرجه العنسى الكذاب عنها ، وأنه ولى المهاجر بن أبى أمية على كندة وزياد بن لبيد الانصارى على حضرموت والصدف وهم ولد مالك ابن مرتع بن معاوية بن كندة ، وانما سمى صدفا لأن مرتعا تزوج حضرمية ، وشرط لها أن تكون عنده ، فاذا ولدت ولدا لم يخرجها من دار قومها ، فولدت له مالكا ، فقضى الحاكم عليه بأن يخرجها الى أهلها ، فلما خرج مالك عنه معها قال صدف عنى مالك فسمى الصدف . وقال عبد الرزاق ، أخبرنى مشايخ من اهل اليمن قالوا : كتب أبو بكر الى زياد بن لبيد والمهاجر بن أبى أمية المخزومى ، وهو يومئذ على كندة يأمرهما أن يجتمعا فتكون أيديهما يدا ، وأمرهما واحدا فيأخذ العاصين له البيعة ويقاتلا من امتنع من اداء الصدقة ، وان يستعينا بالمؤمنين على الكافرين ، وبالمطيعين على العاصين والمخالفين ، فأخذا من رجل من كندة فى الصدقة بكرة من الابل فسألهما أخذ غيرها فسامحه المهاجر وأبو زياد الا أخذها ، وقال ما كنت لاردها بعد أن وقع عليها ميسم الصدقة ، فجمع بنو عمرو بن معاوية جمعا فقال أبو زياد للمهاجر قد ترى هذا الجمع ، وليس الرأى أن نزول جميعا عن مكاننا لكن انفصل من المعسكر فى جماعة فيكون ذلك أخفى للأمر وأستر ، ثم أبيت هؤلاء الكفرة ، وكان زياد عازما صليبا ، فصار الى بنى عمرو وألفاهم فى الليل فبيتهم فأتى على أكثرهم وجعل بعضهم يقتل بعضا ، ثم اجتمع والمهاجر ومعهما السبى والأسارى فعرض لهما الأشعث بن قيس ووجوه كندة فقاتلاهم قتالا شديدا ، ثم ان الكنديين تحصنوا بالنجير فحاصراهم حتى جهدهم الحصار واضر بهم ، ونزل الاشعث على الحكم . قالوا : « وكانت حضرموت =

= اتت كندة منجدة لها فواقعهم زياد والمهاجر فظهرا بهم وارتدت خولان ، فوجه اليهم ابو بكر يعلى بن منية فقاتلهم حتى اذعنوا وأقروا بالصدقة ، ثم اتى المهاجر كتاب ابي بكر بتوليته صنعاء ومخاليفها وجمع عمله لزياد الى ما كان في يده فكانت اليمن بين ثلاثة : المهاجر ، وزياد ، ويعلى ، وولي ابو سفيان بن حرب ما بين آخر حد الحجاز وآخر حد نجران . وحدثني ابو نصر التمار ، قال : حدثني شريك قال عن ابراهيم بن مهاجر عن ابراهيم النخعي قال ، ارتد الأشعث بن قيس الكندي في ناس من كندة فحوصروا فاخذ الأمان لسبعين منهم ولم يأخذه لنفسه ، فأتى به ابو بكر فقال : انا قاتلوك لأنه لا أمان لك اذ اخرجت نفسك من العدة ، فقال : بل تمن علي يا خليفة رسول الله وتزوجني ففعل وزوجه أخته .

وحدثني القاسم بن سلام ابو عبيد ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح الليث بن سعد ، عن علوان بن صالح ، عن صالح بن كيسان ، عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن عوف ، عن ابي بكر الصديق أنه قال : ثلاث تركتهن ووددت أني لم افعل ، وددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه فانه تخيل الى أنه لا يرى شرا الا سعى فيه وأعان عليه ووددت أني يوم أتيت بالفجاءة قتلته ولم أحرقه ، ووددت أني حيث وجهت خالدا الى الشام ، وجهت عمر بن الخطاب الى العراق فاكون قد بسطت يميني وشمالي جميعا في سبيل الله .

اخبرني عبد الله بن صالح العجلي عن يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح عن فراس أو بنان عن الشعبي أن ابا بكر رد سبايا النجير بالفيدا ، لكل راس أربعمائة درهم ، وان الأشعث بن قيس استسلف من تجار المدينة فداءهم ، ثم رده لهم وقال الأشعث بن قيس يرثي بشير بن الأودح وكان ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد ، ويزيد بن أماناة ومن قتل يوم النجير :

لعمري وما عمري علي بهين لقد كنت بالقتلى احق ضنين
فلا غرو الا يوم يقسم سبيهم وما الدهر عندي بعدهم بامين
وكنت كذات البو ريعت فاقبلت على بوها ان طربت بحنين
عن ابن اماناة الكريم وبعده بشير الندى فليجر دمع عيون .

امر الأسود العنسي ومن ارتد معه باليمن : قالوا : كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي ومن ارتد معه باليمن قالوا : كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي قد تكهن وادعى النبوة ، فاتبعه عنس ، واسم عنس زيد بن مالك بن أدد بن يشجب بن عريب ابن زيد بن كهلان بن سبأ ، وعنس ، اخو مراد بن مالك ، وخالد بن مالك وسعد العشيرة بن مالك ، واتبعه أيضا من غير عنس ، وسمى نفسه رحمان اليمن وتسمى مسيلمة رحمان اليمامة ، وكان له حمار معلم يقول له اسجد لربك يسجد ، ويقول له ابرك فيبرك فسمي ذا الحمار ، وقال بعضهم ذو الخمار لأنه كان مختمرا معتما ابدا . واخبرني بعض أهل اليمن انه كان اسود الوجه ، فسمي الأسود للونه وان اسمه عيهلة . قالوا فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جرير بن عبد الله البجلي في السنة التي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، وفيها كان اسلام جرير ، الى الأسود يدعوه الى الاسلام فلم يجبه ، وبعض الرواة ينكر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم جريرا الى اليمن ، قالوا : « واتى الأسود صنعاء فغلب عليها واخرج خالد بن سعيد بن العاص عنها ويقال انه انما اخرج المهاجر بن أمية وانحاز خالد الى ناحية زياد =

وربما كان هناك تفسير آخر لقبول سكان البلاد المقهورة لحكم العرب فلم يكن هنـــاك فارق كبير عنـــد كثير منهم بين أن يحكمهم ايرانيون ، أو يونانيون أو عرب • وبخلاف المسئولين والطبقات ذات المصالح المرتبطة بهم والكهنة في بعض المجتمعات الدينية ، فان سكان المدن لم يكونوا يبالون بمن يحكمهم طالما كانوا آمنين يعيشون فى سلام ويدفعون ضرائب معتدلة ، أما سكان الريف والسهوب فقد عاشوا تحت امرة زعمائهم وفقا لعاداتهم

= ابن لبيد البياضى • وكان عنده حتى اتاه كتاب أبى بكر يأمره بمعاونة زياد ، فلما فرغا من أمرهما ولاه صنعاء وأعمالها ، وكان الأسود متجبرا فاستذل الأبنـــاء وهم أولاد أهل فارس الذين وجههم كسرى الى اليمن مع ابن ذى يزن وعليهم وهـــرز واستخدمهم فأضر بهم وتزوج المرزبانة امرأة باذام ملكهم ، وعامل ابرويز عليهم ، فوجه رســـول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن هبيرة المكشوح المرادى لقتاله وانما سمى المكشوح لأنه كوى على كشحه من داء كان به وأمره باستمالة الأبناء وبعث معـــه فروة بن مسيك المرادى ، فلما صارا الى اليمن بلغتهما وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأظهر قيس للأسود أنه على رأيه حتى خلى بينه وبين دخول صنعاء فدخلها فى جماعة من مذحج وهمدان وغيرهم ، ثم استمال فيروز بن الديلمى أحد الأبناء ، وكان فيروز قد أسلم ثم أتيا باذام رأس الأبناء ، ويقال ان باذام قد كان مات ورأس الأبناء بعده خليفـــة له يسمى داذويه وذلك أثبت ، فأسلم داذويه ولقى قيس ثات بن ذى الحرة الحميرى فاستماله وبث دازويه دعاته فى الأبناء فأسلموا فتطابق هؤلاء جميعـــا على قتل الأسود واغتياله ، ودسوا الى المرزبانة امرأته من أعلمها الذى هم عليه ، وكانت شانئة له فدلتهم على جدول يدخل اليه منه فدخلوا سحراً ويقال بل نقبوا جدار بيته بالخل نقبا ثم دخلوا عليه فى السحر وهو سكران نائم فذبحه قيس ذبحا ، فجعـــل يخور خوار الثور حتى أفزع ذلك حرسـه فقالوا ما شأن رحمان اليمن فبدرت امرأته فقالت ان الوحى ينزل عليه فسكنوا وأمسكوا واحتز قيس رأسه ثم علا سور المدينة حين أصبح فقال : الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأن الأســـود كذاب عدو الله ، فاجتمع أصحاب الأسود فالقى اليهم رأسه فتفرقوا الا قليلا ، وخرج أصحاب قيس ففتحوا الباب ووضعوا فى بقية أصحاب العنسى السيف فلم ينج الا من أسلم منهم • وذكر بعض الرواة أن الذى قتل الأسود العنسى فيروز بن الديلمي وأن قيســـا أجهز عليه واحتز رأسه ، وذكر بعض أهل العلم أن قتل الأسود كان قبـــل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بخمسة أيام ، فقال فى مرضه قد قتل الله الأسود العنسى ، قتله الرجل الصالح فيروز بن الديلمى ، وان الفتح ورد على أبى بكر بعدما استخلف بعشر ليـــال •

وأخبرنى بكر بن الهيثم قال حدثنى ابن أنس اليمانى عمن أخبره ، عن النعمان بن برزج أحد الأبناء أن عامل النبى صلى الله عليه وسلم الذى أخرجه الأســـود عن صنعاء ، ابان بن سعيد بن العاص ، وان الذى قتل الأسود العنسى فيروز الديلمى ، وان قيســـا وفيروز ادعيا قتله وهما بالمدينة فقـــال عمر قتله هذا الأسد يعنى فيروز • قالوا ثم ان قيسا اتهم بقتل داذويه ، وبلغ أبا بكر أنه على اجلاء الأبنـــاء عن صنعـــاء فأغضبه ذلك وكتب الى المهاجر بن أبى أمية حين دخل صنعاء وهو عامله عليها يأمره بحمل قيس الى ما قبله فلما قدم به عليه أحلفه خمسين يمينا عند منبر رســـول الله صلى الله عليه وسلم أنه ما قتل داذويه فحلف ، فخلى سبيله ووجهه الى الشـــام ـ (المراجع) •

الخاصة • وكان حلول العرب محل اليونانيين أو الايرانيين وضعا أفضل بالنسبة لبعضهم • أما أولئك الذين تجلت معارضتهم للحكم البيزنطى فى صورة الانشقاق الدينى، فقد كان من الأيسر لهم أن يعيشوا تحت امرة حاكم لا ينحاز لأى من الجماعات المسيحية المختلفة خاصة وأن الدين الجديد لم يكن قد اتضح بعد ، نظاما متكاملا كمذهب أو قانون ، وكذا لم يكن غريبا عنهم فى تلك الأجزاء من سوريا والعراق فقد حكمها أفراد ذوو أصول ولسان عربى ، وكان من السهل على قادتهم تبديل ولائهم من الاباطرة الى التحالفات العربية الجديدة خاصة وأن السيطرة السابقة عليها كان يتبادلها اللخميون والغساسنة ، وهكذا اختفت الدولتان العربيتان العميلتان للامبراطوريتين الكبريين (*) [أسس عمرو بن عدى اللخمى دولة اللخميين « بنى نصر » أو « المناذرة » فى الحيرة نحو القرن الثالث الميلادى ، وكانوا فى حروب متواصلة مع الغساسنة ، واعتنق المناذرة المسيحية ، وتحالفوا مع الفرس ، وتلاشت دولتهم بوفاة النعمان الثالث عام ٦٠٢ م ، ودخلوا الاسلام بعد الفتح العربى] •

وكان لابد من تغيير نظام الحكم فقد فرض الغزاة سلطتهم ونفوذهم من معسكرات جنود عرب مسلحين ، وفى سوريا كانت هذه المعسكرات تقام فى المدن الموجودة بالفعل ، ولكن فى الأماكن الأخرى كانت تنشأ المستوطنات مثل البصرة والكوفة فى العراق ، والفسطاط فى مصر (والتى أصبحت فيما بعد القاهرة) وأخرى على الحدود الشمالية الشرقية لخراسان ، وكانت هذه المراكز أقطاب جذب للمهاجرين من شبه الجزيرة أو للبلاد المقهورة حيث كانت مواقع القوة ، وتنامت لتصبح مدنا بكل منها مقر للحاكم وفى قلبها مكان للتجمع الشعبى هو المسجد •

فى « المدينة » وفى المدن المعسكرات الأخرى المرتبطة بشبكة من طرق برية كانت القوة فى أيدى الجماعات الجديدة الحاكمة ، وكان بعض أعضائها من صحبة النبى صلى الله عليه وسلم الأولين المخلصين ، ولكن كانت هناك نسبة كبيرة من أفراد العائلات المكية بما لهم من مهارات عسكرية وسياسية ومن عائلات مماثلة فى مدينة (الطائف) القريبة ، وبينما تزايدت الغزوات انضم آخرون من كبار العائلات القوية من القبائل

(★) يمكن القول ان العرب المناذرة فى غالبهم متعاطفين مع المسيحية ويمكن القول أيضا ان بعضهم قد اعتنقها ، لكن من المستبعد ان يكون المناذرة قد كونوا دولة مسيحية من الناحية الرسمية على الاقل ، لسبب بسيط وهو انهم حلفاء لدولة فارس ، ومعنى تدشين مملكتهم كمملكة مسيحية ، انهم أصبحوا ببساطة مثل الغساسنة =

الرتوية حتى من أولئك الذين كانوا يريدون التخلص من حكم « المدينة » بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم • وقد مالت الجماعات المختلفة الى الاختلاط مع بعضها البعض ، وأوجد الخليفة عمر نظاما من الرواتب والمعاشات ، لكل من حارب من أجل قضية الاسلام ، طبقا لأولوية الانضمام للدين ومدة الخدمة ، وزاد تماسك النخبة الحاكمة ، أو على الأقل انفصالهم عن المحكومين ، أما بين أعضاء النخبة الجدد الأغنياء وبين الأفقر منهم ، فقد كانت العلاقات متوترة منذ وقت مبكر •

وبالرغم من تماسك الجماعة بشكل عام فقد كانت منقسمة بفعل الخلافات الشخصية والطائفية ، وكان الصحابة الأول ينظرون باستخفاف وارتياب لأولئك الذين حققوا القوة والمكانة برغم تأخرهم فى الاسلام • وتتضارب ادعاءات السبق بالدخول فى الاسلام ومدى القرب لمحمد صلى الله عليه وسلم مع ادعاءات نبل المحتد وزفعة النسب ، وقد شهد شعب المدينة انسحاب القوة الى الشمال حيث الأراضى الأغنى والأكثر عمرانا بالسكان فى الشام والعراق ، حيث كان الولاة يحاولون جعل سلطانهم أكثر استقلالية •

طفا هذا التوتر على السطح فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٦٤٤م ـ ٦٥٦م) ، وقد اختاره عدد قليل من قريش بعد اغتيال عمر بسبب ثار شخصى (*) ، وقد أوحى عثمان اليهم بالأمل فى التقريب بين الفرقاء

= حلفاء للبيزنطيين (الروم) • ونفضل هنا الاستعانة بباحث محقق هو جورج قنواتى • يقول الاب الدكتور قنواتى : « ••• والغريب فى الامر ان الملك نفسه كان وثنيا بالرغم من أنه كان متزوجا من مسيحية ، وكان يقدم الى آلهته قرابين بشرية حية •• ومرة استولى على اربعمائة راهبة من حمص وقدمهن قرابين بدون رحمة ، ولعل زوجته هند أرادت ان تكفر عن جريمة زوجها فاسست فى الحيرة ديرا ••• اما أول ملك من المناذرة اعتنق المسيحية فهو النعمان الثالث (بعد سنة ٥٧٠ م) ومع هذا ، فقد احتفظ بأكثر من زوجة واحتفظ ببعض الأخلاق الوثنية ، وقد أنهى الفرس امارة اللخميين بالقبض على هذا الملك وسجنه فى فارس ، وقد مات بالفعل سنة ٦٠٢ م •• اما اللغة التى كانت تستخدم فى الحيرة فهى العربية والسريانية وهما لغتان ساميتان متقاربتان •• ومن المؤكد أن العباد (بضم العين وتشديد الباء) وهم مسيحيو الحيرة هم أول من استعملوا الخط العربى ••• » جورج قنواتى : المسيحية والحضارة العربيــة ، صص ٧٥ ـ ٧٦ (القاهرة ، دار الثقافة) ط ٢ ، ١٩٩٢ ـ (المراجع) •

(★) قتل أبو لؤلؤة فيروز الفارسى غلام المغيرة بن شعبة « عمر بن الخطاب ولا نعرف ثارا شخصيا بينه وبين الفاروق عمر رضى الله عنه ، وانما هو التعصب • لم يشر الطبرى ولا ابن الاثير ولا ابن خياط ولا غيرهم من كتاب الحوليات لثار شخصى بين عمر رضى الله عنه وفيروز ـ (المراجع) •

لأنه ينحدر من قلب قريش ورغم ذلك كان من أوائل من اعتنقوا الاسلام ، وكانت سياسته هي تعيين أعضاء أسرته كحكام للأقاليم مما أثار المعارضة بين كل من أبنـــاء رفاقه وأقارب زوجـــة النبى عائشـــة فى الكوفة والفسطاط ، وقد رفضت بعض القبائل سيطرة هؤلاء الرجال المكيين ، وبدأت القـلاقل فى المدينة مؤيدة بجنـــد من مصر وأدت الى قتل عثمان فى ٦٥٦ م •

بهذا بدأت أول فترة من الحرب الأهليـــة فى الجماعة • وقد كان المطالب بالخـلافة هو (على بن أبى طالب) (٦٥٦ ــ ٦١) من قريش ومن أوائل من آمنوا ، وابن عم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته فاطمـــة ، وقد وجـــد نفسه فى فى مواجهة معارضة مزدوجة من أقارب عثمان الذين كانوا ضـــده وكذلك الذين جادلوا فى شرعية اختياره ، وانتقل الصراع الدائر حول السلطة فى المدينة الى المدن والمعسكرات ، ونصب (على) نفســه خليفـــة فى الكوفة وتركز المنشقون فى البصرة ، وهزمهم ولكنه واجـــه تحديا جديدا من ســــوريا حيث كان الحاكم (الوالى) معاوية بن أبى ســـفيان على صـــلة قرابة بعثمان وتقــــابل الفريقان فى موقعــــة (صـــفين) فى أعالى الفـــرات ، وبعد قتـــال لفترة إتفق الطرفان على التحكيم عن طريق ممثلين يختارهما الجانبان ، وعندما وافق (على) على ذلك تخـــلى عنـــه بعض أنصـــــاره لأنهم لم يكونوا مستعدين لحل وســط وانما الخضوع لمشيئة الله كما كانوا يرونها كبشر ، اذ ان شرف الانتساب المبكر للاسلام كان فى خطر ، وفى شهور المفاوضات بين المحكمين أظهر ممثل (على) ضعفا واغتيل (على) فى النهاية فى مقره بالكوفة ، وأعلن معاوية نفسه خليفة وأذعن لذلك الحسن الابن الأكبر لعلى •

الخـــلافة فى دمشـــق

يعتبر وصول معاوية الى السلطة (٦٦١ ــ ٦٨٠) فى نظر الكثيرين علامة على نهاية مرحلة وبداية أخرى ، فقد كان الخلفاء الأربعة الأول من أبى بكر حتى على يعرفون لغـــالبية المسلمين بالراشـــــدين ، وفيمـــا بعد أصبحت النظرة للخلفاء مختلفة تماما ، فقبل كل شيء أصبحت الخلافة وراثية منذ ذلك الحين ، ورغم بقاء شكل من التفكير الاختيارى أو على الأقل الاعتراف الرسمى والشكلى (البيعة) من زعماء المجتمع ، الا أن الحقيقة أن السلطة أصبحت فى أيدى عائلة ، سميت بالأموية نسبة الى الجد الأعلى « أمية » ، وعندما توفى معاوية خلفه ابنه لفترة وجيزة تلتها فترة ثانية من الحرب الأهلية وانتقل العرش بعدها الى فرع آخر من العائلة •

ولم يكن التغير قاصرا على الحكام ، اذ انتقلت عاصمة الامبراطورية الى دمشق ، وهى مدينة واقعة وسط منطقة ريفية حيث يمكن توفير الفائض اللازم لقيام مقر وحكومة وجيش،وهى منطقة يمكن منها التحكم فى الأراضى الساحلية شرق المتوسط والأراضى الواقعة شرقها بشكل أكثر سهولة من « المدينة » ٠ وكان ذلك عظيـم الأهميـــة فقد كانت الخلافة فى مرحلة توسع ، وتقدمت القوات الاسلامية عبر المغرب ، وأنشأت أول قاعدة مهمة فى القيروان فى أفريقيـا فيما كان أحد أقاليم الامبراطورية الرومانيـة (تونس حاليا) ، ومنها اتجهوا غربا حتى بلغوا سواحل الأطلنطى فى المغرب بنهاية القرن السابع ، وسرعان ما عبروا الى أسبانيا ، وفى الناحية الشرقية استطاعوا فتح ماوراء خراسان،حيث وصلوا الى وادى نهر جيحون وكانت بدايات التقدم الاسلامى نحو شمال غرب الهند ٠

وتطلبت هذه الامبراطورية نمطا جديدا من الحكم ، وهناك رأى انتشر فى الأجيال اللاحقة ، عندما خلف الأمويين ســلالة معادية لهم ، بأنهم أسسوا حكما موجها لأهداف دنيوية تحكمها المصالح الشخصية بدلا من حكم الخلفاء الذى كان مكرسا لصالح الدين ، وقد يكون من العدل القول ان الأمويين وجدوا أنفسهم فى مواجهة مشاكل حكم امبراطورية عظمى ، ولذا ، تورطوا فى الحلول الوسط للحفاظ على القوة وتطوروا تدريجيا من زعماء قبائل بدوية الى أن صاغوا نمطا من الحياة يشبه الشكل التقليدى السائد بين حـكام الشرق الأدنى ، يستقبلون ضيوفهم والتابعين وفقـا للممارسات الاحتفالية كمثل الامبراطور البيزنطى أو ملك ايران،واستبدلت الجيوش العربية الأولى بقوى نظـامية جديدة تتقاضى أجورا ، وتشكلت مجموعة حاكمة جديدة معظمها من قادة الجيش وزعماء القبائل ، وفقدت العائلات صاحبة النفوذ فى مكة والمدينة أهميتها السابقة حيث كانوا بعيدين عن كرسى السلطة ، وحاولوا الثورة أكثر من مرة ٠ ومدن العراق أيضا كان ولاؤها مشكوكا فيه وكان لابد أن يحكمها ولاة أقوياء موالون للخليفة ، وكان الحكام من أهل الحضر الملتزمين بالحياة المستقرة والمعادين لدعاوى السيطرة والسيادة المعتمدة على العصبيات القبلية ، وكما حذر أول الولاة الأمويين للعراق « أنتم تعلون شأن القرابة عن شأن الدين » ، أما الحجاج ــ وهو واحد من الولاة الأمويين الذين أتوا بعد ذلك ــ فقد تعامل بشكل أكثر حزما مع وجهاء وأعيان القبائل وأتباعهم ٠

ورغم أن القوة المسلحة كانت بين أيد جديدة ، الا أن الادارة المالية ظلت كما كانت فى أيدى كتبة من نفس المجموعات التى خدمت الحكام

السابقين ، يستخدمون اللغة اليونانية فى الغرب والايرانية فى الشرق •
ومنذ التسعينات من القرن السابع تغيرت لغة الادارة الى العربية ولكن ذلك لم يتمخض عن تغير كبير فى الأشخاص أو طرق العمل ، واستمر أفراد العائلات الوظيفية بخبرتهم فى العمل وأصبح كثير منهم مسلمين وخاصة فى سوريا •

وقد فرض الحكام الجدد أنفسهم بقوة ليس فى المدن فقط ولكن فى الريف السورى فى الأراضى التى كانت تابعة للحكم الرومانى أو الأراضى التى هجرها أصحابها ، خاصــة فى المناطق الداخلية المواجهة للسهوب العربيــة الشمالية ، وقد اعتنوا بالمحافظة على نظـم الرى والزراعة التى وجدوها هناك ، والبيوت والقصور التى بنوها لتكون مراكز للســيطرة الاقتصادية والضيافة أيضا ، جهزت وزينت على طرز الحكام الذين خلفوهم بما فيه صالات العرض والاحتفالات والحمامات ، وأراض من الموزاييك وأبواب وأسقف منقوشة •

فى هذا ، وفى غيره كان الأمويون يشبهون ملوك البربر من غرب الامبراطورية الرومانية ، اذ لم يستقروا بسهولة فى عالم معاد ، واستمرت حياتهم مرهونة بقوتهم ، ولكن كان هناك فارق، فالحكام فى الغرب جلبوا معهم القليل مما يمكنه الصمود حيال قوى الحضارة اللاتينية المسيحية التى انجذبوا اليها ، أما الجماعة العربية الحاكمة فقد جاءت بشىء تمسكت به فى خضم الثقافة الرفيعة للمشرق الأدنى (*) ، هو الايمان بوحى نزل من السماء على النبى محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية ، وقد وفرت لهم تلك الثقافة تركيبة خاصة يعبرون بها عن أنفسهم •

وكان أول تأكيد واضح لخلود ودوام وتميز هذا النظام الجديد فى التسعينيات من القرن السابع فى عهد الخليفة عبد الملك (٦٨٥ — ٧٠٥م) حيث تواكب دخول العربية كلغة للادارة مع ظهور نمط جديد من العملة ، وكانت لذلك دلالة ملحــوظة ، فالعملة رمز القوة والهوية ، وبدلا من العملة التى تحمل صورا للشخصيات والتى أخذت عن الساسانيين أو التى سكها الأمويون فى دمشق ، سكت عملات جديدة تحمل فقط كلمات تعبر عن وحدانية الله وصــحة الدين الذى أتى به الرســـول صلى الله عليه وسلم •

وقد كان بناء الصروح المعمارية العظيمة فى حد ذاته شاهدا شعبيا بأن الوحى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية هو الأخير والأكثر كمالا وأن مملكته ستبقى الى الأبد •

(*) وتطور بفعل تلك الثقافة ليصبح لغة يمكن من خلالها أن تعبر عن نفسها •

كان أول أماكن العبادة الجماعية هو المسجد ، (اللفظ الانجليزى مشتق من اللفظ الأسبانى) يستخدم لعقد اجتماع المجتمع بأسره لتدارس الشئون العامة ، ولم تكن هناك علامات تميزها عن أنواع المبانى الأخرى ، فبعضها كان مبانى قديمة استخدمت لهذا الغرض ، والبعض الآخر كان مبانى جديدة فى قلب المستوطنات الاسلامية ، وقد احتفظت الأماكن المقدسة لليهود والمسيحيين بتأثيرها على خيال الحكام الجدد ، فقد زار عمر بن الخطاب القدس بعد الاستيلاء عليها ، ونودى بمعاوية خليفة هناك ٠ وفى التسعينات من القرن السابع أقيم أول بناء كبير أكد بوضوح أن الاسلام متميز وباق ، وكان ذلك البناء هو « قبة الصخرة » ، والذى بنى على موقع لمعبد يهودى فى القدس ، وتحول الى حرم اسلامى كان مقصودا أن يكون مزارا للحجيج حول الصخرة ، وطبقا لعقيدة اليهود الربانيين ، فان الله طلب من ابراهيم عليه السلام التضحية باسحق (*) ، وبناء الصخرة فى هذا المكان أصبح يفسر بشكل مقنع كفعل رمزى ، يوطد للاسلام موضعه من سلالة ابراهيم منفصلا عن اليهودية والمسيحية ، كانت النقوش الداخلية اقدم تجسيد حى لمقتطفات من القرآن ، تعبر عن عظمة الله « القوى الحكيم » وتعلن « أن الله وملائكته يصلون على النبى » ، وتدعو المسيحيين للاعتراف بالمسيح كرسول الله وكلمته وروحه وليس ابنه (١) ٠

بعدها بقليل بدأ بناء سلسلة من المساجد العظيمة صممت لمواجهة احتياجات شعائر الصلاة ، فى دمشق وحلب والمدينة والقدس وبعدها فى القيروان ، أول مركز عربى فى المغرب ، وفى قرطبة العاصمة العربية لأسبانيا ، وكلها تتبع نفس التصميم الأساسى من الساحة الواسعة المفتوحة التى تؤدى الى فراغ مغطى مصمم بحيث تقف صفوف طويلة من المصلين الذين يؤمهم امام باتجاه مكة ، ومحراب كعلامة مميزة للحائط الذى يواجههم ، وبجواره المنبر تلقى من فوقه خطبة الجمعة ، وملحق بالمبنى أو أعلاه المئذنة ومنها يؤذن المؤذن داعيا المؤمنين للصلاة فى المواقيت المحددة ٠

ولم تكن المبانى مجرد علامات على القوة فقط ، وانما كانت تعبيرا عن نمو مجتمع جديد متميز ٠ وتطور الدين من مجرد ايمان مجموعة حاكمة الى انتشار تدريجى وقبول عام بالوحى الذى نزل على محمد صلى الله عليه

(*) يعتقد غالب المسلمين أن التضحية كانت باسماعيل عليه السلام عند موقع بئر زمزم بمكة المكرمة ــ (المراجع) ٠

وسلم ، وقد لانعرف الكثير عن طبيعة هذا الانتشار الا أننا يمكن أن نتأمل المسار الذى اتخذته ، فالعرب الذين يعيشون فى ريف العـــراق وسوريا كان قبولهم نابعا من التضامن مع الحكام ، (ما عدا فرعا واحدا من الغساسنة) ، ثم ان المسئولين العاملين لدى القادة الجدد ، كان ولاؤهم نابعا من المصلحة الشخصية أو الانجذاب الطبيعى للنفوذ ، وكذلك الأسرى خلال الفتوحات الاسلامية أو جنود الساسانيين المنضمين للعرب ، كذلك المهاجرون للمدن الجديدة يمكن أن يتحولوا للاسلام تفاديا لضريبة الرأس المفروضـة على غـير المسلمين ، وقد كان من الأيسر على الزرادشـــت (الديانة الايرانية القديمة) أن يصبحوا مسلمين ، من أولئك المسيحيين، حيث ضعفت مؤسستهم الدينية بسقوط الحكم الساسانى ، ثم ان بعض المسيحيين الذين تأثروا بالجدل والخلاف حول الطبيعة الالهيـة والوحى كان يمكن أن تجتذبهم بساطة رد الفعل الاسلامى المبكر لمثل هذه التساؤلات ضمن ما كان بشكل عام من نفس العالم الفكرى • وكان التحول للاسلام عملية بسيطة ، فى ظل غياب مؤسسة دينية اسلامية ، مع عدم وجود طقوس للتحول الى الدين الجديد ، فلا يتطلب الأمر سوى ترديد بعض الكلمات البسيطة مما جعلهـــا عملية سهلة ، وبرغم ســـهولته الا أنه كان يعنى التزاما بقبول العربية التى نزل بها الوحى ، اضافة الى أن الاحتياج للتعامل مع الحـكام العرب والجنود وأصحاب الأراضى تضمن القبول بها كلغة تخاطب يومية • وانتشرت اللغة العربية أينما حل الاسلام ولكن الانتشار كان ما يزال فى بداياته خارج الجزيرة العربية فقد حكمت الدولة الأموية بلادا معظم سكانها من غـير المسلمين ومن غـير المتحدثين بالعربية •

ولم يكن اتســاع المجتمعات الاسلامية ولا زيادة قوتها ، يعمـلان لصالح بنى أمية ، فسوريا التى تمثل المنطقة المركزية لحكم الأمويين كانت حلقة ضعيفة فى سلسلة البلدان التى شــملتها الامبراطورية (الدولة الأموية) ، وهى بذلك — أى سوريا — تختلف عن ايران والعراق وبلدان أفريقيا ذات المدن الجديدة ، فقد كانت مدن سوريا قد ظهرت قبل الاسلام، وانتعشت الحياة فيها مستقلة عن الحكام ، وكانت تجارتها قد انقطعت بانفصالها عن الأناضول التى ظلت فى حوزة البيزنطيين ، بسبب الحروب الحدودية بين الدولتين الأموية والبيزنطية • (بين العرب والبيزنطيين) •

وقد تركزت القوة الرئيسية للمجتمع الاسلامى الى الشرق من سوريا• وكانت مدن العراق متنامية فى الحجم بوصول المهاجرين من ايران ومن شبه الجزيرة العربية ، وكانوا يغترفون من ثروة الأراضى القابلة للرى

فى جنوب العراق ، حيث فرض بعض العرب أنفسهم كأصحاب للأراضى ، وكانت المدن الجديدة مملوءة بالعرب أكثر من تلك التى فى سوريا وأصبحت حياتهم أكثر ثراء بانضمام أعضاء من الطبقة الحاكمة الايرانية السابقة للعمل كمسئولين أو جباة للضرائب ٠

وكان الوضع مشابها فى خراسان فى أقصى الشمال من الامبراطورية التى كانت واقعة على حدود التوسع الاسلامى فى آسيا الوسطى ، وكانت بها حامية كبيرة ، كما أن أراضيها الصالحة للزراعة والمراعى اجتذبت المستوطنين العرب ، ومنذ وقت مبكر كان هناك كثير من العرب يعيشون جنبا الى جنب مع الايرانيين الذين احتفظ كبار ملاكهم وحكامهم بمواقعهم ، وبدأ تدريجيا نوع من التكامل بينهم بعد توقف نشاطهم العسكرى واستقرارهم فى الريف وفى مدن نيسابور وبلخ ومرو ٠ ودخل العرب فى المجتمع الايرانى واحتل الايرانيون موقع الجماعات الحاكمة ٠

وقد أدى تنامى المجتمعات الاسلامية فى المدن والولايات الشرقية الى توترات نتجت عن الطموحات الشخصية والمظالم المحلية والصراعات الحزبية والتى تجلت فى أكثر من شكل من الصراعات العرقية والقبلية والدينية ، ونظرا لبعد هذه المناطق عن قلب العالم الاسلامى ، كان من الصعب ادراك كيفية حدوث الانقسامات أو معرفة مسارها ٠

كان هناك أولا وقبل كل شىء نوع من الكراهية بين الايرانيين الذين اعتنقوا الاسلام حيال الامتيازات المالية وغيرها الممنوحة لأصحاب الأصول العربية ، وتزايد هذا السخط بضعف ذكريات الانتصارات الأولى، وربط بعض الداخلين للاسلام أنفسهم بزعماء العرب كعملاء ، وهم (الموالى) ولكن هذا لم يزل الفاصل بينهم وبين العرب (*) ٠

كما ظهرت الانقسامات أيضا على شكل خلافات ومعارضات ونزاعات قبلية ٠ فقد جلبت الجيوش الآتية من الجزيرة العربية معها النعرات القبلية التى تزايدت وقويت مع الظروف الجديدة ، وتجمعت فى المدن مواقع المهاجرين من الجماعات التى تدعى وحدة السلف بشكل أكثر قربا مما كانت عليه فى السهوب العربية ، وكان الزعماء الأقوياء الذين يدعون

(★) الموالى مصطلح أطلق على غير العرب (من فرس وغيرهم) ، ولم يكن قصرا على فئة اظهرت ولاءها أو لم تظهر ، فالفرس الذين أسلموا يطلق عليهم اسم الموالى ، وقد تكون للكلمة دلالة لغوية ، لكن المعنى الاصطلاحى هو الذى غلب فى النهاية ـ (المراجع) ٠

قبل المحتد والنسب أكثر أنصارا ، وقد مكن الميل السياسى الموحد ، هؤلاء الزعماء والقبائل من الارتباط ببعضهم فى مساحات كبيرة من الأراضى مما أوجد فى بعض الأحيان مصالح مشتركة ، واستغلت خلال الصراع للسيطرة على الحكومة المركزية ، الأسماء القبليه والولاءات التى كانت تتبعها ، فقد ارتبط أحد فروع الأمويين بالمصاهرة « ببنى كلب » الذين كانوا قد استقروا فى سوريا قبل فتحها ، وكانت مجموعة أخرى من القبائل تؤيد أحد المطالبين بالخلافة من غير الأمويين بعد وفاة ابن معاوية ، فقد كان يحدث فى بعض الأحيان أن تجسد المصالح العامة فكرة الأصل المشترك الذى تنتمى اليه كافة القبائل من وسط شبه الجزيرة العربية أو جنوبها • (ومازالت أسماء قيس واليمن باقية فى بعض أجزاء سوريا حتى القرن الحالى رمزا لتلك الصراعات المحلية السحيقة) •

وقد كانت النزاعات حول الخلافة وطبيعة السلطة فى المجتمع الاسلامى أكثر دواما ، فقد نازعت مجموعتان ادعاءات معاوية وعائلته رغم أن كلا منهما لم تكن محددة أو واضحة المعالم لدرجة أن من الأفضل أن نصفها بأنها ميول ، كان أولهما المجموعات المختلفة المسماة بالخوارج ، وكانت بدايتها هى أولئك الذين انسحبوا من جانب « على » عندما وافق على التحكيم فى معركة صفين ، وقد سحقوا نتيجة ذلك ، ولكن بعض الحركات المتأخرة استخدمت نفس الاسم خاصة فى المناطق الواقعة تحت حكم البصرة وقد عارضوا زعامة شيوخ القبائل بأنه لا فضل فى الاسلام الا بالتقوى ، فالمسلم التقى هو الذى يمكن أن يحكم كامام أما اذا انحرف فلا طاعة له ، وسواء أكان « عثمان » الذى جعل الأولوية لمطالب العائلة أم « على » الذى وافق على التسوية فى قضية مبدأ فكلاهما مخطىء ، ولكنهم لم يتوصلوا من ذلك جميعا لنفس الاستنتاج ، فرضخ البعض للحكم الأموى وثار البعض عليه واعتقد البعض أن على المؤمنين أن يحاولوا تأسيس مجتمع فاضل بهجرة جديدة الى مكان بعيد •

وكانت الجماعة الأخرى هى التى آمنت بأحقية محمد صلى الله عليه وسلم فى الحكم ، وهى فكرة اتخذت أشكالا عدة ، وكان أكثرها أهمية على المدى الطويل ، تلك التى اعتبرت « عليا » ونسله زعماء شرعيين للمجتمع « أئمة » ، وحول هذه الفكرة تجمع آخرون ، جاء بعضهم من ثقافات دينية من البلاد التى دخلها الفتح الاسلامى ، وكان المعتقد أن عليا وخلفاءه قد انتقلت اليهم ، من خلال محمد صلى الله عليه وسلم ، نفحة روحية وخاصة المعرفة بالمعانى الباطنة للقرآن بصفتهم أكثر من بشر • وأن أحدهم سوف يعود ليحقق

سيادة العدل ، وقد ظهرت التوقعات بمجىء « المهدى » مبكرا فى تاريخ الاسلام ، ففى عام ٦٨٠ انتقل « الحسين » الابن الثانى لعلى الى العراق مع مجموعة صغيرة من عشيرته واتباعه أملا فى تأمين دعم من الكوفة وما حولها ، لكنه قتل فى معركة كربلاء بالعراق ، وأعطى موته قوة لذكريات الشهادة بين أتباعه (شيعة على أو الشيعة) ، وبعد بضع سنوات كان هناك عصيان وتمرد لصالح « محمد بن الحنفية » وهو أحد أبناء على من زوجة أخرى غير فاطمة .

وخلال العقود الأولى من القرن الثامن قام الحكام الأمويون بسلسلة من المحاولات للتعامل مع هذه الحركات المعارضة التى عبرت عن نفسها بأشكال مختلفة ، ومواجهة الصعوبات الملازمة لحكم مثل هذه الامبراطورية الهائلة غير المتجانسة،واستطاعوا تقوية وتدعيم الأسس المالية العسكرية لحكمهم ، وتعين عليهم مواجهة عدة حركات تمرد كبيرة ، وفى الأربعينيات من القرن الثامن انهار حكمهم فجأة فى مواجهة حرب أهلية جديدة وتحالف من الحركات ذات الأهداف المختلفة ، وان وحدها العداء المشترك لهم ، كانت هذه الحركات أكثر قوة فى شرق الامبراطورية منها فى غربها ، وخاصة فى خراسان بين بعض الجماعات العربية التى كانت على وشك الذوبان فى المجتمع الايرانى وكذلك بين « الموالى » من الايرانيين، كما ظهر فى مناطق أخرى تعاطف وسيل وجدانى شيعى(*) واسع الانتشار ولكن بلا تنظيم .

وقد ظهرت قيادة أكثر فعالية فى فرع آخر من فروع عائلة النبى صلى الله عليه وسلم هى ذرية نسل عمه « العباس » الذين ادعوا أن ابن محمد بن الحنفية قد أولاهم حقه فى الخلافة ، ومن موقعهم على حافة الصحراء السورية استطاعوا خلق تنظيم مركزه فى الكوفة وأرسلوا مبعوثا لهم مجهول الأصل الى خراسان وقد يكون ايرانى الأصل هو « أبو مسلم الخراسانى » الذى استطاع تشكيل جيش وتحالف من العناصر

(*) ليس كل من أحب آل البيت شيعيا ، والتشيع ـ بمعناه الاصطلاحى ـ لم يعد مجرد حب لآل البيت ، وانما اصبح المصطلح ينطوى على نظام خاص فى العبادة (لم تعقد صلاة الجمعة فى مراحل كثيرة عند الشيعة لغيبة الامام) ، وتتم الصلاة بدون تسليم (اى قول السلام عليكم ورحمة الله ذات اليمين وذات الشمال) بالاضافة الى تفاصيل اخرى ، أما الشيعة الغلاة فقد خلطوا ببن التوحيد الخالص الذى هو السمة الرئيسية للاسلام وبين معتقدات من ديانات اخرى ، لكن المسار العام أصبح الآن هو التقريب بين المذاهب الاسلامية المختلفه ـ (المراجع) .

المنشقة ومن العرب وغيرهم للتمرد والعصيان تحت الراية السوداء التى أصبحت رمزا لهذه الحركة ، وباسم أحد أفراد عائلة النبى (ص) ، ولم يذكر اسما محددا ، وبذلك استطاع تعزيز الدعم لهذه الحركة • واتجه هذا الجيش غربا واستطاع هزيمة الأمويين فى عدة معارك بين (٧٤٩ - ٧٥٠م) وطارد آخر الخلفاء الأمويين مروان الثانى حتى مصر حيث قتل ، وفى نفس الوقت نودى بالقائد غير المعروف « أبو العباس » خليفة فى الكوفة ولم يكن من نسل على وانما من نسل العباس •

وقد وصف المؤرخ الطبرى (٨٣٩ - ٩٢٣) هذا الاعلان عندما اعتلى أخو أبو العباس داود درجات المنبر فى الكوفة وخاطب المؤمنين قائلا :

« الحمد لله شكرا شكرا ، الذى أهلك عدونا ، وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس ، الآن انقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم الى منزعه ، ورجع الحق الى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم •• وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون واليه تتشوفون ، فأظهر منكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل اليكم السلطان وعز الاسلام ، •• ، ألا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، وأشار بيده الى أبى العباس » (٢) •

الخلافة فى بغداد

خلفت عائلة عائلة أخرى فى الحكم واستبدلت سوريا كمركز لخلافة المسلمين لتحل محلها بغداد ، وكان نفوذ «أبو العباس» (٧٤٩ - ٧٥٤م) وخلفائه الذين عرفوا بالعباسيين محدودا فى دول شرق المتوسط وفى الحجاز التى كانت امتدادا لحكمهم بخلاف نفوذهم فى المناطق الساسانية سابقا فى جنوب العراق وواحات وهضبة ايران وخراسان والأراضى الممتدة وراءها حتى آسيا الوسطى ، وكان من الصعوبة على الخليفة أن يحكم المغرب ولكن المغرب كان أقل أهمية •

ولم يختلف حكم العباسيين عن حكم الأمويين الذين سبقوهم فى نواح كثيرة ، ومنذ البداية وجدوا أنفسهم متورطين فى مشكلة لا فكاك منها حول

الأسرة الحاكمة الجديدة وكيف يمكن تحويل القوة المحدودة الناشئة من تحالف المصالح المنفصلة الى شيء أكثر استقرارا ودواما ، لقد وصلوا الى السلطة على يد تركيبة من القوى اتحدت فقط فى معارضتها للأمويين، وكان عليهم تجديد علاقات القوى ضمن هذا التحالف • وكان على الخليفة التخلص من أولئك الذين أتوا به الى السلطة أولا وقبل كل شيء ، فقتل أبا مسلم وآخرين كما كانت هناك صراعات داخل العائلة نفسها ، وفى البداية أختير بعض أفرادها كولاة ولكن بعضهم تعاظمت قوته أكثر مما ينبغى ، وفى غضون جيل واحد ظهرت صفوة حاكمة من كبار المسئولين ينحدر بعضهم من عائلات ايرانية ذات تراث من الخدمة فى الدولة ، ومن الذين أسلموا حديثا وآخرون من أفراد بيت الحاكم كان بعضهم من العبيد المعتقين •

وقد تجلى هذا التركيز للقوة فى أيدى الحاكم فى عهد خلفاء « أبو العباس » خاصة « المنصور » (٧٥٤ ــ ٧٧٥م) وهارون الرشيد (٧٨٦ ــ ٨٠٩م) فى انشاء عاصمة جديدة (بغداد) ويسجل الطبرى واقعة حول زيارة المنصور لموقع العمل لانشاء مدينة المستقبل :

« ••• فخبرت أنه أتى ناحية الجسر في موضع قصر السلام ثم صلى العصر ، وكان فى صيف ، وكان فى موضع القصر بيعة قس ، ثم بات ليله حتى أصبح ، فبات أطيب مبيت فى الأرض ، وأرفقه وأقام يومه ، فلم ير الا ما يجب ، فقال هذا موضع أبنى فيه ، فانه تأتيه الماء من الفرات ، ودجلة ، وجماعة من الأنهار ، ولا يحمل الجند والعامة الا مثله ، فخطها وقدر بناءها ، ووضع أول لبنة بيده وقال بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله » (٣) •

كانت بغداد واقعة فى نقطة يتقارب فيها دجلة والفرات ، حيث وفر نظام القنوات المائية ريفا غنيا يكفى لانتاج الطعام لمدينة كبيرة وكذا عائدات وايرادات للحكومة ، وكانت واقعة على ممرات استراتيجية مؤدية الى ايران وما وراءها والى الجزيرة فى شمال العراق حيث كانت تزرع الحنطة ، والى سوريا ومصر اللتين ظلتا على ولائهما للأمويين ، ولما كانت مدينة جديدة فقد تحرر الحكام من الضغوط التى يمارسها السكان العرب المسلمون على الكوفة والبصرة ، ووفقا لتقاليد طويلة كان حكام الشرق الأدنى بمقتضاها متباعدين عن المحكومين ، فقد كان مخططا للمدينة أن

تعبر عن أبهة وسمو الحكام عن محكوميهم ، وفى المركز على الضفة الغربية لدجلة كانت تقع «المدينة المستديرة» المكونة من القصور والثكنات والمكاتب والأسواق وتقع خارجها المناطق السكنية ·

يورد المؤرخ «الخطيب البغدادى» (١٠٠٢ – ١٠٧١م) وصفا لعظمة القصر واحتفالاته فى وصـــفه لاستقبال الخليفة المقتدر عام ٩١٧ م لسفير بيزنطة · عنـــدما أخذ الى حضرة الخليفة بناء على أوامره طاف به رجاله القصر القاعات والأفنية والساحات والحدائق واستعرض الخصيان والموظفين ورجال القصر وأمناء خزائن المال والأفيال المزركشة بالمقصب من حرير الطواويس وفى غرفة الشجرة وجدوا :

شجرة فى وسط بركة كبيرة ، مدورة فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانى عشرة عينا ، لكل غصن منها شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب ، وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان ، تتحرك كما يحرك الريح أوراق الشجر ، وكل هذه الطيور يصفر ويهدر ·

وأخيرا وصلوا الى حضرة الخليفة :

ووصلوا الى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج مما يلى دجلة ، بعد أن لبس بالثياب الديبقية المطرزة بالذهب على سرير ابنوس ، ·· . ومن يمنـــة السرير تسعة أخـــرى من أفخـــر الجواهر ، ·· وبين يديه خمســـة من ولده ، ثلاثة ميمنــــة واثنـــان ميسرة (٤) · وعندما عادوا الى حضرة الخليفة من هذه القصور المعزولة كان الخليفة يمارس سلطاته وفقا للأنماط الموروثة من الحكام السابقين ، والتى قلدتها الأسر التالية · قصر فخم واحتفالات وأبهة تميز حكمه ، ومسئولو البلاط والحراس يحيطون به ، ويقف الى جواره الجلاد لتنفيذ العدالة الناجزة السريعة·وفى فترات الحكم الأولى ظهر منصب جديد أصبح مهما فيما بعد هو منصب الوزير ، كان مستشار الخليفة بدرجات متفاوتة من السلطة والنفوذ وبعدها أصبح على رأس الادارة ووسيطا بينها وبين الحاكم ·

كانت الادارة مقسمة الى عدة وظائف أو دواوين وقدر لها أن تتكرر فى الأسر الحاكمة التالية فكان هناك ديوان لشئون الجيش وديوان لانشاء المكاتبات والوثائق بالشـــكل اللائق والحفاظ عليها وديوان لبيت المال

للاشراف على الخزانة وحفظ سجلات المصروفات والايرادات ، ووال على رأس هيكل من المسئولين المنتشرين في رقعة واسعة لضمان ألا يحوزوا سلطة أكثر من اللازم أو يسيئوا استخدام السلطة المخولة لهم ، ونظـام من الاستخبارات (*) وكلها جعلت الخليفة على علم بمـا يحدث فى الولايات وظل هو وولاته يعقدون الاجتماعات العامة لسـماع الشكاوى والمظـالم وعلاجهـا ٠

وقد كان الحكم المطلق من خـلال البيروقراطيـة بحـاجة لايرادات وجيش ، وقد ظهر فى العصر العباسى النظام الدسـتورى (**) للضرائب والمكوس من خلال ما عرف عن العصور الاسلامية المبكرة ، وكان مرتبطا بالمعايير الاسلامية بقدر الامكان ، وانقسمت الضرائب الأساسية الى نوعين : أحـدهما يستحق على الأراضى ومحاصيلها وهو الخراج ، وكان هنـاك تمايز بين معدلات وأنواع الضرائب التى يدفعهـا المسلم وغير المسلم من ملاك الأراضى وقد أصبح ذلك واقعيـا أقل أهمية الا أنه ظـل فى كتب القانون ، وكان النوع الثانى هو الجزية ، وهى ضرائب على الرأس تفرض على غير المسلم وثروته وتتدرج تقريبيا حسب القدرة المادية ، اضافة الى ذلك كانت هنـاك عدة مكوس على السلع المستوردة والمصدرة وكذلك على الحرف الحضرية وضرائب موسمية تفرض على الأموال فى الحضر عنـد الحاجة وقد أدانها أولئك الذين التزموا حرفيا بالقانون الاسلامى ٠

وقد انقسم جنود خراسان الذين أعانوا العباس على الوصول الى السلطة الى مجموعات تحت امرة قادة منفصلين ، ولم يكن سهلا على الخليفة

(★) توضح كتب الاخبار ومنها « نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة » للقاضى التنوخى مدى خطورة أجهزة الاستخبارات العباسية وكيف أن الخبر كان ينتقل سريعا الى الخليفة ، وأحيانا فى غضون دقائق لا تزيد على الساعة اذا كان الخبر متعلقا بواقعة فى داخل بغداد نفسها ، واظن ان نظم الاستخبارات والمباحث ومسئولى العذاب (صاحب العذاب) من المجالات التى لم يتعرض لها المؤرخون بشكل كاف ـ (المراجع) ٠

(★★) النص Canonical System of وللمؤلف عذره فهو يخاطب العقل الاوربى ، والجملة تعنى مجموعة القوانين المرتبطة بمؤسسة دينية ، ومصطلح Canon law تعنى القانون الكنسى ، ومن ثم فالمقابل العربى المفهوم هو النظام الشرعى (المستمد من احكام الدين) والمتعلق بالمكوس والضرائب ٠٠ الخ ، اما Law اى القانون فترجمتها فى هذا السياق هى الشرعية ، لكننا اقررنا الاستاذ المترجم على ترجمته لأن المؤلف يريد ان يوضح لقارئه الاوربى نظما اسلامية ، ولا باس من ان ناخذ بتبسيطه هذا كنوع من التشبيه ـ (المراجع) ٠

الحفاظ على ولائهم ، ولم يصبحوا القوة العسكرية الفعالة نتيجة اندماجهم فى المجتمع السكانى فى بغداد ، وبعد وفاة هارون الرشيد قامت حرب أهلية بين ولديه الأمين والمأمون ، ونودى بالأمين خليفة وحـــارب جيش بغداد فى صفه ولكنه هزم ، وفى بداية القرن التاسع أدى الاحتياج الى جيش فعال مخلص الى شراء العبيد أو استخدام الجند من القبائل الرعوية الناطقة بالتركية عبر حدود آسيا الوسطى ، وكان هؤلاء الأتراك والجماعات المشابهة على حدود الحكومة المستقرة غرباء بلا روابط بالمجتمع الذى أعانوا على حكمه ، وهو مجتمع قام على علاقة تبعية قبلية وشخصية بالخليفة ، وكان دخول الجنود الأتراك فى الخدمة العباسية بداية عملية أعطت شكلا مميزا للحياة السياسية فى العالم الاسلامى ٠

فكان أن انتقل الخليفة المعتصم (٨٣٣ ــ ٨٤٢م) بعاصمته من بغداد الى « سامراء » التى تقع الى الشمال على نهر دجلة ، وكان ذلك راجعـا جزئيا الى رغبته فى ابعاد الجند عن سكان بغداد الذين أصبحوا معادين لحكم الخليفة ، وظل مقر الحكم هناك لنصف قرن ، ولكن برغم أنه تخلص من الضغوط الشعبية الا أنه سقط تحت تأثير قادة الجند الأتراك الذين سيطروا على حكومة الخليفة ، وكانت تلك الفترة التى استقل فيها حكام الولايات النائية من الامبراطورية عمليا ، وفى العراق نفسها كانت سلطة الخليفة مهددة بفتنة دامت طويلا قام بهـا العبيد السود فى مزارع السكر والمستنقعات الملحية جنوب العراق عرفت بثورة الزنج (٨٦٨ ــ ٨٨٣م) ، وبعد بضع سنوات وفى عام ٨٩٢م عاد الخليفة المعتضد الى بغداد ٠

وكلما تباعد الخليفة وتزايدت قوته ، تزايدت أهميـــة أن يغـرس جذور قوته فى وجـدان أولئك المحكومين ، وقد حاول العباسيون بصورة أكثر تنظيما من الأمويين تسويغ حكمهم بشكل اسلامى ، وقد اعتمدوا منذ البداية على رموز اسلامية ، فادعى الخليفـــة الحكم بالسلطة الالهيـــة المقدسة (*) باعتباره أحد أفراد عائلة النبى صلى الله عليه وسلم ٠ كذلك

(★) الادعاء بالحكم بتفويض الهى بدأ فى الواقع منذ أيام بنى أمية ويتضح ذلك من خلال الحوار الشهير بين أبى ذر الغفارى (جندب بن جنادة) وجماعته من ناحية ، ومعاوية بن أبى سفيان وأنصاره من ناحية أخرى ، فقد كان أبو ذر يرى أن المال هو مال المسلمين ومن ثم يجب استشارة المسلمين فى انفاقه ، وكان معاوية يرى أن المـال (مال الله) وهو مفوض من قبل الله فى انفاقه ومن ثم فلا يحق للمسـلمين فى محاسبته ٠ ورغم أن الفرق بين العبارتين (مال المسلمين) (ومال الله) يبدو شكليا الا أنه ينطوى على أبعـاد فكرية مهمة خاصة فى مدى سلطة الحاكم ــ (المراجع) ٠

ادعى بأنه يحكم وفقا للقرآن وقواعد السلوك القويم والتى عرفت بشكل متزايد طبقا لأقوال وعادات للنبى صلى الله عليه وسلم (السنة) ، وقد نتج عن هذا الادعاء أن لعب علماء الدين والفقهاء دورا فى الحكم ، وكانت لمنصب القاضى أهمية كبرى ، ومهامه منفصلة عن وظائف الوالى ، ولم تكن له واجبات مالية أو سياسية فكان دوره الفصل فى النزاعات واصدار الأحكام فى ضوء ما بدأ ظهوره كنظام للقانون الاسلامى أو الأعراف الاجتماعية . وكان لقاضى القضاة مقام رفيع ذو أهمية فى الهرم الادارى للدولة .

وتعين على العباسيين الأوائل لتأكيد دعواهم بشرعية حكمهم ، مواجهه فرع آخر من عائلة النبى صلى الله عليه وسلم هو سلالة على وأتباعهم من الشيعة ، ولم يكن كل الشيعة معادين للعباسيين ، فجعفر الصادق (٧٠٠ ــ ٧٦٥م) الذى يعتبره الشيعة الامام السادس كان مسالما ، علم أتباعه المقاومة السلبية الهادئة التى يجب أن تستمر حتى يظهر المهدى الذى سيرسله الله ليحكم بالدين والحق . وعلى أية حال ، ففى فترة الجيلين الأولين من حكم العباسيين ظهرت عدة حركات عصيان تستخدم أسماء من أسرة الامام على مما دفع المأمون بن هارون الرشيد للقيام بمحاولتين لتدعيم حكمه واكسابه الشرعية،فقد جعل من على الرضى (*) أكثر أفراد عائلة النبى صلى الله عليه وسلم استحقاقا للخلافة ، فان كانت الخلافة بالاستحقاق الأخلاقى داخل العائلة ، فبشكل عام يكون نسل « عباس » على نفس القدر من الاستحقاق كنسل « على » ، وبعدها أعطى المأمون دعمه لأفكار بعض علماء الدين العقلانيين ، وحاول جعل موافقتهم شرطا للخدمة الرسمية . وقوبلت هذه المحاولة بمعارضة من علماء الدين بقيادة أحمد بن حنبل الذين أعلنوا أن فى القرآن وسنة الرسول هديا كافيا اذا اتبعت حرفيا ، وبعد فترة من الاضطهاد والتعذيب انتهت محاولة فرض معيار واحد للايمان بقوة الحاكم ، وهكذا لم تعد بعدها وحدة الاعتقاد لاستيعاب الخلافات فى الآراء القانونية ، وكان من شأن اعتماد أهمية القرآن والسنة النبوية قاعدة ثابتة أن ظهر بالتدريج نمط من الفكر عرف بعدها بالسنة متميزا عن الشيعة .

(*) على الرضى هو على بن موسى الكاظم ، زوجه المأمون ابنته وغير من أجله الزى العباسى الذى هو السواد فجعله أخضر وهذا اللون الأخير هو شعار آل البيت وعهد المأمون له بالخلافة بعده لكن ذلك ادى الى فوضى واضطرابات ، وفى الوقت نفسه مات على الرضى بطريقة غامضة ويقال ان المأمون دس له السم . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، الزركلى : الأعلام .

(المراجع) .

الفصل الثالث

مجتمع يتشكل

نهاية الوحدة السياسية

كان نطاق الحكم الفعال للخلافة العباسية محدودا حتى فى أقوى عهودها ، وتركز أساسا فى المدن والمناطق المنتجة حولها • وكانت هناك مناطق من الجبال والسهوب غير خاضعة له بالفعل ، وبمرور الوقت وقعت سلطة الخليفة فريسة للتناقضات مع النظام البيروقراطى المركزى للحكومة • وكان على الخليفة أن يعطى السلطات والصلاحيات لولاته للسيطرة على الأقاليم الثابتة لجباية الضرائب واستخدام جانب من ايراداتها فى الانفاق على القوات المحلية ، وحاول السيطرة عليهم بنظام من الاستخبارات ولكنه لم يستطع منع بعضهم من تعزيز نفوذهم الى درجة أنهم استطاعوا أن يورثوا السلطة لذويهم ، وان ظلوا باقين – على الأقل من ناحية المبدأ – على الاخلاص للمصالح الرئيسية للخليفة ، وبهذه الطريقة تنامت العائلات الحاكمة كالصفارين فى شرق ايران (٨٦٧ – ١٤٩٥ م) والسامانيين فى خراسان (٨١٩ – ١٠٠٥ م) والطولونيين فى مصر (٨٦٨ – ٩٠٥م) والأغالبة فى تونس (٨٠٠ – ٩٠٩م) ، ومن تونس قهر الأغالبة صقلية التى حكمتها أسر عربية حتى استعادها النورمنديون فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وحينذاك قلت عوائد الايرادات الى بغداد فى وقت تدهور فيه نظام الرى وانخفض الانتاج الزراعى فى جنوب العراق نفسها ، وكان على الخليفة الاعتماد بشكل أكبر على جيشه من المرتزقة والمحترفين لتقوية وضعه فى المحافظات الوسطى والذى كان قادته بدورهم قد اكتسبوا المزيد من القوة والسلطة ، وفى عام ٩٤٥ استولت عائلة من القواد العسكريين البويهيين (بنى بويه) Buyids ، الذين نزحوا من حدود بحر قزوين ، على السلطة فى بغداد نفسها بعد أن دانت لهم بعض المحافظات •

وقد اتخذ البويهيون Buyids لأنفسهم عدة ألقاب منها اللقب الايرانى العتيق الشاهنشـــاه (ملك الملوك) ولكنهـــم لم يتخذوا لقب الخليفة وظل الحكم العباسى باقيا بعد ذلك ولثلاثة قرون ولكنها كانت مرحلة جديدة من تاريخهم ، منذ ذلك الحين أصبحت السلطة الفعلية فى المناطق الوسطى من الامبراطورية فى أيدى عائلات أخرى تؤيدها مجموعات مسلحة ، وان ظلت على ولائها للخليفة العباسى الذى كان ينجح أحيانا فى فرض بقايا سلطـــاته والتى أصبحت تمارس على مناطق محـــدودة عن ذى قبل ، وفى بعض الأجزاء من الامبراطورية كان للحكام المحليين قوتهم الذاتية علاوة على عدم قبولهم للسلطة الشكلية للعباسيين ٠

وقد نشأت فى مناطق معينة حركات انفصالية باسم بعض الدعوات الاسلامية ، وأوجدت هذه الحركات بعض الوحدات الســياسية المنفصلة ولكنها ساعدت فى نفس الوقت على انتشار الاسلام باعطائه أشكالا لا تهدد النظام الاجتماعى ٠

وكانت بعض هذه الحركات باسم الخوارج أو على الأقل أحد روافدها وتسمى (الأباضية) تعتقد بأن الحكم أو الامامة يجب أن تكون لأكثر الناس استحقاقا ، واذا ثبت عدم استحقاقه يجب أن ينحى وكان هذا الاعتقاد مناسبا وملائما لاحتياجات الجماعات القبلية التى تعيش فى مناطق منعزلة وتحتاج لزعيم أو قاض من وقت لآخـر ، ولكنهم لم يكونوا راغبين فى أن تكون له سلطة منظمة دائمة ، وبهذا ظهرت امامة أباضـــية فى عمان فى جنوب شرق الجزيرة منذ منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن التاسع عنـــدما أخضعها العباسيون ، وفى جـــزء من المغرب عارض بعض السكان البربر دخول الحكم الاسلامى ، وعندما أسلموا انتشرت بينهـــم أفكار الخوارج وكانت هناك ســلالة قوية من الامامة الأباضـــية لفترة وهى (الرستميون) وكانت عاصمتهم فى « تهـــارت » فى غـــرب الجزائر (٧٧٧ ـ ٩٠٩ م) واعترف بدعوتهم الأباضية فى « عمان » ٠

كانت حركات تأييد مطالبات نسل على بن أبى طـالب بالامامة أكثر انتشارا ، لكن الجزء الأساسى من الشيعة فى العراق وما حولها قبلوا بالحكم العباسى ، أو على الأقل رضخوا له ، واعترف به الأئمة وعاشوا بهدوء تحت حكم العباسيين ، رغم أنهم فى بعض الأحيان كانوا محددى الاقامة داخل العاصمة ، وكان « بنو بويه » من غلاة الشيعة ، ولكنهم لم ينازعوا ســيادة الخلفاء ، كما لم ينازع الحمدانيون ـ وهم من أسرة محلية فى شمال سوريا ـ الخلفاء العباسيين ، فى حق الخلافة ٠

الأسر المنفصلة • والزيديون الذين كانوا على الاعتقاد بأن الامام يجب أن يكون أكثر أفراد أسرة النبى استحقاقا وعلى استعداد لمعارضة الحكام غير الشرعيين الذين لم يعترفوا بالامام محمد الباقر (توفى ٧٣١ م) والذى اعترفت به أغلبية الشيعة كالامام الخامس ولكنهم اعترفوا بأخيه (زيد) (واليه يعود أصل تسمية الطائفة الزيدية من الشيعة) أقاموا امامه فى اليمن فى القرن التاسع كما كانت هناك أيضـــا امامة زيدية فى منطقة بحر قزوين •

وكان التهديد المباشر لحكم العباسيين يأتى من الحركات المرتبطة بفرع آخر من الشيعة « الاسماعيلية » ، وأصولها غير واضحة على وجه التحديد ، ولكن يبـدو أنهـا بدأت كحـركة سرية كان مركزها الأول فى العراق وخوزستان فى جنوب غربى ايران ، ثم فى سوريا ، وقد أيدت هذه الحركة دعوى اسماعيل ، الابن الأكبر للامام جعفر الصادق بالامامة ويعتبره أغلبية من الشيعة الامام السادس ، وتوفى اسماعيل فى ٧٦٠م قبل وفاة أبيه بخمس سنوات ، واعترف معظم الشيعة فى النهاية بأخيه موسى الكاظم (توفى ٧٩٩م) اماما • وقد اعتبر الاسماعيليون أن اختيار اسماعيل كخليفة لأبيه قطعى وغير قابل للنقض أو الطعن،وأن ابنه محمدا أصبح اماما من بعده ، وهم يعتقدون أيضا أن محمدا سيعود ان عاجلا أو آجلا كمهدى منتظر ، لكشف المعانى الداخلية الخبيئة للوحى القرآنى وليحكم العالم بالعـــدل •

وقد نظمت الحركة أنشطة تبشيرية (*) على نطاق واسع وأسست احدى الجماعات من أتباعها نوعا من الجمهورية فى شرق الجزيرة العربية (القرامطة) وجماعة أخرى رسخت نفسها فى المغرب وجيشت جندا من البربر واحتلت القيروان • وفى عام ٩١٠م وصل الى تونس (عبيد الله) مدعيا انحداره من نسل على وفاطمة ، وأعلن نفســه خليفة ، وخـــلال نصف القرن التالى أسست عائلته أسرة حاكمة مستقرة عرفت بالفاطميين نسبة الى فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، ولأســـباب دينيـــة وسياسية اتجهوا شرقا الى أراضى العباسيين وفى عام ٩٦٩ احتلوا مصر

(*) المصطلح المستخدم فى كتب التاريخ الاسلامى هو « الدعوة الاسماعيلية » ، لكن المؤلف يوضح المعنى لقرائه الغربيين ، ولأن المعنى لا يختلف ، فقد أقررنا الأستاذ المترجم على ترجمته — (المراجع) •

ومنها امتد حكمهم الى غرب الجزيرة العربية وسوريا ، ولكنهم سرعان ما فقدوا تونس .

وقد استخدم الفاطميون اللفظين « الامام » و « الخليفة » ، ولكونهم أئمة فقد طالبوا بالسلطة الروحية والزمنية على المسلمين وأصبحت دولتهم مركزا لانطلاق البعثات التبشيرية ، وقد استمرت المجتمعات التى أسسها أولئك الذين كانوا على علاقة بها ، لفترة طويلة بعد انتهاء الدولة الفاطمية ، وظلت قائمة باليمن وسوريا وايران وبعدها فى غرب الهند .

ولم يكن الفاطميون أئمة فقط ، ولكن حكاما لدولة عظيمة مركزها وادى النيل ، وهم الذين بنوا القاهرة ، وهى مدينة كبيرة مهيبة بنيت الى شمال الفسطاط وكانت رمزا لقوتهم واستقلاليتهم ، وسارت حكومتهم على الخطوط التى وضعتها الخلافة فى بغداد ، وكانت السلطة مركزة فى أيدى الخليفة ، وتتجلى فى روعة وأبهة الرسميات والتشريفات المتقنة ، وكان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يظهروا للشعب فى القاهرة فى مواكب احتفالية مهيبة ، حيث يدخل كبار رجال الدولة الى ساحة القصر ثم يظهر الخليفة من خلف الستائر حاملا فى يده الصولجان ، وقد يمتطى جوادة متجها الى بوابة القصر حيث يعزف النفير والأبواق تتقدمه وتتبعه الحاشية والجنود ، فيمضى خلال الطرقات التى زانها التجار بالأنسجة الحريرية الموشاة . وكانت هذه المواكب معبرة عن مظاهر الحكم الفاطمى ، بعضها كان دينيا وبعضها يرمز الى اندماج الحاكم فى حياة المدينة والنهر .

وقد كانت العوائد من الأراضى الخصبة فى وادى ودلتا النيل ، والحرف فى المدينة ، والتجارة من حوض المتوسط وحوض البحر الأحمر ، أساس سلطة الفاطميين ، وكان ذلك كافيا للانفاق على الجيش المشكل من خارج مصر من البربر والزنوج والعبيد السودانيين والأتراك ، ولم يبذل الخليفة محاولات منظمة لفرض المذهب أو العقيدة الاسماعيلية على المصريين المسلمين ، فظل أغلبهم من السنة يعيشون مع أعداد كبيرة من المسيحيين واليهود فى تكافل وسلام .

وكانت مطالبة الفاطميين بالخلافة تشكل تهديدا مباشرا للعباسيين ، وكان هناك تهديد آخر للفاطميين جاء من أقصى غرب العالم الاسلامى ، من تلك المناطق التى فتحها العرب ، أى مراكش والجزء الأكبر من أسبانيا ، فقد كانت السيطرة عليها من شرق المتوسط صعبة ، كما

كانت مستحيلة من جهة العراق وسرعان ما أصبح للجنود والمسئولين العرب مصالحهم الخاصة ، وكان بامكانهم التعبير عنها بسهولة باحياء ذكريات البواعث التى حملتهم بعيدا عن الجزيرة العربية ، وقبيل نهاية القرن الثامن انتقل «ادريس» أحد أحفاد «علي» الى مراكش حيث اكتسب تأييدا واسس أسرة حاكمة أصبحت مهمة في تاريخ مراكش ، فالادريسيون هم أول من أوجدوا «الطربوش» وبدءوا به تقليدا ، ظل حتى اليوم ، وهم من الأمر الحاكمة المستقلة التى حكمت مراكش واكسبت حكمها الشرعية بادعاء انحدارهم من نسل النبى صلى الله عليه وسلم ٠

وكان المسار المنفصل الذى اتخذته أسبانيا أو الأندلس باللغة العربية هو الأكثر أهمية لتاريخ العالم الاسلامى ككل ، فقد وصل العرب الى أسبانيا للمرة الأولى فى عام ٧١٠ م ، وسرعان ما أسسوا اقليما تابعا للخلافة امتد حتى شمال شبه جزيرة (أيبيريا) ولحقت به العرب والبربر الذين كانوا أول المستوطنين ، وجاءت موجة ثانية من سوريا لعبت دورا مهما فى أعقاب الثورة العباسية ، اذ استطاع أحد أفراد العائلة الأموية اللجوء الى أسبانيا حيث جمع أنصارا وبدأ فى انشاء أسرة أموية جديدة حكمت لثلاثة قرون ، رغم أن الحاكم لم يكتسب لقب الخلافة الا فى منتصف القرن العاشر ٠

وقد انغمس الأمويون فى مملكتهم الجديدة فى نفس عملية التغيير التى حدثت فى الشرق حيث حكم المسلمون أغلبية من غير المسلمين ، ثم تغير تدريجى الى مجتمع قبل أغلبية سكانه دين الحكام ولغتهم وتحولت الحكومة التى حكمت فى البداية بشكل لا مركزى وبالمناورات السياسية ، الى حكومة مركزية قوية تحكم بالسيطرة البيروقراطية ٠

ومن جديد ظهرت عاصمة جديدة هى قرطبة وتقع على نهر الوادى الكبير ، وقد وفر النهر طريقا مائيا لجلب بضائع الأغذية والصناعة ، وفى السهول من حوله كانت تزرع الحنطة والمنتجات الأخرى التى تحتاجها المدينة فى الأراضى التى يرويها النهر ، وكانت قرطبة أيضا ملتقى للطرق والأسواق لتبادل السلع بين المناطق ، ومرة أخرى يتزايد استبداد الأسرة الحاكمة وتنسحب من حياة المدينة وينتقل الحاكم من قرطبة الى مدينة ملكية هى « مدينة الزهراء » خارج العاصمة ، وهناك سيطر على الدولة محاطا بالمجموعة الحاكمة التى ضمت عائلات عربية ومستعربة ــ فلم يكن انفصال الحاكم عن المجتمع كبيرا كما كان الحال فى بغداد ــ كما ضمت

الدولة عناصر من العبيد المستقدمين من منطقة البحر الأسود وإيطاليا وغيرها ، وكذلك كان الحال في الجيش الذي كان لبه من المرتزقة من الخارج ، رغم أنه ضم أيضا العرب والبربر الذين استقروا في البلاد مقابل الخدمة العسكرية .

وقد استخدم الأمويون من سكان المدن ذوي الأصول الحجازية نفوذهم لرعاية مصالح المدن والريف المستقر ، ونمت المدن بدءا بقرطبة وبعدها اشبيلية تدعمها الأراضي القابلة للري وكانت تغل عائدا طيبا بفضل التقنيات المستوردة من الشرق الأدنى . وقد استمرت هجرة البربر من المغرب الى أسبانيا زمنا أطول من هجرة العرب من الشرق ، وربما فاقت أيضا أعدادهم العرب ، وقد تحول جزء من السكان الأصليين الى الاسلام ، وأصبح معظم سكان الأندلس من المسلمين قرب نهاية القرن العاشر ، ولكنهم عاشوا جنبا الى جنب مع أولئك الذين لم يسلموا من المسيحيين وتعداد لايستهان به من اليهود الحرفيين والتجار ، وقد ألف تسامح الأمويين حيال اليهود والمسيحيين بين هذه المجموعات المختلفة ، بالاضافة الى انتشار اللغة العربية التي أصبحت لغة الغالبية بمن فيهم المسيحيين واليهود . وبحلول القرن الحادي عشر كانت عوامل التسامح الديني واللغة المشتركة وتراث طويل من الحكم المستقل قد ساعدت على خلق وعي أندلسي ومجتمع متميز تنامت ثقافته الدينية الاسلامية على محاور مختلفة عن تلك التي تطورت في الدولة الشرقية وأصبحت ثقافتها اليهودية أيضا مستقلة عن تلك التي سادت في العراق التي كانت المركز الرئيسي للحياة الدينية اليهودية آنذاك .

ولم يكن لقب الخلافة الذي اتخذه « عبد الرحمن الثالث » (٩١٢ — ٩٦١ م) مجرد تعبير عن حكم ومصالح الأسرة الحاكمة ، ولكنه كان أيضا تعبيرا عن الهوية المستقلة للأندلس ، وقد مثل حكمه قمة استقلال الأمويين وقوتهم في اسبانيا ، ومنزعان ما تفتتت مملكتهم الى عديد من الممالك الصغيرة حكمتها أسر من البربر أو العرب ، فيما عرف بملوك الطوائف ، في تطورات شبيهة بتلك التي كانت تجرى في الدولة العباسية .

مجتمع موحد : الأسس الاقتصادية

لم يكن غياب الهيكل الموحد للدولة في الشرق والغرب علامة على ضعف اجتماعي أو ثقافي ، فقد أصبح هناك عالم اسلامي تجمعه روابط كثيرة ، وله العديد من مراكز القوة والثقافة الرفيعة .

فى حينه خلق استيعاب كل هذه المساحة داخل امبراطورية واحدة وحدة اقتصادية مهمة ، ليس فقط من حيث الحجم ولكن لأنها ربطت بين حوضى بحرين عظيمين من العالم المتمدن ، حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندى ، وأصبحت تحركات الجيوش وحركة التجار والحرفيين وطلاب العلم والحجيج فيما بينها أكثر سهولة وكذلك انتقال الأفكار والأساليب والتقنيات ، وفى هذا المحيط الهائل من التفاعلات ، كان من الطبيعى أن تنشأ حكومات قوية ومدن كبيرة وتجارة دولية وريف مزدهر ومثمر ، وفرت جميعها شروط الحياة والنماء لبعضها البعض .

وقد أدى قيام الامبراطورية الاسلامية ثم ما تلاها من الدول داخل حدودها السابقة ، الى نمو المدن حيث القصور والحكومات وسكان الحضر الذين يحتاجون الى المواد الغذائية والمواد الخام للصناعة وأدوات الرفاهية والفخامة لاستعراض الغنى والنفوذ ، وقد أدت التغيرات والتعقيدات فى حياة المجتمع الى الرغبة فى المستحدثات الجديدة ومحاكاة أنماط القوة أو أنماط الغرابة ، وأعطى الطلب على التحضر والسهولة النسبية للاتصالات اتجاهات جديدة وطرق تنظيم جديدة للتجارة البعيدة المدى التى كانت موجودة من قبل ، ولم يكن نقل التجارة ضخمة الحجم ورخيصة الثمن لمسافات طويلة أمرا مربحا ، وتعين على المدينة الاعتماد على المناطق المتاخمة لها ، ولكن بالنسبة لسلع معينة كان من المجزى أن تنقل لمسافات طويلة ، كالفلفل الأسود والبهارات الأخرى والأحجار الثمينة والأقمشة الفاخرة والفخار ، وكانت كلها من الهند والصين ، والفراء الذى يأتى من بلاد الشمال ، فى حين كان يرسل فى مقابلها المرجان والعاج ، ولم تكن مدن الشرق الأوسط مستهلكة فقط ، وانما منتجة أيضا وصانعة للسلع المصدرة ، وكذلك لاستهلاكها المحلى ، وكان بعض الانتاج يجرى على نطاق واسع ، مثل صناعات التسليح للحرب فى ترسانات الدول ، والأقمشة الفاخرة للقصور ، وتكرير السكر ومصانع الورق ، ولكن معظمها كان ينتج فى ورش صغيرة للمنسوجات والأشغال المعدنية .

وقبل وجود السكك الحديدية وبعدها السيارة فى العصور الحديثة كان النقل المائى أقل تكلفة وأكثر سرعة وأمنا من النقل البرى ، وكان من الضرورى أن تكون المدن الكبيرة الى جوار بحر أو نهر صالح للملاحة ، كما كانت الخطوط الرئيسية للتجارة البعيدة المدى أيضا بحرية ، وخاصة طرق المحيط الهندى فى ذلك الوقت ، وخلال حكم العباسيين كانت المراكز الأساسية المنظمة للتجارة على هذه المسارات الطويلة ، هى « البصرة » فى

جنوب العراق ، و «سيراف» على الساحل الايراني للخليج ، وكانت الاثنتان تحت سيطرة العباسيين وفي وضع يسمح لهما بالوفاء باحتياجات العاصمة . وبحلول القرن العاشر كان هنـاك تحول معين للتجارة من الخليج الى البحر الأحمر بفضل تزايد أهمية القاهرة كمركز للتجارة والقوة وتصاعد الطلب من المدن التجارية الإيطالية ، ولكن ذلك لم يكن سوى مجرد بداية .

فمن البصرة وسيراف كانت التجارة التى قام بها الايرانيون والعرب أو التجار اليهود الى الشرق تبحر على سفن عربية الى موانىء جنوب شرق آسيا أو ماوراءها وقد وصلت مرة الى الصين،والكن فيما بعد القرن العاشر لم يصلوا لأبعد من موانىء جنوب شرقى آسيا ، وأبحروا أيضا جنوبا الى جنوب وغرب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ، ومن البصرة كانت البضائع تنتقل عنطريق النهر الى بغداد ثم بالطرق الصحراوية السورية الى سوريا ومصر ، أو من خلال الأناضول الى القسطنطينية وطرابزون أو عن طريق الممر الكبير الذى يصل بين بغداد ونيسابور فى شمال شرق ايران ، ومنها الى أواسط آسيا والصين ، وعلى مدى مسافات طويلة كانت البضائع تنقل على ظهور الجمال غالبا فى قوافل منظمة ، وفي المسافات القصيرة على ظهور البغال والحمير ، وقد اختفى النقل عن طريق العربات بعد ازدهار الامبراطورية الاسلامية فى معظم مناطق الشرق الأدنى ولم يستخدم ثانية حتى القرن التاسع عشر ، ولذلك أسباب متنـوعة ، منها تدهور الطرق الرومانية واهتمام الجماعات العربية الحاكمة الجديدة بتربيـة الجمال حيث كان النقل على ظهور الابل أكثر اقتصادا من استخدام العربات .

وقد كانت بدايات التجـارة فى البحر المتوسط خطيرة ومحدودة . ولم تكن أوروبا قد استعادت عافيتها بعد بما يمكنها من الانتاج الوفير من أجل التصدير أو الإستهلاك المحلى الكبير ، وحاولت الامبراطورية البيزنطية لفترة أن تحد من القوة البحرية العربية أو التجارة المنقولة بحرا ، وقد كان أهمها تلك المتجهـة على طول السـاحل الجنوبى ، وتربط أسبانيا والمغرب مع مصر وسوريا وتونس كمركز للتوزيع وعلى طول هذا المسار نظم التجار ــ وأغلبهم من اليهود ــ تجـارة الحرير الأسبـانى والذهب المستجلب من غرب أفريقيا والمعادن وزيت الزيتون ، وأصبحت التجارة مع البندقية وأمالفى أكثر أهمية فى القرن العاشر .

لا يمكن للحكومات القوية أو المدن الكبيرة أن تعيش بلا ريف خصب منتج . كما أن الريف من ناحيته لا يمكن أن يزدهر بلا حكومة قوية ومدن للاستثمار في الانتاج ، وقد نمت طبقة جديدة من ملاك الأراضي في البلاد التي فتحها العرب وخاصة تلك التي هاجرت اليها جاليات عربية كبيرة ، وكانت تلك الأراضي هي التي صودرت من الملاك السابقين والتي كانت رسميا تابعة للحكام ومنحت للعرب مع الزامهم بدفع الضرائب ، وبعدها في القرن العاشر بدأ التوسع في نظام جباية الضرائب ، وبمقتضاه كانت الجباية على الأراضي تسند للمسئولين أو قادة الجيش ، الذين أصبحوا بموجب هذا النظام الملاك الفعليين للأرض وبات من صالحهم تنمية الانتاج ، واستمر معظم المزارعين الذين كانوا موجودين في الأرض أصلا في زراعتها الا أن بعض الفلاحين الرعاة هاجروا منها ، وقد عبرت هذه الدلائل عن علاقة مشاركة في المحاصيل بين حائزي الأراضي والمزارعين بشكل أو بآخر ، فبعد دفع الضرائب يقسم الناتج من المحصول بالنسبة المتفق عليها بين من شاركوا بتقديم الأرض والبذور والحيوانات وأولئك الذين قاموا بالعمل ، وكانت هناك ترتيبات أكثر تعقيدا بالنسبة للأراضي التي تحتاج الى رى أو تلك التي تزرع أشجارا .

وكان بامكان حائزي الأراضي الذين جمعوا الأموال من التجارة أو من طرق أخرى استخدامها في الانتاج الزراعي وجلب تقنيات جديدة برؤوس الأموال المتاحة ، وهناك دلائل على أن توسع الأمبراطورية الاسلامية جلب محاصيل جديدة أو على الأقل زاد مما هو موجود بالفعل ، وعموما كان اتجاه الحركة غربا من الصين أو الهند برا حتى ايران ومنها الى حوض المتوسط حيث بدأت زراعة الأرز وقصب السكر والقطن والبطيخ والباذنجان والموالح : البرتقال والليمون ، وكلها كانت تزرع في مساحات واسعة . واحتاج بعض هذه المحاصيل الى استثمارات كبيرة في الرى وتحسين الأراضي ، وتم تجديد أعمال الرى القديمة ومنها تلك المعروفة في جنوب العراق ونفذت أيضا أعمال جديدة ، وامتدت الحركة الى الغرب لتظهر في اسبانيا التي عرفت الناعورة (الساقية) من سوريا والقنوات المدفونة من ايران ، وأدخلت أنماط أخرى جديدة من الدورة المحصولية .

بمثل هذه التحسينات تزايد الفائض الزراعي بالاضافة الى تنامي الصناعة والتجارة مما زاد من أهمية المال في اقتصاد الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط . وقد مكن تنامي نظام نقدي عالمي متعارف عليه ، وتدفق المعادن النفيسة خاصة الذهب الأفريقي الى أراضي الخلافة ، من التوسع في سك

النقود ، وظل الدينار الذهب العباسي لعدة قرون عملة للتبادل • وقد عثر على عملات فضية اسلامية في بلاد اسكندنافيا وغابات ريتشوود في شمال أكسفورد ، ولقد ارتبط نظام الائتمان بعملية سك النقود ، فالتجار الكبار كانوا يقومون بحفظ ودائع مقابل قروض وكذلك بامكان المقرضين وجامعي الضرائب استخدام النقد المتراكم لديهم في عمليات الاقراض ، وكان بامكان كبار التجار الذين لهم عملاء أو مراسلون في أماكن أخرى أن يسحبوا الفواتير عليهم أو يصدروا خطابات الائتمان •

ولم يكن ممكنا تواجد مثل هذا الاقتصاد الواسع المنفتح بدون نظام من الاتفاق المشترك بين المتعاملين ، أو دون اتصال شخصي أو سابق معرفة، الا أن الروابط الأسرية مكنت من تخفيفها في بعض الحالات ، فعلى سبيل المثال هناك حالة اليهود الذين كانوا يسافرون في البحر المتوسط وما وراءه في بلاد اسلامية أو مسيحية ، ولولا وجود هذه الروابط لاحتاج الأمر الى قوانين أو أعراف من الأخلاق الاجتماعية المتفق عليها بشكل عام • وبنفس الطريقة احتاج حائزو الأراضي والمزارعون الى قواعد واضحة ومقبولة للملكية وتوزيع الناتج والضرائب والحقوق في المياه والأشجار والمعادن تحت الأرض ، وعليه تطلبت العلاقات الاقتصادية نظاما عاما للسلوك وأصبح ذلك ممكنا بتحول غالبية سكان المناطق التي يحكمها المسلمون ليصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وكذا بتأثير الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم على الحياة الاجتماعية •

وحدة العقيدة واللغة

ليس من السهل معرفة الكثير عن المراحل التي مرت بها الشعوب المعنية خلال تحولها للاسلام ، ولكن الدراسة حول الأسماء الاسلامية تعبر عن حجم معقول لا بأس به ويبدو مقبولا (١) وطبقا لتقديرات هذه الدراسة ، فانه بنهاية العصر الأموى (أى منتصف القرن الثاني الهجري والثامن الميلادى) كان أقل من ١٠٪ من التعداد السكاني في العراق وايران وسوريا ومصر وتونس وأسبانيا من المسلمين ، ولكن النسبة كانت أكبر بكثير في الجزيرة العربية ، فبخلاف القبائل العربية التي كانت موجودة في ايران وسوريا قبل الفتح الاسلامي فان معظم حالات اعتناق الدين الاسلامي كانت بين المستويات الدنيا للمجتمع ، مثل الجنود من أسرى المعارك أو المسئولين من الحكومة الساسانية الذين خدموا تحت امرة الحكام الجدد ، ولم تكن هناك ضغوط أو حوافز ايجابية أمام

الآخرين للتحول الى الاسلام • وكان معظم من تحولوا للاسلام يعيشون فى المراكز الحضرية الرئيسية للسكان الغرب حيث السلطة العربية أو بالقرب منها ، وهناك نشأت بواكير المؤسسات الاسلامية المحددة مثل المسجد والمحكمة وأصبحت تلك المدن في العراق وايران والقيروان في أفريقيا وقرطبة في أسبانيا مراكز للاشعاع الإسلامي •

وبنهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) تغيرت الصورة وأصبح جزء كبير من السكان مسلمين ، لا سكان المدن فقط وانما أيضا نسبة ملحوظة من سكان المناطق الريفية • كان أحد الأسباب هو أن الاسلام أصبح أكثر وضوحا وتحديدا ، وتجلت الخطوط الفاصلة بين المسلمين وغير المسلمين ، وأصبح المسلمون يعيشون في نظام محدد من الشعائر والمذاهب والعقيدة والقانون والشريعة وكلها مختلفة بشكل واضح عن تلك التي يعتقد بها ويمارسها غير المسلمين ، وكانوا أيضا أكثر وعيا بذواتهم كمسلمين • أما وضعية المسيحيين والزرادشتيين فكانت أيضا محددة بشكل واضح وان كانت في مرتبة أدنى من بعض النواحي ، فكان المسلمون يعتبرون أولئك الذين بعثت اليهم الرسل أهل كتاب أو أهل ذمة (الذميون) وهم الذين أبرمت معهم مواثيق (أو ما يسمى بعهد عمر) وبشكل عام لم يكونوا مجبرين على اعتناق الاسلام ولكنهم عانوا من بعض القيود ، فقد تحملوا ضرائب خاصة ، ولم يكن مسموحا لهم أن يلبسوا ألوانا معينة ، ولم يكن باستطاعتهم الزواج من المسلمات ، ولم تكن شهادتهم مقبولة فى محاكم القانون الاسلامي ، ويجب ألا تكون مساكنهم وأماكن عبادتهم فاخرة ، وكانوا ممنوعين من تولى الوظائف المهمة (رغم أنه فى بعض الأماكن عمل اليهود والمسيحيون كنظار وسكرتيرين ومسئولين ماليين لدى حكام مسلمين) ، وكانت صرامة تطبيق هذه القواعد متوقفة على الظروف المحلية ، ولكن حتى فى أفضل الظروف فان وضع الأقلية لم يكن مريحا ، وكان الحافز على التحول الى الاسلام موجودا •

وبرغم ذلك لم تكن عملية التحول الى الاسلام كاملة فاليهود قد استبعدوا من معظم مناطق الجزيرة العربية في أيام الإسلام الأولى ، ولكنهم ظلوا متواجدين في المدن الكبرى من البلاد الاسلامية الأخرى كتجار وحرفيين ، وكتجار صغار أيضا فى بعض مناطق الريف فى شمال العراق واليمن ومراكش ، ولم يكن بقاؤهم وازدهارهم عائدا لقوة تنظيمهم الاجتماعى فقط ، وانما أيضا لقدرتهم على احتلال مواقع اقتصادية محددة

فى ثنايا المجتمع المركب ، وكذلك لكونهم غير مصنفين كأتباع لأى من الدول التى حاربها الحكام المسلمون من وقت لآخر •

أما الوضع المسيحي فكان مختلفا ، كان للبعض روابط دينية مع الامبراطورية البيزنطية وحامت حولهم الشكوك خلال أوقات الحرب ، ولم يكن لديهم ذلك النسيج المتماسك للتنظيم الاجتماعى الذى ميز اليهود ، وفي بعض الأجزاء من الريف لم يكونوا مسيحيين بعمق ، وفى بعض المناطق اختفت المسيحية نهائيا ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، وفى مناطق أخرى ظلت عقيدة للأقلية ، وفي أسبانيا ظل جزء كبير من السكان تابعا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وفي غيرها ، أولئك الذين ظلوا على مسيحيتهم مالوا لاتباع عدة كنائس منشقة انفصلت عن الأغلبية بسبب الاختلافات الكبيرة بينهم خلال القرون الأولى للمسيحية حول طبيعة المسيح ، بين النسطوريين وبين أولئك الموحدين المعتقدين بأن للمسيح طبيعة ومشيئة واحدة ، وقد عاش المسيحيون ، ليس فقط في المدن ، ولكن فى أجزاء من الريف أيضا ، خاصة فى صعيد مصر وجبال لبنان وشمال العراق •

وقد انتشرت اللغة العربية مع الاسلام بل وقبله فى بعض الأماكن ، ففى وسط سوريا وغرب العراق كان معظم السكان ، ابان الفتح الاسلامى، يتحدثون العربية بالفعل ، وأصبحت المدن الجديدة بسكانها من المهاجرين وحكوماتها التى يسيطر عليها العرب مراكز اشعاع للغة العربية ، وانتشرت كلغة تخاطب فى مختلف اللهجات المحلية المتأثرة باللغات الوطنية السابقة ، وكذلك كلغة كتابة بشكل حافظ على وحدة واستمرارية القرآن الذى نزل باللغة العربية •

وفيما يتعلق بلغة التخاطب ، واجهت اللغة العربية حاجزا فى ايران التى استمر فيها استعمال اللغة الفارسية ، أما كلغة كتابة فلم تجد العربية أى حدود داخل عالم الاسلام فقد حمل الدين اللغة معه ، والذين أسلموا من الأصول غير العربية وخاصة الايرانيين قرأوا القرآن بالعربية ولعبوا دورا كبيرا فى ايضاح وبيان نظام الفكر والقانون المنبثقين عنه • أما أولئك الذين لم يسلموا فقد استمروا فى استخدام لغاتهم الأصلية لأغراض دينية وأدبية ، واحتفظت بعض الكنائس الشرقية باللغات السريانية والقبطية فى الطقوس الدينية وكانت العبرية والآرامية لغات العبادة اليهودية والتدريس الدينى ، وأخذت الكتب والأسفار الدينية المنزلة عند الزرادشتيين شكلها النهائى بالبهلوية (الفارسية المستخدمة قبل الفتح)

بعد مجيء الاسلام . وحتى فى ايران أصبحت اللغة العربية لغة العبادة والأدبيات الدينية فى بعض الكنائس الشرقية ، وفى أسبانيا أقبل اليهود على استخدام العربية فى الفلسفة والعلوم والشعر وكان أول عائق جدى أمام انتشار العربية فى القرن التاسع ، هو بدء ظهور اللغة الفارسية بشكل اسلامى كلغة للأدب ، ولكن فى ايران ظلت العربية أيضا اللغة الرئيسية للتعليم الدينى والقانونى .

ولذا ، ففى الكتابة فى تلك الفترة كانت لكلمات مثل « عرب » و « عربية » معان أوسع بحيث حجبت المعانى القديمة ، فقد تعنى أولئك الذين تعود جذورهم الى شبه الجزيرة العربية وخاصة ذوى الأصول البدوية من القبائل ذات التقاليد العسكرية ، وقد تستخدم فيما يتعلق بكل أولئك من المغرب واسبانيا حتى حدود ايران الذين اتخذوا اللغة العربية كلغة وطنية ، وقد تشمل مدى أوسع من ذلك ، أولئك الذين أصبحت العربية بالنسبة لهم الوسيط الأساسى للتعبير عن الثقافة الأدبية الرفيعة .

وقد استمر ازدهار تراث نظم الشعر فى ظل الحكم الأموى ، وكان أشهر شعراء الفترة الأولى من أصول بدوية،مثل الأخطل والفرزدق وجرير ، وأصبح الشعراء تحت رعاية القصور الأموية وزعماء القبائل الأقوياء ، مما وسع من المدى الجغرافى للشعر وغير أيضا من طبيعته ، وأصبح مدح الحكام وذوى النفوذ أكثر انتشارا وفى نفس الوقت اكتسبت أشعار الغزل صبغة أكثر شخصية .

وفيما بعد وخلال العصر الأموى وبدايات العصر العباسى،حدث تحول أساسى كبير ، حيث غير دخول الاسلام من نظرة الناس الى اللغة العربية ، فقد كان القرآن هو أول كتاب يكتب بالعربية،وكان المسلمون يؤمنون أنها اللغة التى نزل بها الوحى وتجلت فى اللغة الرفيعة التى صيغت بها أشعار المراحل المبكرة ، ولكنها أصبحت تستخدم فى أغراض مختلفة ، وبات لزاما على أولئك الذين آمنوا بالقرآن (كلمة الله) أن يتفهموا اللغة ، فلم يعد ديوان العرب قاصرا على الشعر القديم وانما أصبح يحتوى على قواعد ونماذج اللغة الصحيحة أيضا ..

وأصبحت اللغة العربية وسيطا للتعبير لأولئك الوافدين الى مناطق الامبراطورية المختلفة من شبه الجزيرة العربية ولذوى الأصول الأخرى الذين اعتنقوا الدين الاسلامى أو الذين احتاجوا لاستخدام اللغة فى أغراض

العمل والحياة ، وبخاصة الفرس وغيرهم من المسئولين الآخرين الذين عملوا تحت امرة الحكام الجدد . وانتقل مركز النشاط الأدبي من المدن والواحات ومضارب الخيام البدوية الى المدن الجديدة، البصرة والكوفة أولا، وبعدها العاصمة الامبراطورية بغداد . وتغير الوسط الأدبي واتسع ليشمل الخلفاء وقصورهم وكبار المسئولين والصفوة الجديدة في الحضر من ذوي الأصول المختلفة ، واستمرت ممارسة النظم الشفهي وتلاوة الشعر كما بدأت كتابة الأعمال الأدبية : ومنذ بداية القرن التاسع ساعد ظهور الورق على تداول الأعمال المكتوبة ، واستخدم البردى والرق ولكن في أواخر القرن الثامن أدخلت صناعة الورق من الصين ، وبدأت هذه الصناعة أولا في خراسان ثم انتشرت في أجزاء أخرى من الامبراطورية ، وبحلول منتصف القرن العاشر حلت تقريبا محل البردى .

وقد كان من الآثار الطبيعية لانتشار اللغة العربية أن أصبح بعض من استخدموها راغبين في فهمها ، فكانت اغلب علوم اللغة من وضع أولئك الذين لم تكن العربية لغتهم والذين تعين عليهم التفكر فيها ، وتطور فن المعاجم والتصانيف اللغوية على يد الدارسين الذين كانوا يختلفون الى الأسواق التي يتردد عليها البدو . وكان أول من شرح وفسر قواعد اللغة بشكل منهجي رجلا من أصول غير عربية هو «سيبويه» (ت ٧٩٣م) ومن كتاباته اشتقت كل الأعمال اللاحقة ، وقد دفع هذا الزخم بالدارسين الى جمع ودراسة الشعر القديم في الجزيرة العربية ، ومن خلال عملية تصحيح هذه الأشعار وتنقيتها لابد وأنهم غيروا بعضها ، وفي نفس الوقت درسوا الأشكال الرئيسية والتركيبة الشعرية باتقان وعناية مما كان له أثر كبير على الأشعار اللاحقة . وأول المنظرين الأدبيين المهمين كان « ابن قتيبة » (٨٢٨ - ٨٨٩م) الذي وضع وصفا للقصيدة النمطية التي سار على نهجها اللاحقون . وتبدأ القصيدة عنده باثارة ذكريات الديار المهجورة والحب الضائع ثم تنتقل الى وصف ارتحال أو رحلة ثم تبلغ ذروتها في الموضوع الرئيسي المقصود وهو المدح أو الرثاء أو الهجاء .

وقد كانت كتابة المنظرين أقل أثرا في تطور الشعر من انتاج الشعراء لأشكال جديدة، فكانت أشعارهم أكثر ميلا الى الفردية، من تلك التي نظمها كتاب القصائد قبل الاسلام، واستوعبوا التراث الشعرى المتوارث ، ولكنهم استخدموه بوعي أدبي ذاتي ، وتنامت طرق وأنماط جديدة ، وتميزت باستخدام لغة متقنة ومصطلحات بلاغية ومفردات مهجورة ، تضع الكلمات في تضاد دلالي واطار صارم من الوزن والايقاع .

وتعددت موضوعات الشعر أكثر من ذي قبل ، حيث تناول الشعر الحب الجنسي ولم يقتصر على الحب الضائع أو المحرم ، في حين شارك

بعضها فى الجدل الأخلاقى أو الدينى فى القرون الاسلامية الأولى ، فقد كتب الشاعر السورى أبو العلاء المعرى (٩٧٣ ـ ١٠٥٧م) أشعارا وكذلك نثرا متقنا منمقا عبر فيه عن الشك في الأفكار التى كانت مقبولة بشكل عام عن الوحي وعن الحياة فيما بعد الموت :

كما كان من الطبيعي أن يشتد التركيز على المدح (التقريظ) ولم يكن أكثره منصبا على قبيلة الشاعر وانما على الحاكم أو النصير ٠ وانكمش ذلك التفاخر بالأسلاف أو الجزء الأول مما اعتبره ابن قتيبة القصيدة النمطية ، ليصبح ببساطة مجرد مقدمة للموضوع الرئيسي بمدح الحاكم أو النصير بلغة متقنة رسمية تظهر فى بعضها أحيانا شخصية وأحاسيس الشاعر ٠

وقد عاش أبو الطيب المتنبي (٩١٥ ـ ٩٦٩م) الذى اعتبره نقاد الأدب اللاحقون أعظم شعراء هذا النوع من الشعر فى الكوفة ، وكان من أصول عربية وقضي بعض سنواته الأولى بين أهل القبيلة العربية «بنى كلب» وأنفق جزءا من شبابه في نشاط سياسي ثم شاعرا في بلاط عدة حكام متعاقبين ، وفي أواخر حياته لدى حكام حلب والقاهرة وبغداد وشيراز وقد تكون أفضل سنواته انتاجا تلك التي قضاها شاعرا لدى سيف الدولة الحمداني حاكم حلب في شمال سوريا وبمناسبة برئه من مرضه يغرق المتنبى فى مدحه قائلا :

المجد عوفى إذ عوفيت والكرم ... وزال عنك الى أعدائك الألم

وراجع الشمس نوركان يفارقها ... كأنما فقده فى جسمها سقم

تفرد العرب فى الدنيا بمحتده ... وشارك العرب في احسانه العجم

وما اخصك في برء بتهنئة ... اذا سلمت فكل الناس قد سلموا

(٢) :

وقد اختلط ذلك المدح بفخر الشاعر بنفسه كما هو الحال في قصيدة كتبت عندما فقد الحظوة لدى سيف الدولة :

يا أعدل الناس الا فى معاملتى ... فيك الخصام وانت الخصم والحكم

انا الذى نظر الأعمى الى ادبى ... واسمعت كلماتى من به صمم

انام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

باى لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم

هذا عتابك الا أنه مقة ... قد ضمن الدر الا أنه كلم (٣)

واستمر الشعراء في احياء التراث القديم ، ولكن الكتابة النثرية العربية كانت شيئا جديدا . كان القرآن هو أول عمل نثرى بالعربية الفصحى (أو على الأقل أول عمل حفظ ليبقى(*)) وكان انتاج الآخرين نتيجة طبيعية له بشكل ما ، وجمعت القصص عن النبى صلى الله عليه وسلم وفتوحات العرب وكتبت ، ووضع الدعاة الشعبيون بلاغيات من الأفكار الاسلامية ، وفيما بعد ظهر نوع جديد من النثر الفنى يستكشف أفكارا مأخوذة عن ثقافات أخرى ؛ وكان كتاب « كليلة ودمنة » من أول وأشهر الأمثلة ، وهو مجموعة من الخرافات ذات المغزى الأخلاقى عن حياة الحيوانات كتبت بالسنسكريتية ثم نقلت للبهلوية (الفارسية القديمة) وكتبها نثرا بالعربية مسئول عباسى من أصل ايرانى هو « ابن المقفع » (ت ٧٢ هـ ٧٥٦ ت) .

وكان ابن المقفع مثالا للمسئولين المستعربين الذين أسلموا وأدخلوا على العربية أفكارا وضروبا أدبية مشتقة عن ثقافاتهم الموروثة ، والى جانبهم أيضا كانت هناك مجموعة من الكتاب الذين استمدوا الهامهم من عالم الواقع الجديد الذى نشأ بانتشار الاسلام واتساع امبراطوريته ، وتعددية الشعوب والأمصار ، والتنوع الجديد فى الشخصيات الانسانية ، والمشاكل المستجدة فى الأخلاق والسلوك ، وقد حاولوا تناول هذا كله فى ضوء معايير الايمان الاسلامى الجديد ، ثم التعبير عنه بشكل أدبى مستساغ ، وكان الجاحظ من بين من مارسوا هذا النوع الجديد من الأدب باتساع أفقه وكانت ردود فعله المفعمة بالحيوية تتجلى فى لغة نموذجية . وتعود جذور الجاحظ لاحدى الأسر الأفريقية من أصول العبيد التى انتسبت للقبائل العربية واستعربت تماما لفترة طويلة ، وقد نشأ بالبصرة وعاش فى حماية الخليفة المأمون (**) وكان فضوله الثقافى بعيد المدى وكانت أعماله مجموعات من المعرفة المشوقة والمثيرة فيما يتعلق بعالم الطبيعة والانسان ، والبلاد والحيوانات ، وعجائب الكائنات مع مسحة من التعبير الأخلاقى عن الصداقة والحب ، والحقد والكبرياء ، والجشع والزيف والاخلاص :

« ان النبيل لا يدعى النبل كما لا يدعى البليغ البلاغة وحينما يبالغ المرء فى صفاته ، فذلك لأنه يشعر بالنقص فى ذاته ، فالعويل يتظاهر

(*) ينظر المؤلف هنا للقرآن باعتباره نصا من أدبيات اللغة العربية (المترجم)

(**) تشير الكتب المتداولة ان الجاحظ من قبيلة كنانة بالبصرة وسمى بالجاحظ لجحوظ عينيه . ولد ١٥٩هـ/٧٧٧م ، وتوفى ٢٥٥هـ/٨٦٨م ، اما ان الصلة بعبيد افريقى (أسود) فالمتوفر بين أيدينا من المراجع لا يؤيد ذلك (المراجع)

بالقوة لأنه يعلم مواطن ضعفه ، والكبرياء قبيحة في كل الناس ٠٠ وهي أحسن من القوة وتعتبر كبيرة الكبائر ، والتواضع خير من الرحمة التى تعتبر فضيلة الفضائل » (٤) ٠

اتخذ الأدب في مرحلة بدايات العصر العباسى طابعا من التسلية والتثقيف وقد كتب التنوخي أحد قضاة بغداد (٩٤٠ ــ ٩٩٤) ثلاثة أجزاء من الحكايات ، فكانت تسلية أدبية وسلسلة من الوثائق الاجتماعية عن عالم الوزراء والقضاة والمستويات الأقل ممن أحاطوا بالقصر العباسى ٠ وفي القرن التالى كتب أبو حيان التوحيدى (ت ١٠٢٣) مقالات وبحوثا ورسائل تناولت نطاقا واسعا من الموضوعات الدارجة التى شاعت بين الدارسين والكتاب في عصره ، صاغها في نمط أدبى جذاب كشفت عن معارف واسعة وعقلية متميزة ، وكانت التسلية هي الهدف الرئيسى للمقامات وهي سلسلة من القصص مكتوبة في نثر مسجوع وفيها يتلو القاص حكايات المحتالين المخادعين والمتشردين في مختلف ما يقابلون من مواقف وقد بلغت ذروة عالية من التطور على أيدى « الهمذانى » (٩٦٨ ــ ١١١٠) والحريرى (١٠٥٤ ــ ١١٢٢) وقد ظل هذا النوع محببا وشعبيا في دوائر الأدب العربي حتى القرن العشرين ٠

وقد اكتسبت أخبار الماضى أهمية في كل المجتمعات الانسانية ، وان كانت لها دلالة خاصة في المجتمعات القائمة على الاعتقاد بأن حوادث فريدة وقعت في أوقات وأماكن محددة ، وقبل ظهور الاسلام كانت للقبائل العربية سجلات شفهية عن أعمال أسلافهم ، وكانت الى حد ما موجودة في أشعار تلك المرحلة ، وفي القرون الأولى للاسلام اكتسب التأريخ نوعا جديدا من الأهمية كما بدأت عملية تسجيله كتابة ، كذلك تطور نوعان مختلفان من الكتابة التاريخية مرتبطان بشكل وثيق كل منهما بالآخر ؛ فمن ناحية قام اللغويون والنسابون بجمع وكتابة التاريخ الشفهى لرجال القبائل العرب ، ولم يكن ذلك مهما لدراسة اللغة العربية فحسب ، وانما لسبب عملى آخر متصل بتوزيع الغنائم الناتجة عن حركة الفتوحات وما تغله الأرض في المناطق الجديدة التى أقاموا فيها ٠

ثم ان تسجيل أحداث حياة النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأوائل والفتوحات الأولى والشئون العامة للمجتمع الاسلامى كانت أمورا فائقة الأهمية انتقلت على أيدى علماء جادين ، ومع التغيرات وحتى الاختلافات والانتحالات التى طرأت عليها أحيانا بفعل الخلافات الدينية والسياسية ومبالغات الرواة ــ ظهر كم هائل من التحقيقات ومنها نشأت أنواع عديدة من الأدب مثل مقتطفات من الحديث وسيرة النبى ومقتطفات

من حياة ناقل الحديث (*). وأخيرا أعمال القصص التاريخى عن رحمة الله بعبيده ، وكانت تحوى عنصرا من القدوة والعبرة ولكن مع جوهر صلب من الحقيقة . كما أدى وضع التاريخ الهجرى الى تأسيس علم التاريخ والتقاويم الذى يبدأ من الهجرة وقد وفر إطارا زمنيا عاما لتسجيل الأحداث .

وقد وصلت تقاليد كتابة التاريخ الى مرحلة النضج فى القرن التاسع بظهور مؤرخين ذوى مجالات اهتمام واسعة ، وقدرة أكبر على الفهم منهم البلاذرى (ت ٨٩٢) والطبرى (٨٣٩ ـ ٩٢٣) والمسعودى (ت ٩٢٨) وقد اتخذ هؤلاء الكتاب التاريخ الاسلامى مجالا لتركيزهم ، لكن ذلك لم يمنع تناولهم كل ما يعتبر له قيمة فى التاريخ الانسانى كله . اذ يتعامل المسعودى مع الحوادث والأخبار التاريخية للشعوب السبعة القديمة ، أى من كان لهم تاريخ حقيقى فى نظره : الفرس ، والكلدانيون واليونانيون والمصريون والأتراك والهنود والصينيون . وكان لابد من ترتيب هذا الكم الهائل من المعلومات ، بالسنوات فى حالة التاريخ الاسلامى ، وفيما عداه بمعايير أخرى كفترات حكم الملوك ، وكان من الضرورى الحكم على تلك المعلومات بمقاييس نقدية ، وكان أكثر المعايير وضوحا هو (الاسناد) : وهو سلسلة من الشهود لواقعة معينة والى أى مدى يمكن الوثوق فى شهاداتهم ، وكانت هناك أيضا معايير أخرى . فالمنقول يمكن اعتباره معقولا أو غير معقول فى ضوء الفهم العام لأسلوب تصرف الحكام وكيفية تغير المجتمعات الانسانية .

كاتب آخر هو البيرونى (٩٧٣ ـ ١٠٥٠) كان فريدا فى مجال اهتماماته وعلمه ، ويعتبر كتابه عن تاريخ الهند (تحقيق ما للهند) أعظم المحاولات الجادة التى قام بها كاتب مسلم للتحليق فيما وراء عالم الاسلام مع فرز ما له قيمة فى تراث ثقافى آخر ، ولم تكن أعماله جدلية كما يوضح هو فى مقدمة كتابه :

« وليس هذا الكتاب كتاب جدل ومناقشة يعرض أفكار المخالفين ويفند ما فيها من الحق والباطل ، ولكنه وصف مباشر لأحوال الهندوس ، أضفت اليه ما يقوله اليونانيون عن أمور مماثلة بغرض المقارنة بينهم(٥) .

وعن الفكر الهندى الدينى والفلسفى فى أفضل تصوير كتب :

وحيث اننا نصف ما فى الهند ، فاننا نذكر خرافاتهم ، ولكننا

(*) وهو ما يعرف بعلم الرجال ، وهو أساس تطوير فن التراجم عند العرب ـ (المراجع) .

تشير الى أن تلك الخرافات قاصرة على عوام الناس فقط ، أما أولئك الذين يتبعون طريق الصدق وجادة العقل ، والذين يكدحون الى الحق ، فيجب عليهم ألا يعبدوا غير الله وحده ، وألا يعبدوا أية صورة ممسوخة له » (٦) ٠

وفى النهاية يشير الى معتقدات مشابهة لمعتقدات اليونانيين ومن بينها أيضا أولئك الذين يعبدون أصناما فى عصور الجهل الدينى قبل ظهور المسيحية ، ولكن المتعلمين كانت لهم آراء ووجهات نظر مشابهة لتلك الخاصة بالهندوس ٠ وعلى أية حال ، فالصفوة الهندية تختلف عن المسلمين فى أمر جوهرى ذلك أن « الهنود فى زماننا يجعلون كثيرا من الفروق بين بنى الانسان ، ونحن نختلف عنهم فى ذلك حيث لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى وهذا هو الخلاف الأكبر بينهم وبين الاسلام » (٧) ٠

العالم الاسلامى

بحلول القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) كان قد ظهر وتبلور ما يعرف بعالم اسلامى ٠ وكان بامكان أى مسافر حول العالم أن يدرك ـ من خلال ما يرى ويسمع ما اذا كان فى بلاد يسكنها مسلمون أو يحكمها حاكم مسلم ، فهذه الأشكال الخارجية أنجزتها حركات الشعوب : الأسر الحاكمة وجيوشها ، والتجار الذين ينتقلون من خلال عوالم من المتوسط والمحيط الهندى ، والحرفيون الذين ينتقلون من مدينة الى أخرى حسب تشجيع الحكام وطبقة الأغنياء ، وكانوا ينتقلون أيضا بالسلع المستوردة والمصدرة التى تعبر عن نمط معين ، مثل الكتب والأشغال المعدنية والخزفيات وبشكل خاص المنسوجات ، وهى السلعة الرائدة للتجارة البعيدة المدى ٠

كانت المبانى العظيمة أيضا من الرموز الخارجية المعبرة عن (عالم الاسلام) ، وفى مراحل لاحقة ظهرت الأنماط الاقليمية فى بناء المساجد ٠ ولكن كانت هناك بعض الخصائص المشتركة فى القرون الأولى يمكن تبينها من قرطبة الى العراق وما وراءه ٠ ذلك بالاضافة الى المساجد الصغيرة فى الأسواق والربوع والقرى حيث تؤدى الصلوات ، ولكن صلاة الجمعة لم تكن لها خطبة (*) ، وكانت هذه المساجد تبنى بالمواد المحلية وتعكس مزاجا وتراثا محليين ٠

(*) لا ندرى مدى صحة أن صلاة الجمعة كانت بلا خطبة فى أى وقت من الأوقات ، فخطبة الجمعة وردت فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فمن « حضر والامام يخطب فلا جمعة له » ونهى رسول الله عن « الحبوة يوم الجمعة والامام يخطب » رواه ابن حنبل وأبو داود وابن ماجة ٠ وثمة أحاديث أخرى ٠ راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الذى أشرف عليه المستشرق فنسنك جـ١ مادة (جمع ـ جمعة) ـ (المراجع) ٠

وأصبح المسجد واقعا فى قلب نظام كامل للمبانى الدينية ، بيت القاضى حيث يحكم ، والخان لعابرى السبيل والحجيج ، ومستشفيات للمرضى ، ولانشاء تلك المبانى والانفاق عليها كانت أعمال الأوقاف على الخير التى حث عليها القرآن ، وكان هناك نوع آخر من المبانى لعب دورا خاصا فى ربط المجتمع الاسلامى بصرف النظر عن الحدود المدنية أو الاقليمية وهى الأحرام (جمع حرم) ، وقد ميزته أماكن محددة للحج والصلاة المأخوذة من التراث الدينى السابق واتخذت معنى اسلاميا ، وهى الكعبة فى مكة ، وقبة الصخرة فى القدس ، وضريح ابراهيم فى الخليل ، والى جانبها ظهرت نقاط جذب جديدة ، وهى قبور أولئك الذين ارتبطوا بالتاريخ الاسلامى المبكر • ورغم أن المسلمين يعتبرون محمدا صلى الله عليه وسلم رجلا كبقية الآخرين ،الا أنه سيتشفع لقومه يوم القيامة ، ويزور المسلمون قبره فى المدينة خلال حجهم الى مكة ، كما انجذب الحجاج منذ وقت مبكر الى قبور أئمة الشيعة خاصة أولئك الذين عانوا كثيرا كضريح « على » كرم الله وجهه فى النجف ويحوى عناصر تعود الى القرن التاسع ، وقد تزايدت فى العالم الاسلامى قبور أولئك الذين اعتبروا « أولياء الله » ولهم القدرة على التوسط والشفاعة ، ولاشك أن بعضها نشأ فى مواقع كانت مقدسة فى أديان سابقة أو بفعل التراث السحيق فى الريف • وهناك نوع آخر من المبانى الذى عبر عن قوة وسلطان الحاكم ، من بينها كانت أعمال عظيمة للخدمة العامة ، نزل أو خان على الطريق التجارية ، وقنوات معلقة أو أعمال رى أخرى فى البلاد العطشى من الشرق الأوسط والمغرب ، وكان جلب المياه لسكان هذه المدن من أعمال السياسة الصائبة الراسخة ، كذلك كان رى الأراضى من الممارسات التى انتشرت مع التوسع العربى فى البحر المتوسط• وكانت القصور معبرة عن العظمة الامبراطورية ، وما فيها من أبهاء الأنس المبسوطة وسط الحدائق والمياه الجارية ، وبساتين منعزلة ترمز الى الجنة ، والقصور الرسمية،ومراكز الحكم والعدل جنبا الى جنب مع حياة الرفاهية والفخامة • وهناك أشياء معروفة عن القصور العباسية من الأوصاف المكتوبة ، ومن الأطلال الباقية فى سامراء ـ فقد كانت المداخل ساحات مفتوحة للاستعراضات وألعاب الفروسية ولها أسوار عالية وطرقات خلال الحدائق تؤدى الى سلسلة من البوابات الداخلية ، وفى المراكز قصر الاقامة والمكاتب الخاصة بالخليفة والقاعة ذات القبة حيث ينعقد المجلس • هذه الأبنية تمثل القوة والعظمة والمتعة أيضا والانفصال عن العالم الخارجى وتكررت على طول وعرض العالم الاسلامى بحيث أوجدت نمطا عالميا ظل باقيا لقرون •

وبشكل ما لم يكن هناك ما هو اسلامى بالضرورة فى هذه القصور . الا أن احتواء كل هذه الأمور الدينية (من العالم) فى امبراطورية واحدة جمع عناصر من مواطن مختلفة فى وحدة جديدة ، وكان الحكام على اتصال ببعضهم البعض فى العالم الاسلامى وخارجه وتبادلوا الهدايا وجلب الشعراء عند عودتهم قصصا مشوقة . وكانت الصفوة والنخب الحاكمة منفتحة بشكل خاص على كل ما هو جديد ، وعبرت ديكورات القصور عن أشكال وأفكار تراثية من حياة الأمراء فى كل مكان ، مثل مشاهد المعارك والصيد والنبيذ والرقص .

واستخدمت هذه الأفكار فى الرسم على الحوائط وغلبت عليها الأشكال الانسانية والحيوانية ، أما فى المبانى ذات الطابع الدينى فقد استبعدت أشكال الكائنات الحية ، وبرغم أن تصوير الكائنات الحية ليس محرما بشكل صريح فى القرآن الا أن معظم الفقهاء ، استنادا الى الحديث، اعتبروا أن ذلك تعد على القوة الالهية القادرة على خلق الحياة ، وتصور الفسيفساء فى الجامع الأموى فى دمشق العالم الطبيعى والمنازل بشكل أقرب ما يكون للواقع وتذكرنا بالحائطيات (الجداريات) الرومانية ، ولكنها بلا مخلوقات حية ، ولم تكن حوائط المساجد والمبانى العامة الأخرى خالية من الزخارف . فكانت الأسطح تغطى بزخارف وأشكال من النباتات والأزهار على طراز راق وانساق من الخطوط والدوائر المرتبطة والمتشابكة تتكرر بلا نهاية ، كما تطور فن الخط على أيدى بعض المسئولين فى دواوين الحكم ، وكان له مدلول خاص عند المسلمين الذين اعتقدوا أن الله اتصل بالعديد من الناس من خلال كلمته باللغة العربية ، وتطورت كتابة هذه اللغة على أيدى فنانى الخط بطرق مناسبة للزخرفة المعمارية ، فكانت الكلمات تتكرر فى أشكال متغيرة بلا نهاية ، أو تكتب فى عبارات متشابكة فى أشكال نباتية أو هندسية ، وبهذا أصبح فن الخط من أهم الفنون الاسلامية ، ولم تزين الكتابة العربية المبانى فقط وانما العملة والمشغولات النحاسية والفخارية والمنسوجات خاصة تلك المصنوعة فى الورش الملكية والتى كانت تقدم كهدايا ، واستخدمت الكتابة للاعلان عن عظمة وخلود الاله وعن كرم وسخاء صاحب البناء أو براعة المعمارى كتلك النقوش الموجودة حول قبة الصخرة .

واختفت المساكن التى بناها فى تلك الفترة سكان المدن من المسلمين ولكن تبقى من أثاثها ما يكفى للتذكير بالفنون التى استخدمت فيها ولاظهار أن بعض الأعمال الفنية بها مشابهة للأعمال التى فى القصور ، ونسخت الكتب مزودة بالصور للتجار والعلماء وصنعت الأشغال المعدنية والزجاج

والفخار والخزف ، كانت المنسوجات ذات أهمية خاصة ، فالأرضيات كانت تغطى بالسجاد ، وتغطت المقاعد المنخفضة بالأقمشة ، وكانت السجاجيد تعلق على الحوائط والأقمشة كلها تتميز بنفس الزخارف التى ظهرت على المبانى الدينية من أشكال من النباتات والأزهار والتصاميم الهندسية والكلمات العربية ولم يكن هناك الكثير من الشعارات الملكية ، كما أن الشكل الانسانى لم يغب تماما ، وسرعان ما ظهرت الخزفيات المصرية التى رسمت عليها أشكال انسانية ، كما أن النصوص احتوت على أشكال انسانية وحيوانية فى تصوير القصص أو الحياة اليومية .

وبحلول القرن العاشر أصبح رجال ونساء الشرق الأدنى والمغرب يعيشون فى عالم شكله الاسلام وانقسم العالم الى دار الاسلام ودار الحرب، وأعطت الأماكن المقدسة عند المسلمين أو المرتبطة بتاريخهم المبكر دار الاسلام خصائصها المتميزة ، وعرف الوقت بالصلوات الخمس اليومية ، وبصلاة الجمعة وبالصيام السنوى فى رمضان والحج الى مكة والتقويم الهجرى .

كما أعطى الاسلام الناس هوية ميزوا بها أنفسهم عن الآخرين ، وعاش المسلمون ككل الناس على مستويات مختلفة ، فلم يكونوا يفكرون فى الحساب أو الجنة طول الوقت ، وعرفوا أنفسهم خلال متطلبات الحياة اليومية فيما يتجاوز كيانهم الفردى بالعائلة أو الدائرة الأوسع من القرابة أو النسب أو وحدة المرعى أو القبيلة أو القرية أو المنطقة الريفية أو الحى أو المدينة ، وكانوا بخلاف ذلك على وعى بأنهم ينتمون الى دائرة أوسع هى مجتمع المؤمنين (الأمة) ، وربطت بينهم الشعائر الجماعية فى قبول وفهم مشترك عن قدر الانسان فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وفصلتهم عن المؤمنين بديانات أخرى سواء أكانوا يعيشون بينهم فى دار الاسلام أم ما وراء حدوده .

كانت هناك هويات فى عالم الاسلام ، على مستوى متوسط بين الوحدات الصغيرة المتماسكة للحياة اليومية ، لم تحقق الولاء للأمة بشكل قوى دائم ، ولكن خدمة وطاعة الأسرة الحاكمة خاصة اذا ما سادت لوقت طويل يمكن أن توجد مثل هذا الولاء . واللغة المشتركة أيضا لابد وأنها أوجدت احساسا بسهولة التواصل ونوعا من العزة والكبرياء . ظل تمييز العرب بالاسلام فى القرن الحادى عشر قويا مما دفع بالبيرونى ذى الجذور الايرانية الى تأكيد هذا بقوله : ان ديننا ودولتنا توأمان يحميهما اله واحد ، ولم تنجح كل المحاولات التى بذلت لتغليب هوية أخرى غير عربية على الدولة (٨) .

ولم يكن مفهوم الوطنيـة العرقية الحديثة موجودا بالطبع وهو أن أولئـك الذين لهم لغة مشتركة يجب أن يعيشوا معا فى مجتمع سياسى مغلق عليهم ، كما لم توجد أيضا تلك المفاهيم الخاصة بالدولة الاقليمية التى تعيش فى قطعة من الأرض تفصلها عن الآخرين حدود مرسومة ٠ **ورغم ذلك كان هناك نوع من الوعى بالسمات الخاصة للمدينة والأراضى التابعة لها التى يمكن أن تعبر عن نفسها بشكل اسلامى** ، وأظهرت دراسة عن مصر أن الوعي بطبيعتها الخاصة ظل ثابتا ، بسبب هبات الطبيعة وموقعها فى التاريخ الاسلامى ، وأبطالها من الشهداء والقديسين وما وراء ذلك من الذكريات التى عاشت فى الماضى (ما قبل الاسـلام) ومن العجائب التى خلفهـا العالم القـديم ، الأهرام وأبو الهول والمعابد القديمة ، الطقوس والمعتقدات فى الريف التى يلتمسها الرجال والنساء للحماية والأمان (٩) ٠

الفصل الرابع

ركائز الاسلام *

قضية السلطة

غير انتشار اللغة العربية بين شعوب غير عربية من طبيعة ما عبرت عنه من آداب ، ولم يتبد ذلك فى الكتابة غير الدينية فقط وانما فى نوع جديد من الكتابات تجلت فيها معانى الوحى الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجد الذين اعتنقوا الاسلام أنفسهم فى مواجهة أسئلة لا مهرب منها : أسئلة لم تنشأ عن الفضول الفكرى والعقلى فقط ، وانما من انتقادات المسيحيين واليهود والزرادشتيين ، وقبل كل هـذا من الحاجة الى تصور الآثار المترتبة على الايمان ، وعلى الحياة فى المجتمع ، وقد حاولوا بطبيعة الحال الاجابة على هذه الأسئلة فى ظل رصيدهم المعرفى وطرقهم فى التفكير التى جلبوها معهم الى مجتمعهم الجديد ، أو الموجودة لدى أولئك الذين لم يتحولوا الى الدين الجديد . ففى القرون الأولى ظل اليهود والمسيحيون والمسلمون أكثر انفتاحا على بعضهم البعض مما أصبح عليه الحال فيما بعد، وطبيعى أيضا أن تلك العملية كانت تتم بشكل مثمر فى تلك الأماكن ذات التقاليد الفكرية الراسخة وأجهزة المعرفة القوية ، وقد كان لتغير الموازين وانتقال مركز الثقل الذى طرأ على الكيان السياسى للاسلام ما يوازيه فى مجال الفكر ، فلم تنتقص أهمية المدينة ومكة ، ولكن سوريا اكتسبت أهمية وصار العراق أهمها جميعا بتربته الثقافية الخصبة من اليهودية والنسطورية والمسيحية وديانات ايران .

وقد جرى وبشكل واسع تفصيل الاسلام فى كيان من العلوم الدينية والممارسات فى العراق فى الفترة العباسية ، وكان ذلك استمرارا لحركات الفكر التى بدأت مبكرا قبل ظهور الاسلام ، لكن ذلك لا يعنى أن الاسلام لم يعطها اتجاهات جديدة .

(*) اختار الكاتب عبارة Articulation of Islam عنوانا لهذا الفصل وقد ترجمتها (تفصيل الاسلام) كما ظهر معناها فى بداية الفقرة الثانية ــ (المترجم) .

وتنوعت الموارد التى اغترف منها المفكرون والعلماء ، فكان أولها القرآن ، ومنذ أخذ شكله النهائى لم يطرأ شك فى أن مادته مستمدة من عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو يصور الاله المهيمن القادر ، ورسله الذين بعث بهم الى البشر ، والايمان والعرفان والصلاة والاحسان التى ألزم بها الناس ، وحساب يوم القيامة الذى تتجلى فيه رحمته وعدالته . ثم ذلك التراث الحى عن سلوك المجتمع منذ عصر النبى وما بعده ، تتداولها وتنقيها الأجيال اللاحقة ، وقد وقر فى قلبها نوع من الذاكرة الجمعية عن صورة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك أيضا ذكريات التصرفات العامة للمجتمع والخلفاء وسياساتهم وصراعاتهم وعلى الأخص تلك الخصومات والصراعات فى عهد عثمان وحركات المعارضة التى تمخضت عنها ، وذكريات على رضى الله عنه والانقسامات الأولى التى حدثت بين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

ولم تتغير تقاليد الأدب فقط ، وانما تغيرت أيضا الطبيعة الأولية البسيطة للاسلام والتى ألزمت الذين يرغبون فى الامتثال لمشيئة الله بالبحث عن المعرفة والتدبر فيها من خلال كلمات الوحى وما بنى عليها من الأفكار والمعارف ، فقد بدأ البحث عن المعرفة الدينية (العلم) مبكرا فى تاريخ الاسلام وتطور تدريجيا الى كيان من العلماء المنشغلين بقضاياه .

وقد تعددت خطوط الفكر والدرس التى فصل الاسلام من خلالها وان ترابطت بوضوح بعضها ببعض ، وكانت أول مشكلة ملحة هى مشكلة السلطة ، وقد أوجدت مواعظ وخطب محمد صلى الله عليه وسلم جماعة ملتزمة بالعيش وفقا لمعايير القرآن ، وقد فرضت الصراعات والنزاعات فى نصف القرن الأول تساؤلا عن : السلطة ولمن تكون فى هذا المجتمع ؟ وما نوع تلك السلطة ؟ وقد أجيب على ذلك التساؤل فى ضوء التأمل فى هذه المشاكل ، فهل يجب أن تكون الخلافة أو الامامة حقا مباحا لكل المسلمين أم تقتصر على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أم هى حق لعائلته فقط ؟ وكيف يجب اختيار الخليفة ؟ وما حدود تصرفاته الشرعية ؟ واذا انحرف عن العدل فهل تجب طاعته أم يجب عزله .. ؟!

وتبلورت تدريجيا مواقف عدة حيال مثل هذه المشاكل ، فكان موقف أولئك الذين سموا فيما بعد بالسنة ، يرى أن من الضرورى على كل المسلمين أن يعيشوا جنبا الى جنب فى سلام واتحاد ، ويعنى ذلك ضمنا أن عليهم

التقبول بما حدث ، وقد قبلوا بشرعية الخلفاء الأربعة وبكونهم أيضا فاضلين راشدين ، قد لا تكون تصرفات الخلفاء اللاحقين هى العدل على الدوام ، ولكن يتعين قبول شرعيتها طالما أنها لا تخالف تعاليم الله الأساسية ، وهناك بعض الدلائل على أن الخلفاء الأمويين ادعوا بأنهم يخلفون النبى صلى الله عليه وسلم فى قيادة المجتمع ، كما أنهم خلفاء الله فى الأرض والمرجع الأسمى فى تفسير الشريعة (١) ، ولم تعتبر جماعة السنة فى شكلها المتطور الخليفة كنبى أو مفسر معصوم،وانما كقائد وزعيم من واجبه حفظ السلام والعدل فى المجتمع ، ولهذا فلابد له أن يتحلى بالفضائل والمعرفة بالشريعة • كما كان أمرا مقبولا لدى الكثيرين أن يكون منحدرا من قبيلة قريش التى ينتمى اليها النبى صلى الله عليه وسلم •

وبالتدريج طورت الحركات التى نازعت فى سلطة الخلفاء نظرياتها الخاصة حول السلطة الشرعية ، فاعتقد « الأباضية » أنه ليس من الضرورى وجود (امام) فى كل الأوقات ، وأن بامكان كل مسلم أن يصبح اماما بصرف النظر عن عائلته أو منشئه ، ويجب أن يختاره المجتمع ، وأن ينصرف بالعدل وفقا للقانون المشتق من القرآن والحديث ، واذا ما أثبت أنه ليس عادلا فيجب عزله وتنحيته • كما لم تقبل الشيعة بأحقية الخلفاء الثلاثة الأوائل فى الخلافة ولكنهم اعتقدوا أن عليا بن أبى طالب هو الخليفة الشرعى الوحيد المختار لخلافة محمد صلى الله عليه وسلم كامام ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم حول أقارب على وحول سلطة الأمة ، فالزيديون كانوا هم الأقرب الى السنة فى موقفهم ووجهة نظرهم ، فاعتبروا أن كل من ينحدر من على من زوجته فاطمة يمكن أن يكون اماما على أن يكون عارفا تقيا ، وأن يكون قد أظهر همة فى مناهضة الظلم ، وعليه يمكن أن تكون هناك سلسلة من الأئمة ، متجددة باستمرار ولم يكن الامام فى اعتقادهم معصوما أو تفوق سلطاته السلطة البشرية •

أما الحركتان الشيعيتان الأخريان المهمتان فقد ذهبتا الى أبعد من ذلك، فقد آمنوا بأن الامام يعين الامام الذى يليه ، وأن الامام المختار هو المفسر المعصوم لوحى الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الطائفة التى استقطبت أكثر الأتباع فقد اعتقدت أن الخلافة تظل فى نسل على حتى الامام الثانى عشر فى الترتيب ، الذى اختفى عن العيان فى القرن التاسع لهذا سموا بالشيعة الاثنى عشرية ، ولما كان العالم لا يمكن أن يوجد بغير امام ، كان من المعتقد أن الامام الثانى عشر لم يمت لأنه موجود يعيش فى « غيبة » وأنه فى البداية اتصل بالشعب الاسلامى من خلال وسطاء ولكنه

اختفى بعد ذلك عن العالم الذى ظل يتوقع عودته ليعيد سيادة العدل .
أما الاسماعيليون من ناحيتهم فقد اتفقوا على أن الامام هو المفسر المعصوم للحقيقة ، ولكنهم اعتقدوا بأن خط الأئمة المرئيين انتهى مع الامام السابع « محمـد بن اسماعيل » الا أن بعضهم عدل من معتقده عندما أعلن الخلفاء الفاطميون أنهم أئمة .

وكان من المتوقع أن تكون لهذه الآراء المختلفة فى الخلافة أو الامامة تداعيات متباينة فى طبيعة الحكومة وموقعها فى المجتمع ، فكل من الأباضية والزيديين كانتـا جمـاعتين انسحبتا من المجتمع الاسلامى العام ، ورفضتا الطاعة لسلطة الحكومات الظالمة ، وكانتا ترغبان فى العيش تحت حكم دينى حسب تفسير كل منهما ولم تكونا راغبتين فى اعطاء الامام أو (أى حاكم آخر) القوة والسلطة التى قد تجعله يتصرف بلا عدل ، ومن ناحية أخرى كان السنة والشيعة الاثنا عشرية والاسماعيليون كل منها على طريقته يريد سلطة القـانون والحفاظ على النظـام فى المجتمع . وبنهـاية العصر الأول تكرس الانفصـال الحتمى بين أولئك الذين حافظوا على القانون (العلماء بالنسبة للسنة والامام الغائب عند الشيعة) من ناحية (ورجال السيف) الذين لديهم القوة لفرض السلطة الزمنية من ناحية أخرى .

عـدل الله وقوته

كانت قضـية السلطة الزمنية بشـكل من الأشكال انعكاسا لمسائل أكثر أصـولية ، هى التى انبثقت من القرآن : الأسئلة حـول صفات الله وتعامله مع الجنس البشرى ، وعن وحدانيته وعدالته .

فالله فى القرآن واحد متعال فوق الوجود المادى ، ولكن القرآن يتحدث عن صفات المشيئة والعلم والسمع والبصر والكلام ، والقرآن كلمته . فكيف يمكن التوفيق بين تعدد صفاته مع وحدانيته ؟ وكيف يمكن وصف هذه القدرات ، وهى أيضا قدرات الانسان ، بمفردات تحافظ على لا نهائية المسافة بين الله والانسان ؟ وما علاقة القرآن بالله ؟ وهل يمكن القول انه كلمته دون أن يعنى ذلك أن له قدرة على التخـاطب مماثلة لقـدرة مخلوقاته ؟ . هذه المشكلات هى من النوع الموروث فى أى دين يؤمن بأن هناك قوى أسمى تتجلى على شكل ما للمخلوقات البشرية ، وكان التجلى فى المسيحية على صورة انسان وعليه كان السؤال اللاهوتى الأساسى فى القرون المبكرة يدور حول علاقة هذا الانسان بالرب ، وكان التجلى عند المسلمين على هيئة كتاب ولهذا فمشكلة وضعية هذا الكتاب لابد وأن تصبح أساسـية .

والتســاؤل عن طبيعــة الرب يؤدى منطقيــا الى التساؤل عن طبيعة تعاملاته مع الناس ، وهناك انطباعان لابد وأن يتخلقا فى ذهن كل من قرأ القرآن أو استمع اليه مرتلا ، الله قوى عليم ، ولكن الانسان مسئول عن عمله بشكل ما وسيحاسبه الله على أعماله ، كيف يمكن لهاتين المقولتين أن تتفقا ؟ مرة أخرى هى مشكلة موروثة فى الفكر والايمان التوحيدى ، اذا كان الله هو الأقوى كيف يمكن أن يسمح بالشر ؟ وكيف يمكن أن يكون محقا وعادلا فى ادانة الأفعال الشريرة ؟ .. بشكل عام هل الانسان مخير فى القيام بأفعاله أم انها جميعا من عند الله ؟ ، اذا لم يكن مخيرا فهل من العدل أن يحاكمه الله ؟ واذا كان حرا ويمكن عندئذ أن يحاسبه الرب ، فهل يمكن أن يدرك مبادىء العدل التى سوف يحاسب على أساسها ؟ واذا كان الأمر كذلك أفلا يعنى ذلك أن هناك مبادىء للعدل تحكم أفعال الرب ؟ وعليه فهل يمكن القول بأن الله مطلق القوة ؟ وكيف يكون حساب المسلمين ؟ هل بالايمان فقط ؟ ، أم بالايمان مع التعبير الشفهى عنه ؟ أم أيضا بالعمل الطيب ؟ .

يتضمن القرآن مثــل هذه الأسئلة التى تواجه كل من أخذ الأمر بجدية ، ولكن التفكير المنظم فيها لا يعنى فقط التمعن فى النص ولكن فى المنهج أيضا ، والاعتقاد بأن المعرفة يمكن اكتسابها بالعقل الانسانى الذى يعمل وفقا لقواعد معينة ، هذا الايمان بالعقل الموجه بشكل سليم هو الذى شكل الحياة الثقافية فى المناطق التى انتشر فيها الاسلام بما فيها الحجاز ، وهناك آثار من التفكير والاستنتاج الجدلى فى القرآن ذاته . وليس من المستغرب عندئذ أنه بنهاية القرن الاسلامى الأول أو السابع الميلادى أظهرت الوثائق الباقية أنه مطبق فى شرح القرآن فى الحجاز وسوريا وايران ، وظهرت أول مجموعات ما يمكن أن يسمى بمدارس الفكر : أولئك الذين جادلوا بأن الانسان له ارادة حرة وهو المسئول عن أفعاله الخاصة ، وأولئك الذين أكدوا أن ليس له ارادة حرة وأن ليس لله صفات يشارك فيها البشر .

وفى منتصف القرن الاسلامى الثانى (الثامن الميلادى) ظهرت مدرسة بمعنى أكثر اكتمالا ، تكونت من مفكرين لهم وجهات نظر واضحة ومتماسكة حيال مجمل المشاكل ، ولكن اعتبارهم مدرسة واحدة لا يعنى أن لديهم جميعا نفس الأفكار بالتحديد أو أن أفكارهم لم تتطور من جيل لآخر ، أولئك كانوا (المعتزلة) الذين آمنوا بأنه من الممكن التوصـــل للحقيقة بالتفكر فيمـــا ورد بالقـــرآن وبهـذا الطريق توصلوا الى اجابة عن أسئلة قائمة بالفعل ، أن الله واحد ، وليس له صفات بشرية تتعلق

بجوهره وأنه لم يخلق القرآن الذى لابد وأنه قد (خلق) بطريقة أخرى ، والله عادل ، وهو ملتزم بمبدأ العدالة ، ولهذا فالانسان لابد وأن يكون حرا (مخيرا) فليس من العدل محاسبة البشر بأفعالهم ان لم يكونوا مخيرين فى ارتكابها ، واذا كانت الأفعال البشرية حرة وعرضة للمحاكمة والحساب ، فان ذلك يعنى أن الايمان ليس كافيا بدون العمل الصالح ، والمسلم مرتكب الكبائر لا يمكن اعتباره كافرا أو مؤمنا حقا ولكن له منزلة بين المنزلتين •

فى نفس الوقت ظهرت طريقة أخرى للنظر فى هذه المشاكل ، وهى أكثر حذرا وترددا حول امكانية التوصل الى حقيقة مقبولة ، أو يتفق عليها بالتفكير والاستنتاج • كما كانت أكثر وعيا بخطورة انخراط المجتمع فى الجدل والنقاش ، أولئك الذين فكروا بهذه الطريقة وضعوا أهمية الحفاظ على وحدة المسلمين قبل أهمية التوصل الى اتفاق حول مسائل المذاهب والعقيدة • وكانت كلمة القرآن عندهم هى الأساس المحدد المتين الذى يقوم عليه الايمان والسلام الاجتماعى ، وأن القرآن يجب أن يفسر عندما يكون التفسير ضروريا وفى ضوء الممارسات الاعتيادية للرســـول وصحابته (السنة) كما تناقلتها الأجيال اللاحقة ، كان ذلك الميل الفكرى موجودا فى فترة مبكرة ، ولكنه تبلور فى زمن متأخر بحكم طبيعته فى مجموعة من المذاهب اختلفت عن المذاهب التأملية ، وقد كان أحمد بن حنبل (٧٨٠ ــ ٨٥٥) هو المسئول الأول عن تشــــكيل ذلك الميل الفكرى ، وقد مسه الاضطهاد نتيجة ذلك ، وقال ان المرجع الوحيد هو القرآن والسنة ، وهما يبينان لنا أن الله مطلق القدرة ، وأن عدله ليس كعدل البشر • واذا كان القرآن ينسب اليه بعض الصفات ، فيجب قبولها كصفات الهيــة وليس بالمقارنة بمثيلاتها فى الانســـان ، وبدون السؤال عن كيفية تواجدها وتلازمها ، [ومن هذه الصفات « القرآن » الذى هو كلمته • فهذا ما يقوله القرآن نفسه ، وعليه فانه قديم وليس مخلوقا] ويجب على الانسان الامتثال لارادة الله بالأفعال كما بالايمان • وهذا المفهوم عن اله يحكم بطرق غامضة قد يبدو حكما قاسيا • ولكنه يتضمن نوعا من التأكيد على الرعاية الالهية للعالم حتى وان كانت طرقه ليست مما يعلمه الانسان ، وأن ما حدث لهم فى تاريخهم هو جزء من ارادة الله وما كتبه عليهم ، وبهذا البناء الفكرى أصبحت السنة مفصلة ميسرة •

واستمر الخلاف بين العقلانيين واتباع ابن حنبل لفترة طويلة وتغيرت قضايا الجدل ، وكان اللاحقون من المعتزلة متأثرين بعمق بالفكر اليونانى ، ولكن أهميتهم تضاءلت مع تبلور المجتمع السنى ، وأن استمر تأثيرهم

قويا بين مدارس الشيعة مع تطورها فى بداية القرن الحادى عشر ، وكان الأشعرى (ت ٩٣٥) أحـد المفكرين الذين أيدوا موقف التقليديين ، واستخدم طريقة الجدل العقلانى للدفاع عنها ، حيث التزم بالمعنى والتفسير الحرفى للقـرآن ولكنه أكد على امكانيـة تفسـيره بالعقـل والمنطق ، أما فيما يتجاوز العقل فلابد من قبوله على علاته . فالله واحد ، وصفاته جزء من جوهره ، ولكنها ليست الله كما أنها ليست شيئا خلاف الله . ومن بينها السمع والبصر والكلام التى ليست كسمع وبصر وحديث الانسان وانما يجب قبولها بدون أسئلة فالله هو العلة المباشرة لكل ما يحدث فى الكون ، وهو ليس محددا بأى شىء خارج ذاته . وهو الذى يعطى الانسان القدرة على الفعل فى لحظة الفعل ، وهو يشاء ويخلق ما هو خير وما هو شر فى الدنيا ، والاستجابة السليمة الصائبة لوحى الله المنزل هى الايمان، وحتى اذا كان لدى المرء ايمان بلا عمل صالح فهو مؤمن وسوف يشفع له النبى يوم القيامة .

ويتأكد فى فكر الأشعرى أهمية عدم الجدل فى الدين ، كما تتأكد ضرورة القبول بحكم الامام أو الخليفة وعدم مناهضته بالسيف ، ورغم ذلك ظهرت خلافات فى الآراء حول شرعية استخدام المجاز والاستعارة فى مواجهة التفسير الحرفى للقرآن ، وعن المعنى المحدد لكون القرآن قديم غير مخلوق، وهل يعنى هذا النص نفسه أم يعنى انتقال النص الى الناس ، وحول ضرورة الأعمال الصالحة جنبا الى جنب مع الايمان ، الا أن هذه الاختلافات برغم ذلك لم تؤد الى صراعات داخل المجتمع السنى .

الشريعـــة

لا تشير آيات القرآن ــ الا ضمنيا ــ الى بناء (نظام) عقيدى (*) . ولكنـه يقول للناس ما شـاء الله أن يعلموا ، فهو قبـل كل شىء وحى لارادته سبحانه ، وتفصيل لأعمال الناس التى ترضيه ، وكيف سيكون حسابهم فى الآخرة ، كما أنه يحتوى على الأوامر التى تتعلق بنظام الزواج والمواريث ، ولكن هذه الأوامر محدودة ، حيث ان ارادة الله تتجلى فى شكل مبادىء عامة ، كما تتناول الأوامر والنواهى طرق العبادة والمعاملات ، الا أن

(*) النص :

Except by implication, the Quran does not Contain Within Itself a system of doctrines.

والمعنى كما نفهمه انه ليس مجرد تنظير أى بناء فكرى وانما توجيهات عملية ـ (المراجع) .

الفرق بينهما فارق طفيف حيث ان للعبادة جوانبها الاجتماعية ، كما أن العدالة والاحسان أعمال تبتغى وجه الله ·

وقد أدى التفكير فى القرآن وسلوكيات المجتمع الاسلامى الأول الى بلورة اتفاق عما هو واجب على المسلم فيما يسمى بأركان الاسلام وتشمل الشهادة الشفهية « أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » والثانى هو الصلاة بنصوص محددة من الكلمات التى تتكرر مرات معينة مع أوضاع معينة للجسم خمس مرات يوميا ، والأركان الأخرى كانت دفع نسبة من الدخل لأنواع من أعمال الخير أو النفع العـــام ، وصيام تام من شروق الشمس حتى غروبها على مدى شهر كامل فى السنة هو شهر رمضان الذى ينتهى بالعيد ، ثم أخيرا حج البيت فى مكة فى موسم الحج وتشمل عددا من المراسم ، ثم ينتهى بعيد يحتفل به المجتمع كله ، وبالاضافة لكل هذه الشعائر أوامر وتوصيات عامة للسعى فى سبيل الله (الجهاد) وقد يتسع معنـاها أو يتبلور فى مفهـوم أضيق هو القتال فى سبيل توسيع رقعة الاســـلام ·

وقد احتـــاج الأمـر منذ البداية الى أكثر من مجرد اتفاق حول أركان العبادة الأساسية · فمن ناحية كان هناك من أخذوا القرآن بجدية واعتقدوا بأنه يحتوى ضمنا مفاهيم للحياة ككل ، حيث ان لكل أفعال البشر معنى عند الله وكلها ستؤخذ فى الاعتبـار فى يوم الحساب ، ومن ناحية أخرى كان هناك الحاكم ونوابه الذين احتاجوا الى اتخاذ قرارات فى اطار من المشـــاكل ، وقد تؤدى بهم قناعاتهم والشروط التى يبررون بهـــا أحكامهم الى اتخاذ قرارات لا تتناقض مع ما جاء فى القرآن من معـــان وارشـــادات ·

وفى فترة الخلفاء الأوائل والأمويين تواكبت عمليتان معا : هما أن الحاكم ونوابه وقضاته طبقوا العدل وفصلوا فى الخلافات على ضوء العادات والقوانين فى المناطق المختلفة ، وفى نفس الوقت حاول المسلمون الجادون والمهتمون اخضاع كل الأفعال الانسانية لحكم الدين لوضع نظام مثالى للسلوك الانسانى ، وكان عليهم أخذ كلمات القرآن فى الاعتبار وتفسيرها، وكذلك الذكريات المتوارثة فى المجتمع عن السنة النبوية التى جاءت فى الحديث الشريف ، وكيف كان الخلفاء الأوائل يتخذون قراراتهم ، وكيف تراكمت الحكمة فى المجتمع فيما صار يعتقد أنه الطريق السوى فى السلوك أو سنة المجتمع ·

ولم تكن العمليتان مختلفتين اختلافا كليا ، فقد كان على الخليفة أو الوالى أو القاضى تعديل العادات السائدة فى ضوء الأفكار المتطورة لمتطلبات الاســـلام ، فى حين حاول الدارســون ادماج بعض موروثاتهم فى صلب ذلك الفكر المثــالى ، الا أن هاتين العمليتين ظلتــا منفصلتين تمــاما أثناء المراحل المبكرة من ظهور الاسلام ، كما كان داخل كل عملية منهما توجهات مختلفة ، ولابد أن عادات ونظم المناطق المختلفة كانت تتناقض مع الطريقة التى نشأت بها الامبراطورية وأديرت ، والدارسون من جانبهم كانوا متناثرين فى عدة مدن هى مكة والمدينة والكوفة والبصرة ومدن سوريا ، وكان لكل منها طريقة فى التفكير تعكس ذكرياتها الموروثة كما تعكس احتياجات وممارسات المنطقة مبلورة فى تفاهم عام فيما يمكن أن يكون اجماعا محليا •

وبظهور العباسيين فى منتصف القرن الاســلامى الثانى (الثامن الميلادى) تغير الموقف • فقد نشأت دولة مركزية تحكمها البيروقراطية مما جعل من الضرورى التوصل الى اتفاق حول طرق تسوية المنازعات وتنظيم المجتمع ، وقد أدى ادعاء العباسيين بوجود مسوغ دينى لحكمهم الى ضرورة الاتفاق على تعاليم الاسلام ، وبهذا تقاربت العمليتان وأصبح القاضى مستقلا عن القوة التنفيذية — على الأقل نظريا — يتخذ القرارات فى ضوء تعاليم الدين •

لقد تزايد الاحتياج اذن الى صياغة اجماع حول التطبيق العملى لمبادىء الاسلام ، وقد كان القرآن والحديث وآراء العلماء وسنة المجتمعات وتقاليدها من المصادر المهمة ، ولكن لم يكن هناك اتفاق عام حول العلاقة بينها ، فقد استند أبو حنيفة (٦٩٩ — ٧٦٧) الى التركيز على أهمية الاجتهاد ، فى حين استند مالك (٧١٥ — ٧٩٥) الى أهمية مصالح المجتمع المرسلة بالرغم من أهمية الرأى الفردى •

وقد جاءت الخطوة الحاسمة فى تعريف العلاقات بين القواعد المختلفة للقرارات القانونية على يد الشافعى (٧٦٧ — ٨٢٠) عندما أكد أن القرآن هو الكلمة الحرفية لله ، وهى تعبر عن ارادته سواء أتعلقت بمبــادىء عامة أم تعاليم محددة عن الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وأن سنة النبى كما تسجلها الأحاديث من الأعراف المتراكمة للمجتمعــات ، كانت تعبــيرا واضحا عن ارادة الله ، وأنهــا تأكدت بآيات القرآن : [**يا أيها الذين آمنــوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول**] (٢) ، وأفعال وأقوال النبى عبرت عن المغزى الخاص

للمعنى العام للقرآن ، وأعطت أيضا دليلا عن المسائل التي أغفلها القرآن ، فالقرآن والسنة عند الشافعي معصومان بنفس القدر ، فلا السنة قادرة على نسخ القرآن ولا القرآن ينسخ السنة ، ولا يمكن أن يتناقض أحدهما مع الآخر ، ويمكن تسوية الخلافات الظاهرة بينهما ، كما أن الآيات المتأخرة أو السنة يمكن أن تنسخ ما جاء قبلها (٣) •

وبالرغم من وضوح التعبير عن مشيئة الله في القرآن أو السنة تبقى بعض أسئلة معلقة عن التفسير أو عن تطبيق المبادىء على المواقف الجديدة ، والطريقة الفكرية التى فضلها الشافعى هى أن الوسيلة الوحيدة أمام المسلمين العاديين لتفادى الخطأ هي أن يتركوا الفكر لأولئك المؤهلين لاستخدام الفكر لشرح ما يحتويه القرآن والحديث ، على أن يكون ذلك في أضيق الحدود ، وعلى أولئك المؤهلين لاعمال فكرهم أن يعملوا بالقياس بين عناصر المواقف الجديدة وبين عناصر تشبهها فى قضايا سبق الحكم فيها ، وقد سميت هذه الممارسة المنضبطة بالاجتهاد الذى يسوغه الحديث الشريف « العلماء ورثة الأنبياء » وعندما يحدث اتفاق عام نتيجة مزاولة المنطق بهذا الشكل ، يكتسب ذلك الاتفاق العام (الاجماع) صفة الحقيقة المؤكدة التى لا تمارى •

وقد عبر الشافعى نفسه عن هذا المبدأ على أوسع شكل فى قوله : « عندما تصل الأمة الى اجماع حول مسألة ما ، تغلق القضية الى الأبد » ، الا أن حديث المفكرين اللاحقين في فترة معينة بمن فيهم من اتخذ الشافعى معلما ، وضع المبدأ بشكل مختلف وهو أن الاجماع الصالح الوحيد هو اجماع العلماء القادرين على ممارسة الاجتهاد •

وقد أضاف الشافعى الى تلك المبادىء فى التفسير اضافة حازت قبولا جماعيا هى أن ليس بوسع مفسرى القرآن والسنة التفسير دون معرفة كافية باللغة العربية ، وقد استند الى آيات من القرآن هى : [**انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**] (٤) وعلى كل مسلم عند الشافعى أن يتكلم العربية بالقدر الذى يمكنه من نطق الشهادة وترتيل القرآن والتكبير باسم الله (الله أكبر) • ولكن على طالب العلم أن يحصل أكثر من ذلك •

وحين لاقت هذه المبادىء قبولا عاما ، أمكن ربط مجموعة من القوانين والمبادىء والتوصيات والأوامر الأخلاقية بها ، وقد عرفت هذه العملية الفكرية بالفقه وأنتجت ما عرف بالشريعة •

ونشأت بالتدريج مجموعة من المدارس فى القوانين تدعى المذاهب ، وقد اكتسبت أسماءها من كتابها الأوائل حيث انتسب الحنفية الى أبى حنيفة ، والمالكية الى مالك ، والشافعية الى الشـافعى ، والحنابلة الى ابن حنبل ، وغيرها مما لم يكتب لها البقاء ، واختلفوا فيما بينهم حول نقاط أساسية محددة فى القانون ، وحول مبادىء التفكير الشرعى (أصول الفقه) واختلفوا على الأخص على مكـانة الحديث وشرعية وحـدود وطرق الاجتهـاد .

وتقع المدارس الأربع فى اطار السنة ، أما المجموعات الاسـلامية الاخرى فكانت لها أنظمتها فى القانون والأخلاقيات الاجتماعية . ولم يختلف الأباضية والزيدية بشكل كبير عن مدارس السـنة ، ولكن الشيعة الاثنى عشرية عرفت القوانين بطرق مختلفة ، فاجمـاع الأمة يصـح فقط اذا شمل الامام نفسه ، كما كانت هناك أيضا أمور متميزة فى القانون الأساسى للشـيعة .

وبرغم الطبيعة النظرية للشريعة أو ربما بسببها ، كان من المقدر على أولئك العلماء الذين علموها وفسروها وطبقوها (العلماء) أن يتبوؤا مراتب مهمة فى الأقطار والمجتمعات الاسلامية . فقد أمكنهم ، باعتبارهم حراسا على سلوكيات ومتواضعات اجتماعية صلبة، أن يحدوا من تصرفات الحكام بدرجة أو أخرى ، أو أن يقدموا اليهم النصيحة على الأقل ، كما كان بامكانهم التعبير عن الأمة أو بالأحرى الشـق الحضرى منها ، الا أنهم حاولوا أن ينفصلوا عن الحكام والمجتمع محافظة منهم على الاحساس بأنهم مجتمع خاص ترشده السـماء . ويعلو على الزمن ولا يرتبط بمصـالح الحكام أو بنزوات الجماهير .

سنة الرسول صلى الله عليه وسلم

استغلت الخلافات السياسية والدينية للقرون الثلاثة الأولى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما اعتمد نظام التشريع المتطور على الحديث كأحد مصادره ، الا أن العلاقة بين الحديث وبين علماء التوحيد والحديث والقانون كانت أكبر تعقيدا من ذلك ، فلم يكتفوا باستخدام الحديث ، ولكنهم قاموا ببناء الاسناد الى رواة الحديث طوال العهـود التى حملتـه الينـا ، وقد أدت هذه العملية الى نشأة علم دينى آخر هو فقه السنة ، وهو وضـع المعايير وتطبيقها لتمييز الحديث الصـحيح عن الضعيف أو الموضوع .

وقد كان للمجموعة التي التفت حول الرسول صلى الله عليه وسلم نظام للسلوك الاعتيادى الذى كان «سنة» بمعنيين مختلفين، فقد أنشأت ، باعتبارها مجتمعا ، نظمها السلوكية القويمة التى نمت وتطورت بضمان نوع من الاجماع أى سنة المجتمع ، ثم ان هذه المجموعة ضمت أناسا حاولوا حفظ السنة عن الرسول فيما قال أو فعل ، فلابد أن صحابته كانوا يذكرونه لمن تلاهم من أجيال ، وتناقلوا حديثه شفاهة وكتابة منذ وقت مبكر ، وفى حين نظر بعض المخلصين من المسلمين شذرا الى الحديث باعتبار ما يمكن أن يسببه من تشتيت لنقاء القرآن وتفرده ، فقد شجعه البعض الآخر ، وقد اتخذ الحديث وسيرة الرسول شكلهما المكتوب فى نهاية الدولة الأموية .

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد ، فقد حدث اختلاف فى كل من السنة الاجتماعية وسيرة الرسول من مكان الى مكان ومن زمن الى زمن ، فقد بهتت الذكريات ، وتغيرت الحكايات فى الرواية ، ولم يكن جميع الرواة من الثقات الصادقين ، وكانت السنة الاجتماعية فى أول الأمر أكثر السنتين أهمية ، ولكن مع تقادم الزمن أسند بعض المشرعين وعلماء الدين أهمية أكبر لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان المشرعون يرغبون فى اسناد العادات الاجتماعية والنظم الادارية التى نشأت الى مبادىء الدين ، وكان الاسناد فى الحديث هو أحد الطرق لتحقيق ذلك ، أما أولئك الذين انشغلوا بالقضايا الكبرى عن السلطة أو عن طبيعة الله والقرآن ، فقد حاولوا اثبات آرائهم بدلائل من حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا توسعت دائرة الأحاديث المنسوبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء القرنين الثانى والثالث الهجريين (حوالى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين) وقد كان ذلك مقبولا الى حد ما باعتباره أداة أدبية يبررها الحديث الشريف « **ما من قول طيب الا وكنت قائله** » وقد اتضحت منذ وقت مبكر خطورة ذلك التوسع ، وبدأت حركة تحقيق الحديث بهدف التمييز بين الأحاديث الصحيحة والزائفة ، ونمت هذه الحركة فى نهاية القرن الأول الهجرى على يد المتخصصين الذين سافروا بطول البلاد وعرضها ، وكانوا ممن تلقوا تراث الحديث على أيدى آبائهم أو معلميهم ، وحاولوا اسناد السيرة والحديث عكسيا وصولا الى شهود للرسول صلى الله عليه وسلم أو صحابته ، وهكذا تم على أيديهم توحيد متون الأحاديث وروايات السيرة .

وقد اتخذ الحديث الشكل الذى استقر عليه الى الآن من خلال تلك العملية التى اعتمدت جزئيا على التذكر وعلى الانتحال جزئيا ، وكان لكل

منهما شقان : أولهما نص يحفظ أمرا قاله الرسول أو فعله ، وثانيهما سجل لسلسلة من الاسنادات وكلا العنصرين قابل للشك ، فقد يكون النص منتحلا ، أو حدث خطأ فى تذكره ، وكذلك سلسلة الاسنادات ، ويبدو فى كثير من الحالات أن طول سلسلة الاسناد يمكن أن يكون أداة من أدوات المشرعين أو المتحدثين ، وهكذا نشأ الاحتياج الى علم فقه السنة بحيث يمكن عن طريقه تمييز الصحيح عن المنحـول استنادا الى مبادىء واضـــحة .

وقد تركز انتباه الدارسين الذين أخذوا على عاتقهم فحص الحديث ونقـده على الاسناد الى سلسلة الشـــهود بما يشمل محــال وتواريخ ميلادهم ووفاتهم ، وأجيالهم المتعاقبة بما يثبت امكان تلاقيهم ، وما اذا كانوا محلا للثقة ، ولابد أن تجرى هذه العملية بدقة ، وأن تتضمن نوعا من الشعور بأصالة أو معقولية النص فى حد ذاته ، وهو أمر يتميز به المجربون فى دراسة الأعراف .

وقد تمكن فقهاء السنة من تصنيف الأحاديث حسب درجة صحتها بناء على تلك المؤشرات ، وقد احتوى أعظم مرجعين للحديث وهما للبخارى (٨١٠ ــ ٨٧٠) ولمسلم (٨١٧ ــ ٨٧٥) على الأحاديث الصحيحة فقط ، ولكن المراجع الأخرى للحديث لم تكن على نفس الدرجة من الصرامة بالرغم من أن بعضها يعتبر من أصـــول المراجع ، كما كانت للشيعة مراجعهم من أحاديث الأئمة .

وقد يشعر معظم الدارسين الغربيين وبعض المسلمين المحدثين بشك أكثر مما عانى منه البخارى ومسلم بصدد الكثير من الأحاديث الصحيحة ، حيث يمكن أن تكون نتاجا للجدل حول الســـلطة أو المذهب أو تطور الشرائع ، ولكن هذا القول لا يصح أن يثير الشك فى الدور المهم الذى لعبته هذه الأحاديث فى تاريخ المجتمع الاسلامى ، ولا تقل أهمية الطريقة التى استخدمت بها عن أهمية أصولها ، فقد يلجأ الحاكم فى أوقات التوتر السياسى عندما يكون العدو على الأبواب الى أن يطلب من العلماء قراءة مختارات من البخارى فى المسجد الكبير كنوع من التأكيد على ما قدره الرب لعباده ، كما أن دارسى القانون والفقه والعلوم العقلية اللاحقين قد يلجئون الى تدعيم مقولاتهم ببعض الأحاديث التى بقيت فى مخزون ضخم حتى بعد أن نبذها كل من البخارى ومسلم من صحيحيهما .

طريق التصـــوف

انطلقت علوم التوحيد والشريعة والحديث جميعا مما جاء فى القرآن الكريم ، وانتهت الى تأكيد مفاهيم الاسلام،ووضعت حاجزا مرتفعا بينه وبين ديانات التوحيد الأخرى التى كان الاسلام قريبا منها أو متصلا بها٠الا أنه ـ على أية حال ـ ظهرت بعض المسالك الفكرية التى بدأت من المنطق نفسه ، ولكنها مالت الى تأكيد أمور يشترك فيها المسلم مع غيره من أصحاب الديانات الأخرى ٠

وقد كان التصوف هو أحد تلك المسالك الفكرية (وهو أصل الكلمة الانجليزية Sufism) ، ويحتمل أن تكون اشتقاقا من ثوب (الصوف) الذى كان على الناسك أن يرتديه فى المراحل الأولى لهذه الجماعات ، ومن المتفق عليه حاليا أن التصوف يستلهم القرآن ، فالمؤمن الذى يتأمل معانيه قد يمتلىء بشعور مفعم بسمو الله عز وجل ، وتوكل كافة المخلوقات عليه ، الله القوى المستغلق على الفهم ، يهدى من آمن به ، وبالرغم من عظمته فهو حاضر قريب من روح كل انسان يتوكل عليه « أقرب اليه من حبل الوريد » ، ويحتوى القرآن على صور بالغة القوة عن قرب الله للانسان ، وعن الطرق التى يستجيب بها للانسان ، ويقال انه قبل خلق العالم أخذ الله عهدا على البشر ، فجاء فى سورة الأعراف « **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** » (٥) ، ويقال ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد أسرى به فى حياته الى القدس وعرج به الى السماء حيث سمح له بالاقتراب من الله ومشاهدة وجهه ٠

كان هناك نوعان من التفاعل شديدا الاندماج أحدهما بالآخر فى تاريخ الاسلام المبكر ، فهنـاك حركة تتوجه الى التدين والصـلاة التى تهـدف الى التطهر فى النوايا والزهد فى الملذات ومتع الدنيـا ، وهناك حركة أخرى للتأمل فى معانى القرآن ، وقد تلازمت الحركتان فى سوريا والعراق أكثر من تعايشهما فى الحجاز ، وكان طبيعيا أن ينهلا من توجهات الفكر والأخلاق التى وجدت فى العالم الذى يعيش فيه المسلمون ، فقد اتخذ كل من اعتنق الاسلام شيئا من طرائقه الأولى ومن بيئته التى كان يعيش فيها ، والتى كانت فى معظمها مسيحية ويهودية فى بداية الاسلام وقد كان ذلك العهد هو آخر عهد عظيم فى المسيحية النسكية الشرقية ، وفى الفكر والحياة الرهبانية ، وقد أنكر صلى الله عليه وسلم الرهبنة حينما قال فى حديث مشهور : «**لا رهبانية فى الاسلام**» وقال بعض الفقهاء ان الرهبنة الاسلامية هى الجهاد ، الا أن نفوذ الرهبان المسيحيين كان

مغريا خاصة فى أفكارهم عن عالم فاضل مغلق ، أسمى من ذلك العالم الاتباعى بقوانينه المنضبطة ، وتتلخص عقيدتهم فى أن هجر الدنيا وهزيمة الجسد وتكرار اسم الله فى الصلوات قد يؤدى بعون من الله الى تنقية القلب ، وخلاصه من هموم الدنيا ، وتقدمه نحو عالم من العرفان البصيرى بالله (*) .

وتبدو أصول مثل هذه الأفكار فى شكلها الاسلامى واضحة منذ القرن الهجرى الأول فى قول الحسن البصرى :

« ان المؤمن يصبح حزينا ولا يسعه غير ذلك ، لأنه بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك ... فاحذروا - ولا قوة الا الله - ذلك الموطن ، [واذكروا الحياة الآخرة »] (٦) .

وقد تجلت مشاعر البعد والقرب الى الله فى صيغة الحب : حيث كان الله هو الوحيد الجدير بأن يكون مقصدا للحب الانسانى لذاته فقط ، ويجب أن تكون حياة المؤمن طريقا لمعرفته جل جلاله وكلما اقترب الانسان من الله اقترب الله منه فيصير هو سمعه وبصره ويده ولسانه .

ونجد فى فقرة من سيرة الترمذى الذاتية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وهو كاتب فى المسائل الروحية ، كيف أن الروح تنجذب الى الطريق ، فحين كان فى الحج يصلى فى الحرم انتابته نوبة فجائية من الندم على خطاياه ، وحين بحث عن طريق قويم يعيش عليه صادف كتابا للأنطاكى عاونه على كبح النفس ، وحقق تقدما تدريجيا على طريق كبح شهواته واعتزال الناس ، وعاونته فى ذلك أيضا رؤيا فى المنام للرسول ، كما كانت زوجته تنتابها رؤى وأحلام ، وقد تعرض للاضطهاد والتشنيع على يد أولئك الذين ادعوا عليه بأنه يستحدث فى الدين ما ليس فيه ، ولكن تلك النوائب ساعدته على نقاء قلبه ، ثم كان أن انتابه أثناء عودته من خلوته حالة انفتح فيها قلبه وفاض بالعذوبة (٧) .

(*) النص : intuitive knowledge ، وقد تعنى العرفان اللدنى نسبة الى العلم اللدنى الذى يعطيه الله لمن يشاء والذى لا يحتاج الى أسباب واضحة بالمقاييس الدنيوية ، كالعلم الذى أعطاه الله للخضر عليه السلام . ومصطلح العلم اللدنى شائع بين الصوفية - (المراجع) .

وقد شهد القرن التالى امتدادا للكشف عن الطريق الذى يجب أن يرتاده الناس رجالا ونساء ، والتكهنات التى ارتبطت بنهاية ذلك الطريق ، وربما شهد القرن الثامن الميلادى بدايات طقس الذكر بتكرار اسم الله بمصاحبة حركات ايقاعية وتمارين فى التنفس والموسيقى ، ولم يكن ذلك بهدف الوصول فى شكل آلى الى حالة من الوجد يرى الله فيها رأى العين ، ولكنها كانت طريقا الى تحرير الروح من أسر الدنيا ، وقد حفظت تعاليم أساتذة التصـــوف شفهيا عن طبيعة العرفان الذى قد يحدث فى نهاية الطريق ، ثم سجلت تلك التعاليم فيما بعد كتابة لأولئك الذين أتوا بعد ذلك ليتعلموا علوم الطريق ، وبهذه الطريقة تنامت لغة جماعية عبرت عن طبيعة الاندماج والتجربة الصوفية ، كما عبرت عن هوية مؤتلفة بين أولئك الذين ارتادوا رحلة العرفان •

وقد وصل التعبير عن طبيعة العرفان بالله الى شكل منهجى فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فقد جـاء فى كتابات المحاسبى (ت ٨٥٧ م) وصف لطرائق حياة الباحث عن العرفان الحقيقى ، كما جاء فى كتابات الجنيد (ت ٩١٠ م) تحليل لطبيعة الخبرة التى تتحقق فى نهاية الطريق ، فيقول ان السالك قد يجد نفسه فى حضرة الرب وجها لوجه كما كان الناس جميعا فى حضرته حين أخذ عليهم العهد ، وان صفات الله سوف تكون صفاته ، وان وجوده الشخصانى (*) سوف يتبدد ، كل ذلك للحظة واحدة يعود بعدها الى وجوده فى الدنيا ، ولكنه يحمل ذكرى هذه اللحظة ، التى اقترب فيها من الله واستشعر جلاله :

> **وحب الله فى جوهره هو استنارة القلب بالبهجة لقربه من محبوبه ، وعندما ينعم القلب بتلك البهجة يجد سعادته فى الوحـدة مع ذكرى حبيبـه ، ••• وحينما يتخاطب فى سريرته مع محبوبه تفيض البهجة على العقل حتى انه يتخلص من هموم الدنيا وما فيها (٨) •**

وقد عاش المحاسبى والجنيد وكتبا أسفارهما فى اطار من التقاليد السنية الراسخة ، وكانا رجلين يعرفان الشريعة ، وانصب كل اهتمامهما على تأكيد أنه مهما تقدم المسلم على طريق التصوف فلابد له من الاخلاص

(*) أو المادى أو الذاتى ــ النص :
and his individual existence disappeares .
ومقابلة الله عز وجل ــ وجها لوجه غالبا ما تكون على سبيل المجاز بمعنى القرب منه ، ويستخدم الصوفية ألفاظا كثيرة على هذه الشاكلة ولكنهم لا يعنون معناهـــا الحرفى ــ (المراجع) •

فى اتباع فرائض الشريعة ، وقد كانت مشاعرهم حيال عظمة الله وقوته المهيمنة لا تبعد كثيرا عن رؤية فقيه كالأشعرى الذى كان يرى أن القدرة على الفعل من عند الله ، وأن للمؤمن أن يأمل فى هدايته ، وفى كلا التناولين يسيطر شعور بهيمنة الرب على الحياة الانســـانية ، وبالايمان بالرعاية الالهية لحياة الانسان حسب ما قدره الله له ، وقد كان للشعور فى الذوبان فى حضرة الله ولو للحظة واحدة أثر مسكر ، حتى ان بعض الصوفيين الذين لم يختلفوا كثيرا عن « الجنيد » حاولوا التعبير عما لا يمكن التعبير عنه بلغة متسامية غنية أثارت الاعتراض ، وقد حاول أبو اليزيد البسطامى (ت ٨٧٥ م) أن يصف لحظة النشوة التى يتجرد فيها الصوفى من وجوده ويمتلىء بالحضرة الالهية ، وبالرغم من ذلك فقد فهم على أنه لا يعدو وهما فى الحياة الدنيا ، وأن الحياة الانسانية فى أفضل الأحوال تتأرجح بين الامتلاء بوجود الله وبين غيابه ، وتعتبر حالة الحلاج (٨٥٧ ــ ٩٢٢ م) حالة شهيرة ، وقد أعدم فى بغداد بتهمة الهرطقة ، وكان تلميذا للجنيد ولم يكن مذهبه مختلفا عن مذهب أستاذه ، وقد عبر عنها (الحالة) كنشوة حب عارمة ، وربما لم تكن مقولته (أنا الحق) أى الله سوى محاولة للتعبير عن شــعور صــوفى تحل فيه صفات الله موضع صفات المخلوق ، ولكنها يمكن أن تفسر بأكثر من ذلك ، كما كانت دعوته الى أن الحج الحقيقى ليس الى مكة ، ولكنه الرحلة الروحية التى يرتحلها الصوفى فى خلوته ، وهى دعوة قد تفسر حرفيا بأن الانجاز الحرفى لأركان الشريعة ليس مهما ، وربما كان فى دخيلته أمر يجعله حريصا على ايجاد سوء فهم ، فقد تأثر بتيار صوفى يعرف بالملامتية كان مصدره من الرهبنة المسيحية الشرقية ، ومؤداه الرغبة فى الحط من الذات بأفعال تثير سخط النـاس ، كطريق لقتل الغرور فى النفس ٠

طريق العقـــل

وقد قدر للتأملات الصوفية المتأخرة فى كيفية خلق الله للانسان ، وكيف يمكن للانســـان أن يعود الى خالقه ، أن تتـــأثر بحركة فكرية أخرى نشأت مبكرا ، وهى محاولة تعريب التراث اليونانى من العلوم والفلسفة ، كما يمكن أن يقال انها كانت استمرارا وتطويرا لذلك التراث فى وسيط من اللغة العربية ٠

وكان تغير الدول الحاكمة فى مصر وسوريا والعراق وايران لا يستتبع انقطاعا حادا فى الحياة الثقافية ، واستمرت مدرسة الاسكندرية ردحا من الزمن الا أن طلابها نزحوا فى النهاية الى شمال سوريا ، كما استمرت أيضا

مدرسة الطب فى جنديسابور جنوب ايران وهى مدرسة أسسها المسيحيون النسطوريون تحت رعاية الساسانيين ، وقد كان الفكر والعلم اليونانى حيا فى تلك المدارس وغيرها بالرغم من أن الاهتمام بهما قل عن ذى قبل ، وكانت اللغة السوريانية أكثر استعمالا من اليونانية ، وكانت فى العراق تقاليد مستقرة للتعاليم اليهودية ، كما نضجت فى ايران حضارة باللغة البهلوية تضمنت بعض العناصر المهمة من الهند ٠

ولم يكن من الضرورى خلال الجيل الأول من الحكم الاسلامى أن تتم الترجمة من اليونانية الى السوريانية ـ ومن ثم للعربية حيث كان معظم حملة هذا التراث مازالوا على دينهم المسيحى أو اليهودى أو الزرادشتى ، وحتى أولئك الذين أسلموا منهم احتفظوا بمعارفهم فى لغتها الأصلية ، أو على أقل تقدير احتفظوا بصلاتهم مع الذين يتعاطونها فى لغتها الأصلية ، وربما لم يكن الحكام العرب يأبهون كثيرا بما يدرسه رعاياهم ولم يكن فى وسعهم أن يهتموا بذلك ، حيث ان اللغة العربية لم تكن قد امتلكت بعد القدرة على التعبير عن مفاهيم العلوم والفلسفة بشكل دقيق ٠

وقد بدأت أعمال الترجمة بشكل مكثف من نهايات القرن الثانى الى القرن الرابع الهجرى (حوالى القرن الثامن الى العاشر الميلادى) تحت رعاية بعض الخلفاء العباسيين ـ وهى ظاهرة نادرة ، وقد أنجزت معظم الأعمال على يد مسيحيين كانت لغتهم الأولى السوريانية ، وقد ترجموها الى العربية، ولكن بعض الأعمال ترجمت من اليونانية الى العربية مباشرة ، وقد كان الهدف الجوهرى من تلك الأعمال هو توسيع موارد اللغة العربية من المفردات والتعابير ، بحيث تصير وسيطا كفؤا لحياة العصر الذهنية والثقافية، وقد أدى المترجم العظيم حنين بن اسحق (٨٠٨ ـ ٨٧٣ م) دورا كبيرا فى هذه المهمة ٠

وهكذا جرى استيعاب الثقافة اليونانية كلية بالصورة التى كانت عليها فى مدارس ذلك الزمن فى هذه اللغة المنتشرة ٠ وقد كانت الثقافة اليونانية ثقافة منكمشة على نحو ما ، فلم تعد الخطابة ولا الشعر ولا المسرح ولا التاريخ تدرس كما كان فى الماضى ، ولكن الدراسات المألوفة شملت الفلسفة وتناولت معظم أعمال أرسطو وبعض محاورات أفلاطون ذلك بالاضافة الى الطب ثم العلوم المنضبطة كالرياضة والفلك ، ثم العلوم الغامرفية مثل التنجيم والسيمياء والسحر ، ولم تكن الفلسفة والعلوم ودراسات السحر والتنجيم قد تميزت عن بعضها بالقدر الذى نراه الآن فحدود ما كان ينظر اليه على أنه (علمى) لم تعد حدودا ثابتة وانما راحت

تتغير من عصر الى عصر ، وكان مما يتفق تماما مع ما كان معروفا عن طبيعة الكون أن يعتقد المرء أن الطبيعة تنظم حياة الانسان وأن الآلهة هى التى تحكم ما يحدث فى العالم تحت القمر ، وأن يحاول المرء فهم كل هذا القوى وتسخيرها .

وربما كانت دوافع المترجمين ومن رعاهم من الخلفاء عملية بشكل جزئى ، فقد كانت المهارات الطبية مطلوبة ، كما أن التحكم فى القوى الطبيعية قد يجلب القوة والنجاح ، كما كان هناك أيضا تطلع ثقافى عريض مثل الذى عبرت عنه أعمال الكندى (٨٠١ - ٨٦٦ م) وهو المفكر الذى بدأت على يديه بواكير تاريخ الفلسفة الاسلامية .

« ويجب ألا نخجل من الاعتراف بالحق من أى طريق جاء ، حتى ولو جاءنا من أسلاف سبقونا أو من أمم أخرى ، فغاية الباحث عن الحق هو الحق ذاته » (٩) .

تعبر هذه الكلمات عن مدى الاثارة التى تحققت باكتشاف التراث اليونانى كما تمثل الثقة فى النفس التى وصلت اليها حضارة امبراطورية تعتمد على القوى الدنيوية والعون الالهى .

وقد احتلت هذه الترجمات نقطة البدء فى التراث العلمى باللغة العربية ، وقد استمرت وتطورت الى حد بعيد لتنتج التراث اليونانى المتأخر، ونعتبر ترجمة مؤرخ العلوم الطبية العربى ابن أبى أصيبعة برهانا على ذلك الاستمرار حين ترجم النص الكامل لقسم « أبوقراط » الذى كان يؤديه أطباء اليونان : « أقسم بالله رب الحياة والموت .... وأقسم بأسكليبيوس، وأقسم بكل القديسين » (١٠) .

وقد اختلطت بعض الموارد العلمية من أصول فارسية وهندية بالعلوم اليونانية ، فنجد الخوارزمى (٨٠٠ - ٨٤٧ م) الرياضى يكتب عن استخدام الأرقام الهندية وهى المعروفة حاليا بالعربية - فى الحساب الرياضى ، وقد كان لذلك الخلط مغزى عميق ، فكما وحد الخلفاء العباسيون البحر المتوسط والمحيط الهندى والأراضى الواقعة عليهما فى منطقة تجارية واحدة ، كذلك انصهرت كل من اليونانية والفارسية والهندية معا فى تراث واحد ، وقيل فى ذلك انه « ..... وللمرة الأولى فى تاريخ العالم يصبح العلم دوليا على نطاق واسع » (١١) .

واستقبل العلم بسهولة في المجتمعات المتحدثة بالعربية أيا كان مصدره ، وصار الفلكيون مراقبين للوقت ، يحددون مواعيد الصلوات وشعائر العبادة ، وكان الأطباء يحظون باحترام ونفوذ لدى الحكام ، الا أن بعض العلوم أثارت مسائل تتصل بحدود المعرفة الانسانية ، فقد رفض بعض الأطباء فكرة أن تصاريف الأمزجة في الجسم محكومة بأحوال (حركة) النجوم ، كما أن ادعاءات السيميائيين(*) لم تكن مقبولة على الاطلاق،والأهم من كل ذلك كان موقف الفلسفة التي طرحت اشكاليات ، فلم يكن من السهل أن تستوعب تعاليم الاسلام التي تطورت على أيدي علماء التوحيد والمشرعين وأن تتصالح مع مناهج واستنتاجات الفلسفة اليونانية ٠

كانت فرضيات تلك الفلسفة تقول بأن العقل الانساني اذا استخدم بحكمة ، فانه قادر على أن يكسب الانسان مزيدا من المعرفة بالكون ، ذلك في حين كان على الانسان المسلم أن يؤمن بأن المعرفة الأساسية اللازمة لحياة الانسان منزلة اليه بكلمات الله التي أوحي بها الى رسله ، فان كان الاسلام حقا فما هي حدود الفلسفة ؟ واذا كان أدعاء الفلاسفة صحيحا فما الحاجة الى النبوة ؟ وقد علمهم القرآن أن الله خلق الكون بكلمته « كن » فكيف يمكن أن يتصالح ذلك المفهوم مع نظرية أرسطو التي تقول بخلود المادة ، وأن شكلها فقط هو الذي خلق ؟ وقد دخل أفلاطون عالم العربية عبر ترجمات مفكرين متأخرين ، كما أن أعمال أرسطو جرت ترجمتها في اطار من الأفلاطونية الحديثة ، حتى انها ترجمت بعنوان « الفقه الأرسطوطاليسي » وكانت الصورة في ذهن هؤلاء المفكرين أن الله خلق العالم ويرعاه من خلال هيكل من العقول الوسطية التي ألهمها بقدرته ، فكيف يمكن أن يتصالح هذا المفهوم مع فكرة أن الله المهيمن خلق العالم وما زال يتدخل مباشرة في الحياة الانسانية ؟ وهل روح الانسان خالدة ؟ وكيف يمكن أن تتصالح فكرة أفلاطون عن أفضل شكل للحكومة والذي يكون فيه الفيلسوف ملكا ، مع المفهوم الاسلامي بأن أفضل نظام للحكم حسب مشيئة الله هو ذلك الذي كان أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ؟

وقد حاول طبيب مشهور هو أبو بكر الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥ م) أن يجيب على هذه الأسئلة بشكل واضح تماما ، فقد كان العقل الانساني

(*) المقصود بالسيميائيين أي علماء السيمياء - كما لا يخفى على فطنة القارىء ٠ وليس الكيمياء المعروفة الآن بدقتها العملية ، وكان الشغل الشاغل للسيميائيين في ذلك الوقت هو تحويل المعادن غير النفيسة الى معادن نفيسة خاصة الذهب ، ويفضل صاحب معجم المورد مصطلح الخيميائيين (بالخاء) - (المراجع) ٠

عنده هو المصــدر الوحيــد لبعض المعارف ، وأن طريق الفلسفة مفتوح لكافة الاستخدامات ، وأن ادعاءات الوحي زائفة ، وأن الأديان خطيرة ٠

وربما كان الفــارابى (ت ٩٥٠ م) نموذجا لفيلســوف ظل على اسلامه باقتناع ، ففي رأيه أن الفيلسوف يمكن أن يتوصل الى الحقيقة وأن يعيش على أساسها ، ولكن لا يستطيع كافة الناس أن يكونوا فلاسفة قادرين على ادراك الحقيقة مباشرة ، ومعظم الناس لا يتمكنون من ادراكها سوى بشكل رمزى ، وأن هناك بعض الفلاسفة الذين استطاعوا فهم الحقيقة بقدرة الخيال وقوة العقل ، واستطاعوا أن يعبروا عنها بالصور والأفكار ، أولئك كانوا هم الأنبيـــاء ، وأن الأديان المرسـلة كانت طريقة للتعبير عن الحق فى شكل رموز يفهمها الكافة من الناس ، وقد أنتجت الفطنــة الرمزية المتنوعة أديانا مختلفة ، ولكن جميع الأديان حاولت التعبير عن نفس الحقائق ، ولا يعنى هذا بالطبع أن جميع المرسلين استطاعوا التعبير عنها بنفس الكفاءة ٠

لا يتعارض الاسلام اذن مع الفلسفة ، فهما يعبران عن نفس الحقائق بأشكال مختلفة تتناسب مع المستويات المختلفة لقدرة البشر على الاستيعاب، ويستطيع الانسان المستنير اذن أن يعيش بالفلسفة ، وهو ذلك الانسان الذى استطاع فهم الحقيقــة برموز الفلسفة ولكنه بلغ درجــة من الفهم تؤهله للاسترشاد بالفقه ، أما الناس العاديون (العامة) فعليهم أن يعيشوا فى طاعة الشريعة ٠

ويكمن فى نظرية الفارابى أن الفلسفة فى شكلها النقى غير صالحة للكافة ، وقد قدر للتمييز بين الصفوة المثقفة والعامه أن تصير فكرة سائدة فى فكر المجتمع الاسلامى ، واستمرت الفلسفة فى الحياة الا أنها مورست على نطاق خاص بين الأطبــاء مثــلا ، هؤلاء الذين كانت تحوطهم الأسرار ويستقبلون بالشك ، الا أن بعض الأفكار الفلسفية قدر لها أن تتخلل أفكار جيــل الفــارابى والأجيال اللاحقة ، وقد تزامن الفــارابى مع الدولة الفاطميــة ٠

وكان من الممكن أن تظهر أفكار الأفلاطونية الجديدة المتعلقة بنظام الانبعاث المقدس (أو الظهور المقدس أو الميلاد المقدس **(divine emanation** فى أفكار الاسماعيلية التى لحقها تطور كامل ٠ كما تداخلت هذه الأفكار فى أزمنة لاحقة مع الفكر الصوفى كما عبر عنه الكتاب الصوفيون الذين حاولوا شرح طريقهم **their search** وما يأملون أن يجدوه فى خاتمة هذا الطريق ٠

الجزء الثـــانى

المجتمعات الاســلامية

(من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر الميلادى)

تتناول الفصول الخمسة التى تشكل مادة هذا الجزء فترة انقسم فيها العالم الاسلامى فى بعض النواحى ولكنه احتفظ بوحدته فى بعضها الآخر ، فقد تغيرت حدود العالم الاسلامى ، فامتدت الى الأناضول والهند ولكنها فقدت أسبانيا التى استعادتها الممالك المسيحية ، وضمن هذه الحدود ظهر انقسام بين المناطق حيث اللغة العربية هى اللغة الرئيسية للحياة والثقافة ، والمناطق التى ظلت اللغة الرئيسية للكتابة الدينية والشرعية فيها هى اللغة الفارسية الآخذة فى الانتعاش حتى صارت الوسيط الرئيسى للثقافة العلمانية ، وأصبح الأتراك مجموعة عرقية لغوية ثالثة وشكلوا الصفوة الحاكمة فى معظم الجزء الشرقى للعالم الاسلامى • وظلت الخلافة العباسية باقية فى بغداد حتى القرن الثالث عشر وفى المناطق التى تتحدث العربية وان ظهر انقسام سياسى عريض بين مناطق ثلاث : العراق المرتبطة عادة بايران ، ومصر التى عادة ما حكمت سوريا وغرب الجزيرة العربية ، والمغرب بأجزائه المختلفة •

وعلى الرغم من الانقسامات والتغيرات السياسية ، كان للجزء الذى يتحدث العربية من العالم الاســـلامى خلال هذه الفترة أشكال اجتماعية وثقافية مستقرة نسبيا أظهرت أوجه تشابه بين منطقة وأخرى ، ويستكشف هذا الجزء من الكتاب عوالم سكان المدن والرعاة الرحل والروابط بينهم ، ويبين كيف نشأ نوع من التحالف فى المصالح بين العناصر المسيطرة من سكان الحضر والحكام الذين اســتمدت سلطتهم مشروعيتها من عـدد من أفكار السلطة ، وفى قلب الثقافة الراقية للمدن انتقل تراث من التعاليم الدينية والقانونية خلال مؤسسات خاصة (المدارس) ، وقد ارتبط بها تراث آخر من الأدب العلمانى والفكر العلمى والفلسفى وانتقلت التكهنات الغيبية التى انتقلت على أيدى جماعات الصوفية ولعبت دورا مهما فى تكامل طبقات المجتمع المسلم ، ورغم أن اليهود والمسيحيين قد تناقصوا فى العدد الا أنهم حافظوا على تقاليدهم الدينية ، ولكن اليهود على وجه الخصوص شاركوا فى اثراء الفكر والأدب وبرزوا فى التجارة بين المدن •



الفصل الخامس

العالم الاسلامى العربى

الدول والأسر الحاكمة

بنهاية القرن العاشر ، ظهر الى الوجود عالم إسلامى توحده ثقافة دينية مشتركة تجلت فى اللغة العربية والروابط الانسانية التى شكلتها التجارة والهجرة والحج ، ولم يعد ذلك العالم مجسدا فى وحدة سياسية واحدة ، فقد كان هناك ثلاثة حكام يطالبون بلقب الخلافة في بغداد والقاهرة وقرطبة ، كما كان هناك آخرون ممن كانوا بواقع الأمر حكاما لدول مستقلة ، ولم يكن ذلك مستغربا ، كان الحفاظ على العديد من البلدان بتقاليدها ومصالحها المختلفة ضمن امبراطورية واحدة لمدة طويلة انجازا متميزا ، ولم يكن تحقيقه ممكنا بدون قوة الايمان الدينية والتى شكلت مجموعة حاكمة فاعلة فى غرب الجزيرة العربية ، ثم أوجدت تحالفا فى المصالح بين هذه المجموعة وقطاعات متنامية من المجتمعات التى سيطرت عليها ، فلم يكن بامكان الموارد العسكرية أو الادارية للخلافة العباسية وحدها الحفاظ على اطار الوحدة السياسية الى الأبد فى مثل هذه الامبراطورية الممتدة من آسيا الوسطى الى ساحل الأطلنطى .

وبدءا من القرن العاشر وما بعده أصبح التاريخ السياسى للبلاد التى كان فيها الحكام وجزء متزايد من السكان من المسلمين ، سلسلة من التواريخ الاقليمية التى تمثل صعود وانهيار الأسر الحاكمة والتى انبعثت قوتها من العواصم الى الحدود التى لم تكن محددة بشكل واضح .

ولن نحاول هنا أن نورد تفاصيل تاريخ كل هذه الأسر الكننا نحاول توضيح النسق العام للحوادث على الأقل . لهذا الغرض يمكن تقسيم العالم الاسلامى الى ثلاث مساحات واسعة لكل منها مركز قوتها ، الأولى تشمل ايران والأراضى التى تقع فيما وراء نهر أموداريا (*) وجنوب العراق ، وقد

(★) هو نهر جيحون ، وقد فضلنا الابقاء على اسمه الأجنبى فى النص لسهولة الاستدلال فى الأطالس الأجنبية — (المراجع) .

ظل مركز القوة الرئيسى فيها ، لبعض الوقت فيما بعد القرن العاشر ، فى بغداد التى تقع فى قلب المنطقة الزراعية الغنية والشبكة التجارية الواسعة المدى ، وبحكم النفوذ والمكانة المتراكمين على مدى قرون من حكم العباسيين . وشملت المنطقة الثانية « مصر وسوريا وغرب الجزيرة العربية » وكانت القاهرة هى مركز القوة فيها ، وهى المدينة التى بناها الفاطميون وسط ريف كثيف خصب منتج فى قلب النظام التجارى الذى ربط عالم المحيط الهندى بعالم البحر المتوسط ، والثالثة هى المغرب والأجزاء الاسلامية من أسبانيا أو ما عرف بالأندلس ، وفى هذه المنطقة لم يكن هناك مركز قوة مسيطر بل عدة مراكز تقع ضمن مناطق من الزراعة الكثيفة فى نقاط تتحكم فى التجارة بين أفريقيا ومختلف أجزاء عالم البحر المتوسط .

وبشكل مبسط للغاية ، فان التاريخ السياسى للمناطق الثلاث يمكن تقسيمه الى عدة فترات تغطى أولاها القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين وفى هذه الفترة حكم السلاجقة المنطقة الشرقية،وهى أسرة حاكمة يساندها الجيش التركى ، وتعتنق الاسلام السنى ، وقد فرضوا أنفسهم فى بغداد فى ١٠٥٥ م كحكام فعليين تحت سيطرة العباسيين ، وكانت لهم السيطرة على ايران والعراق ومعظم سوريا ، واستولوا على أجزاء من الأناضول من الامبراطورية البيزنطية (١٠٣٨ ــ ١١٩٤) ولم يطالبوا بالخلافة ، وكان يطلق على رأس هذه الأسرة وما بعدها لفظ (سلطان) وهى تعنى مالك الحكم على وجه التقريب .

وفى مصر ، استمر الفاطميون فى الحكم حتى ١١٧١، ثم خلفهم صلاح الدين (١١٦٩ ــ ١١٩٣) وهو قائد عسكرى من أصول كردية ، وقد صاحب تغير الحكام تغيير فى الانتماء الدينى ، ففى حين ينتمى الفاطميون الى الفرع (الاسماعيلى) من الشيعة ، كان صلاح الدين سنيا وكان قادرا على اثارة الحماس والغيرة الدينية للمسلمين المصريين والسوريين لدحر الصليبيين الذين أسسوا دولا مسيحية فى فلسطين وعلى الساحل السورى فى نهاية القرن الحادى عشر،وكانت الأسرة الحاكمة التى أسسها صلاح الدين هى « الأيوبيون » قد حكمت مصر من ١١٦٩ ــ ١٢٥٢ ، وسوريا حتى ١٢٦٠ ، وبعض أجزاء الجزيرة العربية حتى ١٢٢٩ .

وفى المنطقة الغربية انقسم الخلفاء الأمويون فى قرطبة فى أوائل القرن الحادى عشر الى عدد من الممالك الصغيرة ، مما مكن الدول المسيحية، التى استطاعت البقاء فى شمال أسبانيا ، من البدء فى التوسع جنوبا ، وان أمكن صدهم لبعض الوقت بالظهور المتعاقب لأسرتين حاكمتين استمدتا

قوتهما من فكرة الاصلاحات الدينية وكذا من قوة شعوب البربر فى الريف المراكشى أولاهما كانت « المرابطين » الذين جاءوا من الأطراف الجنوبية لمراكش (١٠٥٦ ــ ١١٤٧) ، ثم جــاء « الموحدون » الذين تمتعوا بتأييد البربر من جبال أطلس ، والذين امتدت امبراطوريتهم فى أعظم توســعاتها لتشــمل مراكش والجزائر وتونس والجـزء الاســلامى من أسـبانيا (١١٣٠ ــ ١٣٦٩ م) ٠

وتشمل الفترة الثانية بشكل تقريبى للغاية القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وخلال القرن الثالث عشر اضطربت المنطقة الشرقية بفعل غزو خارجى للعالم الاسلامى قامت به سلالة منغولية غير مسلمة من شرق آسيا بجيش مكون من المغول والأتراك من قبائل السهوب الداخلية فى آسيا ، والذين فتحوا ايران والعراق وأسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد عام ١٢٥٨ م ، وقد سيطر فرع من هذه العائلة على العراق وايران لفترة قرن تقريبا (١٢٥٦ ــ ١٣١٦م) واعتنقوا الاسلام خلال هذه الفترة ، وقد حاول المغول الاتجاه غربا ولكن أوقف تقدمهم فى سوريا جيش مصرى من الجنود العبيد (المماليك) الذين جلبهم الأيوبيون ، وقد خلع قواد هذا الجيش الحكام الأيوبيين وشكلوا فيما بينهم نخبة عسكرية حاكمة قامت باستقدام المماليك من القوقاز وآسيا الوسطى ، واستمرت هذه النخبة فى حكم مصر لأكثر من قرنين (المماليك : ١٢٥٠ ــ ١٥١٧م) وقد حكموا سوريا أيضا بدءا من ١٢٦٠م وسيطروا على المدن المقدسة فى غرب الجزيرة العربية ٠ أما فى المنطقة العربية ، فقد خلفت « الموحدين » أسرة «المرينيون» (بنو مرين) (١١٩٦ ــ ١٤٦٥م) وعدد من الدويلات من بينها «الحفصيون» الذين حكموا من عاصمتهم فى تونس (١٢٢٨ ــ ١٥٧٤ م) ٠

وفى الفترة الثانية تغيرت حدود العالم الاسلامى بشكل ملحوظ ، ففى بعض الأماكن انكمشت الحدود تحت ضغط الهجوم من الدول المسيحية لغرب أوروبا ، سقطت صقلية أمام النورمانديين من شمال أوروبا ، وعاد معظم أسبانيا الى الممالك المسيحية فى الشمال ، وبحلول منتصف القرن الرابع عشر سيطروا على كل البلاد ماعدا مملكة غرناطة فى الجنوب ، وفى كل من صقلية وأسبانيا بقى السكان من المسلمين العرب لفترة من الوقت، ولكنهم فى النهاية تلاشوا اما بالطرد أو باعتناق الدين المسيحى ، ومن ناحية أخرى سقطت الدول التى أسسها الصليبيون فى سوريا والشام وفلسطين على أيدى المماليك أو بفعل التوســع الذى بدأه الســلاجقة الى الأناضول والذى امتد الى أبعد من ذلك على أيدى أسرات تركية أخرى ، وعليه ، تغيرت الطبيعة السكانية بدخول رجال القبائل الأتراك وتحول

الكثير من السكان اليونانيين الى الاسلام ، كما كان هناك توسع فى الحكم الاسلامى واعتناق الاسلام شرقا الى شمال الهند ، وفى أفريقيا أيضا استمر الاسلام فى الانتشار على طول الطرق والممرات التجارية الى الساحل على الأطراف الجنوبية من الصحراء وعلى طول وادى النيل وحتى الساحل الأفريقى الشرقى ٠

وفى الفترة الثالثة التى تغطى القرنين الخامس حتى السادس عشر ، واجهت الدول الاسلامية تهديدا جديدا من دول غرب أوروبا ، فقد تنامت تجارة وانتاج المدن الأوروبية ونافست المنسوجات ، التى يصدرها التجار من البندقية وجنوه ، منتجات مدن العالم الاسلامى ، واكتمل الغزو المسيحى لاسبانيا بسقوط مملكة غرناطة فى ١٤٩٢ م وأصبحت شـبه الجزيرة بالكامل تحت حكم البرتغاليين والأسبان المسيحيين ، وهددت القوة الأسبانية القبضة الاسلامية على المغرب كما سيطر قراصنة جنوب أوروبا على شرقي البحر المتوسـط ٠

وفى نفس الوقت ، مكنت التغيرات فى التقنيات البحرية والعسكرية وخاصة استعمال البارود من تعاظم القوى فظهرت دويلات أكثر قوة وأطول عمرا ، وغطت الجزء الأكبر من العالم الاسلامى فى تلك الفترة ٠ ففى أقصى الغرب خلفت بنى « مرين » وغيرها أسر حاكمة جديدة : أولا « السعديون » (١٥١١ ــ ١٦٢٨ م) وبعدها « العلويون » الذين حكموا من ١٦٣١ م حتى وقتنا هذا ، وفى الجانب الآخر من المتوسط تنامت أسر حاكمة تركية هي « العثمانيون » في الأناضـول على الحدود المتنازع عليها مع الامبراطورية البيزنطية ، ومنها توسعت الى جنوب شرقى أوربا ، وبعدها فتحت بقية لأناضـول وأصـبحت العاصـمة البيزنطيـة القسطنطينية عاصـمة للدولة العثمـانية وتعـرف الآن باسطنبول (١٤٥٣ م) ٠ وفى بدايات القرن السادس عشر هزم العثمانيون المماليك وضموا سوريا ومصر وغرب الجزيرة الى امبراطوريتهم (١٥١٦ ــ ١٥١٧ م) وبعدها قاموا بالدفاع عن ساحل المغرب ضد أسبانيا ، وبذلك أصبحوا خلفـاء وحكاما للمغرب حتى حدود مراكش ، ودامت امبراطوريتهم بشكل أو بآخر حتى ١٩٢٢ م ٠

والى الشرق حدث آخر اختراق واسع المدى ، حين قاد تيمور لنك جيشه المؤلف من رجال القبـائل من وسط آسيا ، وقد خلف وراءه أسرة حاكمة فى ايران وتركستان لكنها لم تدم طويلا (١٣٧٠ ــ ١٥٠٦م) فمع بداية القرن السادس عشر حلت محلها سلالة أخرى دامت الفترة أطول هم « الصفويون » ، الذين بسطوا حكمهم من المنطقة شمال غرب إيران ليغطى

البلاد وما وراءها بالكامل (١٥٠١ ـ ١٧٣٢ م) ٠ وأسس المغول ، وهم سلالة تنحدر من العائلة المغولية الحاكمة ومن « تيمور » امبراطورية فى شمال الهند عاصمتها دلهى (١٥٢٦ ـ ١٨٥٨ م) ٠

وبخلاف هذه الدول الأربع العظيمة : العلويين والعثمانيين ، والسعديين ، والمغول ، كانت هناك دول أصغر فى القرم وما وراء نهر جيحون وفى وسط وشرق الجزيرة العربية والأراضى التى اعتنق سكانها الاسلام حديثا فى أفريقيا ٠

العرب والفرس والترك

لم تقض الخلافات السياسية على الوحدة الثقافية لعالم الاسلام ، بل تعمقت تلك الوحدة بتزايد اعتناق السكان للاسلام ، وقد عبر الدين الاسلامى عن نفسه فى نظم التفكير وفى المؤسسات ، وبمرور الوقت بدأ ظهور انقسام فى الجزء الشرقى من العالم الاسلامى فى تلك الوحدة الثقافية المترامية الأطراف فبفضل وعى تلك الشعوب ، لم يطمس الاسلام ماضيها تماما بالدرجة التى حققها فى الغرب ٠

وقد أخمدت اللغة العربية تدريجيا اللغات المحلية واللهجات الدارجة فى غرب العالم الاسلامى ٠ وبرغم ذلك ظلت الفارسية مستخدمة فى ايران والمناطق الشرقية الأخرى ٠ واستمر الاختلاف بين العرب والفرس من وقت لآخر منذ قهر العرب الامبراطورية الساسانية ، واجتذبوا مسئوليها للعمل فى خدمة الخلفاء العباسيين وكذا الطبقة المثقفة فيها لتخليق ثقافة اسلامية، وقد أوجد الاحساس بالاختلاف مع نبرة زاعقة من العداء اصطلاح «الشعوبية» وهو خلاف أدبى دخل العربية عن المزايا النسبية للشعبين فى ظل الاسلام ، وظل استخدام الفرس للبهلوية فى كتابات الديانة الزرادشتية ، كما استمر أيضا لفترة فى ادارة الحكومة ٠

وفى القرن العاشر بدأ فى الظهور أمر جديد : أدب راق بلغة فارسية جديدة ليست مختلفة تماما فى التركيب النحوى عن البهلوية ولكنها مكتوبة بحروف عربية وأثرتها الكلمات العربية ، ويبدو أن ذلك حدث أولا فى شرق ايران فى قصور الحكام المحليين غير الملمين بالعربية وقد عكس الأدب الجديد الى حد ما أنواع الكتابة العربية التى كانت سائدة فى القصور الأخرى من الشعر الغنائى وشعر المديح والتاريخ وبعض الأعمال الدينية ، وكان هناك شكل آخر للخط فكان فارسيا بأسلوب متميز ، والأشعار الملحمية التى تسجل التاريخ التقليدى لايران وحكامها والتى كانت

موجودة فى عصور ما قبل الاسلام ، انتعشت فى تلك الفترة وأعيد احياؤها وتجلت فى الفارسية الجديدة لتأخذ شكلها النهائى فى « الشاهنامة » للفردوسى (٩٤٠ — ١٠٢٠) وقد كانت ايران متفردة بين البلاد الاسلامية فى احتفاظها بروابط قوية واعية بماضيها قبل الاسلام ، ولكن ذلك لم يؤد الى رفضها للتراث الاسلامى ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا استمر الفرس فى استبدال اللغة العربية فى الكتابات الدينية والقانونية، بينما ظلت الفارسية لغة للأدب العلمانى ، وامتد تأثير هذه الثقافة المزدوجة شمالا الى تركستان وشرقا الى شمال الهند ٠

بهذه الطريقة انقسمت الدول الاسلامية الى جزأين ، كانت الثقافة الرفيعة فى أحدهما قاصرة على اللغة العربية ، وكان الجزء الآخر يستخدم اللغتين العربية والفارسية لأغراض مختلفة ، وقد ارتبط ذلك الانقسام اللغوى بانقسام آخر بين مراكز القوى السياسية ، فقد أوجد صعود الفاطميين فى الغرب ثم السلاجقة فى الشرق حدودا بين سوريا والعراق، وقد جاء سقوط الخلافة العباسية وتدمير قوة بغداد على أيدى المغول ثم هزيمتهم أمام المماليك فى سوريا فى القرن الثالث عشر ليجعل هذا الانقسام دائما ، منذ ذلك الوقت فصاعدا كانت الى الشرق مناطق تحكمها دول مراكزها فى ايران أو تركستان أو شمال الهند ، والى الغرب مناطق تحكم من القاهرة أو من مدن فى المغرب أو أسبانيا أو جنوب العراق ، التى كانت منطقة مركزية ثم أصبحت الآن منطقة حدودية ٠ واستمر هذا الانقسام باقيا بشكل أو آخر عندما وصل « الصفويون » الى السلطة فى ايران وامتص العثمانيون معظم الدول التى تتحدث بالعربية فى امبراطوريتهم وتصارعت الامبراطوريتان لفترة من أجل السيطرة على العراق ٠

ولم يكن هناك انقسام سياسى بين العرب والفرس لأنه منذ القرن الحادى عشر فصاعدا لم تعد الجماعات الحاكمة فى المنطقتين عربية ولا ايرانية من حيث الأصول أو اللغة أو التراث السياسى ، وبدأ الأتراك المنحدرون من الشعوب البدوية الرعوية من أواسط آسيا فى التحرك عبر الحدود الشمالية الشرقية ، وهى منطقة نفوذ الاسلام خلال الحقبة العباسية،وقد جاءوا اليها فرادى أول الأمر ثم تحركت منهم مجموعات عبر الحدود ودخلوا واعتنقوا الاسلام ، وانخراط البعض فى خدمة جيوش الحكام ، وفيما بعد نشأت فيما بينهم أسر حاكمة ، وكان « السلاجقة » من أصول تركية ، وعندما بدءوا فى التوسع غربا باتجاه الأناضول تحرك معهم الأتراك ، وقد جاء الكثير من المماليك الذين حكموا مصر من أرض تركية ، وكان الجانب الأعظم من جيوش المغول من الأتراك وكان للغزو المملوكى تأثير دائم أدى الى استقرار أعداد

كبيرة من الأتراك ، فى إيران والأناضول ، وبعدها استمد العثمانيون والصفويون والأسر المغولية الحاكمة معظم قوتهم من الجيوش التركية .

وقد استمرت الأسر الحاكمة التى أسسها الترك فى استخدام أشكال من اللغة التركية فى الجيش والقصر ، ولكنهم بمرور الوقت انضموا الى عالم الثقافة العربية أو العربية الايرانية أو على الأقل تصرفوا كأسيادها وحماتها ، ففى ايران كانت التركية لغة الحكام والجيوش ، والفارسية للادارة والثقافة العلمانية ، والعربية للثقافة القانونية والدينية ، والى الغرب كانت العربية هى لغة الحكم، وهى أيضا لغة الادارة والثقافة الرفيعة، وقد تغير ذلك الى حد ما عندما أدى صعود الامبراطورية العثمانية الى ظهور لغة وثقافة عثمانية تركية متميزة ، أصبحت لغة كبار المسئولين وكذلك الجيش والقصر ، وفى المغرب وما تبقى من أسبانيا الاسلامية كانت العربية هى اللغة السائدة للحكومة والثقافة الراقية رغم أن البربر من جبال أطلس وتخوم الصحارى لعبوا دورا سياسيا فى بعض الأوقات جعلهم يدخلون فى مجال الثقافة العربية ، وبالرغم من ذلك فبان الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر جلب بعضا من لغته وثقافته السياسية الى ساحل المغرب .

وينحصر اهتمام هذا الكتاب بالجزء الغربى من العالم الاسلامى الذى كانت فيه العربية هى اللغة السائدة لكل من الثقافة الراقية وبشكل أو بآخر لغة الحديث بالطبع ، فمن الخطأ الاعتقاد بأن هذه المنطقة كانت منفصلة بشكل محدد عن العالم من حولها ، حيث كانت الدول التى تتحدث العربية تشترك فى الكثير من السمات مع الدول التى تتحدث الايرانية والتركية ، وكان للأراضى الواقعة حول المحيط الهندى أو البحر المتوسط روابط وثيقة بين بعضها البعض بصرف النظر عن الديانة السائدة، وعاش العالم كله ضمن هذه الضوابط التى فرضتها حدود الموارد البشرية والمعرفة التقنية وعن كيفية استخدامها ، ومن التبسيط المخل ، الاعتقاد بأن هذه المنطقة الشاسعة كانت تشكل بلدا واحدا ، لذا فمن الأفضل النظر الى هذه الأماكن التى سادتها اللغة العربية باعتبارها مجموعة من المناطق تختلف كل منها عن الأخرى فى الوضع الجغرافى والطبيعة ، وتسكنها شعوب توارثت تراثا ثقافيا واجتماعيا متميزا ظل باقيا فى طرق المعيشة وربما أيضا فى عادات الفكر والمشاعر حتى فى المناطق التى ضعف فيها الوعى ، أو انتهى ، بما كان موجودا قبل دخول الاسلام ، كذلك أيضا كان حال التحولات الاجتماعية التى يمكن رصدها فى هذه المناطق ، حيث أتاحت اللغة المشتركة والثقافة التى عبرت عنها الطبقات الحضرية المتعلمة سهولة ملحوظة فى التواصل مع بعضها البعض .

التقسيمات الجغرافيـــة

من الممكن مع بعض التبسيطات تمييز خمس مناطق داخل المنطقة التي ســادت فيها العربية : الأولى هى شبه الجزيرة العربية التى نشــأ المجتمع الاســلامى الناطق بالعربية فيها ، فشبه الجزيرة العربية كتلة من الأرض تتميز عن العــالم من حولها من ثـلاثة جوانب : البحر الأحمر والخليج وبحر العرب (جزء من المحيط الهندى) وتنقسم الى عدة مناطق تختلف عن بعضها البعض من حيث الطبيعــة ، كما تختلف فى التطورات التاريخية فى معظم الفترات • والخط الأساسى للتقســيم هو ذلك الذى يجرى تقريبا من الشمال الى الجنوب موازيا للبحر الأحمر ، فالى غرب هذا الخط منطقة من الصخور البركانية والسهل الساحلى (تهامة) ترتفع الى مجموعة من التلال والهضاب وهى جبال الحجاز وجبال عسير واليمن والتى تصل قممها الى ٤٠٠٠ متر فوق سطح البحر الى الجنوب ، وتمتد الجبال الجنــوبية نحــو الجنــوب الشرقى مع واد كبير هو وادى حضرموت الذى يخترقها •

وتقع جبال اليمن على أطراف المساحة التى تهب عليها الرياح الموسمية الآتية من المحيط الهندى ، وكانت منطقة للزراعة المنظمة للفاكهة والحنطة منذ وقت طويل ، والى الشمال تقل الأمطار وتصبح غير منتظمة ، وليس هناك أنهار من أى نوع ولكن هناك موارد مائية محدودة من الينابيع والآبار والجداول الموسمية،أما نمط الحياة الذى أحسن الافادة من الموارد الطبيعية فقد كان ذلك الذى زاوج بين تربية الابل والحيوانات الأخرى فى حركة هجرة منتظمة على مدار السنة مع زراعــة النخيل والأشجار الأخرى فى الواحات حيث تتوافر المياه •

والى شرق الجبال تميل الأرض وتنحدر شرقا باتجاه الخليج ، وفى الشمال والجنوب صحارى رملية هى صحراء النفود والربع الخالى وبينهما سهوب نجــد الصخرية والأحساء وامتدادها على ساحل الخليج والأمطار قليلة فيما عدا على بعض مرتفعات الشمال،ولكن الينابيع والسيول الموسمية جعلت بالامكان تحقيق حياة مستقرة قائمة على الزراعة فى الواحات ، وعدا ذلك كان هناك رعى الابل الذى يستلزم هجرات موسمية لمسافات كبيرة ، وفى الركن الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة منطقة ثالثة هى « عمان » وهى ليست مختلفة عن اليمن فى الجنــوب الغربى ، ومن السهل الساحلى تمتد سلسلة من الجبال تصل الى ارتفاعات تزيد عن ٣٠٠٠ متر ، وفيها الينابيع والعيون والجداول التى وفرت المياه لتوزع بنظام رى قديم مما مكن

للزراعة المستقرة · وعلى الساحل تقع سلسلة من الموانىء ينتظم فيها الصيد فى مياه الخليج والغطس بحثا عن اللؤلؤ منذ العصور القديمة ·

وتربط الممرات بين الجنوب والشمال الأراضى الواقعة حول المحيط الهندى ببلاد حوض البحر المتوسط ، وفى الجزء الشرقى ممرات رئيسية ممتدة على طول سلسلة من الواحات الى سوريا والعراق ، وتربط ممرات بحرية الموانىء على ساحل الخليج وعمان بسواحل الهند وشرق أفريقيا ، وكان الانتاج من الطعام والمواد الخام قليلا للغاية ولا يساعد على تحول هذه الموانىء والمدن والأسواق الى مدن كبيرة أو مراكز للصناعة والقوة ، اما مكة والمدينة فقد دعمتهما بسخاء هبات البلاد المجاورة ·

وترتبط شبه الجزيرة من الشمال بمنطقة الهلال الخصيب وهى الأراضى الهلالية الشكل الممتدة حول اطار صحراء الحماد السورية وتعتبر الامتداد الشمالى لسهوب وصحارى نجد ، وهى أراضى حضارة قديمة متميزة أبادت نصفها الغربى الحضارة اليونانية والرومانية وأبادت نصفها الشرقى الحضارة الايرانية ، وفى تلك المنطقة بالذات تطور مجتمع واضح المعالم وثقافة اسلامية محددة ، بشكل أفضل مما جرى فى شبه الجزيرة العربية ·

ويمثل الجزء الغربى من الهلال الخصيب منطقة يعرفها الجيل السابق من الدارسين والرحالة باسم سوريا ، وهنا كما فى غرب الجزيرة العربية تمتد الانقسامات الجغرافية الرئيسية من الغرب الى الشرق ، وهناك خلف الشريط الساحلى من السهول سلسلة من الأراضى العالية ، وترتفع الأرض من المركز حتى تشكل جبال لبنان ثم تنحدر جنوبا لتشكل تلال فلسطين، ومن ورائها الى الشرق جزء من الأخدود الكبير الممتد خلال البحر الميت والبحر الأحمر الى شرق أفريقيا ، وخلفها أيضا منطقة من الأراضى المرتفعة التى تعرف بالسهل الكبير أو الهضبة الداخلية التى تتغير تدريجيا حتى سهول وصحارى الحماد · وفى بعض المناطق نظم عتيقة للرى استخدمت مياه النهر الجنوبى الكبير والأنهار الصغيرة للحفاظ على الواحات الخصبة خاصة تلك التى تقع حول دمشق المدينة القديمة ، وتعتمد معظم هذه الزراعات على مياه الأمطار·وتسقط على المنحدرات الشرقية للتلال الساحلية والجبال أمطار كافية لانتظام الزراعة طالما أمكن ضبط التربة بتدريج جوانب التلال ، أما المناطق الأخرى فهى مزعزعة بالتفاوت الكبير فى كميات الامطار من عام الى عام والاختلاف الكبير فى البرد والحرارة ، وفى السهول الداخلية تتغير الميزات النسبية لزراعة الحبوب ورعاية الابل والأغنام بشكل كبير من وقت لآخر ·

وقد كانت سوريا مرتبطة بشكل وثيق ببقية شرق حوض المتوسط عن طريق موانيها والطريق البرى الممتد بطول ساحل مصر،وكانت مرتبطة داخليـا أيضـا مع غرب الجزيرة بطرق تمتد عبر صحراء الحماد أو الحافة الشمالية والأراضى الواقعة الى الشرق ، وقد ساعد ازدهار التجارة الطويلة المدى والانتاج الوافر من المواد الغذائية والمواد الخام ، على تنـامى المدن الكبيرة الواقعة فى السهول الداخلية والمرتبطة بالساحل ، فقامت مدينة حلب فى الشمال ونشأت دمشق فى المركز ٠

وتؤدى الطرق التى تمتد عبر أو حـول صحراء الحماد الى وديان النهرين التوأمين دجلة والفرات ، فينبعان من مرتفعات الأناضول ويتدفقان باتجاه جنوب الشرق تقريبا ويقترب كل منهما من الآخر وبعدها ينفصلان ثم يتحدان فيصبان فى النهاية فى الطرف الشمالى من الخليج ، وتنقسم الأراضى الواقعة بينهما وحولهما الى منطقتين ، الجزيرة فى الشمال وهى الأرض المعروفة للرحالة القدماء والعلماء بأعالى ما بين النهرين ٠ وقد زادت طبيعـة المرتفعات من صعوبة استخدام مياه النهر للرى أو زراعة الحبوب ما عدا المناطق المتاخمـة للأنهار أو روافدها ٠ وبعيدا عن الأنهار نجـد الأمطار غير منتظمـة والتربة خفيفة مما يوجه النشـاط الى تربية الأغنام وقطعان الماشية والابل ٠ والى الشمال الشرقى من الأنهار هناك أرض من نوع آخر ، هى جزء من سلاسل جبال الأناضول وتسمى كردستان نسبة للأكراد الذى يسكنونها ، هنـاك أيضا ـ كمثل سـفوح جبال السـاحل السورى ـ يمكن استخدام الأراضى والمياه لزراعة الأشجار فى الأراضى العالية ، والحبوب فى الأراضى المنخفضة ، كذلك تربية الأغنام والماعز بالانتقال المنتظم بين المراعى الشتوية فى وديان الأنهار والمراعى الصيفية فى أعالى الجبال ٠

والى الجنوب فى العراق ، تختلف طبيعة الأرض ، حيث تذوب ثلوج جبال الأناضول فى الربيع وينحدر جزء كبير من الماء الى الأنهار ويفيض على السهول المحيطة وقد كونت الرواسب المتخلفة عن الفيضانات طوال آلاف السنين سهولا غرينية شاسعة ، هى ريف العراق المعروف بالسواد حيث تزرع الحنطة وأشجار النخيل على نطاق واسع ، وكان الرى هنا أسهل من الشمال ، لأن السهل كان خاليا تقريبا من النتوءات ومنذ عصر البابليين القدماء كان هناك نظام واسع من القنوات لتوزيع المياه على السواد ، وقد أدى انبساط هذا الوادى وعنف الفيضانات الى ضرورة الحفاظ على القنوات فى حالة جيدة ، فبدون ذلك تفيض المياه على جوانب النهـر فى المناطق المحيطة وتشكل مساحات من المستنقعات الدائمة ٠

وقد سهل ، عدم وجود نتوءات ، على الرعاة الرحل من نجد الانتقال الى وديان الأنهار واستخدام الأراضي للرعي بدلا من الزراعة ، واعتمد أمن وازدهار السواد على قوة الحكومات ، وهي بدورها جلبت غذاءها والمواد والأموال من الريف الذى كان تحت حمايتها • وظهرت سلسلة من المدن العظيمة في قلب السواد حيث يتقارب دجلة والفرات : حيث نشأت بابل والمدائن عاصمة الساسانيين والعاصمة العباسية بغداد •

وبالاضافة الى الطرق التى تربط بين سوريا ونجد ، امتدت الممرات من العراق الى الأراضي المرتفعة في ايران الى الشرق ، وهي أكثر سهولة في الجنوب منها في الشمال • ولم تكن الملاحة سهلة في الأنهار في معظم مجراها،ولكن الممرات البحرية امتدت من نقطة التقائهما وتدفقهما الى الخليج ثم الى المحيط الهندى ، وقد كانت البصرة لفترة طويلة هي الميناء الرئيسى أثناء حكم الدولة العباسية •

والمنطقة الثالثة تقع الى الغرب من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وجسر أرضي ضيق ، والى الشمال منه صحراء رملية تؤدى الى وادى نهر النيل الذى يبدأ من مرتفعات شرق أفريقيا ويزداد قوة بتحركه شمالا ويرتبط بروافده المنحدرة من جبال الحبشة ، ويتدفق خلال حوض طيني تراكم خلال القرون ، وهو في بعض الأجزاء سهل عريض وفى البعض الآخر شريط ضيق ، وفي المرحلة الأخيرة ينقسم الى عدة أفرع ويجرى خلال دلتا خصبة الى البحر المتوسط ، وفى الصيف بعد ذوبان الجليد في مرتفعات شرق أفريقيا (*) يرتفع مستوى المياه ويتدفق النهر في فيضان ، ومنذ وقت مبكر أمكن رفع المياه بأدوات عديدة كالطنبور والساقية والشادوف على نطاق صغير من النهر ، وفى بعض المناطق خاصة فى الشمال كان هناك نظام قديم من حواجز الحماية التى تحول المياه عند فيضان النيل الى أحواض من الأراضي المحاطة بجسور حيث تظل لفترة ثم تفرغ عائدة الى النهر بهبوط الفيضان تاركة خلفها الطمي والغرين الذى يثرى التربة • وكانت الحبوب والمحاصيل الأخرى تزرع بوفرة في الأراضي المروية بهذه الطريقة ، كما أن هناك أيضا بعض الواحات ذات الزراعة المستقرة في الصحراء الممتدة بطول الجانب الغربى من وادى النهر •

(*) من المعروف أن هذه الزيادة فى مياه النيل تأتى نتيجة هطول الامطار على هضبة الحبشة ومن المعروف ايضا ان النيل الازرق يمد باكثر من ٧٠٪ من المياه التى ترد لمصر — (المراجع) •

ويمثل الجزء الشمالى من وادى النيل أراضى مصر ، وهى بلد ذو تقاليد وحضارة راقية ، ووحدة اجتماعية تخلقت وأصبحت دائمة بتاريخ طويل من الاستقرار السياسى ، حيث مارس حكام مصر سلطاتهم من مدينة واقعة على نقطة ينقسم فيهـا النهر الى فروع ويتدفق الى الدلتا • وكانت القاهرة هى المدينة الأخيرة فى سلسلة من المدن التى تبدأ بممفيس فى ثلاثة آلاف السنة الأخيرة قبل المسيح ، وتقع فى ملتقى شبكة من الطرق والممرات الممتدة شمالا حتى موانىء البحر المتوسط ومنها بطريق البحر حتى سوريا والأناضـول والمغرب وايطـاليا ، وشرقا الى سوريا بالطريق الساحلى ، وشرقا أيضا الى البحر الأحمر ومنه الى المحيط الهندى ، وجنوبا الى أعالى وادى النيل والى شرق وغرب أفريقيا •

وقد كانت السيطرة الاجتماعية ضـعيفة فى الجزء العلوى من وادى النيـل والدلتـا مما أضعفت من أثر العاصمة ، ويتدفق النيل خلال منطقة لا أمطار فيها • وعلى الضـفة الشرقيـة تشكل الأراضى الصالحة للزراعة شريطا ضيقا ، ولكن على الغرب ، مكن استواء الأرض من توسيع الشريط المزروع بالرى ، والى الجنوب من هذه المنطقة قليلة الأمطار ، هناك منطقة ذات أمطار صيفية غزيرة تمتد من مايو حتى سبتمبر ، يمكن فيها زراعة الحبوب وتربية قطعان الماشية على مساحة تمتد غربا حتى ما وراء وادى النهر من البرارى الرملية وجنوبا حتى مناطق واسعة من الخضرة الدائمة • وهى السودان : أرض الزراعة والرعى والقرى ومضارب الخيام للرحل ، والبلدان الأسواق ولكن بلا مدن كبيرة ، وترتبط بمصر من خلال النيل وبطرق برية مع الحبشة والساحل والمنطقة الواقعة حول الطرف الجنوبى من الصحراء الكبرى •

ومن صـحراء مصر الغربية وحتى السـاحل الأطلنطى تمتد منطقة رابعة تعرف فى العربية بالمغرب (أراضى المغرب أو أراضى غروب الشمس) وتشمل البلاد التى تعرف الآن باسم ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وفى هذه المنطقة نجد أكثر الانقسامات الطبيعية وضوحا ممتدا من الشمال الى الجنوب ، فبطول سواحـل المتوسـط والأطلنطى شريـط من الأراضى المنخفضة والتى تتحول فى بعض المواضع الى سهول الساحل فى تونس ، والسهول السـاحلية على الأطلنطى فى مراكش • والى الداخـل من هذا الشريط مجمـوعة من الجبـال : الجبل الأخضر فى ليبيا ، وجبال شمال تونس ، وجبال أطلس وأطلس العليـا فى مراكش ، وفى الداخل سهول مرتفعة تتلوها سلسلة أخـرى من الجبـال : الأوراس فى الجزائـر والأطلس الأوسط ، والأطلسى الأعلى الى الغرب ، والى الجنوب تقع سهوب

تتحول تدريجيا الى صحارى بعضها صخرى والآخر رملى ، تتخللها واحات من نخيل البلح والى جنوب الصحارى منطقة من الأعشاب التى تروى بالأمطار ونهر النيجر ٠

وبالمغرب عدة أنهار يمكن استغلالها فى الرى ، وقد حددت كثافة الأمطار ومواسمها طبيعة ومدى الاستقرار البشرى واعتصرت السهول الساحلية ومنحدرات الجبال تجاه البحر السحب المطيرة القادمة من المتوسط أو الأطلنطى ، مما مكن للزراعة المستديمة للحبوب والزيتون والخضر والفاكهة وجعل المنحدرات العليا غابات كثيفة ، وتتفاوت الأمطار من عام الى عام فيما وراء الجبال فى السهول العليا ويمكن استغلال الأرض بطرق مختلفة ، زراعة الحبوب ورعاية الأغنام والماعز بالهجرة الموسمية ٠ والى الجنوب فى السهوب والصحارى تكون الأرض أكثر صلاحية للرعى ، واختلط رعاة الأغنام برعاة الابل أثناء هجرتهم من الصحراء شمالا فى الصيف ، وكانت الصحارى بالفعل هى الجزء الوحيد من المغرب الذى تربى فيه الابل ، والتى وجدت فى المنطقة لعدة قرون قبل الاسلام ، ومناطقها الرملية قليلة السكان ولكن فى الجزء الآخر اختلط رعاة الماشية مع زراع أشجار النخيل والأشجار الأخرى فى الواحات ٠

وقد امتدت الطرق الرئيسية التى ربطت المغرب بالعالم المحيط أيضا من الشمال الى الجنوب ، وربطت منطقة موانى المتوسط والأطلنطى بشبه جزيرة أيبيريا وايطاليا ومصر ، وامتدت الطرق من هذه الموانى جنوبا خلال الريف المستقر وسلسلة من الواحات فى الصحارى الى الساحل وما وراءه، وفى مواقع محددة امتدت الطرق حتى البحر خلال مناطق واسعة من الأراضى المزروعة مما مكن للمدن أن تنمو وتكتفى ذاتيا ٠ وكانت هناك منطقتان لهما أهمية خاصة ٠ احداهما تقع على ساحل الأطلنطى لمراكش حيث نمت فى القرون الاسلامية الأولى مدينة (فاس) ونمت الى الجنوب فى وقت لاحق مدينة مراكش ، كانت المنطقة الأخرى السهل الساحلى لتونس ، وهنا كانت (القيروان) المدينة المهمة فى القرون الاسلامية الأولى، وفيما بعد حلت محلها تونس الواقعة على الساحل قرب موقع مدينة قرطاج القديمة ، هاتان المنطقتان بمدنهما الكبيرة كانتا تشعان قوتهما الثقافية والاقتصادية والسياسية على الأراضى الواقعة بينهما وما حولهما ، أما الجزائر التى تقع بين المنطقتين ، فلم يكن بها مناطق واسعة من الحياة المستقرة بشكل كاف يمكن من ايجاد مراكز مشابهة من القوة ، ودخلت فى دائرة نفوذ جارتيها ٠ وامتدت قوة تونس لتغطى منطقة طرابلس غرب ليبيا (تريبوليتانيا) بينما كانت (سيرينايكا) بنى غازى فى المشرق منفصلة

عن بقية المغرب بالصحراء الليبيـة ، التى تمتد حتى حافة البحر وكانت أقرب الى دائرة نفوذ مصر •

والمنطقة الخامسة فى شبه الجزيرة هى « أيبيريا » أو الأندلس ، وهى الجزء الذى كان يحـكمه ويشكل أغلب سكانه المسلمون (طوال معظـم القرن الحادى عشر ولكنه أخـذ فى الانكماش حتى اختفى بنهاية القرن الخامس عشر) ، وهى مشابهة من بعض النواحى لسوريا • حيث تكونت من مجموعة من المناطق الصغيرة تكاد تكون منفصلة عن بعضها البعض وفى منتصف مركز شبه الجزيرة هضبة واسعة تحيط بها وتقطعها سلاسل جبلية تتدفق منها مجموعة من الأنهار خلال الأراضى المنخفضة حتى الساحل ويتدفق نهر ايبرو حتى البحر المتوسط فى الشمال،ويتدفق نهر التاجو الى الأطلنطى ، ومن خلال الأراضى البرتغالية المنخفضة ، يتدفق نهر الوادى الكبير الى جنوب الأطلنطى،وبين الجبال التى تحيط الهضبة الوسطى والبحر المتوسط تقع منطقة كاتالونيا الجبلية فى الشمال والسهول الى الجنوب ، وأوجدت التغيرات فى الطقس والأمطار اختلافات فى طبيعة الاراضى وطرق استغلالها ، ففى الأجواء البـاردة فى الجبال العالية توجـد غابات الفلين والسنط والبلوط تتخللها مراع حيث تزرع الحبـوب وترعى الماشية • والهضـبة الوسطى ذات الجو القارى مناسبة لنظام مختلط من زراعة الحبوب والزيتون ورعى الأغنـام والماعز ، وفى الأجواء الدافئة فى وديـان الأنهار والسهول الساحلية تزرع الموالح وبعض الفاكهة الأخرى ، وفى هذه المنطقة من الزراعة الغنية وامكانات النقـل النهرى كانت المدينتـان الكبيرتان قرطبة واشبيلية •

وكانت أسبانيا جزءا من عالم البحر المتوسط تربطها الموانىء على ساحلها الشرقى ببلاد حوض المتوسط الأخرى : ايطاليا والمغرب ومصر وسوريا ، الا أن أهم روابطها كانت مع جارتها مراكش ، ولم تكن المضايق التى فصلت الكتلتين الأرضيتين حاجزا أمام التجارة أو الهجرة أو حركة الأفكار والجيوش المتصارعة •

العرب المسلمون والآخرون :

بحلول القرن الحادى عشر أصبح الاسـلام دين الحكام والجماعات المسيطرة ونسبة متزايدة من السـكان ، ولكن ليس مؤكدا أنه كان دين الأغلبية فى أى مكان خارج الجزيرة العربية ، وبنفس الطريقة ، بينما كانت العربية لغة الثقافة الرفيعة كما كانت لغة أغلب سكان الحضر ، ظلت اللغات الأخرى باقية من فترة ما قبل الفتح الاسلامى ، وبحلول القرن الخامس

عشر كان تدفق الاسلام العربى قد غطى كل المنطقة ، اسلاما سنيا ، ورغم وجود معتنقى المذاهب التى تطورت فى القرون الأولى ، كانت هناك مجتمعات من الأباضية فى جنوب شرق الجزيرة العربيـــة وعلى مشارف الصحارى يدعون الانتساب الروحى الى الخوارج الذين رفضوا زعامة على بن أبى طالب عقب معركة صفين وتمردوا على حـكم الخلفاء فى العراق والمغرب ، وفى اليمن التزم معظم السكان بالشيعة فى صورتها الزيدية ، أما الشيعة فى صورتها الاثنى عشرية والاسماعيلية والتى سادت معظم شرق العـالم العربى فى القرن العاشر ، فقد بدأت فى الانحسار ، الا أن الاثنى عشريـة كان لها أتباع كثيرون فى أجزاء من لبنان وجنوب العراق ، حيث تقع معظم مزاراتهم المقدسة ، وعلى الشاطىء الغربى من الخليج• واستمر الاسماعيليون فى تمسكهم بمعتقدهم فى أجزاء من اليمن وايران وسوريا ، وكان بامكانهم مقاومة الحكام من السنة (الأيوبيين) فى سوريا والسلجوقيين فى الشرق والذين وصلت أنباء نشاطهم الى أوروبا خلال الحروب الصليبية واشتهروا باسم الحشاشين • والقصة القائلة بأنهم عاشوا تحت الحكم المطلق لشيخ الجبل ، لم ترد فى المصادر العربية • وقد كان أتباع الروافد الأخرى من الشيعة والدروز والنصيريين أيضا فى سوريا ، وكان اليزيديون فى شمال العراق من أتباع دين له عناصر مشتقة من كل من المسيحية والاسلامية ، وفى الجنـــوب كانت الديانة المانـوية المستمدة من المعتقدات والطقوس الدينية القديمة•

وبحلول القرن الثانى عشر كانت الكنائس المسيحية فى المغرب قد اختفت تقريبـا ، ولكن جزءا كبيرا من السكان فى الممالك الاسـلامية فى الأندلس كانوا مسـيحيين تابعين لكنيســة الروم الكاثوليك ، وكان المسيحيون الأقباط يشكلون عنصرا مهما من السكان المصريين فى القرن الخامس عشر رغم أن عددهم كان آخذا فى التقلص بالدخول فى الاسلام ، والى الجنوب فى شـمال الســودان ، اختفت المسيحية بحلول القـرن الخامس عشر أو السادس عشر بانتشار الاسلام عبر البحر الأحمر وجنوبا مع وادى النيل ، وفى كل سوريا وشمال العراق بقيت المجتمعات المسيحية وان كانت مطردة الانكماش ، وكان بعضها أساسا فى المدن وكانت تابعة للكنيسة الشرقيـة الأرثوذوكسية وكان البعض الآخر من أتباع الكنائس الأخرى التى كانت لها أصول فى الجدل حول طبيعة المسيح : الأرثوذوكسية السورية التوحيدية ، والنسطوريون • وفى لبنـان والأجزاء الأخرى من سوريا كانت هناك كنيسة رابعة هى المارونية ، وهم الذين اعتنقوا المذهب التوحيـدى ولكنهم فى القرن الثـانى عشر عنـدما حكم الصليبيون سواحل سوريا خضعوا لمذهب الروم الكاثوليك وسيادة البابا •

وقد كان اليهود أكثر انتشارا فى عالم الاسلام العربى • ففى المغرب حدث تحول ملحوظ من المزارعين الى اليهودية قبل دخول الاسلام ، وظلت المجتمعــات الريفيــة اليهودية باقية كما كان الحال فى اليمن وبعض أجزاء الهلال الخصيب ، وكان اليهود موجودين أيضا فى معظم مدن المنطقة لأنهم لعبوا دورا مهما فى التجارة والصناعة والمال والطب • وكان القسم الأكبر منهم تابعا للكيان الرئيسى لليهود الذين قبلوا بالقوانين الشفهية وتفسيرها الموجود بالتلمود ، والتى حفظها أولئك الذين درسوا التلمودية ، وفى مصر وفلسطين وغيرها كانت هنــاك (طائفة اليهود القرائين) الذين لم يتقبلوا التلمود وكانت لهم قوانينهم الخاصــة التى اشتقها أساتذتهم من الأسفار المنزلة وكان جزء كبير من المجتمعات اليهــودية فى ذلك الوقت يتكلمون العربية رغم أنهم استحدثوا أشكالا من العربية خاصة بهم،ولكنهم استمروا فى استخدام العبرية فى شعائرهم • وفيما بين المسيحيين أيضا انتشرت العربية فى الهلال الخصيب ومصر وأسبانيا ، وتقلصت الآرامية والسريانية كلغــات حديث وكتابة رغم أنهــا استمرت مستخدمة فى أغراض الصلاة والقــداس • ولم تعد اللغــة القبطية فى مصر تستخدم فى أى غرض من الأغراض بخلاف الأغراض الدينية ، وبحلول القرن الخامس عشر استخدمت اللغة العربية فى الشعائر الكنسية وتوقف استخدام القبطية ، واتخذ كثير من المسيحيين فى الأندلس العربية لغة لهم رغم أن اللغات الرومانسية (*) الموروثة ظلت باقيــة ، وكانت آخذة فى الانتعاش • وعلى حـدود التدفق العربى فى المناطق الجبلية والصحراوية كانت هناك لغات حديث أخرى كالكردية فى جبال شمال العراق ، والنوبية فى شمال السودان ولغات أخرى مختلفة فى الجنوب ، واللهجات الدارجة البربرية فى جبال وصحراء المغرب ، وكان الأكراد والبربر مسلمين الا أنهم انضموا الى دائرة اللغة العربية فى حدود عدد من تعلمها منهم •



(*) اللغــات الرومانسية Romance Language اى اللغات الناشئة عن اللاتينية — (المراجع) •

الفصل السادس

الـــــريف

استخدامات الأراضى

تمتد هذه البلاد على خط واحد من سواحل الأطلنطى الى ســـواحل المحيط الهندى ، ولم تشترك فى اللغة والثقافة الغالبة عليها فقط وانما اشتركت الى حد ما فى خصائص محددة من المناخ والتضاريس والتربة والمحاصيل والمزروعات أيضـا ، واعتبر هذان العاملان مرتبطين بشــكل وثيق فى بعض الأحيان ، حتى ان بعض الآراء دارت حول أن دين الاسلام كان مناسبا لنوع خاص من البيئة ، أو أن تلك البيئة قد أوجدته بالفعل ، الا أن تلك النظريات خطيرة للغاية ، حيث ان هنـــاك كثيرا من البلاد التى تميزت بمناخ مختلف انتشر فيها الاسلام وضرب جذوره مثل بعض جهات جنوب وجنوب شرق آسيا (*) ، ولهذا فمن الأفضل النظر الى هذين العاملين بشكل منفصل ·

ويمكن بشكل عام وصف المناخ فى معظم البلاد التى أصبحت فى تلك الفترة مسلمة الديانة وعربية اللغة · فسواحلها رطبة بسبب الرياح القادمة من البحر ، وكلما توغلنا للداخل يصبح الطقس قاريا يتميز باختـــلافات كبيرة فى درجات الحرارة بين النهـار والليل وبين الصيف والشـتاء ، وشهر يناير هو أبرد الشهور فى كافة المناطق وشهور يونية ويوليـــة وأغسطس أشدها حرارة ، وتتميز بعض المناطق الساحلية بالأمطار الغزيرة المنتظمة ، وكذا سفوح الجبال المواجهـة للسواحل ، التى تعتصر السحب المطيرة القادمة من البحار ، وتشترك فى هذه السمات كل من جبال أطلس على ساحل الأطلنطى فى مراكش ، وجبال أطلس التل وتبسه شرق الجزائر

(*) وآسيا الصغرى وشرق أوروبا وجمهوريات الفولجا ، وجمهوريات ما يعرف بالاتحاد السوفيتى السابق ·· كل هذه الأمثلة وغيرها تدحض ــ كما يؤكد ألبرت حورانى ــ أن الاسلام قاصر على بيئة بعينها · اننـا نحيى موضوعيـة المؤلف واتزانه ــ (المراجع) ·

وشمال تونس والكتل الصخرية فى ليبيا على الساحل الجنوبى من المتوسط وعلى ساحله الشرقى جبال لبنان والى أقصى الداخل جبال شرق العراق ٠ وفى جنوب غرب الجزيرة العربية تجلب الأمطار السحب القادمة من المحيط الهندى مع الرياح الموسمية فى شهور الصيف ، وفى المناطق الأخرى تسقط غالبية الأمطار من سبتمبر الى يناير ، وفيها يفوق متوسط الأمطار السنوى ٥٠٠ مم ويزيد بشكل ملحوظ فى بعض الأجزاء ٠

وتقل الأمطار على الجانب الآخر من الجبال الساحلية فى السهول والهضبات وتصل الى معدل ٢٥٠ مم سنويا وقد يكون هذا المتوسط خادعا حيث يتفاوت هطول الأمطار فى هذه المناطق الداخلية من شهر الى شهر ومن عام الى عام مما يؤثر على المحاصيل ٠ وتضعف المحاصيل فى السنوات التى يندر فيها المطر أو يمتنع ٠

وخارج هذا النطاق من الأمطار الغزيرة غير المنتظمة ، هناك مناطق من الأمطار الشحيحة أو النادرة ، يقع بعضها قرب الساحل مثل شمال مصر حيث لا توجد جبال تساعد على سقوط الأمطار حيث تقع بعيدا عن البحر ، ويتفاوت هطول الأمطار هنا من صفر الى ٢٥٠ مم سنويا ، ومعظم هذه المناطق ليست محرومة تماما من الماء ، ففى بعض الأجزاء حتى فى الصحراء العربية والصحراء الكبرى توجد ينابيع وآبار تغذيها الأمطار الموسمية أو المياه المتسربة من تحت الأرض من سفوح التلال أو سلاسل الجبال الواقعة بالقرب من البحر ، وفى بعض المناطق الأخرى تروى الأراضى التى لا تصلها الأمطار من الأنهار التى تجلب مياه الأمطار من مسافات بعيدة ، وكثير من الأنهار لا تعتبر أكثر من وديان موسمية تجف فى الصيف وتمتلىء بالفيضان فى المواسم المطيرة ، ولكن البعض الآخر دائم طوال العام مثل تلك التى تتدفق من الجبال حتى البحر فى اسبانيا والأطلنطى ومراكش والجزائر وسوريا ويفوقها جميعا واديا النهرين الكبيرين النيل ودجلة والفرات ٠

وكلا النهرين يجلبان الحياة لمناطق كبيرة من الأراضى المنبسطة التى يجريان من خلالها ، ولكنهما مختلفان فى ايقاعهما ، فالنيل ، تجلب روافده المياه من الأمطار التى تسقط على هضبات مرتفعات الحبشة وشرق أفريقيا فى الربيع والصيف ويسبب سلسلة من الفيضانات تبدأ فى النيل الأبيض ، وبعدها فى النيل الأزرق وروافده ، ويبدأ وصول الفيضان الى مصر فى شهر مايو ليصل الى ذروته فى سبتمبر ، ثم يبدأ فى النقصان حتى ينتهى فى نوفمبر ٠ وفى أعالى الأناضول التى ينبع منها كل من دجلة والفرات

يذوب الجليد في الربيع ، وينحدر نهر دجلة حاملا الفيضان بدءا من شهر مارس حتى شهر مايو ، ويتبعه الفرات بعد ذلك بقليل ويكون الفيضان في النهرين عنيفا بحيث يفيض على الجانبين ، حتى انه يغير من مساريهما في بعض الأحيان ، وفي جنوب العراق هبطت الأرض قبل الاسلام بفترة قصيرة وتكونت مستنقعات دائمة ٠

وقد تضافرت عوامل تغير التضاريس والحرارة ومصادر المياه لخلق نوعيات مختلفة من التربة في السهول الساحلية والمنحدرات الجبلية التي تمتد نحو الساحل حيث تكون التربة خصبة وغنية ، ولكن الأراضي في الجبال تحتاج الى التسوية اذا لم تجرفها المياه في المواسم المطيرة ، والتربة في السهول الداخلية خفيفة ولكنها خصبة ، وتتغير طبيعة الأراضي حيث تتحول السهول الداخلية الى وديان وصحار والأماكن التي تتوافر فيها المياه الجوفية ، تحيطها مناطق صخرية من الحصباء ، وكتل الصخور البركانية والكثبان الرملية مثل تلك الموجودة بالربع الخالي والنفود في الجزيرة العربية ومناطق الأرج في الصحارى المغربية ٠

وقد نشأت، منذ العصور السحيقة، زراعات خضر وفاكهة حيثما وجدت التربة والمياه ، ولكون الظروف الجيدة ضرورية لبعض المحاصيل ، فقد اكتسبت ثلاثة أنماط زراعية أهمية خاصة ٠ الأولى كانت أشجار الزيتون التي توفر الغذاء وزيوت الطهي ووقود الانارة ، وأمكن زراعتها في الأراضي الرملية حيث تزيد معدلات الأمطار عن ١٨٠مم سنويا ، ثانيا زراعة القمح والحبوب الأخرى للاستهلاك الآدمي وعلف الحيوان ، وتحتاج اما الى أمطار تزيد عن ٤٠٠ مم سنويا أو الري من الأنهار أو الينابيع ٠ والثالث كان النخيل الذي يحتاج الى درجة حرارة ١٦° مئوية على الأقل للاثمار ، ويمكن أن تزدهر بالرغم من ندرة المياه ٠ وفي حالة وجود مياه كافية ومراع ، يمكن استغلال الأراضي لتربية قطعان الماشية أو الزراعة ، فالماعز والأغنام تحتاج الى مراع وكلأ على فترات قصيرة حتى لا تضطر للانتقال ، أما الابل فيمكنها الارتحال لمسافات كبيرة بين المراعي ولا تحتاج للشرب كثيرا ٠

كان الشرق الأوسط والمغرب بسبب هذا التنوع في الظروف الطبيعية ، مقسمين منذ ما قبل الاسلام الى مناطق انتاج واسعة تقع بين نقيضين ٠ ففي ناحية منها كانت الزراعة ممكنة بشكل دائم على الممرات

الساحلية حيث تنمو أشجار الزيتون ، وفى السهول ووديان الأنهار حيث تزرع الحبوب ، وفى واحات النخيل • فى كل هذه المناطق كانت تزرع الخضر والفاكهة وكان ادخال سلالات وأصناف جديدة أحد نتائج تشكل المجتمع الاسلامي الممتد من المحيط الهندى الى المتوسط ووجدت قطعان الماشية والماعز والأغنام مراعى لها ، وفى الجبال العالية مجموعة متنوعة من الأشجار لانتاج الخشب وجوز العفص (البلوط) والصمغ والفلين ، وفى الطرف الآخر مناطق بها خضرة ومياه تكفى لتربية الابل أو الحيوانات الأخرى بالهجرة الموسمية على مسافات بعيدة • مثل هاتين المنطقتين كانت لهما أهمية خاصة : الصحراء العربية وامتدادها الشمالى الصحراء السورية (*) حيث يقضى مربو الابل الشتاء فى صحراء (النفود) ثم يتحركون جهة الشمال الغربى الى سوريا أو الشمال الشرقى الى العراق فى الصيف، أو الصحارى المغربية حيث يتحركون من الصحراء حتى السهول المرتفعة أو الحدود الجنوبية لجبال أطلس •

بين هذين الطرفين ، منطقة حياة شبه مستقرة من الزراعة الثابتة والأخرى من الحياة الرعوية للبدو الرحل ، حيث يمكن زراعة الأرض ولكنها غير مضمونة ويتساوى معها استخدام الأراضى والمياه للمراعى ، ويصدق ذلك بشكل خاص على المناطق التى تقع على تخوم الصحارى حيث الأمطار غير منتظمة والسهوب فى سوريا ووادى الفرات والحدود الخارجية لدلتا النيل والمناطق الأخرى المروية فى وادى النيل ، وسهوب كردفان ودارفور فى السودان والسهول العالية وجبال أطلس الصحراوية فى المغرب ، ويمكن فى ظروف خاصة أن تتحول معظم الأراضى الزراعية الى مراع ما لم تكن محمية بتضاريسها ، فعلى سبيل المثال لم يصل الرعاة من الصحارى الى جبال أطلس العالية فى مراكش •

لذلك فمن التبسيط المخل النظر الى الريف على أنه مقسم الى مناطق التصق الفلاحون فيها بالأرض لرعاية المحاصيل ، وأخرى للرعاة الرحل المتنقلين مع حيواناتهم ، فقد كان الوضع الوسيط ممكنا بين حياة مستقرة ثابتة بالكامل وحياة تنقل تام وهو ما كان عليه الحال ، فكان هناك مجال واسع من طرق استغلال الأراضى،وقد يستقر فى بعض المناطق أناس يسيطرون على أراضيهم ، وقطعان ماشيتهم يعنى بها المستخدمون والأجراء ، وفى البعض الآخر مزارعون مستقرون ورعاة أغنام تقاسموا

(*) عرفت ببادية الشام _ (المراجع) •

استغلال الأراضي ، ثم المهاجرون الموسميون ينتقلون مع قطعانهم من الأراضي المنخفضة الى المراعي في الأراضي المرتفعة ، ولكنهم كانوا يزرعون الأراضي في مواسم معينة ، وفي بعض الحالات كانـــوا بدوا رحلا بالكامل ، وقد يتحكمون في بعض الأراضي المستقرة من الواحات أو على تخوم الصحارى حيث يعمل الفلاحون لصالح البدو الرحل ٠

ولا يسهل وصف العلاقات بين أولئك الذين فلحوا الأراضي وأولئك المتنقلين مع حيواناتهم بمصطلح قديم ، أو في شكل تعارض لا يمكن محوه بين الصحراء والريف المزروع ، فقد احتـــاج كل من المزارعين المستقرين والرعاة الرحل كل منهما للآخـــر لتبادل الســـلع التي ينتجونهـــا ، فالرعاة لم يكن بامكانهم انتاج ما يحتاجونه من طعام سواء أكانت حبوبا أم تمورا ، بينما احتاج المزارعون للحوم وجلود وأصواف الحيوانات التي يربيها الرعاة ، وكذلك الابل والحمير والبغال لأغراض النقل ، وفي المناطق التي تواجدت بها الجماعتان كانت لهـم نفس الحقوق على المياه والأراضي والمحاصيل والمزروعات ، كمـا أنهم احتاجوا للاتفاق على ترتيبات مقبولة بشكل دائم لكلا الطرفين ٠

وكان التعايش والتكامل بين المزارعين والرعاة هشا وعرضة للتحول لصالح أحدهما ٠ فقد اكتسب الرعاة الرحل وضعا نتيجة قدرتهم على التحرك وشدة احتمالهم ٠ وينطبق هذا ــ بشكل خاص ــ على العلاقة بين الذين يربون الابل في العراء وسكان الواحات ٠ وقد عاشت في بعض الواحات الكبيرة الواقعة على الممرات التجارية المهمة طبقة من التجار الذين تمكنوا من احكام السيطرة على الأسواق وزراعات النخيل ٠ ولكن في الواحات الاخرى كان الرعاة هم المتحكمين في الأراضي وفلاحتها على أيدي الفلاحين أو العبيد ٠ وعلى حافة الصحراء أيضا كان الرعاة من القوة بما يمكنهم من فرض اتاوة على القرى المستقرة ، في شـــكل من نظـام حكم يعتبرون فيه أنفسهم سادة العالم والريف بادعاء الحرية والنبل والشرف التي يفتقدها الفلاحون والتجار والحرفيون ، وقد عبرت هذه العلاقة الجائرة عن نفسها في ثقافة الرعاة ، ومن ناحية أخرى كانت هناك قوى فاعلة تحد من حرية وقوة الرعاة وتجرهم نحو الحياة المستقرة بمجرد أن يصلوا الى الوديان أو السهوب المنبسطة ٠

ولم يكن اضطراب هذا التعايش بسبب الحالة المتكررة من الحروب بين هذين النوعين من المجتمعات ، ولكن لأسباب أخرى قد تكون التغيرات

الطارئة على الطقس أو المياه والتى حدثت على مدى قرون ، ومن الثابت أن الجفاف قد ازداد فى المناطق الصحراوية • وكانت هناك تحولات فى الطلب على منتجات الريف والصحراء ، وطلب يتزايد أو يقل على زيت الزيتون والحبوب والحنطة والجلود والصوف واللحم ، أو الابل لأغراض الانتقال والنقل • وفى بعض الأحيان كانت هناك أزمات ، بسبب التعداد المتزايد ، بين الرحل الذى كانوا يعيشـــون ، بشكل عام ، حيـــاة صحية أكثر من سكان القرى ، وعليه ، كانوا يتوسعون بشكل أكبر مما تسمح به سبل معيشتهم ، ومن وقت لآخر كانت هناك تغيرات سياسية ، عندما يكون الحـــكام أقوياء فيعمدون الى توسيع الرقعة الزراعية التى تمـــدهم بالطعام لتغذية المدن والضرائب للانفاق على الجيوش •

ولم يكن الفتح العربى للبلدان المحيطة فى الفترات الاسلامية المبكرة مجرد فيضان من البدو الرحل اجتاح العالم المستقر وأسقط ذلك التعايش، وانما كانت الجيوش العربية جيوشا صغيرة على قدر من الانضباط ، ومن جنود ذوى أصول مختلفة ، وكان يتبعهم فى العراق وايران على الأقل هجرات كبيرة من الرعاة العرب • وبأعداد لايمكن تقديرها ، وكانت مصالح الحكام الجدد تعتمد على الحفاظ على نظم الزراعة ، ومن ثم العائدات والضرائب ، وأولئك الذين كانوا يملكون الأرض أزيحوا أو دخلوا فى الصفوة أو النخبة الحاكمة الجـــديدة ، ولكن بقى المزارعون المحليون والجنـــود والمهاجرون واستقروا فى تلك الأراضى أو فى المدن الجديدة • ونمت المدن الجديدة بشكل أكبر من تلك التى كانت موجودة بالفعل فى خراسان حتى تركستان فى الشرق والى الأندلس فى الغرب ، مما يثبت أنه كان هناك ريف مستقر كبير ينتج ما يكفى لتوفير الطعام ، ومن ناحية أخرى أدى تنامى التجارة بعيدة المدى فى المجتمع الاسلامى المترامى الأطراف ، والحج السنوى الى مكة الى خلق الطلب على الابل والحيوانات الأخرى لأغراض الانتقال •

وفيما يتعلق بالاضطراب فى التعايش أو التكامل فقد حدث ذلك فيما بعد بدءا من القرن العاشر أو الحادى عشر وما بعده ، فعلى أطـــراف العالم الاسلامى ، كانت هناك اختراقات من مجموعات البدو الرحل أخلت بالتوازن السكانى فقد انتقل الرعاة الأتراك الى ايران والأراضى التى فتحت حديثا فى الأناضـــول ، واستمرت هذه الحـــركة وتزايدت أثناء الغزوات المغولية وما بعدها ، وفى أقصى الغرب اتجه البربر من أطلس وأطراف الصحارى شمالا الى مراكش والأندلس ، الا أن هذه العملية اختلفت فى الأجزاء الوسطى من العالم الاسلامى وقد ألقت دراسة أجريت على المنطقة

الواقعة(١) حول نهر ديالى(*)،أحد روافد دجلة فى السهل المروى من جنوب العراق والتى كانت تمد بغداد بالطعام والمواد الخام اللازمة لتعدادها الهائل الكبير ، ألقت الضوء على هذا الاختلاف • فقد تطلب نظام الرى الذى تطور من عهد بابل وما بعده ، حكومة قوية للحفاظ عليه ، مثل هذه الحكومة توفرت فى بدايات الفترة العباسية عندما تم اصلاح هذا النظام وترميمه بعد تحلله فى نهاية فترة حكم الساسانيين • وبمرور القرون تغير الحال ، وكان تنامى بغداد وتجارتها يعنى المزيد من الثروة الناتجة عن الفائض الريفى ، والذى كان يستخدم فى المدينة بدلا من توجيهه لصيانة الريف • وقد أدى الضعف المتزايد للحكومة المركزية الى تحول السيطرة على الريف الى أيدى الولاة والحكام المحليين أو جامعى الضرائب الذين لم يكن لهم اهتمام دائم بالحفاظ على نظم الرى ، وقد أدت التغيرات البيئية الى تكون مستنقعات كبيرة ، وفى هذه الظروف انهار نظام الرى تدريجيا على مدى القرون • ولم تكن لدى المزارعين أنفسهم الموارد اللازمة للحفاظ عليه بحالة جيدة فقد ضعف تدفق المياه الى القنوات وتحولت المناطق المزروعة الى مراع •

وقد يكون انتشار الرعى البدوى اذن نتيجة لانهيار الزراعة وليس سببا له وقد يكون ما حدث بالمغرب عكس ذلك ، وقد تبنى المؤرخون المحدثون فكرة منقولة عن ابن خلدون ، اذ اعتادوا نسبة انهيار الحياة المستقرة فى المغرب الى وصول قبائل عربية وبالذات بنو هلال فى القرن الحادى عشر ، ويعتقدون أن الغزو والسلب أثرا بعمق على تاريخ المغرب اللاحق ، بعد أن أدى الى تدمير الحكومات القوية التى كانت ترعى الحياة المستقرة ، كما أدت الى تغيير استخدامات الأراضى من الزراعة الى الرعى ، واغراق السكان المحليين فى بحر من الهجرة العربية الجديدة ، وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن العملية لم تكن بهذه البساطة ، فمن الثابت أن عناصر من بنى هلال دخلوا تونس من مصر فى النصف الأول من القرن الحادى عشر، وكانوا فاعلين فى محاولات السلالة الفاطمية فى مصر لاضعاف سلطة بنى زيرى ولاة القيروان المحليين والذين كانوا أتباعا للفاطميين ثم تخلوا عن ولائهم • بدأوا بالفعل فى فقد قوتهم نتيجة تدنى تجارة القيروان ، وتفككت دولتهم الى امارات صغيرة قامت على المدن الاقليمية ، وقد يكون ضعف السلطة وتدنى التجارة ، هو ما مكن الرعاة من الانتشار ، ولاشك أن

(★) نهر ديالى Diyala ينبع من جبال زاجروس ويلتقى بنهر دجلة الى الجنوب من بغداد — (المراجع) •

توسعهم أدى الى الدمار والفوضى ، ولايبدو أن بنى هلال كانوا معادين للحياة المستقرة بهذا الشكل فقد كانوا على علاقات جيدة مع الأسر الحاكمة الأخرى ، واذا حدث تحول فى التوازن الريفى فى ذلك الوقت فقد كان نتيجة لأسباب أخرى ، ويبدو أنها لم تكن عامة أو مستديمة حيث انتعشت أجزاء من الريف التونسى على أيدى الحكومة القوية للموحدين وخلفائهم الحفصيين ، وكان التوسع فى الرعى على ما يبدو نتيجة وليس سببا رئيسيا فى انهيار التكامل والتعايش الريفى ، وان اعتبر فيما بعد سببا لذلك ، كانت تلك طريقة زمزية لرؤية عملية معقدة ، فلا يبدو أن بنى هلال كانوا من الكثرة بحيث يمكنهم احلال العرب محل السكان البربر ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا حدث بالفعل توسع وانتشار للغة العربية وجاءت معها فكرة الرابطة أو العلاقة بين أهل الريف فى المغرب وبين شبه الجزيرة العربية ، ولكن سببها لم يكن انتشار القبائل العربية بمقدار ما كان بسبب ذوبان البربر فيها (٢) ٠

المجتمعات القبلية

لم يكتب تاريخ الريف فى هذه القرون ، كما كان من الصعب كتابته لأن المصادر الأساسية لم تكن متوفرة ، ولكن المصادر موجودة بالنسبة للفترة العثمانية ، وفى الملفات العثمانية الهائلة التى بدأ استكشافها حاليا ، وأيضا بالنسبة للفترات الحديثة يمكن استكمال المستندات بالملاحظة المباشرة ، ومن الخطورة مناظرة ما كان موجودا منذ قرن أو اثنين ، بما هو قائم الآن أو بما كان قائما من عدة قرون مضت ، وقد يساعدنا لتفهم الأحداث والتفاعلات فى ذلك الوقت أن نستخدم معارفنا من العصور اللاحقة لبناء « نموذج » لما كان عليه المجتمع الريفى فى بيئة الشرق الأوسط والمغرب الجغرافية ٠

ولو أن أسباب التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية اقتصرت على ذاتها فى مثل هذه المناطق الريفية ، فبامكانها أن تفرز نوعا من المجتمعات التى يطلق عليها « قبلية » ويصبح من الضرورى أن نبدأ بتعريف المقصود بالقبلية ٠

فى المجتمعات الرعوية والقبلية على السواء تتكون الوحدة الأساسية من العائلة الصغيرة (النواة) التى تتكون من ثلاثة أجيال : الأجداد والآباء والأبناء ، الذين يعيشون معا فى منازل قروية مبنية من الأحجار أو الطوب

الطينى أو أية مواد متاحة محليا أو فى الخيام المنسوجة للبدو الرحل ، والرجال مسئولون فى الأساس عن العناية بالأرض والماشية ، والنساء مهمتهن اعداد الطعام والنظافة وتربية الأطفال ، ويمكن أيضا أن يقدمن العون فى الحقول أو الرعى ، أما مسئولية التعامل مع العالم الخارجى فتقع رسميا على الرجال •

ومن المنطقى افتراض أن القيم التى نعبر عنها بمفهوم (الشرف) والتى درسها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية باسهاب ، قد وجدت منذ عصور سحيقة فى الريف أو على الأقل فى تلك الأجزاء التى لم تتصل بالديانات الرسمية للمدن ، وبناء على هذه الفرضية يمكن القول — مع اختلافات كثيرة فى الوقت والمكان — ان النساء فى القرى والوديان رغم أنهن لسن محجبات أو معزولات عن المجتمع كن تابعات للرجال بشكل ملحوظ • وكانت ملكية الأراضى مقتصرة على الرجال ولا يرثها الا الأبناء الذكور ، وكان الأبناء الذكور هم ثروة البيت ، وكان جزءا من شرف الرجل أن يدافع عما يملكه وأن يستجيب لطلبات أفراد العائلة أو القبيلة أو الجماعة الكبيرة التى ينتمى اليها • والشرف عائد على الفرد من خلال انتمائه للجماعة الأكبر • والنساء من عائلته ، الأم والأخوات والزوجات والبنات هن تحت حمايته ، ولكن ما يفعلنه يمكن أن يؤثر على شرفه مثل غياب الحياء أو الحشمة أو أى تصرف يمكن أن يثير فى الرجال الغرباء مشاعر قوية يمكن أن تهدد السلام الاجتماعى ، ويختلط احترام الرجل لنسائه بالشك أو حتى الخوف من المرأة باعتبارها مثارا للمشاكل • وفى دراسة عن النساء البدويات فى الصحراء الغربية لمصر لفتت الأشعار والأغانى ، التى يرددنها فيما بينهن ، الانتباه الى اثارة المشاعر الذاتية ومشاعر الحب التى يمكن أن تطغى على الواجبات المتعارف عليها أو تتخطى الحدود المحرمة ، وتلقى الشك على النظام الاجتماعى الذى تعشن تحت ظلاله والذى تعترفن به رسميا :

« من لمس يدك الممتدة على الوسادة ••• نسى أباه •• ثم نسى جده » (٣) •

وعندما تكبر المرأة تكتسب نفوذا أكبر ، كأم لأولاد ذكور ، أو كالزوجة الأولى الأرفع مقاما (ان كن أكثر من واحدة) ، ليس فقط على نساء العائلة الأصغر سنا وانما أيضا على الرجال •

ولم تكن هذه العائلة (النواة) مكتفية ذاتيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا فى معظم الأحوال ، ولذا يمكن أن تنضم الى نوعين من الوحدات

الأكبر ، احداهما كانت مجموعة الأقارب المنحدرين من نفس الجد الأكبر لأربعة أو خمسة أجيال مضت ، وكانت تلك المجموعة التي يمكن لأفرادها طلب المساعدة عند الحاجة والتي يمكن أن تتحمل مسئولية الاخذ بالثأر اذا قتل أو أضير أحد أفرادها ٠

والنوع الآخر هو تلك الوحدة التي أوجدتها المصالح الاقتصادية الدائمة لأولئك الذين يزرعون الأرض ولا يتنقلون ، فكانت الوحدة هي القرية أو الحي اذا كانت القرية كبيرة كتلك القرى الموجودة في السهول ووديان الأنهار ، رغم الخلافات بين العائلات الا أن الترتيبات لزراعة الارض كان لابد من الاتفاق عليها ، ويتم ذلك في بعض المناطق بالتقسيم الدائم لزمام القرية بين العائلات مع الاشتراك في أراضي المراعي، وفي بعضها الآخر بالتقسيم الدوري بحيث يكون لكل عائلة نصيب في الأراضي المروية التي تتمكن من زراعته على المشاع ، وكان لابد من اتخاذ الترتيبات لتقسيم المياه ، وكان ذلك يتم بعدة طرق ، منها مثلا تقسيم المياه في الجداول أو القنوات لعدة أنصبة ، يخصص كل منها بشكل دائم أو بالتوزيع الدوري الى مالك قطعة أرض معينة ، وكان لابد أيضا من اتخاذ الترتيبات فيما يتعلق بالزراعة ، فالمالك صاحب الحيازة غير الكافية أو من لا يمتلك حيازة يمكنه البحث عن أرض شخص آخر مقابل اعطائه جزءا محددا من الانتاج ، أو قد يقوم بالزراعة أو رعاية الأشجار والفاكهة على أرض آخرين ويعتبر مالكا لها ٠ وفي المجموعات الرعوية التي تتكون من أولئك الذين يتحركون معا من مرعى لآخر ، كانت الوحدة الأكبر من نوع مشابه لأن الرعي المتنقل يتعذر بدون درجة ما من التعاون والانضباط الاجتماعي ، وفي هذه الحالة لا تقسم الأرض حيث اعتبرت المراعي والمياه ملكية عامة لكل من يستخدمهما ٠

وبين هذين النوعين من الوحدات : الأولى المرتكزة على القرابة والنسب ، والأخرى القائمة على المصالح المشتركة كانت هناك علاقة مركبة، ففي المجتمعات غير المتعلمة يتذكر قليل منهم أجدادهم لخمسة أجيال مضت ، ويصبح الادعاء بالأصول المشتركة طريقة رمزية للتعبير عن مصالح مشتركة تضفي على تلك المصالح قوة لا يمكن أن توجد بدونها ٠ وفي بعض المواقف قد يحدث صراع ، عندها يستدعي أحدهم مجموعة الأقرباء لتقديم العون ، وقد لا يقدم بشكل كامل لاحتمال تعارضه مع بعض المصالح الأخرى أو القرابات الشخصية ٠

... وتمتد الانتماءات الى ما وراء هذه الوحدات الصغيرة الدائمـــة الى وحدات أكبر تتكون من كل القرى التى تشكل منطقة أو كل وحدات الرعى التى تستخدم منطقة رعوية واحدة أو حتى المجموعات المنفصلة بشكل واسع عن بعضها البعض اذ يمكن أن يعتبروا أنفسهم منتمين لكل أكبر ، مثل قبيلة أو عشيرة ، والتى يعتبرونها مختلفة عن المجموعات الشبيهة ومتعارضة معها ، وعادة ما يعبر الانحدار عن جد مشترك عن وجود قبيلة وتوحدها ، الا أن الانتساب الى ذلك الجـد الأكبر لم يكن معروفا على الدوام ، وكانت الأنساب تميل أحيانا الى المبالغة أو التخيل ، وبالتالى التغير أو التلاعب بين الوحدات المختلفة ، الا أنها كانت تكتسب قوة وعمقا بالتزاوج بين الجماعة ٠

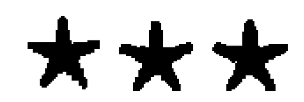
وقد كانت القبيلة قبل كل شىء اسما موجودا فى أذهان أولئك الذين يدعون ارتباط كل منهم بالآخر ، وكان لها نفوذ كامن على أفعالهم ، فعندما يكون هناك خطر مشترك من الخارج أو فى أوقات الهجـــرة الجماعية على سبيل المثـــال ، تكون هنـــاك روح جمـــاعية (العصبية) تدفع الأفراد الى مساعدة كل منهم للآخر فى وقت الحاجة ، أولئك الذين لهم اسم مشترك كانوا يشتركون أيضا فى الاعتقاد بتسلسل الشرف ٠ وقد اعتبر البدو الرحل من مربى الابل فى الصحراء أنفسهم أرفع شرفا باعتبار أن حياتهم هى الأكثر تحررا والأقل خضوعا للسلطة الخارجية وكان التجار من أسواق المدن الصغيرة ، والباعة الجائلون ، والحرفيون ، مثل عمال المعادن من اليهود فى الصحارى والمشتغلين بالمعادن فى الصحراء العربية والعمـــال الزراعيين فى الواحات جميعا خارج النظام القبلى من وجهة نظرهم ٠

واستمرت هذه الأســـماء والولاءات والادعاءات المتناثرة حولها لعدة قرون ، فى بعض الأحيان فى منطقة واحدة ، وفى أحايين أخرى فى مناطق واسعة ٠ ويمثل بنو هلال نموذجا للطريقة التى يمكن بها للاسم ــ الذى تجلى فى الأدب الشعبى ــ ان يظل ويستمر ، وأن يعطى نوعا من الوحدة لجماعات من أصول مختلفة من العرب والبربر ٠ كذلك استمرت فى جنوب غرب الجزيرة العربية أسماء « حاشد » و « باقل » فى نفس المنطقة ، على الأقل منذ بدايات العصر الاســـلامى حتى الزمن الحالى ، وفى أجزاء من فلسطين بقيت الأسماء العربية القبلية القديمة « قيس » و « يمن » حتى العصر الحديث ٠ بقيت تلك الأســـماء وسائل للتعرف والتضامن وطلب العون بين الحلفاء فى القرى ٠ وقد لعبت فى المناطق البربرية من المغرب أسماء « صنهجة وزناتى » دورا مماثلا ٠

وقد حافظ كبار السن أو رؤوس العائلات ، سواء في وحدات المراعي أو وحدة القرية أو الحي ، على الذاكرة الجمعية للجماعة حيث قاموا بتنظيم الاهتمامات العامة العاجلة وتسوية الخلافات التي تهدد بتفريق الجماعة ، وعلى المستوى الأعلى ، سواء في المجموعات المستقرة أو الرعوية ، يمكن أن تظهر قيادة من نوع آخر ، سواء لعدد من القرى في نفس الوادي أو نفس السهل أو تظهر في عدة وحدات للرعي وقد تظهر عائلة مسيطرة يتولى أحد أفرادها الزعامة للمجموعة بأكملها اما بالاختيار أو بالبلطجة ، ومثل هذه العائلات قد تكون من الخارج واكتسبت وضعيتها بالمكانة العسكرية ، أو الوضع الديني أو الحكمة في الفصل في المنازعات ، أو في التوسط نيابة عن المجموعة في تعاملاتها مع المدينة أو الحكومة ، وأيا كانت أصولها يمكن اعتبارها جزءا من القبيلة ولها نفس الأصول الحقيقية أو المختلقة ٠

وقد اختلفت قوة هؤلاء الزعماء والعائلات اختلافا كبيرا ، فمن ناحية ، كان شيوخ القبائل الرعوية الرحل لايتمتعون الا بسلطة محدودة ، بصرف النظر عما تمتعوا به من نفوذ نتيجة تقدير الجماعة لهم ٠ وما لم يتمكنوا من فرض أنفسهم في بلدة ليصبحوا حكاما من نوع آخر ، فلم تكن لديهم القدرة على فرض أحكامهم فيما عدا قوة جاذبيتهم (الشخصية) ، وكان يمكن للقبائل الرحل أن تكبر أو تصغر اعتمادا على نجاح أو اخفاق العائلة الزعيمة التي يمكن أن يلتف حولها الأتباع أو أن ينفضوا عنها ، رغم أن انضمام جماعة جديدة قد يتم باختلاق الأنساب ، ليبدو أولئك الذين انضموا للجماعة كما لو كانوا منتمين لها من قبل ٠

ومن ناحية أخرى نجد العائلات الحاكمة للمجتمعات الزراعية المستقرة خاصة المجتمعات المعزولة - على نحو أو آخر - في وديان الجبال، هم ممن استقروا طويلا أو من الوافدين من الخارج والذين اكتسبوا وضعهم بالغزو العسكري أو المكانة الدينية أو فرضتهم حكومات المدن المجاورة ، وقد تضعف روابط التضامن التي تربطهم مع السكان المحليين ولكنهم من موقعهم قد يمتلكون درجة من القوة القهرية المبنية على التحكم والسيطرة على المواقع الحصينة وحيازة القوة العسكرية ، وقد حلت القوة المركزية على أيديهم ، حسب درجتها ، محل عصبية القبيلة واتخذت شكلا مختلفا ، هو علاقة السيد بالتابعين ٠



الفصل السابع

حيـــاة المـــدن

الأســـواق والمدن

يستطيع الرعاة والمزارعون انتاج معظم ما يحتاجونه لأنفسهم ، كما يستطيع المزارعون بناء مساكنهم من الطوب اللبن ويمكن لنسائهم نســج الأغطية والملابس ، كما أن الحرفيين المتجولين يمكنهم تصنيع أو اصلاح الأشغال المعدنية ، الا أنهم ــ أى المزارعين ــ احتاجوا لمبادلة الفائض من انتاجهم مقابل سلع من أنواع أخرى(*) ، سواء أكان ذلك من مناطق أخرى من الريف أم كان السلع التى يصنعها الحرفيون المهرة كالخيـام والأثاث وتجهيزات الحيـوانات وأوانـى الطبخ والأسلحـة التى كانت ضرورية لحياتهم ٠

وعند نقاط التقاء المناطق الزراعية المختلفة ، كانت تنعقد الأسواق المنتظمة فى أماكن معروفة للجميع ، يسهل الوصـــول اليها ، ومقبولة كمكان محايد للقاء ٠ ويمكن أن تعقد هذه الأسواق أسبوعيا وتعرف بها كمثل سوق الأربعاء ، أو مرة فى العام فى الاحتفال بمولد رجل أو امرأة من أولياء الله ، وبمرور الوقت أصبحت بعض هذه الأسواق مستوطنات مستديمة ، ومدنا حيث لا يحتـاج التجـار والحرفيون لزراعة طعامهم أو رعاية ماشيتهم ، واستمروا فى أداء أنشطتهم المتخصصـــة ٠ وكانت معظم هذه المدن (البلدان) الأسواق صغيرة ، بل أصغر بالفعل من بعض القرى ، اذ يسكنها بضع مئات أو آلاف فى سوق مركزية ، وطريق رئيسية تقوم حول بعض المحال والورش، ولم تكن مميزة تماما عن الريف من حولها. وفيما عدا القلب السكانى الدائم للحضريين ، فقد كان السكان ينتقلون من المدينة والريف حسب تغير الظروف ٠ وفى المدن الصغيرة البعيدة عن المدن الكبيرة أو الواقعة على واحات كانت تسود سلطة الشيخ من قبيلة

(*) كالسروج والالجم والرسن ونحوها ــ (المراجع) ٠

مجاورة ، أو نفوذ ثرى محلى ولم تكن الخلافات القبلية أو القروية تمارس فى الأسواق حيث كان صغار التجار والحرفيون يعتبرون خارج النظــــام القبلى وغير خاضعين لميثاق الشرف أو الثأر الذى عاش عليه رجال القبائل٠

وقد كانت بعض المدن أكبر من مجـرد مدن أسواق محلية ، حيث كانت نقاط التقاء عدد من المناطق الزراعية من أنواع مختلفة ، وكان تبادل المنتجات يتم على مجال واسع ومركب بشكل ملحوظ ، فحلب فى شــــمال سوريا ، على سبيل المثـــال ، كانت نقطـــة التقاء لأولئك الذين يشترون أو يبيعون الحبوب من السهول السورية الداخلية ونتاج أشـجار الفاكهة والغابات على التلال الواقعة فى الشمال ، أو الأغنام أو الابل التى تربى فى امتداد الصحراء السورية ٠ واذا كانت المناطق المحيطة تنتج فائضــــا كبيرا من الغذاء والمواد الخام مما يمكن نقله بسهولة الى السوق ، فيمكن أن تصبح المدينة مركزا للحرفيين الذين ينتجون السلع المصنعة على نطاق واسع ٠ واذا كانت واقعة على بحر أو نهر أو طرق صحراوية تربطها بمدن أخرى من هذا النوع يمكن أيضا أن تصبح مركز تنظيم أو ميناء للشحن للتجـــارة البعيدة المدى فى السلع القيمة والتى تعوض أرباحها عن التكلفة ومخاطر النقل ٠

وعند توافر مثل هذه الشروط ، واذا كان هنــــاك ثبات واستقرار فى الحيـــاة على مدى عقود أو قرون ، يمكن أن تنمو المدن الكبيرة وتكتفى ذاتيا ٠ وقد وفر ظهور الامبراطورية الاسلامية ، والذى تبعه تطور مجتمع اسلامى يربط بين بـــلاد المحيط الهندى وبـــلاد البحـــر الأبيض ، الظروف اللازمة لظهور سلسلة من البلدان العظيمة ، تمتد من طرف العالم الاسلامى الى الطرف الآخر : قرطبة واشبيلية وغرناطة فى الأندلس ، وفاس ومراكش فى المغرب ، والقيروان وبعدها تونس فى تونس ، والفسطـــاط وبعـــدها القاهرة فى مصر ، ودمشق وحلب فى ســــــوريا ، ومكة والمدينة فى غرب الجزيرة العربية ، وبغداد والموصل والبصرة فى العراق وبخلاف ذلك مدن ايران وتركستان شمال الهند ٠ وقد كان بعض هذه المدن موجودا فيما قبل دخول الاسلام ، وبعضها كان من نتـــــاج الفتح الاسلامى ، أو قوة الأسر الحاكمة اللاحقة ٠ ومعظم هذه المدن تقع بعيدا عن السواحل حيث كانت القبضة الاسلامية على ساحل المتوسط مزعزعة ، وكانت الموانىء عرضــــة لهجمات الأعداء من البحر ٠

وبحلول القرنين العاشر والحادى عشر ، كانت المدن الكبرى فى البلاد الاسلامية هى أضخم المدن فى النصف الغربى من العـــــالم ، وقد لاتكون

الأرقام أكثر من تقديرات تقريبية ولكنها ليست مستحيلة على أســـــاس حساب مساحة المدينة وعدد وحجم مبانيها العامة ، فانه بحلول بداية القرن الرابع عشر كانت القاهرة تضم ربع المليون من السكان ، وفى نفس ذلك القرن تقلص التعداد بفعل أوبئة الطاعون (الموت الأسود) ، ومضى بعض الوقت قبل أن تعود المدينة الى حجمها السابق ، وتقـدير سـكان بغداد خلال الفترة العباسية العظمى يبلغ مليونا أو أكثر ، ومن شبه المؤكد أنه مبالغ فيه ، ولكنها كانت على الأقل مدينـــة تقارن - من حيث الحجم - بالقاهرة ، وبحلول عام ١٣٠٠ تقلصت بشكل كبير بسبب تدنى نظام الرى فى الريف المحيط وبفعل الغزو والنهب المغولى ، كمـا كانت قرطبة فى أسبانيا مدينة بنفس الحجم ، وحلب ودمشق وتونس كان تعدادها قرابة ٥٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠٠ نسمة فى القرن الخامس عشر ، أما فى غرب أوروبا فى ذلك الوقت فلم تكن هناك مدينة بحجم القـاهرة ، فمدن فلورنسا ، والبندقية ، وميلانو ، وباريس كان تعداد كل منها فى حدود ١٠٠٠٠٠ نسمة ، بينما كانت مدن انجلترا وهولندا وألمانيا وأواسط أوروبا أصغر من ذلك •

سكان المدن

ولقـد تكون الجزء الغنى والمسيطر من سكان المدن من كبار التجار العاملين فى جلب المؤن والمواد الخام من الريف ، أو من العاملين بالتجارة البعيدة المدى فى السلع الثمينة ، وكانت سلع هذه التجارة خلال تلك الفترة من المنسوجات والزجاج والخزف من الصين ، وربما كان الأهم من ذلك كله التوابل ، وكانت تستجلب من جنوب وجنوب شرقى آسيا فى العصور الاسلامية الأولى الى موانىء الخليج ، سيراف والبصرة ، وبعدها حتى شمال البحر الأحمر الى أى من موانىء مصر ، ومن ثم الى القاهرة ومنها توزع لكل عالم البحر المتوسط ، بالطرق البرية وبالنقـــل البحـرى من موانىء دمياط ورشيد والاسكندرية • وكان الذهب يأتى من الحبشة نزولا فى النيل ، وبالقوافل الى القاهرة ، ومن مناطق نهر النيجر عبر الصحارى الى المغرب ، وكان العبيد يستجلبون من السودان والحبشة ومن مناطق العبيد •

ولم تكن التجارة بكاملها فى أيدى التجار المسلمين ، فقد كانت السفن والتجار الأوربيون يسيطرون الى حد بعيد على التجارة فى البحر المتوسط ، فى مراكز بدأت بأمالفى ثم جنوه والبندقية ، وفى القرن الخامس عشر بدأ

الانجليز والفرنسيون أيضا فى الظهور ، وقد تحـكم التجـار فى المدن الاسلامية فى الطرق البرية الكبرى فى المغرب ، وغرب وأواسط أسيا ، وأيضا طرق المحيط الهندى حتى فتح البرتغاليون الطريق حول رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر ، وكان معظـم هؤلاء التجار من المسلمين مثل «الكريميون» الذين تحكموا فى تجارة التوابل فى مصر لفترة طويلة ، وكان هناك أيضا يهود بغداد والقاهرة ومدن المغرب ممن كانت لهم روابط عائلية واجتماعية مع مدن ايطاليا وشـمال أوروبا والامبراطورية البيزنطية ، بالاضافة الى التجار من المدن الكبرى ، كانت هناك مجموعة متماسكة منهم فى المدن الأصغر ، وأمكنهم السيطرة على أنواع معينة من التجارة (ظل هذا التقليد حتى العصور الحديثة ، وفى المغرب جاءت هذه المجموعات فيما بعد من جزيرة جربه على الساحل التونسى وواحة مذاب على حافة الصحراء ومنطقة سوس فى جنوب مراكش) •

وقد شاع نوعان من المعاملات التجارية كانت أولاها المشـاركة ، وعادة ما تكون بين أفراد من نفس الأسرة يتقاسمون المخاطر والمكاسب بنسبة ما استثمره كل منهم ، والثانى كان المضاربة ، وفيها يأتمن المستثمر تاجرا على سلع أو مال يتاجر بهما ، على أن يردها فيما بعـد أموالا الى المستثمر مع نسبة متفق عليها من الربح • ويمكن أن يكون للتاجـر فى مدينة وكيل فى مدينة أخرى ورغم أن البنوك المنتظمة لم تكن موجودة ، الا أنه كانت هناك طرق مختلفة لتوفير الائتمان على البعد بسحب الفواتير مثلا وكانت أسس التجارة ، هى الثقة المتبادلة القائمة على القيم المشتركة والقواعد المتعارف عليها •

وكانت المدن الكبيرة أيضـا مراكز للصـناعة تنتج السلع الغذائية للسوق المحلية ، والمنسوجات والأشغال المعدنيـة والفخار والمصنوعات الجلدية والأطعمة المصنعة والسلع ذات الجودة كالمنسوجات الراقية لأسواق أوسع ، وهناك بعض الدلائل على أن الانتاج للأسواق خارج العالم الاسلامى أصبح أقل أهمية منذ القرن الحادى عشر وما بعده ، أما التجارة العابرة للسلع المصنعة فى أماكن أخرى فى الصين والهنـد أو شرق أوروبا فقد أصبحت أكثر أهمية ، وكان هذا التغيير مرتبطا بانبعاث الحياة الحضرية فى أوروبا ، وخاصة بازدهار صناعات النسيج فى ايطاليا •

وعلى وجه العموم ، كانت وحدات الانتاج صغيرة ، ويكون لدى صاحب العمل بضعة عاملين ومتدربين فى ورشته ، أما الصناعات على المستوى الأكبر فقد كانت تلك التى تنتج لحاكم أو لجيش ، مثل ترسـانات الأسلحة

أو الورش الملكية للمنسوجات ومصانع السكر فى مصر وغيرها ، ولم يكن التجار هم الطبقة الوحيدة ذات الجذور الراسخه فى المدينة ، فقد شكل أصحاب المحال والحوانيت والحرفيون المهرة طبقة حضرية لها استمراريتها الذاتية ، وانتقلت المهـــارات من الأب الى الابن ، وكانت ملكية حانوت أو ورشة تنتقل لأجيال ، وكان عددها محدودا لقلة المبانى أو فى بعض الأحيان للضوابط التى تضعها السلطات • وقد أشار أحد مؤرخى فاس الحديثة الى أن وضع وحجم الأسواق الرئيسية ومساحات الورش ظلت فى بدايات القرن العشرين كما كانت فى القرن السادس عشر حسب ما ذكره كتاب الرحالة ليو أفريكانوس (١٤٨٥ ــ ١٥٥٤) (*) وكان أفراد هذه الطبقة من المجتمع ذوى مستوى دخل أقل من كبار التجـــار ، اذ أن الثروات التى يمكن تكوينها من العمل الحرفى او تجارة التجزئة لم تكن كبيرة كتلك التى تدرها التجارة البعيدة المدى فى السلع الثمينة • لم يكن لدى غالبية الحرفيين موارد رأسمالية كبيرة ، وقد أظهرت دراسة عن القاهرة أن نســبة ملحوظة من المحـال والورش كانت مملوكة لكبار التجـــار أو المؤسسات الدينية ، وقد تمتعوا بالمكانة كسكان مستقرين يسعون الى تجارة شريفة طبقا للأصول المتعارف عليها من الأمانة وجودة الصنعة ، وكان هناك تسلسل هرمى من الاحترام فى الحرف ، ويتفاوت بين العمل فى المعادن الثمينة أو الورق أو العطور حتى تلك الحرف « غير النظيفة » مثل الدباغة والصباغة والجزارة •

وحول هذا المجتمع المستقر من الحرفيين وأصحاب المحال ممن لهم مواقع دائمة وثابتة فى المدينة ، كان يعيش مجتمع أكبر من ذوى المهارات الأقل من أولئك المشتغلين بالمحال ، والباعة الجائلين ، ومنظفى الشوارع ، البروليتاريا شبه العاملة والعمالة المؤقتة المرتبطة بالمدن الكبرى • وفى معظم الأحوال شملت هذه الطبقة نسبة كبيرة من مهاجـــرى الريف • ولم يكن الخط الفاصـــل بين المدينة والريف محـــددا ، حيث كانت حول المدينة أسواق وحدائق ، مثل تلك الموجودة فى الغوطة وهى منطقة زراعة

(*) الرحالة العربى المشهور الحسن بن الوزان والذى عـرف بالاســم الأوروبى ليو الافريقى او Leo Africanus ، وسبب تسميته هذه أن المسيحيين اسروه وقدموه للبابا ليو العاشر الذى ضمه لحاشيته واطلق عليه اسمه • ويبدو ان المؤلف قد اخطأ فى تاريخ ميلاده على الاقل ، اذ ان الحسن بن الوزان قد ولد سنة ١٤٩٣ فى غرناطة ، ونشرت رحلته بالايطالية سنة ١٥٥٠ وقد قامت جامعـة محمد بن سعود بالرياض بنشر النص العربى لرحلته فى طبعة انيقة • انظر ايضا :
Bovill, E. W. : Caravan of the old sahara, London, 1033.
(المراجع) •

مروية شاسعة المساحة حول دمشق ، فكان الرجال الذين يزرعون الحدائق يعيشون في المدينة ، وكانت على مشارف المدينة مناطق تنظم فيها قوافل التجارة وتشترى الحيوانات وتجهز وهو ما اجتذب بعض السكان النازحين من الريف ، كما أن فترات الجفاف والفوضى كانت تجلب الفلاحين الفارين من قراهم أيضا ٠

القانون والعلماء

كانت احتياجات الحياة في المدن الكبيرة تختلف عن احتياجات سكان القرى والخيام ٠ وكان التفاعل بين العمـــال المتخصصين والمتعاملين في المنتجات والالتقاء بالناس من أصول وديانات مختلفة ومشاكل الحياة في الشوارع والسوق كلها تتطلب توقعـــات مشتركة لما يمـــكن أن يفعله الآخرون في مواقف معينة ، ومعايير لما يجب أن يكون عليه تصرفهم ونظام من القواعد والعادات مقبول بشكل عام ومتبع في أغلب الأحيان ، ولم تعد العادات المحلية (العرف) التي يحافظ عليها ويفسرها كبـــار السن في المجتمع ، كافية في حد ذاتهـــا ٠ ومنذ العصر العباسي وما بعده كانت الشريعة مقبولة بشكل عام من سكان المدن المسلمين ، ودعمها وطبقها الحكام لأنها ترشد الى أسلوب تعامل المسلم مع المسلم ، وقد نظمت الشريعة أشكال التعاقد التجاري وحدود الربح المكتسب شرعيا ، والعلاقات بين الأزواج والزوجات وتقسيم الملكية ٠

وكان القضاة الذين يطبقون الشريعة يتلقون تدريبهم في مدارس خاصة ٠ ويجلس القاضي في منزله أو في مقر المحكمة مع كاتب لتسجيل القرارات ٠ ولاتقبل الشـــــهادة الشفهية الا من الشـــهود ذوى السمعة الحسنة من حيث المبدأ ، وقد ظهرت جماعة من الشهود القانونيين (العدول) يستطيعون اضفاء وضعية مقبولة على شهادة الآخرين،وكان بالامكان القبول ـ عمليا ـ بالوثائق والمستندات المكتوبة اذا صدق عليها العدول وعليه تتحول الى دليل كتابي ، وبمرور الوقت اعتبرت الأسر الحاكمة في العصر المملوكي المذاهب الأربعة « مدارس القانون » مقبولة بشكل متساو ، وكان هنـــاك قضـــاة من كل المذاهب يعينـــون رسميا ، ويصدر كل قاض أحكامه وفقا لتعاليم مذهبه ، ولم يكن هناك نظام للالتماس ولا يمكن الغاء حكم القاضي على أيدى قاض آخر الا لأخطاء قانونية ٠

ومن حيث المبدأ فان القاضي يفصل بناء على القانون الوحيد المعترف به ، والمشتق من الوحي ، ولكن عند الممارسة لم يكن النظام القانوني عاما بلا مرونة كما قد يفهم من ذلك ، اذ لم تغط الشريعة فى الواقع كل مجال الأنشطة الانسانية ، كانت دقيقة الى أقصى درجة فى المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية (الزواج ، الطلاق ، الميراث) ، بينما كانت أقل دقة فى المسائل التجارية وأقل من ذلك فيما يتعلق بالقضايا الدستورية والجنائية ، وكانت للقاضى صلاحية معينة فى المسائل الجنائية فيما يتعلق بأفعال معينة حرمت بشكل واضح فى القرآن حيث وضعت لها عقوبات محددة هى الحدود (الزنا ، السرقة ، شرب الخمر) وكانت له أيضا صلاحيات عامة لمعاقبة التصرفات التى تسىء الى الدين (كان معظم القضاء جنائيا ، أما المسائل التى تمس صالح الدولة فيفصل فيها الحاكم أو موظفوه وليس القاضى) •

ولم يكن القانون المعمول به عديم المرونة كما يبدو فى كتب الشريعة ، وانما كان الفصل للقاضى ، والذى قد يفسر دوره كما لو كان التوفيق ومحاولة الحفاظ على الانسجام الاجتماعى ، بالتوصل الى حل يتفق عليه للنزاع بدلا من تطبيق القانون حرفيا ، بالاضافة الى القاضى كان هناك نوع آخر من الاخصائيين القانونيين (*) (المفتى) الذى كان من صلاحيته اصدار الفتاوى حول المسائل القانونية ، ويمكن للقضاء قبول الفتاوى وتضمينها فى مراجع التشريع •

وكان القاضى شخصية محورية فى حياة المدينة ، ولم يكن يفصل بالقانون فقط ، وانما كان أيضا مسئولا عن توزيع أملاك الشخص بعد وفاته وفقا لقوانين الميراث ، ويمكن أن تكون له سلطات اشرافية يخولها له الحاكم •

وأصبح الذين درسوا وفسروا وقضوا بالقانون (**) والذين مارسوا وظائف دينية معينة أخرى — ممن يؤمون الصلاة فى المساجد أو يلقون خطبة الجمعة — طبقة متميزة فى مجتمع المدينة : (العلماء) ، وهم رجال

(*) أو من علماء الشريعة أو الفقهاء بلغة ذلك العصر — (المراجع) •

(**) استخدم الأستاذ المترجم القانون كترجمة للكلمة الانجليزية Law بدلا من مصطلح الشريعة أو الأحكام الشرعية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، وقد أقررناه على ترجمته هذه لأن المؤلف يوجه حديثه للقارىء الأوربى ، ويحاول تقريب أفكاره للقارىء الأوربى المعاصر — (المراجع) •

العلم والتعليم الديني ، وهم رعاة نظام المعتقدات والقيم والممارسات ، ولا يمكن اعتبارهم طبقة واحدة لأنهم كانوا منتشرين في كل المجتمع يؤدون وظائف مختلفة ، ويتمتعون بدرجات متفاوتة من الاحترام الشعبي. على رأسهم جماعة هي جزء من صفوة المجتمع الحضري هم كبار العلماء . والتي تتكون من القضاة في المحاكم الرئيسية ، والمدرسون في المدارس الكبرى ، ووعاظ المساجد الأساسية ، وخدام الأضرحة ممن عرف عنهم العلم والتقوى ، وأعلن بعضهم انتسابه لنسل النبي صلى الله عليه وسلم من خلال ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب . في ذلك الوقت كان نسل النبي صلى الله عليه وسلم من السادة والأشراف ينظر اليهم باحترام خاص ، وفي بعض المواقع يمارسون القيادة ، ففي مراكش كانت مطالبة الأسرتين اللتين حكمتا بدءا من القرن السادس عشر وما بعده بالحكم ، مبنية على شرعية وضعيتهم كأشراف .

وكان كبار العلماء على اتصال وثيق بالعناصر الأخرى من صفوة المجتمع الحضري ، من التجار ، ومعلمي الحرف المحترمة ؛ وكانت لهم ثقافة مشتركة فقد كان التجار يرسلون أبناءهم للتعلم على أيدي علماء الدين في المدارس يتعلمون اللغة والقرآن والقانون ، ولم يكن مستغربا أن يعمل الرجل كمدرس أو عالم وأيضا بالتجارة . وكان التجار يحتاجون للعلماء كأخصائيين قانونيين لكتابة المستندات الرسمية بلغة دقيقة ولتسوية المنازعات حول الأملاك ، والاشراف على تقسيم تركاتهم وأملاكهم بعد الوفاة . كما كان كبار التجار والمحترمون منهم شهودا عدولا ، كرجال ذوي سمعة طيبة وشهادتهم مقبولة عند القاضي .

وهناك دلائل على التزاوج بين عائلات التجار وكبار الحرفيين والعلماء ، وعن تشابك المصالح الاقتصادية التي عبر عنها هذا التزاوج ، وقد سيطروا بشكل جماعة على معظم الثروة في المدن ، وقد عجلت الطبيعة الشخصية للعلاقات التي اعتمدت عليها التجارة ، من الارتفاع السريع ثم السقوط ، للثروات المستثمرة في التجارة . ولكن عائلات العلماء عاشت لوقت أطول،وقد درب الآباء الأبناء ليخلفوهم في المراكز العليا في الدولة، واستخدموا نفوذهم لصالح أفراد العائلة الأصغر سنا .

كان بامكان أولئك المقتدرين ماليا من التجار أو كبار العلماء ، أن يتناقلوا الثروة من جيل الى جيل ، عن طريق الوقف ، الذي أقرته الشريعة (وقف الحبوس) . والوقف هو تخصيص دخل مستديم عائد من منطقة

أو عقار لأغراض خيرية ، مثل صيانة المساجد ، أو المدارس والمستشفيات والنافورات العامة ، والنزل للمسافرين ، وتحرير المساجين أو العناية بالحيوانات المريضة ، وكان يمكن أيضا استخدامها لصالح عائلة الواقف الذى بامكانه أن ينص على قيام أحد أفراد العائلة بالادارة ، وتخصيص راتب له،أو أن ينص على أن يعطى الفائض من الميراث لسلالته طيلة حياتهم، ثم تخصص لأغراض الخير عند انتهاء السلالة ، وقد يساء تنفيذ تلك البنود ، لذا كانت الأوقاف تحت اشراف القاضى وفى النهاية تحت اشراف الحاكم ، وبهذا توفر الضمان حيال انتقال الثروة كحماية من تقلب حالة التجارة ، أو اسراف الوارثين أو جور الحكام ٠

العبيد

تقاطع التقسيم الرأسى لسكان الحضر على أسس الثروة ، والمكانة الاجتماعية مع أنواع أخرى من التقسيم ، بين العبيد والأحرار ، وبين المسلمين وغير المسلمين ، وبين الرجال والنساء ٠

وكان الخدم يمثلون أحد العناصر المتميزة فى الشريحة الاجتماعية للعاملين ، وكانوا منفصلين لأن الكثير منهم كن من النساء وكانت الخدمة أو العمل فى المنزل تكاد أن تكون هى تقريبا النوع الوحيد من المهن الحضرية للنساء ، كما كان كثير منهن من العبيد (*) ٠ لم يكن لفكرة العبودية نفس المعنى فى المجتمعات الاسلامية الذى كان لها فى بلاد شمال وجنوب أمريكا التى اكتشفتها وعمرتها شعوب من غرب أوروبا منذ القرن السادس عشر وما تلاه ، فالعبودية كانت وضعية يعترف بها القانون الاسلامى ، وطبقا لذلك القانون ، فان المسلم الذى ولد حرا لا يمكن أن يستعبد ، والعبيد هم من غير المسلمين ، ومن الأسرى فى الحروب أو المستجلبين بشكل آخر ، أو الأبناء من أبوين عبدين ، أو المولودين فى العبودية ، وليست لهم كامل الحقوق القانونية كالرجال الأحرار ، ولكن نصت الشريعة على وجوب معاملتهم بالعدل والاحسان واللطف ، وكان من أعمال الشرف ، العمل على تحريرهم ٠ والعلاقة بين السيد والعبد يمكن أن تكون وثيقة ويمكن أن تستمر بعد أن يتحرر العبد ويمكن له أن يتزوج ابنة سيده أو يقوم بادارة أعماله ٠

(*) مصطلح العصر كما لا يخفى هو الجوارى ، وقد اقررنا ترجمة الأستاذ المترجم لأسباب سبق تبيانها فى حاشية سابقة — (المراجع) ٠

وقد ضمت الوضعية القانونية للعبودية مجموعات اجتماعية مختلفة ، ومنذ وقت مبكر في الحقبة العباسية استخدم الخلفاء العبيد من الشعوب التركية لأواسط آسيا في جيوشهم ، واستمرت هذه الممارسة ، وكان العبيد الجنود والرجال المحررون المستجلبون من أواسط آسيا والقوقاز والمغرب والأندلس ومن بلاد السلاف أتباعا للسلالات الحاكمة (*) ، ويمكن أن يكونــوا مؤسسيها ، فالمماليك الذين حكمــوا مصر وســوريا من (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) كانوا مجموعة تنامت ، فيما بينها ، من الجنود الذين استخدموا ودربوا كعبيد وتحولوا الى الاسلام ثم أعتقوا (**) ٠

وقد شكل هؤلاء العبيد المحاربون طائفة متميزة لا يمــكن اعتبارها بنفس وضعية معظم أولئك الذين استعبدوا ، ففي بعض المناطق كان هناك عبيد زراعيون ، هم المستجلبون من شرق أفريقيا ، واكتسبوا أهمية فى جنوب العراق خلال الفترة العباسية ، كما فلح العبيد الأرض فى أعالى وادى نهر النيل والواحات فى الصحارى ، وكان العبيد فى معظم الأحوال خدما منزليين ومحظيات فى المدينة ، وكانوا مستجلبين من أفريقيا السوداء مرورا بالمحيط الهندى والبحر الأحمر أو نزولا فى النيل أو من خلال الطرق الصحراوية٠وكان معظمهم من النساء كما كان هناك أيضا خصيان (***) للحفاظ على خصوصية المنازل ٠

المسلمون وغير المسلمين فى المدن

كانت المدينة مكانا للقاء والفصل ٠ وكان كل سكان المدن خــــارج شبه الجزيرة العربية تقريبا من مجتمعات مسيحية ويهودية تلعب دورا فى الأنشطة العامة فى المدن ، ولكنهم شكلوا قسما محددا فى المجتمع فى تلك المدن ، وقد فصلتهم عن المسلمين عدة عوامل ، فكانوا يؤدون ضريبة الرأس الخاصة (الجزية) للحكومة ٠ وبموجب القانون الاسلامى (****) والعادة ، كان مطلوبا منهم أن يحملوا ما يشير الى اختلافهم ، مثل ارتداء ملابس من

(★) الموالى أو المماليك فيما بعد ، وفى ظل الدولة العثمانية عرفت فئة منهم باسم العلوج (مفرد : علج) ــ (المراجع) ٠

(★★) أى لم يعتقوا من الناحية الرسمية ، لأن سيدهم الصالح نجم الدين آخر سلاطين الأيوبيين (قبل شجرة الدر) لم يعتقهم ــ (المراجع) ٠

(★★★) عرفوا فيما بعد باسم الطواشية ــ (المراجع) ٠

(★★★★) ليس فى الشريعــة الاسلامية (القانون الاسلامى ما يحتم ذلك ــ (المراجع) ٠

نوع خاص ، والامتناع عن استخدام ألوان معينة مرتبطة بالنبى صلى الله عليه وسلم والاسلام (خاصة الأخضر) ، وعدم حمل السلاح أو ركوب الخيل ، والامتناع عن بناء أماكن عبادة جديدة أو اصلاح القديم منها بدون اذن ، أو بنائها بشكل يتفوق على أماكن عبادة المسلمين ولم تكن مثل هذه الضوابط مطبقة دائما بشكل منظم ، ولكن قوانين الزواج والميراث كانت تفرض بدقة ، فلا يمكن لغير المسلم أن يرث المسلم ، ولا يحق للرجل غير المسلم أن يتزوج امرأة مسلمة ، ولكن يحق للرجل المسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ، وكان التحول من الاسلام الى الديانات الأخرى ممنوعا بشكل بات ٠

وقد كان ميل اليهود والمسيحيين لشغل مواقع ذات أهمية خاصة فى أنشطة اقتصادية معينة علامة على الوجود المنفصل لهم ، الا أنهم استبعدوا فعليا من بعضها الآخر ٠ فعلى المستويات العليا شغل اليهود والمسيحيون مواقع ومناصب مهمة فى قصور بعض الحكام أو فى ادارتهم ٠ ففى مصر الفاطمية والأيوبية ، والمملوكية احتل المسئولون الأقباط واليهود مواقع عامة فى الخدمات المالية ، وكان الطب مهنة برز فيها اليهود ، وكان لأطباء القصور اليهود نفوذ كبير ، واذا تحول مسيحى أو يهودى للاسلام يمكن أن يرتقى الى مستوى أعلى ، وأصبح من تحولوا للاسلام رؤساء وزارات وتمتعوا بسلطات فعالة ٠

وقد لعب اليهود فى المدن الاسلامية دورا كبيرا فى التجارة الخارجية مع موانىء البحر المتوسط وأوروبا ، وربطها مع موانىء المحيط الهندى حتى العصر المملوكى ، وكانت الحرف التى ترتبط بالعقاقير والذهب والفضة تكاد تكون بكاملها فى أيدى المسيحيين واليهود الذين يعملون لحسابهم أو لحساب بعض المسلمين ٠

وكانت العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين تشكل جانبا واحدا فقط من مجمل تركيبة العلاقات الاجتماعية المعقدة ، والتى تربط بين أولئك الذين عاشوا جنبا الى جنب فى نفس المدينة ، وقد شاءت الظروف أن يسيطر جزء أو آخر من هذه التركيبة فى زمن أو آخر وفى مكان أو آخر ، ففى القرون الأولى من الحكم الاسلامى يبدو أنه كان هناك تواصل وتفاعل بين أتباع الديانات الثلاث ، وكانت العلاقات بين اليهود والمسلمين فى أسبانيا الأموية وبين المسلمين والمسيحيين النسطوريين فى بغداد العباسية قوية وسلسة ، بمرور الوقت زادت الحواجز ، وتحول المسيحيون وربما

تحول اليهود بنسبة أقل الى الاسلام مما حول الأغلبية الى أقلية متلاشية. ويتحول الاسلام من كونه دين النخبة الحاكمة ، ليصبح العقيدة المسيطرة لسكان المدن والحضر ، وطور الاسلام مؤسساته الاجتماعية التى يمكن من خلالها للمسلم أن يعيش بدون التعامل مع غير المسلمين ·

وقد تخلل القرون الاسلامية الطويلة بعض الفترات من الاضطهاد المتعمد المقصود لغير المسلمين على أيدى الحكام المسلمين · مثل فترة حكم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٩٩٦ – ١٠٢١) فى مصر ، والموحدين فى المغرب ، وفترات حكم بعض الحكام المغول فى ايران والعراق بعد تحولهم الى الاسلام · مثل هذا الاضطهاد لم يكن يقره أو يحرض عليه زعماء الاسلام السنيون ، ولكن العلماء كانوا مهتمين بالعمل على ضمان عدم انتهاك غير المسلمين للقوانين التى نظمت أوضاعهم ، ولكنهم قالوا بضرورة الحماية التى وفرتها الشريعة لهم · وقد كانت الضغوط على اليهود والمسيحيين أساسا من الجموع فى الحضر ، خاصة فى أوقات الحرب أو الصعوبات الاقتصادية عندما يتركز العداء تجاه رجال الحاكم من غير المسلمين ، وفى مثل هذه الأوقات يكون رد فعل الحاكم هو التطبيق الحرفى الصارم للقانون ، أو التخلص من المسئولين غير المسلمين لحين من الوقت فقط وقد وقعت هذه الأزمات عدة مرات خلال الحكم المملوكى لمصر وسوريا ·

وأمكن للتنظيم الاجتماعى للمسيحيين واليهود أن يوفر نوعا من الحماية ويحفظ التضامن فى مواجهة الضغوط الفجائية عند وقوعها ، واحتمال المصاعب المستديمة التى تتعرض لها الأقلية · وكانت المجتمعات المسيحية واليهودية مترابطة بفعل تضامن الجماعة المحلية الملتفة حول الكنيسة أو المعبد ، وأيضا بتأثير من يحتلون السلطات العليا بين اليهود فى فترة الخلفاء العباسيين ، وكان هناك نوع من التميز الشرفى لرؤساء طوائف الأسرى وهى وظيفة تعود لأولئك الذين يدعون الانحدار من نسل الملك داود ، ولكن القيادة الأكثر فاعلية كانت لرؤساء الجماعات أو المدارس الرئيسية من رجال العلم ، اثنتان فى العراق وواحدة فى فلسطين ، وكان هؤلاء الرؤساء هم الذين يعينون القضاة فى المحاكم المختلفة · وعندما انشقت الخلافة فيما بعد ظهرت القيادة المحلية ، من قضاة ، ودارسين ، وزعماء علمانيين ، مثل « ناجد » رئيس اليهود فى مصر وهو منصب قام عليه رجال من سلالة المفكر العظيم (موسى بن ميمون) ·

وقد مارس البطاركة والمطارنة فى المجتمعات المسيحية سلطات ونفوذا مشابها • ففى عهد الخلافة العباسية كان للبطركية النسطورية فى بغداد ، والبطركية القبطية أثناء حكم الأسر اللاحقة فى القاهرة وضع خاص من النفوذ والاحترام • وكان رؤساء الطوائف مسئولين عن ضمان احترام بنود عهد الحماية بين حكام المسلمين والرعايا من غير المسلمين أهل الذمة بالسلام والطاعة وقد لعبوا دورا فى تقييم ضريبة الرأس ، وعادة ما كان يجمعها مسئولون فى الحكومة ، وكانت لهم أيضا وظيفة داخل الطائفة هى الاشراف على المدارس والخدمات الاجتماعية ، ومحاولة منع الانحراف عن المذهب والممارسات الكهنوتية • وأشرفوا أيضا على المحاكم التى يطبق فيها القانون فى الحالات المدنية التى تقوم بين اثنين من الطائفة ، وفى تسوية المنازعات ، واذا رغبوا فبامكان اليهود والمسيحيين رفع قضاياهم للقاضى المسلم ، ويبدو أنهم لجأوا لذلك كثيرا •

المرأة فى المدينة

حسب معلوماتنا فقد لعبت المرأة دورا محدودا فى الحياة الاقتصادية فى المدينة ، كن خادمات فى المنازل وبعضهن كن يعاون أزواجهن فى تجارتهم أو حرفتهم ، وكانت هناك نساء للترفيه ، من مطربات وراقصات، وعموما لم يكن لهن نصيب فى الأنشطة الرئيسية للمدن الكبرى وهى انتاج السلع الثمينة على نطاق واسع من أجل التصدير • أولئك اللاتى كن نشطات بشكل صريح كن بنات العائلات الفقيرة • فعلى قدر غنى ونفوذ واحترام العائلة ، يكون انعزال نسائها فى جزء خاص من المنزل (الحريم) ويضعن الخمار عند خروجهن من البيوت الى الطرقات أو الأماكن العامة ، وأفتى المفتى المصرى ، من المدرسة المالكية ، ابن الحاج (و ١٣٣٦) بأن المرأة لا يجب أن تخرج لشراء حاجياتها من السوق،لأن ذلك قد يؤدى الى انسياقهن الى أفعال غير سليمة اذا ما جلسن الى أصحاب الحوانيت :

« قال بعض القدماء الصالحين (رضى الله عنهم) ان المرأة يجب ألا تغادر منزلها الا فى ثلاث مناسبات : عند ذهابها الى منزل الزوجية ، وفى حالة وفاة أحد أبويها ، وعندما تشيع الى قبرها » (١) •

ولم يكن العيش فى عزلة الحريم انعزالا تاما أو شاملا عن الحياة ، فقد كانت النساء تلتقى فى أجنحة فى البيوت الكبيرة ، وفى زيارتهن لبعضهن البعض ، وفى الحمامات العامة التى كانت تقتصر على النساء

فقط فى أوقات معينة ، وفى احتفالات الزواج أو ميلاد الأطفال ، وكانت لهن ثقافتهن الخاصة بهن ، وكان لبعضهن دور فعال فى ادارة أملاكهن من خلال وسطاء ، وسجلت حالات عن نساء مثلن أمام القاضى للمطالبة بحقوقهن ، وكما كان الأمر فى الريف : عندما تكبر المرأة ، واذا كان لها أبناء ذكور يكون لها نفوذ قوى فى العائلة ٠

وكان النظام الاجتماعى مبنيا على تفوق الرجل ونفوذه ، وكان الحجاب والحريم علامات واضحة على ذلك ، وتأكدت النظرة الى العلاقة ، ذات الجذور العميقة فى تراث الشرق الأوسط ، بين الرجل والمرأة والتى كانت موجودة منذ وقت طويل قبل مجيء الاسلام ، وظلت سائدة فى الريف بعادات بعيدة الغور فى التاريخ ، ولكنها تغيرت فى المدينة مع تطور الشريعة ٠

وقد أكد القرآن بنصوص محددة واضحة القيمة الأساسية للرجل والمرأة ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة (٢) كذلك دعا الى العدل والاحسان فى التعامل بين المسلمين ، ويبدو أن تعاليمه فيما يتعلق بالزواج والميراث أعطت المرأة وضعية أفضل مما كان لها فى الجزيرة العربية قبل الاسلام (وليس بالضرورة فى البلاد التى فتحها الاسلام) ، وقد أعطى النظام القانونى ، والأخلاقيات الاجتماعية المثالية الشرعية شكلا رسميا لحقوق المرأة ، ولكنها أيضا وضعت لها حدودا ٠

فيجب وفقا للشريعة أن يكون لكل امرأة ولى أمر من الرجال ، الأب أو الأخ أو أى فرد من العائلة ٠ وكان زواج المرأة عقدا مدنيا بين الزوج وولى أمر العروس ، وكان من حق الأب كولى أمر أن يزوج ابنته بدون رغبتها أوموافقتها اذا لم تكن قد وصلت الى سن الرشد ، وعند بلوغها هذه السن كانت موافقتها ضرورية ، ولكن اذا لم يكن قد سبق لها الزواج يعتبر السكوت علامة على القبول ، وينص عقد الزواج على الصداق الذى يؤديه العريس الى العروس ويكون ملكا لها ، ويظل ما كان لها قبلا من تركه ملكية خاصة لها ، وعلى الزوجة اطاعة زوجها ، وفى المقابل فلها الحق فى الملبس المناسب والاقامة والاعاشة والمعاشرة الجنسية مع زوجها ٠ ورغم أن علماء الدين أقروا بأن منع الحمل مسموح به فى بعض الحالات ، فليس للرجل ممارسته الا بموافقة زوجته (*) ٠

(★) وهو ما كان يعرف بالعزل (بفتح العين وتسكين الزاى) وهو لا يخرج فى نتيجته عن منع الحمل ـ (المراجع) ٠

وهنـــاك نواح عـــديدة تكون فيها العـــلاقة بين الزوج وامرأته علاقة غير متوازنة . فبينما لا يحق للمرأة أن تطلق من زوجها الا لأسباب قوية (العته والجنـــون وانكار حقوقها) وليس قبل اللجـــوء للقاضى ، أو بالتراضى بين الطرفين ، الا أنه يحق للزوج طلاق زوجته بدون ابداء أى أسباب وبلفظ كلمـــات بسيطة بحضـــور شهود الطلاق (فى الشيعة قواعد الطلاق أكثر صرامة ولكنها تعطى حق الزواج المؤقت أو المتعة لفترة محدودة) وقد توفر عقود الزواج ضمانات حيال ذلك اذا ما نصت على قيام الزوج بدفع المؤخر من الصداق عند طلاق الزوجة ، ويمكن للزوجة أن تعتمد على العون والحماية التى يوفرها لها الرجال ممن لهم قرابة بها ، واذا طلقت يمكن أن تعود هى وممتلكاتها الى منزل أهلها ، ويمكن أن تكون لها حضانة الأطفال من هذه الزيجة وواجب تربيتهم حتى يبلغوا سنا معينة تختلف باختلاف القوانين ، وبعدها تئول حضانتهم للوالد أو أسرته .

وقد سمحت الشريعة المبنية على القرآن والتأسى بالرسول ، للرجل أن يتخذ أكثر من زوجـــة حتى أربع ، اذا كان بامكانه أن يعاملهن كلهـــن بالعدل والتساوى ولا يهمل واجباته الحميمة مع أى منهن ، ويمكن له أيضا أن يتخذ خليلات بأى عدد من بين عبيده (*) ، وبدون أن يكون لهن أى حقوق عليه ، ويمكن أن ينص عقد الزواج على عدم أحقية الزوج فى اتخاذ زوجات أخر أو خليلات .

وكان عدم المساواة ظاهرا أيضا فى قوانين الميراث ، وهى أيضـــا مشتقة من الشريعة وعن نص القرآن . فبامكان الرجل أن يهب حسب رغبته بما لا يزيد عن ثلث ما يمتلك لأشخاص ، أو أغراض لا تتأتى من خـــلال الميراث ، وما يتبقى يتم تقسيمه طبقـــا لقواعد صارمة ، تحصـــل الزوجة على الثلث(**) اذا كان لديه أبناء وبنات،وتحصل الابنة على النصف فقط من نصيب الابن ، واذا لم يكن له سوى بنات فيحصلن على نسبة معينـــة من أملاكه ، والبـــاقى لأقربائه من الذكور (وفقا لقانون السنة ، أما عند الشيعة فترث البنات كل شىء اذا لم يكن هناك أبناء) ، والنص

(*) وهو ما يعبر عنه « بملك اليمين » أو ما ملكت ايمانكم ، ومن المفهوم انها اذا انجبت كان لها حق نسبة ابنها الى أبيه ، وعادة ما تكون لها وضعية خاصة بعد الانجاب كما اتخذت ضوابط لضبط الأنساب اذ تسرى عليها مدة العدة وغير ذلك مما يسرى على الزوجات الحرائر ــ (المراجع) .

(**) اذا كان للزوج أولاد وبنات ، فنصيبها كمـــا هو معـــروف ثمن التركة ــ (المراجع) .

على أن نصيب الاناث نصف ما يرثه الذكور هو صدى لنص آخـــر فى الشريعة ، ففى القضايا القانونيـــة يكون لشـهادة المرأة نصف وزن أو قيمة شهادة الرجل ٠

شكل المدينـة

كانت المدينة مكانا يعمل فيه التجار والحرفيون ، وفيها تلقى العلماء العلم وعلموه ، وعقد الحكام والولاة اجتماعاتهم فى حراســـة جنودهم ، وطبق القضـــاة القانون ، واليها جاء القرويون وســكان الصحراء لبيع منتجاتهم وشراء احتياجاتهم ، وجاءها التجار من بعيد للبيع والشراء ، والطالب للدرس على أيدى مشاهير العلماء ، وكانت بنية المدينة تسمح باستيعاب كل احتياجاتهم ٠

وكان فى قلب كل مدينة كبـــيرة ، (وليس بالضرورة مركزها الجغرافى) نوعان من المجتمعـات المعمـارية ، أحدهما يشمل المسجد الجامع الرئيسى ، والذى كان مكانا للالتقاء والدراسة وللصلاة ، وفيه يعبر الوعى الجماعى للسكان المسلمين عن نفســـه فى أوقات الأزمات ٠ بجواره يكون مقر أو بيت قاضى القضاة ، ومدارس التعليم العالى ، والمحال التى تبيع الكتب أو الشموع ولوازم الشعائر الدينية ، وقد يوجد أيضا ضريح لولى ارتطبت حياته بشكل خاص بحياة المدينة ٠ والمجمع المعمارى الآخر يشمل السوق المركزى ، وهو الموقع الرئيسى للتبادل التجارى ، وفيه أو بقربه تقع محال بيع المنسوجات والمجوهرات والتوابل والسلع الأخرى الثمينة ، ووكالات البضائع المستوردة ، ومحال الصرافة لاستبدال العملة التى كانت تقوم بأعمال البنوك من ناحية تمويل التجارة الخارجية ٠ هـــذه المحـــال والمخـــازن والمكاتب يمكن أن تكون فى خط واحـــد أو بشكل رباعى فى الشوارع المتوازية أو المتقاطعة ، أو فى كتلة متقاربة من المبانى والمرتبطة ببعضها البعض بحيث لا تخترقها الطرق ٠ وهنـــاك تجمع ثالث قرب مراكز المدن الحديثة ولم يكن متميزا ، فقوة الحكومة كانت واضحة فى مجال المراقبة والحراس والمشرفين على الأسواق (*) ولكنهـــا لم تعبر عن نفسها فى المبانى الكبيرة أو الفاخرة (**) ٠

(*) أو المحتسبين ، وهو الاسم الذى كان يحمله أولئك الذين يعملون فى خدمة نظام الحسبة : (بكسر الحاء وتسكين السين) - (المراجع) ٠

(**) بمعنى أن المحتسب قد لا يجرؤ على محاسبة الاثرياء وسـكان القصور - (المراجع) ٠

وكانت منطقة السوق موقعــا للمبادلات التى كان معظمها يجرى فى الأماكن التى تودع فيها السلع الثمينة لامكان حفظها وحراســتها خلال الليل ، وتقع الورش ومحال المنسوجات والأشغال المعدنية على مقربة منها ، وكذلك أيضا مساكن العاملين بها • وكان التجار الأغنياء وطلاب العـــلم يعيشون على مقربة منها ، ولكن معظم السكان عاشوا خارج هذه المراكز فى أحياء سكنية ، كل منها عبارة عن مجموعة من الطرق الصغيرة والأزقة التى تصب في شوارع رئيسية ، وفى بعض الفترات كانت لهذه الأحياء بوابات تغلق وتحرس خلال الليل ، ويمكن أن يكون للحى الذى يضـم بضع مئات أو بضعة آلاف من السكان مسجد أو كنيسة ، ومعبد يهودى ، والسوق المحلية الثانوية (السويقة) التى توفر الاحتياجات اليومية ، وربما احتوى أيضا الحمام العام وهو موقع التقاء مهم ، وقد تسكن فيه بعض العائلات القوية النافذة حيث يمكنهم فرض سطوتهم وممارسة الزعامة ، ولكن البعض الآخر يمكن أن تكون لهم فى ضواحى المدينـــة مساكن أكثر اتساعا ومحاطة بالحدائق ، والحى مملوك لسكانه وكان بمعنى من المعانى امتدادا للمساكن • اذ يحمى خصوصيته شباب الحى الذين ينتظمون فى مجموعات (الزعران والعيارين والفتوات) ممن لهم وجود دائم ومثاليات خلقية معينة ، مثـل هذه المجموعات يمـكن أن يكون لها دائرة أوسع من العمل فى أوقات الاضطرابات فى المدينة •

وبعيدا عن المركز قرب الأسوار أو ما بعدها تتكون هنـــاك أحيـاء فقيرة حيث يعيش المهاجرون من الريف • تجهز فيهـــا القوافل وتنظـم وترسل ، وتستقبل حيوانات نقل الأحمال وتبـــاع وتشترى ، وســكان الريف يجلبون الفاكهة والخضروات والماشية لعرضها للبيع ، وهنا أيضا توجد الورش حيث تجرى الأعمال ذات الضوضاء أو الروائح الكريهـــة ، كالجزارة والدباغة ، وفيما وراء هذه الأحياء وخارج أسوار المدينة تقع المقابر التى كانت أماكن التقاء وليس فقط فى أوقات الجنازات •

كان ســكان كل حى يميلون الى الارتبـــاط بمنشــأ مشــترك دينى أو عــرقى أو اقليمى أو عائلى بالقرابة أو النسب ، ومثـل هذه الروابط أوجدت نوعــا من التضــامن القوى • فمال اليهود والمسيحيون للعيش فى أحياء معينة دون غيرها لأسباب القرابة أو المنشأ أو الرغبتهم فى البقاء الى جوار أماكن عبادتهم ، أو بسبب اختــلاف عاداتهم فيما يتعلق بعزل النساء مما جعل الاختلاط مع العائلات المسلمة صعبا • وقد عاش اليهود من الأصول البربرية أو الشرقية فى المغرب بشكل منفصل عن اليهود الذين

جاءوا من الأندلس ٠ ولم تكن الأحياء التى عاشوا فيها مسيحية أو يهودية بالكامل ، ولم يكن هناك « جيتو » فى معظم الأماكن ، وبنهاية القرن الخامس عشر أصبحت مراكش استثناء ففى فاس والمدن الأخرى ظهرت أحياء يهودية منفصلة بناها الحكام لحماية اليهود من الاضطرابات الشعبية ٠

وكانت هناك اختلافات كثيرة عن هذا النسق العام تبعا لطبيعة الأرض والتراث التاريخى وتصرفات الأسر الحاكمة ٠ فمدينة حلب على سبيل المثال كانت مدينة قديمة نامية قبل مجىء الاسلام ٠ وظل قلب المدينة فى نفس موقعه خلال العهد الهيلينستى والبيزنطى لكن الشوارع الرئيسية أصبحت أكثر ضيقا عما كانت عليه ، لأن النقل بالجمال والحمير حل محل المركبات ذات العجلات ، بحيث يكون الاتساع كافيا لحيوانين محملين للمرور فى اتجاهين متقابلين ، وما زال النسق المربع للشوارع الرئيسية يظهر فى متاهة الحوارى المغطاة بالأقبية فى السوق ، والمسجد الكبير (*) يقع فى نقطة يتسع فيها الطريق الرئيسى المعمد (ذو الأعمدة) فى المدينة ذات الطابع الهيلينسى ليفضى الى ميدان أو ساحة forum أو مكان اجتماع الناس (**) ٠

أما القاهرة من ناحية أخرى ، فكانت ابتكارا جديدا فى القرون الأولى للحكم الاسلامى فى مصر ، وقد انتقل مركز القوة والحكم الى الداخل من الاسكندرية الى نقطة تفرع النيل الى الدلتا ، وبنيت سلسلة من المراكز الحضرية الى شمال الموقع الحصين للبيزنطيين المعروف باسم بابيلون : الفسطاط ، والقطائع وفى النهاية القاهرة التى بنى مركزها الفاطميون والتى ظلت ثابتة بالفعل حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وفى قلبها يقع الجامع الأزهر الذى بناه الفاطميون لتعليم الاسلام على المذهب الاسماعيلى ، وظل باقيا كأحد أعظم مراكز تعليم المذاهب السنية ، والمسجد الجامع الرئيسى للمدينة ، والى القرب منه كان ضريح الحسين ابن الخليفة الرابع على وزوجته فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم وكان الاعتقاد الشعبى أن رأس الحسين قد نقلت الى ضريحه بعد مقتله فى كربلاء ،

(*) وهو المعروف بالمسجد الجامع اى الذى تعقد فيه صلاة الجمعة ، فكل جامع مسجد ، وليس كل مسجد جامعا ــ (المراجع) ٠

(**) الفوريم Forum هو الميدان او الساحة ، وقد شاع هذا المصطلح فى الحقبة الرومانية على نحو خاص ٠ انظر معجم الفنون تاليف عفيفى البهنسى (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) ــ (المراجع) ٠

وعلى مقربة من ذلك يقع الشارع الرئيسى الذى يمتد من البوابة الشمالية للمدينة (باب الفتوح) الى الجنوبية (باب زويلة) ، وتقع على الجانبين في الطرق المتفرعة منه ، المساجد والمدارس والمجال والمخازن وتجار الأقمشة والتوابل والذهب والفضة •

كما أنشئت فاس بشكل مختلف ـ حيث قامت بادماج مستوطنتين تقعان على جانب نهر صغير ، وقد تجدد مركز المدينة فى النهاية فى نقطة في واحدة من البلدتين حيث يقع ضريح المؤسس المفترض للمدينـــة « مولاى ادريس » ، وكان يقع بقربه المجمع التعليمى الكبير مسجد القيروان ومدارسه ، وشبكة من الأسواق تحميها البوابات ليلا حيث تخزن وتباع التوابل وأشغال الذهب والفضة والمنسوجات المستوردة والنعال الجلدية وهى أحد المنتجات التقليدية للمدينة •

وكان المسجد الجامع والسوق المركزى مراكز اشـــعاع ثقـــافى واقتصادى ، ولكن الحاكم كان يمارس سلطته من موقع آخر ، ففى العصور الاسلامية الأولى يمكن أن تكون قصور الحاكم وولاته المحليين فى قلب المدينة، ولكن فيما بعد كان هناك انفصال على نحو ما ، وأصبح شائعا بين المدينة ـ مركز الأنشطة الحضرية الأساسية ـ والقصر الملكى ، ولهذا انتقـــل العباسيون لفترة من مدينـــة بغـــداد التى بنوها الى ســامراء الى شمال دجلة ، وحذا حذوهم الحكام اللاحقون • وفى القاهرة كان بلاط الأيوبيين والمماليك فى القلعة التى بناها صلاح الدين على تلال المقطم التى تطل على المدينة • والأمويون فى أسبانيا ، بنوا قصورهم فى مدينة الزهراء خارج قرطبة وأنشأ الحكام المراكشيون مدينة ملكيـــة هى فاس الجديدة على مشارف المدينة القديمة • وليس من السهل فهم أسباب ذلك الانفصال • فلم يكن بسبب القوة أو العظمة أو رغبـــة الحاكم فى أن يـكون معزولا عن ضغوط الرأى العام ، وانما للحفاظ على جنوده بعيدا عن الانخراط فى مصالح المدينة التى يمكن أن تضعف من ولائهم لمصالحه وحدها •

وداخل المدينة الملكية أو المجمع يقع القصر نفسه بخزانته الملكية ، ويكون المسئولون والكتبة فى الساحات الخارجية للقصر ينظرون القضايا والمصالح العامة ويستقبلون السفراء • ويجرى استعراض القوات الملكية ، وينظر المجلس فى القضايا ويستمع للالتماسات ممن لهم مصالح والذين يمكن السماح لهم بالدخول الى هذا الجزء من القصر ، وقد يحضر الحاكم بنفسه فى بعض الأوقات لأغراض محددة ، أما القاعات الداخلية فهى للحاكم

نفسه وعائلته ونسائه يحرسهن الخصيان وعبيد القصر الذين يشكلون نوعا من الامتداد لشخصيته ، وتفاوتت درجات الانعزالية من أسرة الى أخرى ، فقد عاش الحفصيون مع عامة الشعب مع القليل من الانعزالية ، بعكس المماليك .

وفي المدينة الملكية ثكنات للحرس الملكي ، وقصور وبيوت كبار المسئولين ، والأسواق المتخصصة التي تنتج السلع لاحتياجات القصر والجيش والترسانة ، وأسواق الخيل والسلاح والورش حيث تصنع المنسوجات الراقية لاستعمال القصر ، والعاملون في مثل هذه الحرف يمكن أن يعيشوا الى جوار الحي الذي يعيش فيه تجار الذهب والفضة وصناعها من اليهود ، وكان واقعا داخل القصر الملكي في فاس .

البيوت في المدينة

بحلول القرن الخامس عشر كانت أسواق المدن تضم أبنية كبيرة مبنية حول أحواش مكشوفة ، يتكون الطابق الأرضي من المخازن ، وفوقها نزل أو خان للتجار الزائرين ، مثل هذه المباني بأشكالها المختلفة كانت تعرف باسم الخان في سوريا والعراق ، والوكالة في مصر ، والفندق في المغرب ، وهناك نوع آخر من المباني في المغرب على الأقل ، يعرف بالقيصرية حيث تخزن السلع الثمينة ، ومعظم هذه المباني بناها حكام أو رجال عظام من المدينة نفسها وحولوها الى أوقاف بحيث يستخدم العائد لأغراض دينية أو خيرية .

وكانت المباني السكنية في المدينة على ثلاثة مستويات : في بعض المدن كان اسكان الفقراء ، ويتكون في معظمه من ساحات مفتوحة بها أكواخ وفي المراكز المزدحمة للقاهرة ، كان القراء وكذلك الحرفيون وتجار التجزئة الذين يحتاجون للقرب من أماكن أعمالهم ، يعيشون في مبان ذات شقق، وكان البيت النمطي مبني حول ساحة بحيث تكون الورش في الطابق الأرضي،وثمة درج يؤدي الى طابقين علويين أو ثلاثة يتكون كل منها من شقق منفصلة من عدة غرف.وكان للعائلات التي تعيش في ظروف أفضل أو في مناطق أقل ازدحاما ، أنواع أخرى من المنازل تطورت تدريجيا ، ففي جنوب غرب الجزيرة العربية كانت ذات طابع متميز ، مبنية بناء جيدا من الأحجار ، ومصممة بشكل متكرر وترتفع لعدة طوابق ، وكانت الحيوانات تعيش في الطابق الأرضي ، والحبوب والأعلاف فوقها ، ويعلوها طابقان

أو ثلاثة من غرف المعيشة ، وتقع غرفة الاستقبال الرئيسية فى الطابق الأعلى حيث انه الأفضل من حيث الهواء والمنظر ، وفى أماكن أخرى تطور الشكل النمطى لمنزل العائلة الكبيرة مـع تغيرات كثيرة ارتبطت بالمكان والزمان ومن توليفـة من الطرز اليـونانية الرومانية للبحـر المتوسط مع بعض التقاليد من ايران أو العراق ٠

وقد يكون مدخل البيت على هيئة ممر خارج من الشارع الرئيسى ، ولا يدل على غنى صاحب البيت سوى حجم البوابة حتى لا يثير حسد الحكام أو فضول المارين ، وكانت المنازل مبنية لترى من الداخـل وليس مـن الخارج٠وكان الباب ـ وهو السمة الخارجية الرئيسية ـ يصنع من الحديد أو الخشب فى اطار من الأحجار المنحـوتة ، وقد تعلوه نافذة يرى منها المقتربون أو القادمون ، ومن داخل الباب رواق ينحنى فى زاوية بحيث لا يرى من الشـارع ، ويؤدى الى سـاحة رئيسية تفتح عليها مجموعة من الغرف وتشمل غرفة الاستقبال الرئيسـية (المجلس أو القـاعة) ، وفى المناطق المزدحمة قد تستبدل الساحة بغرفة مركزية مغطاة هى غرفة الاستقبال ، وغالبا ما تقع على جانب من الساحة فى مواجهـة المدخـل ، ويمكن أن يجعل لها مدخل خاص (ايوان) وهو قبـو دائرى ضخم انتشر غـربا من ايران ، وفى بعض المنـاطق كالقاهرة المملوكية كانت للغرفة الرئيسـية غرفة ملحقة فى مقـابلها ، ثم تطـورت الغرفة الى نوع من الساحة المغطاة مع مساحة منخفضة ونافورة فى الوسـط ، ومساحات للجلوس على الجانبين ، وكانت غرف النساء وأطفالهن وخدمهن منفصلة عن منطقة الاستقبال بملحقاتها من الغرف والمكتبات ، انفصالا نسبيا حسب رغبة صاحب المنزل ، وفى المنازل الواسـعة كان الفصـل بين مناطق الاستقبال ومناطق السكن يحتم وجـود سـاحتين ، فى المنازل الأصغر باختلاف وظائف الطابق الأرضى عن الطابق العلوى ، وفى المنـازل الكبيرة يمكن أن يكون لها حمام ٠

وكان البناء بالأحجار مكلفا فى معظم المناطق ، وكانت المساكن تبنى من الطوب الأحمر ، أو الطوب اللبن ، وكانت الأبواب والمداخل الرئيسية ذات اطار حجرى ٠ وأسقف الغرف الرئيسـية على الطابق الأرضى كانت عادة أقبية من الطوب ٠ وكانت أسقف الأدوار العليا عادة من الخشب لمنع الرطوبة وتخفيف وزن المبنى ، وكانت الأسقف تحتوى على فتحات لضبط التهوية ، كمـا كانت الحوائط والأبـواب والأسقف مزينـة ٠ وكان الخشب مدهونا بالوان مختلفـة (قد غلب اللون الأخضر على زخـارف

المغرب فى حين غلب اللون الأزرق فى تونس) كانت الحوائط مدهونة وموشاة بتصميمات وأشكال نباتية ، والأحجار منحوتة بالخطوط أو الزخارف النباتية والنوافذ لها شبابيك من الخشب المخروط (المشربيات) التى كانت معروفة فى مصر فى العصر الفاطمى وأصبحت شائعة فى العصر المملوكى ٠

وكان بالمنازل القليل من الأثاث الدائم فيما عدا أصونة الملابس ودواليب التخزين ، وقد استنتج أحد مؤرخى القاهرة أن الدور الذى لعبه الأثاث الخشبى فى البيوت الأوروبية حلت محله هنا المنسوجات والأقمشة، فكان بغرف الاستقبال أرائك عليها وسائد ، وحلت المراتب المحشوة والمخدات الموضوعة على الأرض أو على قواعد من الخشب أو الحجر محل الأسرة ، وكانت الحوائط مغطاة بالمعلقات والأرضيات والأسرة بالسجاجيد ، وفى الليل توقد المصابيح الزيتية النحاسية للاضاءة وفى الطقس البارد يحضر المنقد النحاسى لاحراق الفحم أو البخور ٠ وكان الطعام يقدم على خوان مستديرة كبيرة من الفضة أو النحاس ، ترتكز على قواعد خشبية ، وكانت الأوعية والأكواب من الفخار أو الخزف ، وعند الأغنياء من الصينى ، وكانت أوانى الطعام من النحاس ، والزجاج أو الفخار للشرب ، وكانت قطع الخبز الرقيق تستخدم لتناول الغموس من الطبق الرئيسى ، ولكن الملاعق والسكاكين كانت مستخدمة لدى الأغنياء ٠

وكان للخبز أهمية أساسية فى حياة الفقراء ، فكانت الحكومات تعلق أهمية كبرى على ضمان تموين الحبوب للمدن ، وقد اندلعت الاضطرابات الشعبية عندما شحت الواردات من الحبوب ، وكان الخبز يصنع فى معظم المناطق من القمح ويطرى بزيت الزيتون ، ويؤكل بالخضروات كالبصل والثوم وثمار مثل الباذنجان الذى استجلب الى عالم البحر المتوسط مع التوسع الاسلامى ، ومعظم الناس كانوا نادرا ما يأكلون اللحم الا فى الاحتفالات والأعياد والمناسبات الكبرى ٠ أما نظام تغذية الموسرين فكان أكثر تنوعا ، ويحتوى على عدد أكبر من الخضروات والفاكهة (حسب امكانات الزراعة أو الاستيراد للأعناب والموالح والبرتقال والمشمش والبرقوق فى بلدان البحر المتوسط ، والبلح والتمور فى العراق على حدود الصحراء والواحات) كما كان يحتوى على اللحوم الضأن أكثر من البقرى ، والدواجن والسمك فى المناطق قرب البحر والأنهار والبحيرات ، وكان اللحم يطهى فى زيت الزيتون أو السمسم مع اضافة البهارات،ورغم

أن القرآن حرم شرب الخمر الا أن النبيذ والمشروبات القوية الأخرى التى كان يصنعها المواطنون المسيحيون أو المستوردة من غـــرب أوروبا كانت تستخدم بكثرة ٠

سلسلة المدن

كانت الثروة تنتقل من جيل الى جيل ومعها تراث ثقـافى ونظـام للتعليم ، ومنظومة للقيم وأنماط للسلوك ، ونماذج نمطية للشخصية ، طالما استمر النظام الحضرى والسيطرة على الريف ، والتى كان يحميها تحـالف الحكام والصفوة الحضرية ومن المعتقد أن (قواعـد) التصرف المقبول التى كانت موجـودة فى فاس فى بدايات القـــرن العشرين كانت مشابهة تقريبـــا لتلك التى وصفها ليـو أفريكانوس (*) فى القـــرن السادس عشر (٣) ٠

وكانت شرائع التصرف والفكر السليم والتعليم والمهارات العالية قد ربطت الأجيال كما ربطت المدن ببعضها البعض ٠ اخترقت شبكة من الطرق العالم الاسلامى وما وراءه ومرت عبرها ليس فقط القوافل من الابل والحمير تحمل الحرير والتوابل والزجاج والمعادن الثمينة ، ولكن الأفكار والأنبـــاء والموضوعات وأنساق التصرف والفكر أيضا ، وعنـد تقابل التجار وقادة القوافل فى الأسواق كانوا يتبادلون الأخبـــار ويتفهمون معانيها ، واستقر التجار من بعض المدن فى مدن أخرى ، واحتفظوا بعلاقات وثيقة ودائمة بينهم ، ومن وقت لآخر وقعت حركات أكثر عنفا وحيوية على هذه الطرق ، كجيش حاكم آخـر أو تمرد على القوة المسيطرة وكلهـا أيضـا يمكن أن تحمل معها أفكارا جـديدة حول كيفية العيش فى المجتمع وعناصر عرقية جديدة تضاف للناس والسكان ٠

ومنذ بداية التاريخ الاسلامى أيضا تحرك الرجال بحثا عن المعرفة لنشر تراث السنة عما فعله النبى أو قاله من أولئك الذين تلقوه عن طريق صحابته ورفاقه ، وبمرور الوقت توسعت أغراض السفر لتشمل السعى لاكتساب علوم الدين عن أستاذ مشهور ، أو تلقى التدريب الروحى على أيدى أستاذ معلم للحياة الدينية ، وقد جاء الباحثون عن المعرفة أو الحكمة

(*) هو الرحالة الحسن بن الوزان ، وسبق أن ذكرنا الماما عنه فى حاشية سابقة — (المراجع) ٠

من القرى أو المدن الصغيرة الى المدن الكبيرة ، من جنوب مراكش الى جامع القرويين فى فاس ، ومن شرق الجزائر وتونس الى الزيتونة فى تونس ، وقد اجتذب الأزهر فى القاهرة طلابا من مجال أوسع كما تدل أسماء منازل الطلبة : أروقة المغاربة وسوريا والحبشة ، كما اجتذبت المدارس الشيعية فى المدن الشيعية المقدسة فى العراق مثـــل النجف وكربلاء وســـامراء والكاظمية على أطراف بغداد ، طلابا من مجتمعات شيعية أخرى من سوريا وشرق الجزيرة العربية •

وتصور حياة الرحالة الشهير ابن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧) الروابط بين المدن والأراضى الاسلامية • كان قيامه بالحج فى سن الحادية والعشرين مجرد البداية لحياة من الترحال حملته من موطنه طنجة فى مراكش الى مكة مرورا بسوريا ، وبعدها بغداد وجنوب غرب ايران، ثم الى اليمن وشرق أفريقيا ، وعمان والخليج وآسيا الصغرى والقوقاز وجنوب روسيا الى الهند وجزر المالديف والصين وبعدها العودة الى موطنه فى المغرب ومنهـــا الى الأندلس والصحارى ، وأينما ذهب زار أضرحـــة الأوليـــاء ، واختلط بالدراويش وطلاب العلم ، الذين ربطته بهم الثقافة المشتركة التى عبرت عنها اللغة العربية ، وقد لقى استقبالا حسنا فى قصور الأمراء واختير عند البعض منهم فى منصب القاضى ، وهذا الشرف الذى اكتسبه بعيدا عن بلاده فى دلهى وجزر المالديف أظهـــر المكانة التى يتمتع بهـــا شراح التعاليم الدينية باللغة العربية (٤) •

الفصـــل الثـــامن

المـدن وحكامهـا

تكون الأسرات الحـاكمة

تطلب الحفاظ على القانون والنظام فى المدن قوة تفرضه ، أى حاكما له وضع مختلف عن شيخ القبيلة الذى يستمد سلطته المزعزعة من العادة والتراضى .

وغالبا ما كانت الأسر الحاكمة تستمد قوتها من الريف،وكان لبعضها جـذور فيه ، وأمكنهم السيطرة على المدن بفرض أنفسهم ، واستمدوا قوة جديدة من محصلة مجموعة المصالح المشتركة مع السكان فى الحضر ، برغم ما قد يبدو فى ذلك من مفارقة فى التاريخ الاسلامى ، (وقد يكون الأمر كذلك فى تواريخ أمم أخرى) .

وقد احتاجت الأسر الحاكمة ، فى اسـتمرار بقائهـا ، الى أن تضرب فى المدينة ، سواء بالثروة المستمدة من التجارة والصناعة ، أو من الشرعية التى يمكن للعلمـاء فقط اضفاؤها على حـكمهم ، وكان تكون الأسرات الحاكمة متوقفا على فتح المدن ، فالفاتح قد يستولى على سلسلة من المدن على طريق تجارى ، كما أن نشأة المدن ونموها تعتمد بدورها على قوة الأسرة الحاكمة ، وقد قامت بعض المدن الكبرى فى العالم الاسلامى بالفعل على يد أسر حاكمة : فبنى العباسيون « بغداد » ، وبنى الأدارسة « فاس » وبنى الأمويون « قرطبة » وبنى الفاطميون « القـاهرة » ، وقد يستطيع الحاكم القوى أن يحول طرق التجارة الى عاصمته ، وقد تنهار مدينة اذا هجرها الحاكم أو عجز عن الدفاع عنها ، مثلما انهارت « القيروان » عندما هجرها الزيريون الصنهاجيون Zirids (*) .

(*) بعد انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر ، ترك المعز لدين الله الفاطمى الأمر فى المغرب كله للصنهاجيين الموالين له ، فعهد الى بلكين بن زير ، الصنهاجى بالامارة على المغرب باستثناء طرابلس ، وبعد سنة ٣٧٣ هـ لم تلبث الدولة الزيرية أن انقسمت الى امارتين : (أ) شرقية عاصمتها القيروان . (ب) وغربية عاصمتها قلعة بنى حماد فى =

وقد كان الهدف الأساسى للاسرة الحاكمة ، هو البقاء فى الحكم ، ولذلك عاش الحاكم فى مكان منعزل ، محاطا بحاشية تتكون غالبيتها من العسكر من ذوى الأصول الأجنبية ، وتتكون عائلته (حريمه) ومماليكه الخاصة من الأفارقة السود أو من المسيحيين الذين أسلموا فى الغرب ، ومن الأتراك والأكراد والشراكسة فى الشرق ، وغالبا ما يكون كبار رجال الدولة هم المنحدرين من تلك المجموعات من المماليك ، وكان جيش المحترفين الذين يحلون محل أولئك الذين توصلت الأسرة عن طريقهم للحكم ، يأتى أيضا من خارج المدينة ، فالجيش السلجوقى كان من الأتراك أساسا ، وكان الجيش الأيوبى مختلطا : ففى سوريا كانت قيادته من الأرستقراطيين ذوى الأصول المختلفة من الأتراك والأكراد واليونانيين الذين اعتنقوا الاسلام ، كما كان فى مصر مكونا من المماليك الذين اقتناهم الحكام أو آلوا اليهم من أسلافهم وتلقوا تدريبهم فى مدارس القصر ، وكان لكل من كبار قادة الجيش رجاله الذين تدربوا فى قصره ، ويجرى عليهم الرواتب، وكان التضامن بين الأفراد الذين تدربوا فى نفس البيت مستمرا مدى الحياة ، ولم يكن الجنود المماليك مجموعات وراثية ، فلم يكن أبناؤهم قادرين على الانضمام الى القوة العسكرية المركزية ، ولكن كانت هناك قوة أخرى مكونة من المسلمين الذين ولدوا أحرارا ، وكان يمكن أن ينضم اليها أبناء المماليك ، ويترقون فى المناصب ، وكان الجيش الفعلى للحفصيين مكونا من قبائل الريف ، ولكن عندما استقر بهم الحكم ، اعتمدوا بشكل أوسع على الجنود المرتزقة من عرب الأندلس والأوروبيين الذين أسلموا والترك .

وكانت الأسرة الحاكمة التى تريد ترسيخ حكمها ، تلجأ الى محاولة تعيين حكام اقليميين من أعضاء الأسرة ، ولكن نجاح هذه السياسة كان متفاوتا حيث تضافرت طبيعة الريف وتقاليد الأسر الحاكمة فى زيادة العقبات ، فقد حكم السلاجقة مملكة مترامية الأطراف من المناطق الخصيبة ، والتى يفصلها عن بعضها البعض جبال وصحارى ، وورثت تقاليد تحتم اسناد السلطة الى عائلة وليس لفرد منها بعينه . وقد كانت امبراطوريتهم لذلك السبب أقرب الى أن تكون دولة غير مركزية من أن تكون مجموعة

= الجزائر ، وعندما خلع الزيريون ولاءهم للخليفة الفاطمى ومالوا للخليفة العباسى اطلق عليهم الفاطميون والقبائل العربية الموالية لهم (بنو سليم وبنو هلال) فاجتاحوا المغرب واسقطوا القيروان .

راجع على سبيل المثال :

عبد الرحمن محمد الجيلانى : تاريخ الجزائر العام ، ١٩٥٤ . ج ١ . ص ٢٩٨ .

(المراجع) .

ممالك شبه مستقلة يحكمها أفراد مختلفون من الأسرة الحاكمة ، وقد حكم الأيوبيون فى سوريا بشكل مقارب ، حيث حققوا كونفدرالية من ولايات تمركزت فى مدن مختلفة ، يحكم كلا منها عضو من الأسرة الأيوبية ، نادى بالبيعة لكبير الأسرة ولكنه لم يسمح له فى نفس الوقت أن يتدخل كثيرا فى شئونه ، أما فى مصر ، فقد كانت طبيعة الأرض وتقاليد الحكم المركزى العريقة تسمح للأيوبيين بحكم مباشر ، وأثناء حكم المماليك أيضا لم يكن الحكام الأقليميون لسوريا - بالرغم من أصولهم فى الصفوة العسكرية ، أكثر خضوعا للحكم المركزى فى القاهرة من الذين حكموا أقاليم الدلتا ، أما عن الصعيد ، فقد وجد الحكام المماليك صعوبة بالغة فى فرض سيطرتهم نتيجة ازدهار عائلة قوية من شيوخ القبائل (الهوارة) ، وفى حالة الحفصيين فقد كان مشايخ القبائل وحكام المدن البعيدة يعيشون فى استقلال شبه كامل ، الا أن سلطة الحكومة المركزية وقوتها زادت مع الزمن.

وقد احتاجت السيطرة المحكمة على الامبراطوريات الكبيرة الى بيروقراطية حاذقة ، ولقد ظل تقسيم الادارة بين المسئولين كما كان فى ظل الدولة العباسية ، فكان هناك ديوان الانشاء حيث تدبج الخطابات والوثائق فى لغة محكمة الاتقان من المعايير المرعية والسوابق المسجلة ، ثم يتم حفظها ، كما كانت الخزانة تشرف على تقييم وجمع وانفاق العوائد ، ومنها ادارة تحفظ حسابات الجيش وسجلاته ، وقد كان منصب الوزير فى ظل السلاجقة هو الذى يهيمن على كافة البيروقراطيات المدنية ، وكان كذلك فى حكم العباسيين ، والكن سلطته تقلصت فى حكم بعض الأسر الأخرى ، فقد كان فى العصر المملوكى لا يعدو أمينا على الخزانة ، وفى ظل الحفصيين كان هناك وزير مستقل لكل من الادارات الثلاث ، وقد كان الحاجب الذى يتحكم فى بلاط الحاكم ويتولى مسئولية المقابلات معه أكثر أهمية من أيهم .

وكان الوزير وباقى كبار المسئولين أحيانا من الصفوة العسكرية ، الا أن الرعايا الحضريين المحليين كانوا يقومون بدور الادارة المدنية بوجه عام ، فقد كان التعليم والتدريب على شئون ديوان الانشاء أو الخزانة من نصيبهم أكثر من العسكريين ، وقد كان اختيار المسئولين يجرى من بين أولئك الذين وصلوا فى التعليم الى درجة « العالم » ، ولكن كان الأكثر شيوعا هو دخول الطامحين الى السلطة فى الخدمة فى سن مبكرة بعد التعليم الأساسى فى اللغة والدين،لكى يتعلموا المهارات الخاصة فى انشاء وحفظ الوثائق ، وأعمال الحسابات فيما يشبه نظام التلمذة العملية ، وقد يربط أحد الطامحين نفسه بمسئول كبير ويأمل فى أن يستفيد من الاقتداء به أو ينتفع برعايته ، وفى مثل تلك الظروف لابد من

ظهور عنصر وراثى فى السلطة المدنية ، مثل الأبناء الذين يتدربون ويرتقون على يد آبائهم ، ومن الأرجح أنه كانت هناك استمرارية من الحكم السابق فى الحكم الجديد ، فلا مناص من ضرورة استمرار الخدمات البيروقراطية للخزانة وديوان الانشاء ٠

وهكذا كان أعضاء المجتمع الحضرى الذى تحكمه أسرة أو جماعة حاكمة دخيلة ، يستطيعون دخول طبقة الصفوة الحاكمة حتى مستوى معين على الأقل : فقد كان الاداريون الفرس يخدمون السلاجقة الأتراك ، وكان المصريون والسوريون يعملون لدى المماليك ، الا أن الحكام بدورهم كانوا أحيانا يعينون مسئولا من خارج الصفوة الحضرية ، وكان الأرجح والحال كذلك أن يكون أكثر اعتمادا عليهم ، فقد استخدم الأيوبيون فى سوريا مسئولين من مصر والعراق وغرب ايران ، كما استخدم الحفصيون المنفيين من الأندلس ، وكان اليهود والأقباط فى مصر يعملون فى الادارة المملوكية، واعتنق معظمهم الاسلام ٠

وقد كان تطبيق العدالة أحد الواجبات الرئيسية للحاكم الاسلامى، كما كان عليه أيضا أن يجتذب المتعلمين من السكان الحضريين الى العمل فى خدمته ، فكان يعين منهم القضاة على المذاهب الدينية التى يرغب فى نشرها، وقد كانت مناصب القضاء والافتاء فى معظم الأحوال يشغلها السكان المحليون ، ولكن الحكام الأقوياء كانوا يقومون بشغل هذه المناصب بالوافدين من الخارج ، وكان الحفصيون يمنحون الوظائف العليا لعلماء الأندلس ٠

وقد يتجلى التحالف بين القادة العسكريين وأعضاء النخبة الحضرية المتعلمين عندما يقوم الحاكم بنفسه أو أحد ولاته الاقليميين بمهمة القضاء ، فلم تكن النزاعات جميعها تنظر أمام القاضى ، وكان بامكان الحاكم أن يقرر أى القضايا تحول الى القاضى وأيها تحتجز ليفصل فيها بنفسه ، وعادة ما كانت تلك القضايا تشمل معظم الجرائم الجنائية التى من شأنها تعكير صفو النظام العام ، أو تؤثر على مصالح الدولة ، كما تضمنت أيضا القضايا التى كانت تمثل اشكالات قانونية عويصة ، وكان الاستماع الى الشكاوى (المظالم) فى حق المسئولين الذين خولوا السلطة أمرا مهما للغاية ، وكان عليه أن يبقى التواصل قائما مع رعيته ، وكانت تعقد فى العصر العباسى جلسات استماع منتظمة يتولى فيها مسئول كبير مهمة الاستماع الى الشكاوى والمظالم ، وقد استمر ذلك الاجراء ساريا فى النظم التى خلفته ، وكانت بعض المشاكل تحسم بالطرق الادارية المعتادة ،

الا انه تعين على الحاكم أن يعقد جلسات بنفسه يتولى فيها اصدار المراسيم وتلقي الشكاوى ، وكان والى القاهرة المملوكى يرأس مجلسا قضائيا مهيبا كل أسبوع ، يحيط به قواده العسكريون وكبار المسئولين وقضاة المذاهب الأربعة ، وقاضي الأحكام العسكرية والمفتي حيث يصدر أحكامه بعد استشارتهم ، ولم يكن التزامه بالقوانين صارما ، كما كان الحكام الحفصيون في تونس يجتمعون أسبوعيا بالقضاة والمفتي ·

تحالفات المصالح

كانت العلاقات وثيقة ومعقدة بين قطبي المدينة : القصر والسوق ، وكانت المدينة مبنية على الاحتياج المتبادل بين المصالح المتناقضة ، فقد كان الحاكم بحاجة لأنشطة السوق الاقتصادية لتوفير السلاح والمهمات لجيشه وسفنه ، والأثاث والرياش لشخصه ولأسرته ، والنقود للانفاق على ذلك كله،سواء أكان ذلك عن طريق فرض الضرائب المباشرة أم المكوس والاتاوات الخاصة ، وكان التجار يوفرون له الاحتياطى النقدى حينما يحتاج نقودا أكثر من التى توفرها له الضرائب المنتظمة ، وقد وفرت له الطبقة المتعلمة كذلك،احتياطيا من المسئولين عن الخدمة المدنية والقضاء والشعراء والفنانين الذى زينوا بلاطه ليكسبوه هيبة وسمعة وعظمة ، وكان السكان الحضريون من ناحيتهم - وعلى الأخص أصحاب المال والجاه ، يحتاجون الى قوة الحاكم لضمان استمرار ورود المؤنة والخامات من الريف ، وحراسة طرق التجارة، وعقد الاتفاقات مع الحكام الآخرين لتأمين مسارات التجارة ·

واحتاجوا أيضا الى الحاكم لاقرار النظام ووضع القوانين ، والتى تستحيل الحياة فى مجتمع معقد متحضر بدونها ، وكان من الضرورى تنظيم أنشطة السوق ، وانارة الشوارع ونظافتها ، وحمايتها من اللصوص ومثيرى الشغب ، ونقل القمامة ، وتنظيف مجارى وأنابيب المياه وصيانتها، وكان الحاكم يعين لهذه الأغراض مسئولا على المدينة عرف بأسماء عدة فى الأماكن المختلفة ، وتحت امرته قوة شرطة عادة ما يتم تجنيدها محليا ، كما كان هناك حرس للأحياء وخفر ليل للأسواق والشوارع ، ويشرف على الأسواق (محتسب) لمراقبة الأسعار والموازين والمكاييل ، وجودة البضائع وسير اتفاقات الأعمال ، وكانت سلطته مبنية على آية من القرآن تحث المسلمين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (*) ، وكان المحتسب يختار

(*) النص القرانى : « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ··· » آية ١١٠ - ال عمران - (المراجع) ·

من طبقة علماء الدين أحيانا ومن طبقة العسكر أحيانا أخرى،وكان هناك فى بعض المدن مثل صنعاء قانون مكتوب يمثل الاتفاق العرفى على طرق التعامل التجارية ٠

ارتبط حفظ النظام مع جمع العائدات بشكل مباشر ، فقد كان الجزء الأكبر من عائدات الحاكم من الضرائب يأتى من انتاج الريف ، ولكن الضرائب الحضرية كانت كثيرة ، ذلك بالاضافة الى ضريبة الرأس على اليهود والمسيحيين ، وكانت هناك رسوم جمركية على السلع الواردة أو الصادرة من المدينة ٠ ورسوم من مختلف الأنواع يدفعها أصحاب المحال والورش ٠

ولم يكن حكم المدينة ممكنا بدون درجة من التعاون بين الحاكم والسكان أو على الأقل مع من كان فى صالحهم استقرار الأمن ، بالاضافة الى من كانوا مسئولين بالمعنى الكامل للكلمة ، وكان هناك أعضاء من المجتمعات الحضرية يعتبرهم الحاكم مندوبيه أو متحدثين باسمه ، ومسئولين عن حفظ النظام والطاعة وتقسيم أية ضرائب مستحقة بين أعضاء هذا المجتمع أهمهم أولئك المسئولين عن حفظ النظام فى المدن وهم رؤساء الأحياء الذين يحصلون على الضرائب المستحقة على البيوت والمبانى ، كما كان هناك أيضا رؤساء الطوائف المختلفة من الحرفيين أو التجار ، ولم يكن كل من مارسوا نفس الحرفة يعاملون كمجموعة واحدة حيث يمكن أن تكون هناك مجموعات مقسمة حسب المنطقة ٠ وليس هناك دليل قوى على أن مثل هذه المجموعات كانت منظمة على هيئة طوائف حرفية بالمعنى الأوروبى فى العصور الوسيطة ، مع وجود مؤسسى مستقل يعبر عن نفسه فى التعاون المتبادل أو القواعد المحددة للالتحاق أو التلمذة بها ، ولكن كانت معاملة الحاكم لهم ككيان واحد وتستحق عليهم رسوم محددة أو تقديم خدمات خاصة ، وكان عملهم معا فى نفس الجانب من السوق لابد وأن يخلق بينهم تضامنا معينا ، وكان هناك نوع ثالث من المجموعات تلك المكونة من أفراد من مجتمعات يهودية أو مسيحية معينة وكان لابد لهم من متحدث باسمهم يكون مسئولا عن تحصيل ضريبة الرأس ، وعن ولائهم الذى يمكن فى ظروف معينة أن يصبح محوطا بالشكوك ٠

وكان هناك على مستوى أعلى متحدث يعبر عن مصالح أكثر عمومية ، ففى حكم الحفصيين على سبيل المثال ، كان « أمين الأمناء » هو الذى يتحدث باسم رؤساء كل الحرف ، كما يمكن أن يكون رئيس التجار ممثلا لكبار

التجار العاملين فى مجال التجارة الخارجية ويصبح مهما بوجه خاص عندما يحتاج الحاكم الى جمع مبالغ كبيرة من المال على عجل • وعلى المستوى الأعلى، كان أولئك الذين يتحدثون باسم المدينة ككل تحت ظروف معينة ، ورغم أن المدينة قد لا يكون لها مؤسسسات متضامنة فان لها نوعا من الوحدة الروحية تعبر عن نفسها فى لحظات الأزمات ، وعلى سبيل المثال عندما تخلف الأسرة الحاكمة أسرة أخرى ، يتصرف قاضى القضاة كمسئول معين من قبل الحاكم ورأس أولئك الذين يحافظون على الشريعة وهى التعبير المعيارى عما يجب أن تكون عليه الحياة بشكل عام ، ثم ان عليه التعبير عن الوعى الجمعى للمجتمع ، وفى بعض الأماكن كان هناك فى بعض الأحيان أيضا رئيس للمدينة ككل ولكن مهامه ، أو ما كان يفعله ، لم تكن واضحة المعالم •

لا يعرف الا القليل عن الطرق التى يعين بها الرؤساء أو المتحدثون عن المجموعات ، ولابد أنها كانت طرقا مختلفة ، ويبدو مؤكدا أنه لم يكن بامكانهم ممارسة وظائفهم ما لم يحوزوا ثقة كل من الحاكم أو المحافظ التابع له من ناحية ، والمجموعة التى يتحدثون باسمها من ناحية أخرى •

وقد كانت الروابط بين الحاكم والمدينة ، والتى يعمل على تماسكها المسئولون والمتحدثون،روابط مزعزعة ومتغيرة تتحرك على محور من التحالف والعداء، وكانت هناك مجموعة أساسية من المصالح يمكن أن تقوى بالتعاون الاقتصادى ، فلابد وأن أعضاء النخبة العسكرية يستثمرون فى مشروعات تجارية مشتركة ، وامتلكوا نصيبا كبيرا من المبانى العامة والحمامات والأسواق والفنادق • وقد أنشأ الحاكم وكبار المسئولين مبانى عامة وأوقفوا عليها الأوقاف ، وقد بينت دراسة عن المدن الكبرى فى العصر المملوكى تناولت ١٧١ مبنى بنيت أو خصصت للأغراض الدينية فى دمشق ، أن السلطان قد تحمل تكلفة ١٠ مبان منها ، بينما أنفق كبار قادة الجيش على ٨٢ مبنى ، وقام مسئولون آخرون ببناء ١١ منها ، ثم أنشأ التجار ٢٥ مبنى ، والعلماء تكفلوا بانشاء ٤٣ (١) ، كما أن مسحا للمبانى فى القدس خلال الحكم المملوكى تناول ٨٦ وقفا ، بين أن ضباطا من المماليك قد أنشأوا منها ٣١ مبنى على الأقل ، وهم الذين استقروا فى المجتمع المحلى ، كما بنى مسئولون وعلماء وتجار أقل من ذلك (٢) •

وقد كان تحالف المصالح جليا فى الاحتفالات الكبيرة التى تشارك فيها المدينة كلها ويظهر فيها الحاكم للشعب عند اعتلاء العرش ، وكان هناك احتفال للبيعة ، وهى عادة من المعتقدات الاسلامية المبكرة يختار

الشعب فيهـا من يحكمه (*) • وفى تونس فى عهد الحفصيين على سبيل المثال كان هناك احتفالان من هذا النوع : الأول يتلقى فيه الحاكم البيعة من مسئولى الدولة ، وفى الثانى يقدم فيه الحاكم لشعب العاصمة • وكان ذلك العرض يتكرر بشكل أو بآخر كل يوم جمعة عنـدما يذكر اسـم الحاكم الشرعى فى خطبة الجمعة ، وكانت هنـاك احتفالات سنوية كبيرة لبعضها معنى دينى ، وفيها يظهر الحاكم للشعب • وفى تأريخ عن القاهرة فى العصر المملوكى ، وهى فترة ابن اياس (**) ، ورد ذكر احتفالات مولد النبى صلى الله عليه وسلم كل عام ، كما تصف فتح الخليج من النيل لتدخل المياه الى القنوات التى تجرى عبر القاهرة فى موسم الفيضان ، واحتفالات بداية ونهاية رمضان ، وخروج قافلة الحج من القاهرة الى مكة وعودتها ، وكانت هناك أيضا مناسبات خاصة : عند استقبال السفراء الأجانب أو عند ولادة ابن للحاكم • فكانت المدينة تزدان بالأضواء على نفقة التجار وأصحاب الحوانيت وفيها يمكن أن يظهر الحاكم للملأ •

ويمكن لتحالف المصالح التى عبرت عن نفسها بهـذه الطريقة أن ينهار فى حالة اختلال توازن القوى بين الحاكم وأولئك الذين اعتمد عليهم، ففى الدولة المملوكية على سبيل المثال ، كانت بعض الوظائف الرئيسية للحاكم تنتقل الى القواد من كبار المماليك وأهل بيتهم،وفى بعض الظروف يمكن أن يتمرد الجنـود ويعكروا صفو السلم فى المدينة أو يهددوا سلطة الحاكم ، وقد خلف الأيوبيون الفاطميين فى القاهرة بهذا الشكل وبعدها خلف المماليك الأيوبيين على نفس المنوال وتولى أحد المماليك بدلا من آخر• أما من ناحية سكان الحضر فقـد كان المتحدثون يعلنون رغبـات وأوامـر الحاكم الى الشعب ، وبامكانهم أن يعبروا أيضـا عن شكاوى ومطـالب المجموعات التى يمثلونها ، وعند تزايد الضرائب كان الجنود يعيثون فسادا وكان المسئولون يسيئون استخدام سلطتهم ، ويشح الطعام وكان على العلماء حينئذ دور يلعبونه ، وهو محاولة الحفاظ على استقلالية الحاكم (***)•

(*) لكنها عند التطبيق أصبحت بعد عصر الخلفاء الراشدين ، مسألة شكلية خالية من مضمون الاختيار الحقيقى ـ (المراجع) •

(**) صاحب كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ـ (المراجع) •

(***)
They tried therefore to preserve a certain independence of the ruler.

بمعنى النأى بالحـاكم عن المسئوليـة عما حـدث من نقص فى الغـذاء وزيادة الضرائب •• الخ ـ (المراجع) •

ولم يتخذ سخط الطبقات القادرة في المدينة شكل التمرد الواضح ، فقد يمكن أن يفقدوا الكثير في فترات الفوضى ، أما اللحظات النادرة من الحرية ، فكانت تأتى فقط عندما ينهـــزم الحـــاكم على أيدى عــــدو أو منـــافس ، ويبدأ كبـــار رجال المدينة في التفاوض حول استسلامها وخضوعها للحاكم الجديد ، أما عامة الناس فكان يمكن أن يأخذ السخط أو الغضب عندهم شكل الاخلال بالنظام ، وأما الحرفيون المهرة وأصحاب المحال فلا يثورون بسهولة سوى تحت ضغط الضائقة والمصاعب الاقتصادية أو قهر المسئولين أو ارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية أو المواد الخام ، وكانت الظروف العادية فترات هداء حيث ان مصالحهم مرتبطة أيضـــا بالحفاظ على النظام ، أما البروليتاريا والسواد الأعظم من مهاجرى الريف والعمـــال الموسميين غير المهرة والشحاذين ومحترفى الاجرام على أطراف المدينة ، فقد كانوا أقرب الى حالة مستديمة من الاضطراب ٠

وكان سكان المدينة في حالات الخوف يصابون بالاضطراب،ويتأثرون بالخطب الشـــعبية التى تندد بالظلم ، وتعبر عن رؤيـــة النظام الاســـلامى العادل ، وقد يندفـــع الدهماء الى السوق ويغلق التجار حوانيتهم ، ويقدم بعض ممثلى الشعب الشـــكاوى للحاكم ضـــد المسئولين أو التجار الذين يشكون في اصطناعهم أزمة الخبز ، وفي مواجهة مثل هذا التحرك يعدل الحاكم من ســـياسته لتلبية بعض هذه المطالب ، فيفصـــل أو يعدم بعض المسئولين ، وتفتح مخازن تجار الحبوب ، وتفتح السوق من جديد ، عندها يذوب تحالف هذه القوى الشعبية ، ولكن سكان الحضر كانوا دائما هادئين أو تحت سيطرة مؤقتة ، ولكنهم يظلون ، كعهدهم دائما ، بعيدين عن النظام الاسلامى العادل ٠

السيطرة على الريف

كان للحاكم وأيضـــا سكان الحضر (أو على الأقل العنصر المسيطر منه) مصلحة مشتركة في السيطرة على الريف وضمان انتقال ما يفيض عن حاجة المزارع الى المدينة بأفضـــل الشروط الممكنة ، وكان الحاكم محتاجا سواء للمنتجات ذاتها أو قيمتها النقديـــة للانفـــاق على مقره ومســـئوليه وجيشه ، وكان محتاجا أيضا للسيطرة على الريف لمنع الهجمات من الخارج أو منع تكون وظهور أسرة جديدة تهدد سيطرته على العاصمة ٠ وكان سكان المدن من ناحيتهم في احتياج للفائض من الريف لاطعام أنفسهم والحصول على المواد الخام اللازمة لصناعاتهم ٠ وكانت العناصر المسيطـــرة تميل الى النظـــر الى اعتبار الريف وسكانه ، كما لو كان خطرا ماثلا على باب عالم

الحضر والمدنية والشرعية ويهددها ، لذلك فان كاتبا مصريا من القرن السادس عشر هو « الشعرانى » (ت ١٥٦٥) يشكر الله على هجرته « ببركة النبى صلى الله عليه وسلم من الريف الى القاهرة من مناطق الخشونة والجهل الى مدينة الرقة والمعرفة » (٣) ٠

ولم تكن الحدود قبل العصر الحديث مرسومة بدقة أو وضوح ، ومن الأفضل تجنب الاعتقاد بأن سيطرة الأسرة الحاكمة كانت فعالة بشكل منتظم على منطقة مميزة أو محددة بشكل عام ، ولكن سلطتهم كانت تشع من مراكز حضرية بقوة تميل الى الضعف مع بعد المسافات ووجود العقبات البشرية والطبيعية ٠ وينقسم مجال هذا الاشعاع الى ثلاثة أنواع من المناطق ، تختلف فى كل منها طبيعة السيطرة ومداها ٠ تأتى أولا وقبل كل شيء الوديان أو البلاد الصحراوية أو الجبلية الفقيرة النائية أو المنعزلة مما يجعلها لا تساوى الجهد المبذول لاخضاعها ويكتفى الحاكم بالحفاظ على الطرق التجارية مفتوحة ومنع العصيان ٠ ولم تكن السيطرة على زعماء القبائل المحليين كاملة ، كما لم يكن اجبارهم على تسليم فائض الانتاج ممكنا ان وجد الا بشروط فى صالحهم ، وقد تكون لهم علاقات اقتصادية مع المدينة ، حيث يبيعون انتاجهم لشراء ما لا يمكنهم انتاجه بأنفسهم ، وفى مثل هذه المناطق يمكن للحاكم ضمان نوع من النفوذ بالمناورات السياسية بمجرد أن يستعدى زعيم قبيلة على آخر ، أو تشريف أحد أفراد عائلة بلقب رسمى بدلا من عائلة أخرى ، وفى بعض الظروف يمكن أن يكون له نوع آخر من النفوذ الذى يكتسبه بالوضعية الدينية المتوارثة ، وهذا ينطبق على الأئمة الزيديين فى اليمن ، والأباضية فى عمان ، وحكام مراكش منذ القرن السادس عشر وما بعده الذين أعلنوا أنفسهم أشرافا منحدرين من نسل النبى ٠

وكانت هناك منطقة ثانية من الجبل ٠ تتكون من الواحات والسهوب، حيث يمكن للحاكم أن يمارس المزيد من السلطة المباشرة لأنها أقرب الى المدينة أو طرق التجارة الرئيسية ، كما تنتج فائضا أكبر ، وفى مثل هذه المناطق لا يحكم الحاكم بشكل مباشر ، وانما من خلال الزعماء المحليين ، ووضعهم أكثر ابهاما من أولئك الزعماء فى المناطق الجبلية أو الصحراوية المنعزلة ٠ ويتم تعيينهم رسميا مقابل اتاوات سنوية أو دورية ، ويجرى دعمهم عند الحاجة بالتجريدة العسكرية ، أو سحب الاعتراف بهم وتعيين آخرين ٠

ولم يكن خط التقسيم بين هاتين المنطقتين ثابتا ، حيث كان معتمدا على قوة الحاكم،وتغير التوازن بين استخدام الأرض فى الزراعة أو استخدامها فى الرعى ، وكانت المناطق المستقرة أسهل عند السيطرة عليها من مناطق الرعى البدوى المتنقل،وهناك بعض الدلائل على أنه بداية من القرنين العاشر والحادى عشر وما بعدهما تنامت المنطقة الأولى على حساب المنطقة الثانية ، ففى مصر العليا ، حل الهوارة ــ وهم رعاة من أصل بربرى ــ محل عرب الطاعة فى العصر المملوكى والذين كانوا تحت سيطرة القاهرة ، واستمر نفوذ الهوارة على معظم المنطقة حتى القرن التاسع عشر ، وبالمثل ، أدت العملية الاجتماعية الاقتصادية المركبة فى المغرب والتى عبرت عن نفسها رمزيا فى قصة غزو بنى هلال ، الى تقلص قوة حكام المدن ، واستمر ذلك لعدة قرون ٠

كانت هنـــاك منطقـــة ثالثة : وهى منطقـــة السهول المفتوحة ووديان الأنهار حيث تزرع الحبوب (الحنطة) أو الأرز أو التمور ، وفيها أسواق الحدائق التى تأتى منها الفاكهة والخضروات الى المدينة ، وفى مثـل هذه المنطقة كان على الحاكم،وسكان الحضر المرتبطين به،احكام السيطرة المباشرة بشكل أكثر فاعلية ، خاصة فى الأماكن التى يعتمد الانتاج فيها على أعمال رى ضخمة٠ وكانت الحاميات العسكرية المستديمة ــ أو البعثات العسكرية المنتظمة تسيطر على هذه المناطق وتحفظ النظام فيها لمنع ظهور زعامات محلية ٠

فى هذا الريف غير المستقل يجرى التبادل الاقتصادى لمصلحة المدينة، فالوسيلة الرئيسية التى أمكن بها جلب الفائض الريفى بشروط جيدة كانت نظام الضرائب ٠ وقد كان ســـائدا فى كل الدول الاســـلامية ، فكان الحاكم يستمد موارده من ثلاثة أنواع من الضرائب ، ضريبة الرأس التى يدفعها أفراد المجتمعات غير الاســـلامية المعترف بها (الذميون) ، وضرائب مختلفة على التجارة الحضرية والحرف ، وأخرى على انتاج الأرض، وفى المناطق المزروعة تستحق الضرائب اما على الأرض وفقـــا لتقديرات تختلف من وقت لآخر فى بعض البلاد (على سبيل المثال فى مصر حيث ربط العوائد القديمة) أو أن تكون نسبة ثابتة من الانتاج ، فالضريبة على الحنطة والمحاصيل الأخرى القابلة للتخزين عادة ما كانت تدفع منها عينا ، أما على المنتجات القابلة للتلف كالفاكهة فيتم الدفع نقدا ، وبالمثل كانت الضريبة على الأراضى الرعوية فى المناطق الواقعـــة تحت النفوذ الحكومى ، القوى القادر على تحصيلها ، يمكن تقـــديره اما بالمساحـــة أو بنسبة معينة من قطعان الماشية ٠

ومنذ عصر بنى بويه فى العراق فى القرن العاشر توسع استخدام هذه الطريقة ، وتطور فى بعض البلاد الى تعيين اقطـاعية لجمع حصيلة الضرائب الريفية ، ويمكن أن يعهد بهذه المهمة الى أحـد أفراد العائلة الحاكمة أو الى مسئول كبير بدلا من الراتب (*) ، فكانت موارد الضرائب من حصيلة المحافظة بكاملها يمكن أن تعطى لمحافظها الذى يتحمل نفقات الادارة وتحصيل الضرائب مع الاحتفاظ بنسبة منها بدلا من الراتب ، أو أن تخصص الضرائب على قطعـة معينة من الأرض لضابط فى الجيش ، نظير خدماته مع مجموعة من الجنود يتحملهـا ويدفع رواتبها ويجهزها بنفسه • وقد أصبح هذا النوع الأخير فيما بعد ذا أهمية خاصـة ، وانتشر وتطور بشـكل خاص لدى السلجوقيين فى ايران والعراق ،وانتقـل على أيدى الأيوبيين وتبعهم المماليك ، وفى المغـرب ظهر نظام مشابه • حيث أعطى لزعيم القبيلة حق السـيطرة على منطقة معينة مقابل خدمات عسكرية ، وكانت القبائل التى اسـتخدمت أو تشكلت بهـذه الطريقـة تسمى (قبائل الجيش) •

ولم يكن الغاء الضرائب بشكل دائم من نوايا أى من الحكام ، كما لم تكن من نواياهم اعطاء أولئك الذين أوكلت اليهم مهمة تحصيل الضرائب سيطرة وتحكما دائمين على الأرض ، واستخدمت وسائل مختلفة للحد من الاقطاع ، ففى مصر المملوكية ، وهى التى توفرت عنها معلومات كاملة ، كان نصف الأراضى فقط مخصصا للاقطاع ، والباقى مخصصا للحاكم وعائلته ، وكان ذلك الجزء المخصص للاقطاع يعطى اما لمماليك الحاكم نفسه أو كبار مسئولى الجيش الذين سمح لهم مبـدئيا بالاحتفاظ بنسبة معينة منها لأنفسهم ، ويفترض أن يستخدم الباقى لدفع رواتب ما يتراوح بين عشرة وأربعين فارسا من المجندين فى الجيش ، ولم يكن لصاحب الاقطاعية عادة اتصال شخصى بمنطقة اقطاعيته ، واذا كان له أكثر من اقطاعية فلم تكن متجاورة ولم يكن يقوم بتحصيل الضرائب بنفسه وانما تركت هذه المهمة لمسئولى الحاكم ، كان ذلك على الأقل حتى نهاية العصر المملوكى ، ولم تكن الاقطـاعية تنتقل الى أبنـائه بالوراثة ، وفى أزمان أو بلاد أخـرى لم يكن من توكل اليه هذه المهمة تحت السيطرة الدائمة ، وتحول حق الاحتفـاظ بعائدات الضرائب الى قوة لجمعها ، والاشراف على الانتـاج وممارسة القيادة على الفلاحين •

(★) بدلا من تقديم راتب له ، بمعنى أن يحتفظ بنسبة من الضرائب المجموعة لنفسه ، وهو نظام قريب من نظام الالتزام — (المراجع) •

وكان تحصيل الضرائب يمثل احدى الطرق التي تتحول فيها السيطرة المباشرة على الأراضي الريفية بواسطة الحاكم ، الى سيطرة الأفراد من اهل المدن الذين كان بامكانهم تخصيص جزء من فائض نتاج الريف لأنفسهم ، ويمكن الاشارة اليهم باعتبارهم ملاك الأراضي ، ولكن هذه التسمية غير معبرة تماما وتعطي انطباعا خاطئا ، المهم أنهم كانوا قادرين على المطالبة بالفائض الزراعي والتنفيذ باستخدام القوة العسكرية للحاكم ، وكان من يجري تكليفهم يحصلون على نصيب الأسد ، ولكن المسئولين الذين يلعبون دورا في تحصيل الضرائب ، والتجار الذين يساهمون بالأموال في تمويل الزراعة أو دفع الضرائب عند استحقاقها ، والعلماء الذين يديرون الأوقاف كانت لهم جميعا وضعية مماثلة ..

ويمكن الاعتقاد بأن أشكال العقود الزراعية التي تنظمها الشريعة كانت منتشرة حتى في غياب المستندات التي تدل على ذلك ، ويبدو أن أحدها على وجه الخصوص كان موجودا على الدوام ، وهو نظام (المزارعة) ، وكانت اتفاقا بين المالك والزارع لقطعة من الأرض ، بحيث يقتسمان المحصول بنسبة ما يقدمه كل منهما ، فاذا وفر المالك البذور وحيوانات العمل والمعدات ، فمن حقه الحصول على أربعة أخماس ، والمزارع الذي قام بالعمل يحصل على الخمس المتبقي فقط ، ومثل هذه الاتفاقية يمكن أن تكون قانونا لفترة محددة ولكن في التطبيق الفعلي غالبا ما تدوم وكانت هناك اختلافات عدة ، لأن تقسيم المحصول بدقة كان يعتمد على المتاح من الأرض والأيدي العاملة والقوة النسبية للطرفين ، ويمكن أن يظل المزارع ، في أسوأ الحالات ، مرتبطا بالأرض ، لأنه كان مدينا على الدوام للمالك ولم يكن باستطاعته مقاومة نفوذه أو ايجاد أرض أخرى يزرعها .

افكار السلطة السياسية

كانت العلاقات بين الحاكم والريف النائي ووديان الجبال والسهوب والصحارى بعيدة وغير مباشرة ، فكانت سلطة الحاكم مقبولة اذا لم تكن أقرب من اللازم ، وكان رجال الجبال والوديان يمثلون مددا من الجنود لجيشه ، ولكنهم كانوا يستطيعون أيضا تغذية منافسيه بالرجال وينقلبون عليه ، كما لم تكن العلاقة بين الحاكم ورعاياه من المسلمين قائمة على الروابط المعنوية ، حتى وان كانت سلمية ومستقرة ، وكان هناك احساس بأن المسيحيين واليهود خارج المجتمع ، ولم يكن بامكانهم تحقيق التحالف القوى الايجابي النابع من هوية وتوحد المعتقدات والأهداف مع الحاكم . الا أن سكان المدن من المسلمين كانوا في موقف مختلف ، فقد كان الحاكم

ومسئولوه يفرضون أنفسهم بشكل مباشر ومستمر على حياتهم ، من تحصيل الضرائب الى حفظ النظام وتحقيق العدالة ، وقد مارسوا السلطة التي لا تزدهر بدونها الصناعة أو التجارة ، ولا يمكن أن تستمر تقاليد القانون أو التعليم ، وفى مثل هذه الظروف كان من الطبيعى أن يتساءل أولئك الذين أوجدوا وحافظوا على أخلاقيات عالم الاسلام من العلماء ، عمن هو الحاكم الشرعي وما هي حدود طاعته ، وكان الحاكم من ناحيته يطالب بحقه عليهم فى الطاعة كما يفرضها عليهم بالقوة ٠

وكان هناك الكثير من الروابط التى تكونت بين الحاكم وبين عدة أفراد ، وجماعات خاصة ، حيث كانوا يقسمون له بالولاء ، ويشكرون له العطايا ، ويأملون بين يديه فى فضل خيره ، وفيما عدا هذا كانت هناك مفاهيم عامة معينة عن السلطة الشرعية التى يمكن قبولها للجماعات الأكبر أو للمجتمع ككل ٠

وقد ثارت وبشكل حاد قضية الأحقية بالحكم خلال القرن الأول من التاريخ الاسلامى ، ومن هو الخليفة الشرعى للنبى صلى الله عليه وسلم كرأس للمجتمع ؟ وهل هو خليفة أم امام ؟ كيف تكون مبايعته ؟ ، وما هى حدود سلطته ؟ وهل له حق الطاعة بلا شروط ؟ أو أن الثورة والتمرد عليه وخلعه أمر مشروع ؟ وكانت لدى الأباضية (*) والشيعة على اختلاف مذاهبهما اجابات على مثل هذه الأسئلة ، أما علماء السنة فقد تطوروا تدريجيا الى الاعتقاد بأن الخليفة رأس المجتمع ولكنه ليس المفسر الذى لا يخطىء للايمان أو الدين ، وأن العلماء هم رعاة الدين ، وعليه ، وبمعنى من المعانى هم ورثة النبى ، فقد تقبلوا فكرة أن الخليفة قد يجانبه الصواب ، وأن من واجب المؤمنين رفضه أو عزله ٠ وكان هذا هو المنطق الذى اتخذه خلفاء العباسيين لتبرير ثورتهم على الأمويين الذين حولوا سلطتهم الى ملك علمانى عضود ٠

وفى القرن الرابع الاسلامى (العاشر الميلادى) أخذت نظرية الخلافة شكلها النهائى المكتمل ، فعندما تغيرت الظروف بما هدد وضع الخلفاء العباسيين مما أدى الى ظهور محاولات للدفاع عنها عن طريق وضع تعريف

(*) الاباضية نسبة الى عبد الله بن اباض الذى اظهر دعوته أيام مروان بن محمد آخر خليفة اموى ، ولم يكفروا مخالفيهم ، والامام عندهم هو أعلم الجماعة وأفقههم بصرف النظر عن نسبه ٠

انظر على سبيل المثال : الملل والنحل للشهرستانى (طبع بيروت - دار المعرفة) ، جـ ١ ، صص ١٣٤ - ١٣٦ - (المراجع) ٠

محدد لها ، جاء التهديد من قطاعين مختلفين ، ظهور الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، واعادة احياء الخلافة الأموية فى الأندلس ، مما طرح الأسئلة ليس فقط عمن هو الخليفة الشرعى ؟ ولكن أيضا : امكانية أن يكون هناك أكثر من خليفة ؟ ألا تعنى وحدة الأمة ضمنا أن يكون لها رأس واحد ؟ وداخل المنطقة التى دانت بالسيادة للعباسيين أصبح الحكام المحليون (الولاة) مستقلين فعليا ، وحتى فى بغـــداد العاصمة فرض البويهيون ــ وهم أسرة عسكرية ــ سيطرتهم على الخلافة ، وأصبحوا قادرين على اصدار القرارات والمراسيم باســم الخليفة عنــدما استطاعوا اعلان استقلالية سلطتهم باحياء استخدامهم الخاص للقب الايرانى القديم الشاهنشاه .

وفى ذلك السياق وضعت أشهر نظــرية للدفاع عن الخلافة على يد الماوردى (ت ١٠٥٨) ، والتى قال فيهــا بأن وجود خليفة ليس ضرورة طبيعية (*) ، فشرعيتها (الخلافة) مستمدة من القرآن « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**»(٤) وعليه فهى من أوامر الله ، والهدف منها حماية المجتمع وادارة شئونه على أسس من الدين الحق الصــحيح ، ويجب أن يكون الخليفة على معرفة بالدين واحساس بالعدل والشجاعة ، ويجب أن ينتمى الى قبيلة قريش التى ينحدر منها النبى صلى الله عليه وسلم ويجب أن يكون هناك خليفة واحد فى الوقت الواحد ، ويمكن أن يفوض سلطاته اما لغرض محدد أو بلا حدود، فى منطقة من امبراطوريته أو فى الامبراطورية كلها ، وعلى الأمير أو الوزير الذى خول هــذه السلطة الاعتراف بسلطة الخليفة وأن يمارس سلطاته فى حدود الشريعة، وقد صالحت هذه الصياغة بين السلطة الواقعيـــة وبين السلطة النظرية للخليفة ، وأعطت الخليفة الحق فى الحفاظ على هذه السلطة طالما ظل حائزا لها ، والحق فى سحب السلطة من الأسر التى فوضها لهم .

وأمكن الحفاظ على مثل هذا التوازن بين السلطة والقوة بشــكل أو بآخر حتى نهاية عصر الخلافة فى بغــداد ، وأمكن للعلماء الاعتراف بالسلطان أو القائد ، وأصبح من حقه ممارسة سلطته على أن يظل مواليا للخليفة وأن يحكم وفقا للدين الصحيح ، الا أن ذلك لم يكن توازنا ثابتا ، وظلت للخليفة بقية من القوة الفعالة فى العاصـــمة وما حولهــا ويحاول

(★) لا يخفى على فطنة القارىء أن هذا القول كما ساقه المؤلف عن الماوردى غير صحيح ، فقد عرفت الحضارة الانسانية وفى أماكن مختلفة ضرورة وجود حاكم بصرف النظر عن اسمه (خليفة ــ حاكم ــ ملك ــ امبراطور ... الخ) وذلك قبل نزول هذه الآية الكريمة بالاف السنين ، فقد اكتشف البشر اذن ضرورة وجود حاكم ــ (المراجع) .

توسيع نطاقها خاصة فى عصر الخليفة الناصر (١١٨٠ ــ ١٢٢٥ م) ، وكان السلطان القوى ينحو الى زيادة قوته المستقلة ، كما كانت هناك سلطة ثالثة هى سلطة العلماء الذين كانوا يحددون ماهية الدين الصحيح • وقد قام الغزالى (١٠٥٨ ــ ١١١١) وطائفة من العلماء بتعريف العلاقة (بين الحاكم والمحكوم) وضرورة ثباتها فى اطار التراث الدينى ، ووضعوا فكرة أن القوة هى من حق الخليفة أما ممارستها فيمكن أن تكون لأكثر من شخص • والخلافة (أو الامامة كما كان يسميها المنظرون عادة) تتكون من ثلاثة عناصر هى الخلافة الشرعية للنبى ، وتوجيه أمور الدنيا ، ورعاية أمور الدين ، وقال الغزالى ان الحالة المثلى هى اتحاد هذه المفاهيم الثلاثة فى شخص واحد ، ولكن فى حالات الضرورة يمكن فصلها كما كان الحال فى ذلك الوقت ، فقد جسد الخليفة الخلافة عن النبى ، وحاز السلطان السلطة العسكرية ، ومارس مهام الحكم ، وأشرف العلماء على المعتقدات والممارسات الدينية •

ومع الوقت تحولت هذه العلاقة الثلاثية الجوانب لتصبح علاقة ثنائية • وانتهت الخلافة فى بغداد عندما احتلها المغول عام ١٢٥٨ ، وظلت الخلافة العباسية فى القاهرة على أيدى السلاطين المماليك ولم تكن معترفا بها بشكل عام ، ورغم أن ذكريات الخلافة استمرت وأقرتها كتب القانون كشكل مثالى للسلطة الاسلامية ، ورغم أن بعض الحكام الأقوياء كالحفصيين استمروا فى الاحتفاظ باللقب ، فقد كان الهدف الرئيسى للفكر السياسى بين أولئك الذين كتبوا من منطلق التقاليد والتراث القانونى ، هو تحديد العلاقة بين الحاكم الذى يمتشق السيف وبين العلماء الأمناء على الدين الصحيح والذين من حقهم التحدث باسم الأمة ، وهناك قول قديم منذ عصر الساسانيين ويتردد كثيرا بأن « الدين والملك أخوان وليس بإمكان أحدهما الاستغناء عن الآخر » (٥) وكان الاعتقاد العام أن السلطة التى تكتسب بالسيف ، مع الخضوع الذى يتجلى فى احتفال البيعة ، يمكن أن تصبح سلطة شرعية اذا استخدمت للحفاظ على الشريعة وعلى نسيج الحياة المتمدينة الفاضلة ، وعلى الحاكم دعم محاكم العدل ، واحترام العلماء ، وأن يحكم بالتشاور معهم • ويمكن أنه يمارس مهام الحكم ويضع الضوابط ويتخذ القرارات وأن ينفذ العدالة فى المسائل الجنائية التى تتعلق بصالح المجتمع وأمن الدولة ، والعلماء بدورهم عليهم الاعتراف بالسلطان العادل بالدعاء له فى خطبة الجمعة •

وقد استنتج ابن تيمية (١٢٦٣ ــ ١٣٢٨) ــ وهو أحد العلماء البارزين فى العصر المملوكى ــ الآثار المنطقية للوضع فى عصره ، سواء فى هذه المسألة أم فى المسائل الأخرى ، فكانت وحدة الأمة عنده هى وحدة

الاعتقاد في الله وقبول رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس بمعنى الوحدة السياسية ، مع وجوب أن تكون في الأمة سلطة لتحقيق العدل والحفاظ على الأفراد ضمن الحدود ، ويمكن أن يمارس ذلك أكثر من فرد واحد ، أما كيفية وصول الحاكم الى السلطة فكانت أقل أهمية من كيفية استخدامه لها ، وكانت الممارسة العادلة للسلطة في نظره نوعا من الخدمة الدينية ، ويجب أن يمارس السلطة في اطار الشريعة وأن يحكم بالتعاون مع العلماء ، وتضمنت هذه العلاقة بين الحكام والعلماء وجوب احترام الحاكم لمصالح النخبة الاسلامية في الحضر ، أما في البلدان الى الشرق من المغرب حيث كان الحكام من القرن العاشر وما بعده من أصول تركية أو أجنبية ، فكان لابد من استشارة السكان المحليين ممن يتحدثون العربية ويجب أن يكون لهم نصيب في عملية الحكم ٠

وكان من المتفق عليه ، حتى وان كان الحاكم غير عادل أو فاسدا ، بأن يظل مطاعا ، لأن أي نوع من النظام هو أفضل من الفوضى ، وكما قال الغزالي : « ان طغيان السلطان لمائة عام يسبب ضررا أقل من طغيان الرعايا لعام واحد على بعضهم البعض » (٦) والثورة مشروعة فقط ضد الحاكم الذي يخالف بوضوح تعاليم الله أو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا يعني أن العلماء ينظرون لحاكم غير عادل نفس نظرتهم لحاكم عادل ، وكان أحد التقاليد الراسخة بين العلماء (السنة والشيعة على السواء) بأن عليهم الابقاء على المسافة بينهم وبين الحكام ٠ وقد أورد الغزالي حديثا شريفا عن أن في الجحيم واديا مخصصا للعلماء الذين يزورون الملوك الظالمين ، فالعالم الفاضل يجب أن يمتنع عن زيارة الأمراء أو المسئولين الظالمين ، وبامكانه زيارة حاكم عادل ولكن بدون خضوع ويجب عليه توجيه اللوم له اذا رأى منه فعلا منكرا ، فاذا خاف فبامكانه أن يظل صامتا ، ولكن الأفضل عدم زيارته على الاطلاق ، واذا زاره أمير فان عليه رد التحية ودعوته للفضيلة ، ولكن من الأفضل تفاديه وتجنبه على الاطلاق (وهناك علماء آخرون يرون بأن عليهم دعم الحاكم في كل شيء حتى وان كان غير عادل) ٠

وقد تضافرت مع هذه الأفكار التي وضعها علماء الدين والقضاة ، آراء أخرى مستمدة من التراث الثقافي والتي ساعدت على تشكيل ثقافة العالم الاسلامي ، ففي القرن العاشر وضع الفيلسوف الفارابي تعريفا للمقاييس التي تقوم عليها الأمم في كتابه «المدينة الفاضلة» ٠ وكانت أفضل الدول عنده هي تلك التي يحكمها من هو نبي وفيلسوف في وقت واحد ، حيث انه يستطيع باستخدام ذكائه وخياله الاتصال « بالعقل الفعال » والذي يصدر عن الله ، وفي غياب مثل هذا الحاكم المثالي يمكن أن تكون

الدولة فاضلة اذا حكمها جماعة من الذين يتمتعون فيما بينهم بالخصائص اللازمة أو الحكام الذين يحفظون القانون ويفسرون القوانين التى وضعها المؤسسون (كمثل الحال مع الخلافة الأولى) وعلى النقيض من ذلك هناك مجتمعات لا يتمتع العنصر الحاكم فيها بمعرفة الخير وليس لهذه المجتمعات صالح عام ، وترتبط ببعضها بالقوة أو ببعض الخصائص الطبيعية كالانحدار من نفس النسب أو الشخصية أو اللغة ٠

وكانت النظريات المستمدة من أصول أخرى ذات تأثير أكثر عمومية : الفكرة الايرانية القديمة عن الملكية كانت تتجلى أحيانا على هيئة دائرة ، فالعالم حديقة سياجها الحكام ، والحاكم تدعمه الجند ، وحفظ الجند ، يتطلب أموالا ، والأموال مستمدة من الرعايا ، والرعايا يحميهم القانون ، والقانون يفرضه الحاكم ، واذا عبرنا عنها بشكل آخر ، فالعالم الانسانى يتكون من عدة أنظمة كل منها يسعى بأنشطته نحو مصالحه ، واذا كان عليهم أن يعيشوا معا فى انسجام ويبذلوا ما لديهم خدمة للمجتمع ، فلابد من سلطة منظمة ، ولهذا وجدت الممالك ، وهو نظام بشرى طبيعى من وضع الله ففى كل عصر أو زمن يختار الله سبحانه وتعالى فردا من الجنس البشرى ، ليهبه فضائل الخير والسمو ويأتمنه على مصالح العالم وخير عبيده (٧) وهو فى احتياج قبل كل شىء للحكمة والعدل لأداء وظائفه ، وعندما يفتقدهما أو يفقد القوة للحفاظ عليهما ، ينتشر الفساد والفوضى ٠٠ وتختفى الممالك تماما وتعلو السيوف ويفعل الأقوى ما يريد (٨) ٠ ولكن يقوم الحاكم بما أقدره الله فعليه أن يضع نفسه خارج أنظمة المجتمع المختلفة لأنهم لم يختاروه ، فالغرض الرئيسى لهذه النصوص هو التأكيد على وضعه المتوارث وأنه ليس مسئولا أمامهم ، بل هو مسئول فقط أمام ضميره ، وفى يوم القيامة أمام الله ، وعليه أن يقدم له حسابا عن خدمته ، ويجب أن يكون هناك تمييز واضح بين الحكام والمحكومين ، فالملك ورجاله يجب ألا ينخرطوا فى المصالح التى ينظمونها ٠

وخلال التاريخ الاسلامى تتابعت سلسلة من النصوص التى عبرت عن مثل هذه الأفكار وحاولت استنباط الدلالات ، مثلما عبرت كتابات الفقهاء عن اهتمام العلماء ونظرتهم الى تلك الطبقات التى كانوا يعبرون عنها ، أما النوع الآخر من الكتابة فقد كان ذلك الذى عبر عن اهتمامات القريبين من ممارسة السلطة ، وهم البيروقراطيون الذين يخدمون حكاما بعد حكام مع الحفاظ على تقاليد الخدمة لديهم ، ومن أشهر هذه الكتابات « كتاب الحكومة » لنظام الملك (١٠١٨ – ٩٢) كبير الوزراء لأول سلطان

سلجوقى يحكم بغداد ، وكان كتابه مثل كتاب غيره لا يحتوى على مبادىء عامة ولكن على نصائح عملية حول ادارة الدولة ، ويستفاد منه فى تعليم الأمراء ، ولهذا كان الاسم الذى عرف به هذا النوع من الكتابة « مرايا الأمراء » (وهو اصطلاح يطلق على نوع مشابه من الكتابة فى أوربا) ويتلقى الأمير النصيحة عن كيفية اختيار المسئولين ، وكيفية السيطرة عليهم ببث العيون حولهم ، وكيفية التعامل مع المظالم والالتماسات المقدمة من رعاياه ، لمنع رجاله من اساءة استخدام السلطة التى يمارسونها باسمه ، وكيفية استشارة كبار السن والحكماء والتداول معهم ، وكيفية اختيار رفاقه وأوقات اللهو والراحة ، وكيفية استخدام الجند من أجناس مختلفة والحفاظ على ولائهم ، والنصيحة موجهة بشكل مباشر أساسا ضد المخاطر التى يتعرض لها الحاكم المطلق اذا أصبح معزولا عن رعاياه ، أو سمح لرجاله وتابعيه باساءة استخدام السلطة التى يمارسونها باسمه ·

الفصـــل التـاسع

طــرق الاســلام

أركان الاســــلام

كانت هنــــاك وشــائج مشتركة بين هذه المجتمعات المختلفة ، رغم أنها تعيش فى دائرة واسعة من الأراضى الممتدة من الأطلنطى حتى الخليج، والتى تفصلها الصحارى، وتتداولها الأسر الحاكمة التى ارتفعت ثم سقطت، وتنافست مع بعضها للتحكم فى موارد محدودة وكان المسلمون فى البداية مجموعة حاكمة ، ثم أصبحوا بعدها أغلبية مسلمة تعيش تحت حكم كلمة الله (القرآن) الذى تنزل على محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية ، وأولئك الذين قبلوا الاسلام شكلوا أمة « **كنتم خير أمة أخرجت للنـــاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » (١) • عبرت هذه الكلمات من القرآن عن أمر مهم فى أتباع الاســلام الذين التزموا بالسعى الجاد لفهم وطاعة تعاليم الله ، وأسس الناس رجالا ونساء صلة صحيحة بالله ، وكذلك بين بعضهم البعض ، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع : « **تعلمن أن المسلم أخ المسلم وأن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه** » (٢) •

ولقد لعبت شــعائر وتصرفــات معينة دورا خاصــا فى الحفاظ على الاحساس بالانتماء للمجتمع ، وكانت اجبارية على كل مسلم من القادرين على أدائها ، وأوجدت رابطا ليس فقط بين أولئك الذين قاموا بأدائهــا معا ولكن بين الأجيال المتعاقبة كذلك ، وتمتد فكرة السلسلة من الشهود من عصر النبى حتى نهاية العالم ، وهى تنقل الحقيقة من جيل لآخر ، وكانت ذات أهميــة قصــوى للثقافة الاسلامية ، وبشكل ما فان هذه السلسلة شكلت التاريخ الحقيقى للجنس البشرى فيما وراء صعود وسقوط السلالات والشعوب •

عرفت هذه الشعائر عامة باسم « أركان الاسلام » أولها شــهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رســـول الله ، وكان نطق هذه الشهادة هو الفعل الرسمى الذى يصبح به الانسان مسلما ، ثم يتكرر يوميا مع شعائر

الصلوات وحوت هذه الآيات فى جوهرها أدوات الايمان التى يميز المسلمون بها أنفسهم عن الملحدين والمشركين ، كما تميزهم أيضا عن المسيحيين واليهود الذين يعيشون ضمن نفس التراث التوحيدى ، وأن هناك الها واحدا،وأنه قد بين مشيئته للجنس البشرى من خلال سلسلة من الأنبياء ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء الذى تنتهى به هذه السلسلة ، ويقوم المسلم يوميا فى شعائر صلاته بتكرار هذا المعتقد الأساسى والصلاة هى ثانى الأركان ، وفى البداية كانت تؤدى مرتين يوميا (*) ٠

ولكن ساد الاعتقاد بأنها يجب أن تؤدى خمس مرات يوميا : الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ويعلن عن أوقات الصلاة علنا بالأذان ويقوم به المؤذن من مكان عال عادة ما يكون المئذنة الملحقة بالمسجد، وللصلاة شكل محدد فبعد الوضوء يؤدى المصلون عددا من الحركات الجسدية من انحناء وركوع وسجود ، مع ترديد عدد من النصوص التى لا تتغير ، وتعبر عن عظمة الله وخضوع الانسان فى حضرته ، وبعد اتمام هذه الصلوات يمكن أن يعقبها الدعاء والاسترحام الفردى (الدعاء) ٠

ويمكن أن تؤدى هذه الصلوات فى أى مكان الا الأماكن التى تعتبر غير طاهرة ، وتفضل الصلاة فى الجماعة مع الآخرين فى الزاوية أو المسجد، وهناك صلاة معينة على وجه الخصوص يجب أداؤها مع الجماعة وهى صلاة الجمعة ، وتقام فى مسجد من نوع خاص (المسجد الجامع) وفيه (المنبر) وبعد صلاة تحية المسجد يعتلى الخطيب المنبر لالقاء خطبة تكاد تكون تقليدية : تحتوى على حمد الله والثناء عن النبى ، ثم موعظة أخلاقية غالبا ما تتناول المسائل العامة للمجتمع ككل ، وتختتم بالدعاء الى الله وبمباركة الحاكم الذى أصبح ذكره فى الخطب بهذا الشكل واحدا من علامات السيادة ٠

وكان الركن الثالث بشكل ما امتدادا لفعل الصلاة وهو الزكاة أى اعطاء الصدقات من دخل المسلم لتصرف للفقراء والمحتاجين والمدينين واعتاق العبيد وضيافة المسافرين ٠ كان اخراج الزكاة لزاما على أولئك الذين يتعدى دخلهم حدا معينا باخراج نسبة من دخلهم يجمعه ويوزعه الحاكم أو مسئولوه ، ولكن المزيد من العطايا يمكن اعطاؤه لرجال الدين ليقوموا بتوزيعه أو يعطى مباشرة للمحتاجين ٠

(*) كانت الصلاة ركعتين فى كل وقت ثم اختلف عدد ركعاتها ـ (المترجم) ٠

كان هناك ركنان لا يقلان الزاما على المسلم ، ولكنهما يؤديان بمعدل أقل ٠ وهما تزكيات رصينة وقورة بسيادة الله وخضوع الانسان له فى أوقات معينـــة من السنة الهجرية وقد استخدمت السنة القمرية لأسباب دينية ، وهى تقل أحد عشر يوما تقريبا عن السنة الشمسية ، وهذا التقويم المستخدم فى الأغراض الدينية والمعتمد بشكل عام فى المدن لم يكن من الممكن استخدامه لدى المزارعين،الذين تحتل الأحداث المهمة عندهم أهمية قصوى كالمطر وفيضان الأنهار والتغيرات الجوية بين الدفء والبرودة وقد استخدم معظمهم (التقويم الشمسى القديم) ٠

هذان الركنان همـــا الصوم مرة فى العام فى شهر رمضان ، والحج الى مكة مرة واحدة على الأقل فى العمر ، وخلال رمضان وهو الشهر الذى أنزل فيه القرآن يتعين على كل المسلمين فوق سن العاشرة ، الامتناع عن الطعام والشراب والجمـاع من شروق الشمس حتى غروبهـ ، باستثناء المرضى ممن هم أضعف من احتمال ذلك والمختلين عقليا ، والمرتبطين بأعمال شاقة أو حرب أو المسافرين ، وكان ذلك تعبيرا وقورا عن التوبة عن الخطايا وانكار الذات حبا فى الله٠ وعلى المسلم الصائم أن يبدأ يومه بذكر النية(*)، ويجعل الليـــل لصلوات خاصـــة ، وفى حين يتقرب المسلمون الى الله بهذه الشعائر يقتربون من بعضهم البعض ، وتجربة الصوم الجماعى مع القرية كلها أو المدينة تقوى الشعور بالمجتمع الواحد ، لينتشر ذلك الشعور عبر الزمان والمكان ، وساعات ما بعد هبوط الليل تنقضى فى الزيارات والواجبات الاجتماعية ، ويحتفل بنهاية شـــهر رمضان ، كأحد عيدين فى التقويم الهجرى ، بالفرحة والزيارات والهدايا وهو عيد الفطر ٠

وعلى المسلم القادر أن يحج الى مكة مرة واحدة فى العمر على الأقل ٠ ويمكنه زيارتها فى أى وقت من السنة (العمرة) ولكن الحج الكامل بمعناه هو زيارتهـــا مع غيره من المسلمين فى وقت خـــاص من السنة (شـــهر « ذو الحجة ») ولم يكن الحج مفروضا على غير الأحرار ، أو المختلين عقليا ، او من لا يملكون الموارد المالية الكافية ، أو من تقل أعمارهم عن حـــد معين وحسب بعض المصـــادر والآراء ليس الحج مفروضا على النســـاء بلا زوج أو راع لمصـــاحبتهن ، وهنـــاك أوصاف لمكة والحج كمـــا كان يؤدى فى القرن الثانى عشر ، مما يبين أنه فى ذلك الوقت كان هناك

(*) ليس هذا ضروريا كما هو معروف لان النية محلها القلب ـ (المراجع) ٠

اتفاق حول الطريقة التى يتصرف بها الحاج وما يتوقع أن يجد فى نهاية رحلته (*) .

ومعظم الحجاج يذهبون فى جماعات كبيرة تتجمع فى احدى المدن الكبيرة فى العالم الاسلامى ، كان أهمها جميعا فى العصر المملوكى الحج من القاهرة ودمشق ، وكان الحجيج من المغرب يذهبون عن طريق البحر أو البر الى القاهرة حيث يلتقون بالحجيج المصريين هناك، ثم يسافرون برا عبر سيناء ثم جنوبا فى غرب الجزيرة العربية الى المدن المقدسة فى قوافل منظمة تحت حماية وقيادة مصر ، وكانت الرحلة من القاهرة تستغرق بين ثلاثين وأربعين يوما وبنهاية القرن الخامس عشر كان حوالى ٣٠ ــ ٤٠ ألف حاج يقومون بهذه الرحلة سنويا ، حيث يلتقى القادمون من الأناضول وايران والعراق وسوريا فى دمشق ثم الرحلة بالقوافل التى ينظمها حاكم دمشق ، وتستغرق قرابة ثلاثين الى أربعين يوما يقوم بها ما بين ٢٠ ــ ٣٠ ألف حاج سنويا . وكانت تذهب مجموعات أصغر من غرب أفريقيا عبر السودان والبحر الأحمر ، ومن جنوب العراق وموانىء الخليج عبر أواسط الجزيرة .

فى نقطة معينة عند الاقتراب من مكة يطهر الحاج نفسه بالوضوء (**)، ويضع لباس الاحرام الأبيض المصنوع من قماشة واحدة ، ثم يعلن عن نية الحج بنوع من القسم « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك » (٣) .

وبمجرد وصوله الى مكة ، يدخل الحاج المنطقة المقدسة (الحرم) ، حيث توجد مواقع ومبان لها مكانة خاصة وذكرياته ، وبحلول القرن الثانى عشر على أكثر تقدير اتخذت شكلها الحالى : بئر زمزم التى فتحها سيدنا جبريل لينقذ هاجر وابنها اسماعيل ، والحجر الذى انطبع عليه قدم ابراهيم عليه السلام ، وأماكن معينة مرتبطة بالأئمة على اختلاف المذاهب الشرعية ، وفى قلب الحرم تقف (الكعبة) البناء المربع الذى طهره محمد صلى الله عليه وسلم من الاصنام والأوثان ليصبح مركز الالتزام الدينى الاسلامى والحجر الأسود (الأسعد) موجود فى أحد حوائطها ، ويطوف الحجيج بالكعبة سبع مرات مع لمس أو تقبيل هذا الحجر كلما مروا به ، وفى اليوم الثامن من الشهر يخرجون من مكة متجهين شرقا الى جبل

(*) للحج شكل ثابت منذ البداية والمقصود هنا المحمل وموكب كسوة الكعبة ونقله الى الحجاز ــ (المترجم) .

(**) يفضل الاستحمام كما هو معروف ــ (المراجع) .

عرفات حيث يقفون لفترة (وقفة عرفات الفعل الأساسى فى الحج حيث الحج عرفة) · وفى طريق العودة الى مكة هناك شعيرتان رمزيتان أخريان ، يتم أداؤهما وهما رجم شاهد يمثل الشيطان بالأحجار (*) والتضحية بالأغنام ، وبهذا تنتهى فترة النذر التى بدأت بالاحرام ، ويخلع الحاج ملابس الاحرام ويعود الى الحياة الطبيعية المادية ·

ويعتبر الحج من نواح عديدة الحدث المركزى فى العام ، وربما فى العمر كله ، فهو تعبير عن وحدة المسلمين مع بعضهم البعض فى أجلى صورها ، وبمعنى ما كان تمثيلا لكل أنواع السفر ، وكان أولئك الذين يذهبون للحج فى مكة قد يبقون لتحصيل العلوم والدراسة ، ويمكن أن يحضروا معهم بضائعهم لبيعها فى الطريق أو فى المدن المقدسة ، وكان الحج أيضا سوقا لتبادل الأخبار والأفكار من كل أجزاء العالم الاسلامى ·

وقد عبر الرحالة الشهير ابن بطوطة عن معنى تجربة الحج بقوله : « من أعجب صنائع الله سبحانه وتعالى أن خلق قلوب الرجال على الرغبة الفطرية فى البحث عن المزارات المقدسة والتوق الى تقديم أنفسهم فى مواقعها الزاهرة وقد أعطى حبهم قوة على قلوب الرجال بحيث لا ينيرها القلب كله أو يتركها الا بالحزن على فراقهم » (٤) ·

والحج من شعائر الخضوع لله التى نص عليها القرآن « **ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا** » (٥) ، فيحج اليه الآلاف من العالم الاسلامى معا فى وقت واحد، يطوفون جميعا حول الكعبة ، ويقفون بعرفات ويرجمون ابليس ، ويقدمون أضحياتهم ، فيرتبطون بعالم الاسلام بكامله ، وكان سفر وعودة الحجاج مناسبة احتفال رسمى تسجل فى مسارد التاريخ ، وترسم على جدران المنازل ، وكان الحاج عندما يقدم أضحيته فى منى ، يقوم كل بيت مسلم بذبح أضحيته ليرمز الى ثانى الأعياد الكبرى للسنة الهجرية ، وهو عيد الأضحى ·

وكان الاحساس بالانتماء لجماعة من المؤمنين يعبر عن نفسه فى فكرة أن من واجب المسلم رعاية مصالح وحماية المجتمع ، وتوسيع آفاقه ما أمكن ، وكان الجهاد ضد أولئك الذين يهددون المجتمع سواء أكانوا من الكافرين المعادين من خارجه ، أم غير المسلمين بداخله ممن انتهكوا عهد

(*) الشعيرة المعروفة برمى الجمرات ــ (المراجع) ·

الحماية (*) وكان الجهاد يعتبر فريضة تعادل أحد أركان الاسلام ، وكان واجب الجهاد كغيره من الفرائض مبنيا على آية قرآنية : « **يا أيها الذين امنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** » (٦) ٠

وقد أسهب الفقهاء في تعريف طبيعة هذه الفريضة وحدودها ، ولم يكن الجهاد التزاما فرديا على المسلمين ، ولكنه كان فريضة جماعية ، على المجتمع (**) لتوفير عدد كاف من المقاتلين،وبعد التوسع الكبير للاسلام في القرون الأولى ومع بدايات الهجوم المضاد من أوروبا الغربية ، أصبح ينظر للجهاد بمنظور دفاعي أكثر منه توسعيا ٠

بالطبع ، فلم يلتزم كل من سمى نفسه مسلما بهذه الالتزامات بقدر متساو من الجدية أو أعطى نفس المعنى لتحقيقها ، فكانت هناك مستويات مختلفة من الايمان الفردى واختلافات عامة بين اسلام المدينة والريف ، وكان هناك نطاق متباين من الالتزام يتراوح بين طالب العلم والتاجر التقى فى المدينة ممن يؤدون الصلوات اليومية والصوم السنوى ويدفعون الزكاة ويؤدون الحج ، وبين البدوى العادى الذى لا يصلى بانتظام ولا يصوم رمضان ، لأنه يقضى حياته على حافة الجوع والحرمان ولا يؤدى الحج ولكنه يشهد بأن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ٠

أوليـــاء الله

منذ البداية كان هناك بعض أتباع للنبى لم يكن لالتزامهم الظاهرى قيمة ، ما لم يعبروا عن اخلاص النية والرغبة فى طاعة تعاليم الله من منطلق الاحساس بعظمته وضآلة الانســان ، وما لم يعتبر هذا الاخـلاص أساسا للنظام الأخلاقى الذى يجب أن يمتد ليشمل حياتهم كلها ٠

ومنذ تاريخ مبكر ، أثارت الرغبة في نقاء النية ميلا الى التنسك ربما كان مصدره تأثير رهبان المسيحية الشرقية ، وكان وراء ذلك فكرة تقول بأن هناك علاقة بين الله والانسان خلاف مجرد اطاعة التعاليم : علاقة يطيع فيها الانسان مشيئة ربه حبا فيه ورغبة فى التقرب اليه ، وبذلك يصبح قادرا على الاحساس بحب الله له ٠ ومن مثل هذه الأفكار والممارسات التى

(*) الشعيرة المعروفة برمى الجمرات ـ (المراجع) ٠

(**) فرض كفاية بمعنى ان المجتمع ككل اذا قام بهذا الواجب يسقط عن الأفراد الذين لم يجاهدوا لسبب او لآخر ٠ أما ان تقاعس المجتمع عن هذا الفرض ، فان كل أفراده يأثمون ، فالجهاد فرض كفاية وليس فرض عين ـ (المترجم) ٠

نشأت على اساسها خلال هذه القرون ، نشأ تفصيل تدريجي حول فكرة الطريق التي يتقرب بها المؤمن الحق من الله ٠ والذين آمنوا بهذه الفكرة وحاولوا تطبيقها ، عرفوا تدريجيا باسم الصوفية٠وبالتدريج أيضا ظهر مفهوم عام وان كان غير مكتمل حول المقامات على هذه الطريق ، وكان المقام الأول هو التوبة أي التخلي عن خطايا الحياة السابقة .قد يؤدي الى الاقلاع حتى عن الأمور المباحة والتي تؤدي الى تشتيت الروح عن البحث عن المقصد السليم ، ويمضي الساعي على هذه الطريق ليتدرج الى مقام التوكل على الله والصبر على مشيئته ، وبعد فترة من الخوف والأمل قد يأتي الالهام أو التجلي من الذات المقدسة : صحوة روحية تذوب فيها كل الغايات والمقاصد ولا يتبقى سوى الله ، وتفني الصفات الانسانية للساعي في هذه الطريق عندما يصل الى هذه النقطة ، ويحل محلها قدرات الهية تترك آثارها ، اذ تتحول الروح بمجرد عودتها الى عالم الحياة اليومية ٠

وهذه الخطوة تجاه التوحد مع الله تؤثر على المشاعر والعقل والروح، وتتجلى مع المقامات المختلفة بركات أو أحوال ، وهي حالات مشاعر فياضة أو تجارب عنيفة لا يمكن التعبير عنها سوى بالاستعارات والرموز والصور ، وقد تطور تدريجيا ، في اللغة العربية واللغات الأدبية الأخرى في عالم الاسلام ، نظام من الصور الشعرية يحاول الشاعر فيها أن يوضح حالات التجلي ، التي يمكن أن تتجلى على الطريق نحو العرفان وهدفه من التوحد ٠ وقد استخدمت صور الحب الانساني التي يكون فيها المحب والمحبوب كل منهما مرآة للآخر ونشوة من النبيذ ، وعبر عن الروح كقطرة ماء في المحيط الالهي المقدس ، أو كطائر يبحث عن زهرة يتجلى فيها صورة للاله ، والصور الشعرية غامضة بحيث لا يسهل دائما القول هل يقصد الشاعر التعبير عن الحب الانساني أم عن الحب الالهي ٠

وكان المسلمون الجادون واعين لخطورة هذه الطريق ، حيث ان الساعي فيها يتوه ، وقد تعصف بعقله التجليات ٠ وكان من المعتقد أن بعض الأرواح الانسانية قادرة على السعي فيه وحدها ، كما أن تغرق فجأة في المتعة أو أن تقوده روح معلم ميت أو النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ، الا أن معظم الساعين كانوا يعتقدون أنه من الضروري قبول وتعليم وتوجيه من هم أكثر تقدما على هذه الطريق من أساتذة الحياة الروحية (شيخ أو مرشد) وطبقا للقول الذي أصبح شائعا « من لا شيخ له فالشيطان شيخه » وعلى المريد أو التلميذ أن يتبع شيخه خاضعا مستسلما كالجثة بين يدي من يقوم بغسلها ٠

وفي أواخر القرن العاشر والحادي عشر بدأ تطور جديد، اذ أن أولئك الذين كانوا أتباعا لنفس المعلم بدءوا في تعريف أنفسهم كعائلة روحية واحدة تمضي على نفس الطريق (طريقة) ، واستمرت بعض هذه العائلات لفترة زمنية طويلة وأعلنت انتماءها لأساتذة عظام للحياة الروحية التي سميت الطريقة بأسمائهم وينتمون بدورهم الى النبي صلى الله عليه وسلم من خلال علي أو أبي بكر (*) . وانتشرت بعض هذه الطرق في مساحات واسعة في العالم الاسلامي حملها تلاميذ أعطاهم الشيوخ تعهدا بالتدريس على طريقتهم ، وفي معظم الأحوال لم يكونوا على قدر كبير من التنظيم ، وكان يمكن لتلاميذ أستاذ ما أن يؤسسوا طرقهم الخاصة ولكنهم على وجه العموم اعترفوا بتبعيتهم للأستاذ الذى تعلموا عليه الطريقة ، ومن بين أكثر هذه الطرق انتشارا ودواما كان بعض الذي بدأ منها في العراق مثل « الرفاعية » التي تعود الى القرن الثاني عشر و « السهروردية » في القرن الثالث عشر و « القادرية » المسماة باسم عالم بغداد عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧/٨-١١٦٦) والتي لم تظهر بوضوح الا في القرن الرابع عشر ، ومن الطرق التي نبتت في مصر كانت « الشاذلية » أكثرها انتشارا ، خاصة في المغرب حيث نظمها الجزولي (ت ١٤٦٥) وفي أجزاء أخرى من العالم الاسلامي كانت هناك طرق وجماعات مهمة على سبيل المثال « المولوية » في الأناضول و « النقشبندية » في آسيا الوسطى ، وبعض هذه الطرق انتشرت فيما بعد في البلاد التي تتحدث العربية .

وقد وهب البعض من أتباع هذه الطرق حياتهم بالكامل للطريقة ، حيث يعيشون في زاوية (خانقاه) بعضها قد تكون مباني صغيرة في المدن ، ولكن بعضها الآخر قد يكون أكبر ، وتضم مسجدا وخلوات للرياضة الروحية ، ومدارس ونزلا للزائرين ، وكلها تتناثر حول مقام شيخ الطريقة الذى سميت باسمه ، وعاش معظم أفراد الطريقة بشكل معتاد في الدنيا بمن فيهم من نساء ورجال ، وقد كان الانضمام الى الطريقة عند بعضهم اسميا ولكن عند الآخرين كان ذلك يعني بداية جادة بالالتزام بالمذهب وطقوسه التي يمكن أن تساعدهم في سعيهم في الطريق نحو المتعة في التوحد .

وتختلف الطرق فيما بينها في نظرتها للعلاقة بين طريقتي (**)

(★) ليس بالضرورة - (المترجم) .

(★★) ظل الاسلام حتى بداية القرن الثاني للهجرة على الأقل وليس فيه الا طريق واحد هو خلاصة الكتاب (القرآن الكريم) والسنة (أحاديث الرسول وأفعاله وأقواله) مع المحافظة على أشكال الشريعة والروح (المضمون) بمعنى أن الأعمال بالنيات ، أما الطريق الثاني الذى يذكره المؤلف فهو وافد من حضارات وديانات أخرى . (المراجع) .

الاســلام : طريق الشريعة وهو طاعة القـانون المستمد من تعاليم الله في القرآن ، وطريقة «الحقيقة» التي تبحث عن العرفان المباشر للذات الالهية . فكانت هناك من ناحية الطرق العقلانية التي قالت بأن فناء الذات ونشوة الرؤى الصــوفية ، يجب أن يتبعها المؤمن الى عالم الحيــاة اليومية ليعيش ضمن ضوابـط الشريعـة لأداء واجباته تجاه الله والبشر ، بحيث يمنحها معنى جديدا ، وعلى الجانب الآخر يقف أولئك المفتونون بتجربة التوحد مع الذات الالهية مع الاحسـاس بالحضـور الإلهي المقدس بحيث يعيشـون حياتهم في عزلة ، وأصـبحوا لا يأبهون عما اذا كانوا يستحقون اللوم عن اهمالهم واجباتهم التي فرضتها عليهم الشريعة ، ويتعمدون تحمل هذا اللوم كطريقة تساعدهم على الابتعاد عن العالم (الملاماتية) ، وقد كان الجمهور الأول من أولئك القائلين بالانحدار من فكر الجنيد ، والثاني لأولئك الذين اتخذوا أبا اليزيد البسطامي أستاذا شيخا ومعلما .

وقد كانت هنــاك اجراءات للدخـول في الطريقة هي أخذ العهد بالاخلاص والولاء للشيخ ، ثم تسلم عباءة خاصة منه (الخرقة) ، وتعلم صلاة غير معلنة (ورد أو حزب) ، وبالاضافة الى الصلوات الفردية كانت هناك طقوس تمثل الشعائر المركزية للطريقة والخصائص التي تميزها عن الطرق الأخرى ، وهي الذكر (تكرار اسم الله) بنية تحويل الروح عن كل ما يشغلها من ملهيات الدنيـا ، وتحريرها للرحلة تجاه التوحد مع الله ، ويمكن للذكر أن يأخذ أكثر من شكل واحد ، ففي بعض الطرق خاصة في «النقشبندية» هو تكرار صامت تصحبه طريقة معينة للتنفس ، مع تركيز انتبـاه العقل على أجزاء معينة من الجسم ، وعلى الشيخ مؤسس الطريقة المسماة باسمه أو على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي معظم الأحوال كانت الطقوس الجماعية (حضرة) تؤدي بانتظام في أيام معينة من الأسبوع في زاويه خاصــة بالطريقة ، والمشتركون فيها ينتظمون صفوفا لتكرار اسم الله (الذكر) ، وقد تصاحب ذلك الموسيقى أو الشعر ، وفي بعض الطرق رقصــات طقسية كالرقصـة الرشيقة الدائرية عنـد المولويين ، وقد يكون هناك بعض التعبير عن فضائل ونعم معينة بسكاكين تخترق الجلود أو بنيران توضـــع في الأفواه ، ويتســارع التكرار والحـركة حتى يفقد المشاركون الوعي بالعالم الحسي من حولهم .

وقد أحاط بهذه المشاهد العامة بعض الظلال من العبادات الخاصة : مدح الله ، والتعبير عن الحب له ، والتضرع لاسباغ النعم الروحية بعضها

كان تدفقـــات موجزة لمدح الله أو طلب الرحمـة والبركة ، والصلاة على النبي ، وبعضها كان أكثر احكاما :

تبارك الله الذى تحمده الجبـال وما تحمل

وتحمـــده الأشجار وهى تنبت أوراقهـــا

وتحمـــده النخيل عنـــد نضج ثمـــارها

وتحمده الرياح السارية فى طرق البحر !! (٧)٠

وقد نسبت مقتطفات من هذا الشعر الى شـــيوخ وأسـاتذة عظام للحياة الروحية ٠

ولقد كانت فكرة وجود طريقة يتقرب بها الانسـان الى الله تختلف عن مجرد كونه مخلوقا وعبدا مواليا له على الدوام ، تجد صدى لها فى آية قرآنية : « **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة** » وتدريجيا ظهرت نظرية الولاية ، فولى الله هو الذى يكون دائما فى حضرته ، وأفكاره لا تتسع لغيره ، والذى يسيطر على الشهوات البشرية التى تبعد الانسان عن الله ، ويمكن أن يكون الرجل أو المرأة وليا ٠ وقد كان فى العالم دائما أولياء وسوف يبقون فيه ليظل مستقرا متزنا وقد اتخذت هذه الفكرة مع الزمن تعبيرا نمطيا ، هو أن ، هناك دائما عددا معينا من الأولياء فى العالم ، اذا مات أحـدهم يخلفه ولى آخـر ، وهم يمثلون الحكام غير المعروفين للعالم ، يتوسطهم القطب الذى تدور حوله الدنيا ٠

وأولياء الله يمكن أن يتشفعوا لديه نيابة عن الآخرين ، ويمكن أن تكون لشفاعتهم نتائج مرئية فى العالم ، ويمكن أن تؤدى الى شفاء الأمراض والعقم أو التخلص من سوء الحظ ، وهذه الكرامات هى اثبات لقداسة هؤلاء الأولياء ، وأصبح من المعتقد أن القوى الخفية التى يحقق الولى بها الكرامات ، يمكن أن تستمر بعد موته أو موتها ، ويمكن الدعاء للشـفاعة عند قبره أو قبرها (*) ، وقد أصبحت الزيارات لأضرحة الأولياء ولمسها أو الصلاة الى جوارها جزءا مكملا لممارسات التعبير عن الولاء رغم أن بعض المفكرين

(*) المؤلف هنا يورد الاعتقادات السائدة بصرف النظر عن صحتها ـ (المراجع) ٠

المسلمين اعتبروا ذلك بدعة خطيرة ، لانها أوجدت وسيطا بشريا بين الله وعباده ، وأضرحة الأولياء رباعية الشكل ولها قبة ذات لون أبيض من الداخل ، تبنى مستقلة أو داخل مسجد ، أو أن تكون نواه تنمو حولها زاوية وكان ذلك من الخصائص المنتشرة للمشاهد والمدن الاسلامية .

وكما لم يرفض الاسلام الكعبة وان أعطاها معنى جديدا ، كذلك قام معتنقو الاسلام باستحضار تراثهم الثقافى الغابر . ولقد كانت فكرة أن بعض الأماكن هى بيوت الآلهة أو الأرواح ذات القوى الخارقة منتشرة منذ قديم الأزل فالأحجار من أنواع غير عادية ، والأشجار العتيقة ، وينابيع المياه المنبثقة بشكل طبيعى من الأرض ، كان ينظر اليها كعلامات مرئية لوجود الله أو الأرواح التى توجه اليها الابتهالات والرجاء ، وتقدم اليها القرابين بتعليق السجاد أو ذبح الأضاحى ، وقد أضحت مثل هذه الأماكن فى العالم الذى انتشر فيه الاسلام مرتبطة بالأولياء المسلمين ، وبهذا اكتسبت مدلولات جديدة (*) .

ولقد أصبحت بعض هذه الأضرحة مراكز كبرى للشعائر الدينية الشعبية . فأصبح يوم مولد أو ذكرى يوم خاص فى تاريخه (الولى) مناسبة احتفال شعبى يتجمع فيه المسلمون من المناطق المحيطة أو البعيدة للمس المقام أو الصلاة أمامه ويشاركون فى الاحتفالات من مختلف الأنواع ، وبعض هذه التجمعات كانت لها أهمية محلية فقط ، ولكن البعض الآخر كان يجتذب زوارا من أماكن بعيدة ، وكان من بين هذه الأضرحة التى أصبحت (وطنية)، ضريح مولاى ادريس (ت ٧٩١) مؤسس مدينة فاس الذائع الصيت ، وأبو مدين (١١٢٦ ـ ٩٧ ت) فى تلمسان غرب الجزائر ، وسيدى محرز الولى الأكبر للبحارة فى تونس ، وضريح أحمد البدوى (١١٩٩ ـ ١٢٧٦ت) فى طنطا من دلتا مصر . وهو مركز الثقافة الذى وجد فيها الدارسون أحياء لعبادة «بوباست» المصرية القديمة ، وعبد القادر الذى سميت الطريقة القادرية فى بغداد باسمه .

وبمرور الوقت أصبح ينظر الى النبى صلى الله عليه وسلم وعائلته من منظور الولاية ، وساد الاعتقاد بأن شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ستعمل على خلاص كل من آمنوا به ، وأصبح ينظر اليه كولى ونبى وأصبح قبره فى المدينة مكانا للصلاة والتوسل، ويزار بشكل مستقل

(★) راى الراى نفسه الرحالة ردولف الذى زار مصر فى أواخر عهد اسماعيل . انظر رحلته . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الألف كتاب الثانى) ـ (المراجع) .

كامتداد للحج (*) ، وأصبح مولد النبى مناسبة للاحتفال الشعبى ، ويبدو أن هذه العادات بدأت وتنامت فى عصر الخلفاء الفاطميين فى القاهرة وانتشرت بشكل واسع فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وقد ساد الاعتقاد بأن للولى الحى أو الميت قوى دنيوية ، خاصة فى الريف حيث تنعدم البيروقراطية المنظمة مما يسمح بالحركة الحرة للقوى الاجتماعية . وقد أصبح محل اقامة الولى الحى أو ضريح الولى المتوفى أرضا محايدة يمكن أن يتخذها الناس ملجأ ، وكان أفراد الجماعات المختلفة المتباعدة أو المتخاصمة ، يمكن أن يلتقوا فيها للتصالح والاتفاق . وكان مولد الولى أيضا معرضا ريفيا تباع وتشترى فيه السلع،ويمكن أن يصبح المقام شاهدا لسوق ثابتة أو مخزنا للحبوب من البدو الرحل ، ويمكن أن يستفيد الولى أو سلالته ورعاة ضريحه من سمعته بجمع التبرعات من الزائرين بشكل يمكن أن يجعلهم من الأغنياء ، وتضفى عليهم الشهرة ، وتجعلهم مقصدا فى التحكيم فى المنازعات .

أما رجال العلم والورع ممن عرف عنهم الكرامات وحل المنازعات ، فيمكن أن يكونوا النقطة التى تتجمع الحركات السياسية حولها فى مواجهة حاكم ظالم أو غير شرعى ، وفى بعض الظروف تستمد وضعية مثل هذا المعلم الدينى قوتها من فكرة شعبية منتشرة هى فكرة (المهدى) ، الرجل الذى يهديه الله ويرسله لاستعادة النظام والعدل اللذين سيسودان قبل نهاية العالم ، ويمكن أن نجد أمثلة من هذه الفكرة عبر التاريخ الاسلامى كله ، وربما كان أشهر وأنجح من اعترف به مريدوه كمهدى هو « ابن تومرت » (١٠٨٧ ـ ١١٣٠) وهو مصلح دينى ولد فى مراكش وعاد الى المغرب بعد دراسة فى الشرق الأوسط ، حيث بدأ فى المطالبة بالعودة الى طهارة الاسلام الأولى ، وقد كون هو ومن التف حوله امبراطورية « الموحدين » ، والتى امتدت فى ذروتها على طول المغرب والأجزاء الاسلامية من أسبانيا ، وكان تراثها أساسا لشرعية السلالات اللاحقة وخاصة الحفصيين فى تونس .

(*) المؤلف يذكر عادات الناس ، ومن المعروف أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ليست من مناسك الحج ـ (المراجع) .

الفصل العاشر

تــراث العلمــاء

العلماء والشريعة

نشأ فى قلب المجتمع المؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم رجــال تعلموا القرآن والحديث والفقه ، واعتبروا أنفسهم رعاة المجتمع وخلفـــاء النبى ٠

وقد كان الصراع حول الخلافة السياسية للنبى خلال القرن الاسلامى الأول يحمل فى طياته السؤال حول السلطة الدينية ، وعمن له الحق فى تفسير الرسالة التى نزل بها القرآن وتفسير العبرة في حياة محمد (صلعم)، وعند الشيعة والجماعات المختلفة المنبثقة عنها كانت السلطة تنحصر فى سلسلة من الأئمة هم المفسرون المعصومون للحق الذى جاء به القرآن، الا أنه منذ العصور الاسلامية الأولى كانت الأغلبية من المسلمين فى البلاد التى تتحدث العربية من السنة ، بمعنى أنهم رفضوا فكرة الامام المعصوم الذى يمكن بشكل ما أن يكون امتدادا لتبليغ الوحى الالهى ، لأن ذلك الوحى قد تبلور بشكل تام ونهائى فى القرآن وسنة النبى ، وأولئك الذين يستطيعون تفسيره (العلماء) هم حفظة الوعى الأخلاقى للمجتمع ٠

وبحلول القرن الحادى عشر كان هناك تمييز واضـــح بين المذاهب المختلفة أو مدارس التفسير الشرعى والأخلاقى ، وعلى الأخص المدارس الأربع الأكثر انتشارا ودواما : الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ، وقد كانت العلاقة بين أتباع المذاهب المختلفة عاصفة فى بعض الأوقات ، ففى بغــداد خـــلال العصر العبــاسى تكونت جماعتان حضريتان : الحنفية والشافعية تقاتلتا فيما بينهما ، ثم أصبحت الخلافات بعد فترة أقل اثارة للجدل ، وفى بعض المناطق كان هذا المذهب أو ذاك سائدا وعاما ، وأصبح المالكية تقريبا هم المدرسة الوحيدة فى المغرب ، والشافعية كانت واسعة الانتشار فى مصر وسوريا والعراق وايران والحجاز ، والحنفية فى آسيا

الوسطى والهند ، وأصبح الحنابلة عنصرا مهما فى بغداد والمدن السورية بدءا من القرن الثانى عشر وما بعده ، وكما تعايشت المدارس الدينية مع بعضها ، كذلك كان الحال مع مدارس الفقه ، وعندما كانت احدى الأسر الحاكمة تعين أفرادا من مدرسة معينة فى المناصب الشرعية كان للآخرين قضاتهم وخبراؤهم فى الشرع .

كانت بعض الخلافات بين المذاهب متعلقة بالتعريف المحدد والوزن النسبى لمبادىء الفكر الشرعى (أصول الفقه) ، وفيما يتعلق بالاجماع اعترف الحنابلة باجماع الصحابة فقط وليس باجماع العلماء اللاحقين ، ولهذا فقد فتحوا مجالا أوسع للاجتهاد على أن يقوم به الدارسون وفقا للقواعد الصارمة للقياس ، وهناك مدرسة أخرى هى « بنو زيرى » والتى كانت قوية فى الأندلس لفترة من الوقت ولكنها اختفت فيما بعد ، التزمت فقط بالمعنى الحرفى للقرآن والحديث حسب تفسير الصحابة ورفضت الاجماع والاجتهاد ، كما كان هناك مذهب آخر مماثل قال به ابن تومرت مؤسس أسرة الموحدين حيث ادعى لنفسه موقع المفسر المعصوم الوحيد للقرآن والحديث ، مدرستان فقط سمحتا بشىء من المرونة فى ممارسة الاجتهاد فأكد الحنفيون أن القياس الدقيق لا يستخدم بالضرورة على الدوام ، وأن بامكان العلماء الاعتماد على بعض المفاضلة الفردية فى تفسير القرآن والحديث (الاستحسان) ، وكذلك اعتقد المالكيون بأن طالب العلم يمكنه الذهاب الى أبعد من المماثلة الدقيقة لو كانت فى ذلك مصلحة انسانية (الاستصلاح) .

هذه المبادىء لم تطور أو تناقش لذاتها ، وانما لأنها شكلت قواعد أصول الفقه ، أو السعى الانسانى المسئول عن توصيف تفاصيل الحياة أى الشريعة التى يجب على المسلمين اتباعها لاطاعة ارادة الله ، وكل الأفعال الانسانية فى صلتها المباشرة بالله أو البشر ، يمكن اختبارها على ضوء من القرآن والسنة كما يفسرها أولئك المؤهلون لممارسة الاجتهاد وتنقسم الى خمسة معايير :

الواجب (فرض الكفاية ، وفرض العين) ، المستحسن ، والجائز ، والمكروه ، والمحرم .

وتدريجيا وضع علماء المذاهب المختلفة دساتير للسلوك الانسانى تغطى كل التصرفات الانسانية التى يمكن الرجوع اليها فى القرآن والحديث ، ويعتبر ابن أبى زيد القيروانى (ت ٩٩٦) وهو أحد أساتذة

المدرسة المالكية نموذجا شائعا لمثل هذه الأصول ويبدأ بالشهادة التي يجب أن ينطق بها اللسان ويؤمن بها القلب وهو اعلان الايمان ، ثم يتعامل مع الأعمال الموجهة مباشرة الى الله (العبادات) الصلاة بعد الوضوء ، والصيام وايتاء الزكاة ، وأداء الحج وواجب القتال من أجل قضية الاسلام (الجهاد) • ثم يتناول بعد ذلك ، الأعمال التي يقوم بها الأفراد مع بعضهم البعض (المعاملات) • أولا تأتي مسائل العلاقات الانسانية الحميمة ، الزواج وعقده وحله ، ثم العلاقات ذات المجال الأوسع وهي البيع والعقود المماثلة وتشمل الاتفاقيات التي تهدف الى الربح ، والمواريث ، والأوقاف ، ثم المسائل الجنائية ، وبعض الأفعال المحرمة كالزنا وشرب الخمر والتي يضع القرآن لها عقوبات محددة ، ثم يذكر الضوابط التي يجب على القضاة الذين يقضون في المسائل المحرمة اتباعها ويخلص الى باب للوصايا الأخلاقية :

« ان على كل مؤمن أن يضع حب الله نصب عينيه في كل كلمة يقولها أو في كل فعل يفعله ، ومن لا تتوخى كلماته أو أفعاله حب الله فليست مقبولة ، فالنفاق شرك أصغر ، والتوبة عن كل ذنب واجبة ، ويشمل ذلك عدم الصبر على الذنوب ، ورفع الظلم ، والامتناع عن ارتكاب الأخطاء ، والنية على عدم العودة اليها وليطلب المذنب من الله العفو . وليأمل في الغفران ، وليخف من العقاب ، وليشكر على نعمائه ، ولا ييأس من رحمته (١) » •

وقد كانت هناك بعض الاختلافات بين المذاهب حول مبادىء التفسير سواء من حيث المبدأ أم من حيث التفاصيل ، ولكن معظم تلك الخلافات كان قليل الأهمية ، وقد حدثت اختلافات طفيفة حتى بين علماء المذهب الواحد ، حيث لا يوجد قانون مهما كان مفصلا ومحكما يستطيع أن يتناول كافة الاحتمالات المختلفة من المواقف ، وقد كان هناك قول مأثور ظهر منذ القرن العاشر وما زال يتردد ، حول أنه لا مجال لمزيد من الاسهام الفردي في التفسير في الأمور التي وصل فيها العلماء الى الاجماع ، فقد « قفل باب الاجتهاد » ، ولا يبدو هناك دليل واحد على أن ذلك القول المأثور قد تم العمل به أو لاقى قبولا عاما ، واستمر الاجتهاد في واقع الأمر في داخل كل مذهب على حدة ، كما أنه لم يتم فقط على أيدي القضاة الذين كان عليهم اتخاذ قرارات ، ولكن أيضا من موقع المفتي ، والمفتي أساسا عالم يعرف عنه القدرة على اصدار الأحكام حول القضايا الخلافية ، وذلك عن طريق الاجتهاد ، وقد جمعت الفتاوى التي أفتي بها من اشتهر في الافتاء في أمهات كتب الفقه فيما بعد ، الا أن نشاط الفتوى كان لابد

أن يستمر ، وقد قام الحكام بتعيين مفتين رسميين برواتب ، ولكن الفقيه الذى يتقاضى أتعابه ممن يطلب منه رأيا ، وليس فى نفس الوقت ملزما تجاه الحاكم ، كان يحظى باحترام اجتماعى خاص •

ومن المعتاد الاشارة الى نتاج الفقه بالشريعة باعتبارها القانون الاسلامى وكان لهذا ما يبرره ، حيث انها كانت منذ العصر العباسى وما بعده ، تمثل كيانا من الفكر الذى اعتمد عليه القضاة الذين عينهم الحكام لاصدار الأحكام أو تسوية المنازعات ، وفى الواقع ، فقد كانت أكثر من ذلك لأنها احتوت على أفعال خاصة لا تهم الجار أو الحاكم ، وهى أفعال العبادة أو السلوك الاجتماعى أو ما يسمى بالأخلاق ، والتى كانت تعتبر نموذجا معياريا لكل التصرفات الانسانية ، فى محاولة لتصنيفها ، وضوابط للمسلمين بحيث تصبح الطريقة التى شاء الله لهم أن يعيشوا بها ، وكانت من الناحية الأخرى أقل من قانون لأن بعض أحكامها كانت نظرية فقط ولم تستخدم فى الواقع اطلاقا ، ولأنها تركت مجالات كاملة من الأفعال التى يمكن أن تشملها القوانين بمعناها المعتاد ، فكانت دقيقة للغاية فيما يتعلق بالأحوال الشخصية فى الزواج والطلاق والميراث ، وأقل دقة فيما يتعلق بالتعاقدات والالتزامات وكل ما يرتبط بالأنشطة الاقتصادية ، ولم تغط على الاطلاق ما يسمى الآن بالقانون الجنائى ، وكان القتل يعتبر مسألة خاصة ، وشأنا من شئون العائلات المعنية أكثر من كونه شأنا يجب أن يتدخل فيه المجتمع بكامله ممثلا فى القضاة (*) ، ولم تذكر الشريعة شيئا على الاطلاق عن القوانين الدستورية أو الادارية (**) •

وحتى فى هذه المجالات التى كانت فيها الشريعة دقيقة للغاية ، فقد نازع نفوذها قوة الحاكم أو الممارسات الفعلية للمجتمع ، ففى معظم الأنظمة كان الحاكم أو مسئولوه يتعاملون مع الكثير من الأفعال الاجرامية ، وخاصة تلك التى تتعلق بأمن الدولة ، وكان الحاكم يقرر بنفسه الاجراءات

(★) تقضى الشريعة بقتل القاتل عمدا ، وأن يكون ذلك على يد ولى الأمر (الحكومة) ، وما ذكره المؤلف ربما كان عادات انتشرت فى عصور الانحطاط ـ (المراجع) • • •

(★★) اشارات قرانية واضحة عن الشورى ، ووضع نظام الحسبة بناء على اشارات قرآنية وجدها المفسرون توجب فرض هذا النظام ، واعتبر القرآن الكريم دستورا أو حكما ، ولو بالمعنى اللفظى للكلمة ـ وهذه مسألة خلافية على أية حال ـ (المراجع) •

والعقوبات ، وفي الريف بالمثل كان الفصل في المسائل طبقا للعرف ، وهو عادات المجتمع التي يحافظ عليها ويطبقها كبار السن في القرية أو القبيلة ، وفي بعض الأماكن كانت هناك قوانين مكتوبة عن العادات ، وفي البعض الآخر كانت هناك محاكم أو مجالس عرفية وقد يكون ذلك صحيحا بشكل خاص في مجتمعات البربر في المغرب، ولكن ربما كانت على أية حال ، أمرا استثنائيا في المجتمع الاسلامي .

وكما كانت الشريعة نتيجة عمليـــة بطيئة ومعقدة من الحوار بين المعايير المنصوص عليها في القرآن والحديث وبين العادات والقوانين في المجتمعات التي سيطر عليها الحكم الاسلامي ، فكذلك كانت هناك عمليه مستمرة من التعديل المتبادل بين الشريعة بمجرد اتخاذها شـــكلا محددا وبين الممارسات الإسلامية للمجتمعات ، وقد اتضح على سبيل المثال أن مفاهيم المذهب الحنفي فيما يتصـــل بالمعاملات التجـارية قد تواءمت مع ممارسات التجار المصريين التي سجلت في وثائق مختلفـة ، واتضح أن ما ذكرته الشريعة عن العقود قد جرى وضعه بحيث تكون الفائدة (*) أمرا شرعيا (٢) ، وكذلك كان اصدار الضوابط وممارسات التشريع على أيدى الحكام ومسئوليهم تبررها مبادىء السياسة الشرعية ، بناء على أن الحاكم قد قيضه الله للمجتمع الانساني للمحافظة على الدين والأخلاق ، وحيث ان سلطته اكتسبت المشروعية بالقبول من المجتمع ، فقد كان من حقه اصدار مثل هذه الضوابط واتخاذ هذه القرارات الضرورية للحفاظ على نظـــام اجتماعي عادل على ألا يتخطى الحدود التي وضعتها الشريعـــة ، وكان للحاكم الحق في تحديد أي القضايا يجب ارسالها الى القاضي لاصـدار الحكم ، وأيها يقضي فيها بنفسه .

ورغم أن العرف والشريعة كان يعارض كل منهما الآخـر لأسـباب نظـرية الا أنهما لم يكونا بالضرورة متصـارعين ، وما كان في العرف ولم تعارضـــه الشريعة اعتبر « جائزا » ، وفي بعض أجزاء من المغـرب بالفعل كانت هنـاك محاولة لتفسير الشريعـة في ضوء العادة منذ القرن الخامس عشر وما بعده ، وهناك سجلات في المغرب عن استخدام القضاة في اجراء يسمى « عمل » ، كان من حق القاضي فيه أن يختار من بين آراء

(*) استخدم المؤلف لفظ interest وليس usuary اى الربا ، لكن السياق يدل على انه يقصد الربا ، ولا نعلم ان المذهب الحنفى يجيزه او ابتدع حيلا تجيزه ، وهى مسالة فقهية على اية حال نترك للفقهاء التعليق عليها — (المراجع) .

المحكمين بالعرف ، ما يتطابق مع العادات والمصالح المحلية حتى وان لم تتفق مع اجماع العلماء .

ونحن لا نعرف الكثير عن القانون العرفي في الريف خلال تلك الفترة ولكن الدراسات التى تناولت فترات لاحقة تثبت أن العملية العكسية قد حدثت ، وهى اختراق الشريعة بشكل معين للعادات العرفية ، فالزواج يمكن أن يعقد طبقا للأصول الاسلامية ، ولكن حقوقه وواجبـــاته وقضايا الطلاق والميراث النابعة منه يمكن الفصل فيهـــا بالعرف ، وفى الكثير من المناطق كان توريث الأرض للبنات مخالفا للعادة رغم أنه متفق مع الشريعة، وكانت المنازعات حـول الأملاك والمشـــاركة ترفع للقـاضى فى أقرب مدينة حتى تتم صياغتها بشكل شرعى ، كما كانت الاتفاقات والعقود التى يرغب طرفاها فى اضفاء مصداقية عليها ترفع للقاضى ، ويعبر عنها رسميا بلغة الشريعة ، ولكن الوثائق يمكن أن تفسر فى ضوء العادات المحلية ، ويصف أحد الدارسين لهذه الوثائق فى وادى الأردن أن « العادات غالبا ما كانت المضمون فى حين كانت الشريعة هى الشكل » (٣) .

ميراث العـــلم

كان أســـاتذة الفقه الذين حافظوا على اجماع الأمة أقرب معادل للسلطة التعليمية فى الاسلام السنى ، وكان من الأساسى لديهم التأكد من أن فهم الفقه وقواعده قد انتقل بالكامل من جيل لآخر .

ومنذ وقت مبكر يبدو أنه كان هناك اجراء رسمى لانتقال التعليم الدينى ، فكانت حلقات الطلاب تلتف فى المساجد ــ وخاصة فى المساجد الجامعــة ــ حول المعلم الذى يستند الى عمود لشرح موضـــوع بالقراءة والتعليق على كتاب ، وقد نشأ على الأقل منذ القرن الحادى عشر نوع من المؤسسات المخصصة للدراسات الشرعية والفقهية (المدرسة) ، تعزى بدايتها غالبا لنظام الملك (١٠١٨ ــ ١٠٩٢) الذى كان وزيرا لأول حاكم سلجوقى لبغداد ، ولكن ذلك يرجع الى زمن ســابق ، فرغم أن المدرســة لم تكن دائما ملحقة بمسجد ، كانت تضم مكانا لاقامة الطلاب ، وكانت تنشأ كوقف أوقفه أحد الواهبين مما أكسبها صفة الدوام ، ولهذا فقد كان العائد مخصصا لأغــراض دينيــة أو خيرية ولا يمـــكن حله وكانت تستخدم الوهبة (*) لصيانة المبنى ودفع أجر المدرسين الدائمين ، وفى

(*) أو الهبة .

بعض الأحوال يشمل الجراية أو توزيع الأغذية على الطلاب ، ومثل هذه الأوقاف كان ينشئها شخص غني ، ولكن أعظمها وأكثرها استمرارا كانت تلك التى بنـــاها الحكام أو كبار المسئولين فى العراق وايران ابان حكم السلجوقيين ، وفى سوريا ومصر خلال الفترة الأيوبية والمملوكية ، وفى المغرب فى حكم بنى مرين والحفصيين ·

وقد بنيت بعض المؤسسات لتعليم القرآن والحديث ولكن الغرض الأساسى لمعظمها كان دراسة وتعليم الفقه ، فعلى سبيل المثال : كان بالمدرسة التنكزية فى القدس والتى أوقفت فى العصر المملوكى أربـــع قاعـات (ايوانات) تنفتح على ســاحة مركزية ، كانت احداها لتعليم الحديث ، والثانية للفقه الحنفى ، والثالثة للصوفيـــة ، وكان المسجد هو القـاعة الرابعة ، وقد أوقف الوقف للانفاق على خمســة عشر طالبا فى الفقه ، وعشرين من طلاب الحديث ، وخمسة عشر من طلاب الصوفية ، والأساتذة لكل منهــا ، وكان الطلاب ينـامون فى المدرســة وكان هناك أيضا ملجأ لاثنتى عشرة أرملة (٤) ، وكانت المدرسة يمكن أن توقف على تعليم مذهب واحد فقط أو أكثر من مذهب أو المذاهب الأربعة كلها ، وقد كانت مدرسة السلطان حسن بالقاهرة تحتوى على مدرسة لكل مذهب ، وتفتح جميعا على ساحة مركزية ، تقدم البرامج التقليدية للتعليم ، وكان استاذ الكرسى يترك لمعاونيه تدريس الموضوعات الثانوية ، والطالب الذى يلتحق بالمدرسة عادة ما يكون قد مر بمدرسة أقل فى المستوى (كتاب) ، حيث تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن · وفى المدرسة يتعلم موضوعات ثانوية مثل قواعد اللغة العربية ، وحوليات الفترة المبكرة من الاســلام ، ولكن الدراســـة الرئيسية هى العلوم الدينية : وهى تلاوة وتفســير القرآن والحديث ، وأصول الدين والفقه ، وكانت الطريقة الرئيسية للتعليم هى أن يعرض المدرس النص ، وقد يعيده فيما بعد مساعدوه بشىء من التفصـــيل ؛ وكان التركيز على حفظ ما يلقى على الطلاب وتفهم ما يمكن تذكره ·

وفى المرحلة الأولى من الدراسة التى تستمر عادة لعدة ســنوات يتعلم الطالب الفقه الذى يجمع عليه أساتذة المذهب ، وكان الكثير من الطلاب لا يتقدمون الى ما هو أبعد من ذلك وقليل منهم يتدربون للحصول على وظائف فى القضاء وربما كان ذلك من حظ أبنــاء التجار ، وكان الآخرون يتلقون لسنوات مثل هذا التعليم ، وعلى مستوى أعلى كانت هنـــاك شريحة من المسائل الفقهية التى ثار حولها خلافات فى الرأى حتى فى اطار المذهب الواحد ، وحيث ان اختلاف الظروف التى طبقت فيها المبادىء القانونية

كان بلا حدود ، فكان على الطلاب الراغبين في أن يصبحوا أسـاتذة في الفقه الاستمرار في التعليم لفترة أطول ، لبلوغ مستوى عال من التدرب على الاجتهـاد ، الذى كان يتم بطريقـة المناظـرة المنطقية الرسـمية ، والتي تبدأ باعداد البحث ، ثم يجرى الرد عليه ببحث أو مناقضة على أن يعقب ذلك مناظرة من المعارضات والاجابات ٠

وعندما ينتهى الطالب من قراءة كتاب مع أستاذه يمكنه أن يطلب منه الاجازة وهى شهادة تفيـد بأن فلانا قد درس كتـابا تحت اشراف فلان ، وعلى مستوى أعلى يمكنه أن يطلب اجازة من نوع آخر تشهد بأنه قادر على ممارسة الاجتهاد كمفت ، أو قادر على تدريس كتاب أو موضوع معين ، وعلى هذا المستوى العالى كان من المعتاد أن ينتقل الطالب من مدرس الى آخر ، ومن مدينة لأخرى ، وأن يطلب اجازات من كل من تتلمذ على أيديهم ، ومثل هذا الاجراء كان له ما يبرره فى الحديث الشريف الذى يحض المسلم على طلب العلم (اطلبوا العلم ولو فى الصين) ٠

والاجازة يمكن أن تكون وثيقة دقيقة أعدت بعنـاية تذكر فيهـا السلسلة من الأساتذة الذين تلقى العـلم على أيديهم بالتتابع على مدار الأجيال ، وهكذا يدخل اسم الطالب ضمن سلسلة طويلة من الأسـلاف المثقفين ، ويمكن أن يعبر ذلك ضمنا عن فكرة معينة عما يجب أن تكون عليه حياة المسلم المتعلم ، وبلا شك كانت هناك انتهاكات لهذا النظام فنحن نقرأ عن اجازات أسيء استخدامها أو حرفت لاستخدامات أخرى ، ورغم ذلك فان طالب العلم كان أحد الأنماط المثالية للرجل المسلم ، والتى دامت طوال قرون ، هذه هى الطريقة التى سار فى دربها طالب طب وعلوم شرعية فى بغداد هو عبد اللطيف البغدادى (٣/١١٦٢ - ١٢٣١) الذى يصف ما يجب أن يكون عليه طالب العلم فيما معناه :

« عليكم ألا تستقوا العلم من الكتب بلا عون ، رغم أنكم قد تكونون واثقين فى قدرتكم على الفهم ، عليكم باللجوء لأساتذة فى كل علم تريدون اكتسابه ، واذا كان المعلم محدودا فى معارفه خذوا كل ما يستطيع أن يقدمه حتى تجدوا من هو أكثر منه علما ، ولابد من تبجيله واحترامه ، وعندما تقرأون كتابا عليكم ببذل كل الجهـد لحفظه عن ظهر قلب وتفهم معانيه ، وتخيلوا أن الكتاب قد اختفى وأن بامكانكم الاستغناء عنه بدون أن يكون لفقدانه أى تأثير ، على المرء أن يقـرأ التـاريخ ، وأن يدرس السير ، وتجارب الأمم ، وسيكون ذلك كما لو كان فى مدى حياته القصير

قد عاصر أهل الماضى بشكل حميم وعـرف الطيب والخبيث من بينهم ، ويجب أن تتمثلوا فى تصرفاتكم نهج المسلمين الأوائل ، ولهذا فعليكم قراءة سير النبى صلى الله عليه وسلم وأن تدرسوا أعماله واهتماماته وأن تقتفوا خطواته ، وبذل أقصى الطاقة للتمثل به وتقليـده ، وعليكم عدم الثقة بطبائعكم بدلا من الرضا عنها ، وطـرح أفكاركم ، على رجال العلم ، وأعمالكم مع التقدم بحذر وتفادى العجلة ، وذلك الذى لم يتحمل صعوبات الدرس لن يتذوق حـلاوة المعـرفة ، وعندما تنتهون من دراساتكم وتأمل أفكاركم اشغلوا ألسنتكم بذكر الله وتغنوا بحمده ، ولا تشتكوا اذا أدارت الدنيا ظهرها لكم فان ذلك سوف يشغلكم عن اكتساب القدرات المتميزة ، واعلموا أن العلم يترك آثارا ونكهة على من يكتسبه ، شعاع من النور يشع فيه ويميزه عمن حوله ٠٠ » (٥) ٠

وكان هناك أيضا نمط مهم ومتميز من الكتابة الاسلامية ، نشـأ من دافع مماثل لذلك الذى يؤدى الى اعطاء الاجازة ، ونعنى به كتب التراجم التى نشأت للتأريخ لرواة الحديث ، والذى كان من الضرورى معرفة من الذى رواه ومن أين تلقاه ، وكان من الأهمية التأكد من أن الرواية كانت مستمرة (*) وأن يكون الرواة من الأمناء الموثوق بهم ٠ وتدريجيا اتسع نشاط جمع التراجم فلم يعد قاصرا على رواة أحاديث الرسول ، وانما تم جمع تراجم الفقهاء والأطباء والمتصوفة ، وهكذا ، ونشأ طراز متميز من المعاجم هو القاموس المحلى المخصص لسيرة الرجال المبرزين ، وأحيـانا النساء ، من مدن أو مناطق معينة ، مع مقدمة حول طبوغرافيتها وتاريخها ، وأول مثال مهم عن هذا الضرب كان ذلك الذى أعد فى بغداد فى القـرن الحادى عشر على يد الخطيب البغدادى (١٠٠٢ ــ ١٠٧١) ، وكانت لبعض المدن سلسلة من هذه الأعمال ، ففى دمشق لدينا معاجم عن شخصيات القرون التاسع والعاشر والحادى والثانى والثالث عشر الاسـلامية (من القرن الخامس عشر حتى التاسع عشر الميلادى) ٠ وكان أكثر الكتـابه طموحا أولئك الذين حاولوا تغطية التاريخ الاسلامى (**) بالكامل خاصة ابن خلكان (١٢١١ ــ ١٢٨٢) ٠

(*) المصطلح : متصلة اى ليس بين راو وراو فاصل زمنى ــ (المراجع) ٠

(**) المقصود تغطية تراجم (سير) التاريخ الاسلامى كله حتى أيامه ، لأن ابن خلكان لم يكتب تاريخا عاما ــ (المراجع) ٠

وقد تناولت أعمال ابن خلكان سير الحكام والوزراء والشعراء وعلماء النحو وأيضا علماء الدين · وكان للعلماء والمساجد والمدارس موقع مركزى فى هذه الكتب،لاظهار أن تاريخ المجتمع الاسلامى كان أساسا توارثا للحقيقة والثقافة الاسلامية الرفيعة ، وكانت سيرة الدارس تبدأ بزواية أسلافه وتاريخ ومحل ميلاده ، وتورد تفاصيل عن تعليمه : الكتب التى درسها وعلى أيدى من تلقاها ، والاجازات التى حصل عليها ، فهى تضعه فى سياقين من النسب والتراث الثقافى ، لم يكونا مختلفين دائما لأن الابن قد يبدأ التعلم على يدى أبيه ، وكانت هناك سلالات وعائلات للعلماء ، تصف أعماله وأسفاره والكتب التى كتبها وعمن تلقى العلم ، وقد تكون هناك بعض النوادر الشخصية ، ويمكن أن يحوى تقريظا لقدراته ، ولم يكن الهدف منها تمييزه عن العلماء الآخرين بقدر ما كان وضعه فى اطار النموذج المثالى ·

علم الكلام

الذين درسوا الفقه فى المدرسة ، تلقوا أيضا الأسس الجوهرية للمعتقد الدينى ، ذلك أن العملية التعليمية التى تطوروا على أساسها ، لم تلعب دورا كبيرا فى تاريخهم الدراسى · وعندما اكتمل تطور نظام المدارس فى شكله النهائى انتهت القضايا الخلافية الكبرى التى تحدد على أساسها المذهب السنى ·

وقد استمرت مدرسة الاعتزال مزدهرة لفترة تقرب من مائة عام بعد أن حظيت بتأييد العباسيين ، وكان آخر مفكريها المعبرين عنها القاضى عبد الجبار (٩٣٦ ـ ١٠٢٥) ولم تتعرض أفكار المعتزلة للاضطهاد الا فى القرن الحادى عشر فى بغداد وغيرها بسبب مقاومة الخلفاء العباسيين والسلاجقة لها ، ولكنها استمرت فى لعب دور مهم فى تشكيل علوم الدين الشيعية وفى التدريس فى مدارسها ، ولكنها كانت تيارا مغمورا من الفكر فى نطاق السنة حتى جرى احياء الاهتمام بها فى العصور الحديثة ·

وكان انحسار المعتزلة راجعا بشكل جزئى لازدياد نفوذ التعاليم التقليدية لابن حنبل خاصة فى بغداد ودمشق ، وأيضا الى تطور الخط الفكرى الذى بدأ بالأشعرى : فى تفسير ما جاء به القرآن والحديث

بالجدل العقلاني المبني على مبادىء المنطق (الثيولوجيـة الديالكتيكية : علم الكلام) ، وقد كان قبول كثير من علماء الفقه لمبادىء الأشعرية علامة على انتشارها وربما سببا لظهورها كقاعدة ايمانية يرتكز عليها فقههم ، وكان هذا صحيحا على وجه الخصوص في حالة طلاب العلم من الشافعية .

ولم تلق هذه التوليفة من علم الكلام الأشعري والفقه قبولا عاما ، فقد كان الحنابلة وبعض الشافعيين معارضين لعلم الكلام ، وقد كانت المدرسة المالكية المسيطرة في المغرب تعارض التكهنات الدينية ، وحظر المرابطون تعليم علم الكلام ، الا أن ابن تومرت ، والموحدين شجعوا علم الكلام في شكله الأشعرى ، بالرغم من أن قضاتهم كانوا يتبعون مبادىء المدرسة الزيرية بشكل حرفي ، وقد انتشرت في شـمال شرق العـالم الاسلامي مدرسة أخرى من علم الكلام تعود الى الماتريدى (ت ٩٤٤) ، لقيت قبولا في مدارس الفقه الحنفي ، وكانت تختلف عن الأشعرية في عدة مسائل تتعلق بحرية الارادة الانسانية وعلاقتها بقوة الله المطلقـة وعدالته ، وقد قال الماتريديون بأن أفعال الانسان تحدث بقوة الله ، ولكن فعل الخطيئة لا يتأتى برضاه أو بعطفه ، وقد حاول سلاطين السلاجقة الأولون ، والذين أتوا من المنطقـة التي انتشر فيهـا توليف علم الكلام الماتريدى بالفقه الحنفي ، أن ينشروا هذه المبادىء أثناء حركتهم الى الغرب ، ولم يكن هناك توتر أو عداء دائم بين مفكرى الأشعرية والماتريدية ، ولم تكن الخلافات بينهم ذات أهمية ، وقد لخصت أمهات كتب الفقه في مدارس السنة طوال القرون التالية ، قواعد الدين الأساسية بشكل أجمع عليه العلمـاء .

الغزالي

ورغم أن المدرسة الرئيسية للسنة قد اتفقت مع علم الكلام الأشعري وما توصل اليه من خلاصات ، الا أن ذلك الاتفـاق كان مشروطـا ببعض التحفظـات ضمن حـدود ، وقد عبر الغزالي عن تلك التحفظـات ، وهو كاتب تميز برؤية شاملة لكل التيـارات الرئيسية في عصره ، وما زالت أفكاره مؤثرة حتى الآن ، وقد كان أستاذا لعلم الكلام الأشعرى ، وكان واعيا بالمزالق الخطرة التي يمكن أن يؤدى اليها علم الكلام على المذهب الأشعرى ، وحاول رسم الحدود التي يصح في اطارها اسـتخدام علم الكلام ، والذى كان في جوهـره نشـاطا دفاعيا وجدلا منطقيا حيـال من لا يؤمن بصحيح الدين القائم على القرآن والحديث ، ومواجهة من يحاول

تفسيره بشكل كهنوتي زائف ، ويجب ألا يستخدمه سوى من يستطيعون المحافظة على ايمـــانهم ، كما لا يجب استخدامه فى بناء هيـكل فكرى من شأنه الاتجاه الى ما وراء القرآن والحديث ، وهو مسألة قاصرة على المتخصصين الذين يعملون مستقلين عن المدارس الفقهية ٠

وقد كان مبدأ الفكر عند الغزالى هو أن على المسلمين الالتزام بالشرائع المستمدة من ارادة الله التى يعبر عنها القرآن والحديث ، والاعراض عن هذه الشرائع يعنى الضياع فى عالم من الرغبات الانسانية الهوجاء والكهانة، وأن على الانسان أن يطيع الأوامر الالهية بشكل يقربه من الله ، وكانت تلك الفكرة هى التى عبر عنها الغزالى فى أعظم وأشهر الكتب الاسلامية « احياء علوم الدين » ٠

ويصف الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » ــ ويعتبره البعض سيرته الذاتية وان لم يكن كذلك على وجه الدقة ــ الطريق الذى أدى به الى هـذه الاستنتاجات ، فبعد أن أنهى دراسـاته المبكرة فى خراسان فى مدينتى طوس ونيسابور ، عمل مدرسا فى مدرسة شهيرة فى بغداد أنشأها نظام الملك ، وزير السلطان السلجوقى ، وهناك توصـل الى اقتناع بأن الالتزام الظاهرى بالشريعة لا يكفى ، وانشغل فى البحث عن الطريق القويم فى الحيـاة ، فيقول ان « شهوات الحيـاة الدنيا قد بدأت فى التضييق على كى أبقى كمـا كنت ، ولكن بشير الايمـــــان كان يصرخ بى أن أنهض وأبتعد » (٦) ٠

وقد توصـل الى الاقتناع بأنه لن يحقق ما يحتـاج اليه باستخدام عقله وحده ، فاتباع طريق الفلاسفة لاســتنتاج حقيقة الكون من المبادىء الأولية يعنى الضياع فى شراك من البدع والضلالات ، كما أن الطريق الشيعى الذى يؤدى الى اتباع تعاليم مفسر معصوم طريق خطر ، حيث يمكن أن يؤدى الى هجر ما نزل به الوحى الى بعض ما يتبدى كحقائق باطنية، وقبول فكرة اسقاط التكاليف الشرعية عن ذلك الذى يصـــل الى تلك الحقائق الباطنية ٠

ويرى الغزالى أن المعلم الوحيد المعصوم من الخطأ هو النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن الطريق القويم هو قبول ما أوحى اليه بايمان ، « ذلك النور الذى يلقيه الله فى قلوب عباده منة منه وكرما » (٧) ٠ واتباع وصاياه باخلاص وقلب حاضر ، وهجر كل شىء عدا السعى فى سبيل الله ٠

ويتناول كتاب « احياء علوم الدين » تلك العلاقة الحميمة بين العمل والميول – أو بشكل آخر – بين الالتزام الظاهرى بالتكاليف الشرعية ، وبين الروح التى يكتسبها قيمة ومعنى ، ويعتقد أن هناك علاقة متبادلة بين الفضـائل والشخصية الطيبـة وبين السلوك القويم الذى يشكلهما ويقويهما ، فيقول ما معناه :

« ان الذى يريد أن يطهـر روحه ، ويكملها بحـلاوة فعل الخير ، لا يستطيع أن يصل الى ذلك بعبادة يوم واحد ، أو أن يتمرد عليها بثورة يوم واحد ، وهذا ما نعنيه من قولنا ان خطيئة واحدة لا تستحق عقابا أبديا ، ولكن غيبة يوم واحد عن الفضيلة يؤدى الى غيره ، وتنحط الروح درجة فأخرى حتى تسقط فى الوحل » (٨) ٠

ويكتسب السلوك قيمة فقط ، عنـدما يؤدى بالروح والعقل الموجه لمعرفة الله والجهاد فى سبيله ٠

وقد كانت الرغبة فى القاء الضوء على هذه العلاقة هى التى حددت محتويات وترتيب كتاب الاحياء ، والجزء الأول من أجزائه الأربعة يناقش أركان الاسلام ، والواجبات الدينية الأساسية من الصلاة والزكاة وأداء الحج ، ويذهب فى كل منها الى ما وراء الالتزام الظاهرى والقواعد الدقيقة حول كيفية أدائها ، الى تفسير معانيها والفوائد المكتسبة من أدائها بالروح الحقة ، فلا تتأتى القيمة الكاملة للصلاة الا عند أدائها بالروح ، وبتفهم الكلمات المتلوة ، مع نقاء الباطن ، ونبذ الفكر الا فى الله مع الخشـوع والخوف والرجاء ، والصوم لا قيمة له الا اذا كان أداؤه لتحرير الروح للاتجاه نحو الله ، والزكاة يجب أداؤها رغبة فى طاعة الله ، مع اعتبار كل متاع الدنيا تافه القيمة ، كذلك أداء الحج يكون بنقاء خالص فى النية والتفكير فى نهاية الحياة وفى الموت والحساب :

ويذهب الجزء الثـانى من الكتاب فيما وراء الالتزام الشعائرى الى أعمال أخرى تتعلق بالمضمون الأخـلاقى خاصـة تلك التى تربط الأفراد كلا بالآخر ، مثـل الطعـام والشراب والزواج والخيـازة والاستماع للموسيقى ، ففيما يتعلق بكل منها وما اذا كانت أعمالا صحيحة ، واذا كان الأمر كذلك ، فالى أية حدود وتحت أية ظروف ينظر اليها فى ضوء هدف الانسان الأسمى وهو التقرب من الله ، فالزواج على سبيل المثـال يبدو كتوازن بين المزايا والعيوب ، فيهب الرجل ذرية ، ويحميه من العلاقات

الجنسية غير الشرعية ويمكن أن يمنحه لمحة دنيوية عن الجنة ، ومن ناحية أخرى يمكن أن يعطله عن البحث عن المعرفة بالله بمنعه عن البذل والأداء الصحيح والسليم لواجباته الدينية ٠

والجزء الثالث مراجعة منهجية لتلك العواطف الانسانية والرغبات التى اذا انغمس الانسان فيها بشكل غير سليم ، تحرمه من اكتساب الفوائد الروحية لمراعاة الفرائض وتؤدى به الى الهلاك ، ويدخل الشيطان القلب من خلال الحواس الخمس والخيال والشهوة الجنسية ٠ ويستعرض الغزالى نماذج شهوة الطعام والجماع والكلام ، وكيف تلعب دورها فى اذكاء الصراع وقلة الحياء والأكاذيب والسخرية والرياء والغضب والكراهية والغيرة والشهوة الى الثروة والمجد الدنيوى ، والى التطلع الروحى الذى يقود الى النفاق والافتخار بالعلم أو التقوى ، أو المحتد أو القوة أو الجمال ٠

ومثال هذه الدوافع يمكن السيطرة عليها بالتسليم لله ، ويفضل مقاومتها بالتزام الصلاة فى وقتها ، والصيام والحج والتسبيح وتكرار اسم الله وبالتأمل ومعرفة النفس وبمعونة رفيق أو موجه روحى ، بمثل هذه الطرق يمكن أن ينعكس الطريق الذى تتخذه الروح ، ويمكن توجيهها الى طريق آخر يؤدى الى المعرفة بالله ٠

والجزء الأخير من الكتاب يتناول هذا الطريق الى الله والغاية النهائية منه هى النقاء الكامل للروح من كل شيء سوى الله الأعلى ٠٠ الاستغراق التام للقلب فى ذكر الله (٩) جل جلاله وفى هذا تعبر أفكار الغزالى عن أفكار ائمة الصوفية ، الطريق الى الله سلسلة من المقامات أولها التوبة وخلاص الروح من سجنها فى مثل زائفة ، ويأتى الصبر ، والخوف والرجاء والاقلاع عن الأشياء التى قد تكون مباحة ولكنها معوقات على الطريق ، والاعتماد على الله والتوحد معه فى كل هذه المقامات التى ترتبط بها تجليات ورؤى معينة ، وعندما تتأتى الراحة الروحية لسالك هذا الطريق ، تكون فضلا من الله ولكنها لا تدوم ٠

وكلما تقدمت الروح على هذا الطريق تضعف سيطرتها على ذاتها ، وتخضع قيادها لله ، وتكون مهمتها الوحيدة « النقاء والتطهر وبعدها الاستعداد والانتظار ولا شيء أكثر من ذلك ٠ فى كل مرحلة تواجه الروح خطرا هو البقاء فيها بدون المضى لما بعدها ، أو الضياع فى الأوهام ، ويمكن أن يتدخل الله ويهب الروح عطية التدبر فيه ، وهى أسمى مواقع الترقى ولكنها لا تتحقق الا بنعمة من الله يمنحها أو يمنعها :

.. تلمع لوامع الحق فى قلبه ، ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف ، لا يثبت ثم يعود ، وقد يتأخـــر ، وان عـــاد فقـــد يثبت وقد يـــكون مختطفا ، .. (١٠) .

فى هذه النقطة الأسمى عندما يفقد الانسان وعيـــه بذاته فى تدبر الذات العلية التى تجلت عليه بالحب عندها يتفهم المعنى الحقيقى للفرائض التى أمرت بها الشريعة ويكون قادرا على أدائها بشـــكل صحيح سليم ، ويمكن أن يصبح أيضا واعيا بحقيقة أخرى ، ويشير الغزالى الى نوع آخر من (المعرفة) بالملائكة والشياطين والجنة والجحيم وعن الله بذاته وعن جوهره وقدراته واسمه معرفة يكشفها الله للانسان فى صميم روحه ، وهو لا يكتب عنها فى أعماله رغم أن هناك كتبا أخرى نسبت اليه يتناولهـــا فيهـــا بالتفصيل ، وهذه الحالة ليست عن الاستغراق الكامل فى الله أو التوحد معه ، فهى فى قمتها اقتراب لحظى منه ولمحة من مذاق ، عنـدما يتأتى للانسان رؤية الله عن قرب وان ظل بعيدا .

الفصل الحادى عشر

اسلام الفلاسفة

فى المساجد والمدارس ، كان الفقه (والعلوم المتصلة به) هو الموضوع الرئيسى للدراسة ، أما خارج المسجد والمدارس فكانت ثمة أفكار من نوع آخر حظيت هى الأخرى باهتمامات الدارسين، ذلك كان فكر الفلاسفة الذين آمنوا بأن العقل البشرى يعمل وفقا لقواعد المنطق الأرسطى ، وأن اتباع هذه القواعد يمكن أن يؤدى الى الوصول الى حقائق يمكن اثباتها أو البرهنة عليهـــا .

وكان رواد هذا الخط الفكرى فى العـــالم الاســـلامى هم الكندى والفارابى ، وبلغ هذا الفكر ذروته فى أعمال ابن سينا (٩٨٠ ــ ١٠٣٧) ، وكان تأثيره عميقـــا على مجمل الثقـــافة الاسلامية اللاحقة ، ويعرض ابن سينا فى جزء مختصر من سيرته الذاتية لتعليمه ، والذى أصـــبح فيما بعد تقليديا ، فقد تعلم القرآن ، وعلوم اللغة العربية ، والفتوى والعلوم العقلية وعلوم المنطق والرياضيات والميتافيزيقا :

« عنـــدما بلغت ســن الثامنة عشرة كنت قد انتهيت من كل هـــذه العـــلوم . معارفى الآن أكثر نضجا وبخلاف ذلك فهى نفسها لم أستفد شيئا جديدا منذ ذلك الحين .. (١) » .

وكانت له اسهامات فى أكثر من علم من هذه العلوم ولكن أعظم أعماله عمومية وتأثيرا على الفكر الذى خلفه كانت محاولته لتفصيل حقائق الاسلام بمصطلحات منطق أرسطو والميتافيزيقا اليونانية اللاحقـــة ، ولقد كانت المشكلة الأساسية التى طرحها الوحى الاسلامى أمام أولئك الذين حاولوا اثبـــات الحقيقة الكامنة ، فى التناقض الظاهر بين وحدانية الله وتعـــدد المخلوقات ، وقد جرى التعبير عن هـــذه المشكلة بمصطلحات التنـــاقض بين الخير المطلق لله والشر الظاهر للعالم . وقد وجد الفكر الفلسفى الذى بلغ ذروته على يد ابن سينا ، فى الفكر اليونانى متمثلا فى الأفلاطونيـــة

الجديدة ، حلولا لمثل هذه القضايا ، وأصبح ــ أى فكر الفلاسفة ــ أكثر قبولا من واقع أن العمل الرئيسى لهذه المدرسة الفكرية كان نوعا من الصياغة الجديدة لجزء من تساعيات أفلوطين Plotinus's Enneads التى كان ينظر اليها ــ بشكل عام ــ كعمل من أعمال أرسطو ، ذلك العمل الذى سمى بالنظرية الأرسطية . وقد توصلت هذه المدرسة الى أن العالم هو سلسلة من الاشراقات من الله سبحانه وتعالى ، وبهذه الطريقة أصبحت قادرة على التوفيق بين واحدية الله وتعددية مخلوقاته ، وفى تصور ابن سينا ، كان الله هو العلة الأولى أو الخالق الذى يتوحد فيه الجوهر والوجود ، والذى تنبثق منه سلسلة من عشرة عقول تمتد من العقل الأول الى العقل الفعال الذى يتحكم فى عالم الكائنات ، وكانت الأفكار تتواصل الى الجسد البشرى باشعاع من النور المقدس ، وبهذا خلقت الروح البشرية .

ولقد كانت رمزية النور شائعــة لدى الصوفية كغيرها من الفكر الغيبى ، وكانت تستمد قوتها من القرآن :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء (٢) .

وكما أن الروح تخلق بالانبعــاث من الكائن الأول . وهى عمليــة يحركها تدفق الحب الالهى ، فان الحياة البشرية يجب أن تكون عمليــة ارتقــاء وعودة خــلال المستويات المختلفة فى الوجود نحو الكائن الأول بالرغبة والحب .

واذا كان النور المقدس يشع فى الروح الانسانى ، واذا كانت الروح بمجهوداتها الذاتية يمكن أن تعود متجهة الى الخالق ، فما هى الحاجة الى النبوة أو الوحى ؟ لقد اعترف ابن سينا بالحاجة للأنبياء كمعلمين ينقلون الحقائق عن الله والحياة الأخرى ، ويحثون الناس على الأفعال التى تجعلهم أكثر ادراكا واحساسا ووعيا بالله والخلود ، كالصــلاة وشعائر العبادة الأخرى ، وكان يعتقد أن النبوة ليست مجرد نعمة من الله ، ولكنهــا نوع من الذكاء الانسانى وهى أعلى مستوياته بالتأكيــد ، فالنبى يشارك فى

مراتب العقل ويمكن أن يعـلو الى مستوى العقل الأول (*) ، ولم تكن هذه الهبة وقفا على الأنبياء فقط ، فالانسان الذى يتمتع بنفحات روحية عالية يمكن أن يصل اليها عن طريق الزهد ·

وقد يبدو هذا الهيكل الفكرى كما لو كان متعارضـــا مع الوحى المقدس المنزل فى القرآن ، اذا أخذ بالمعنى الحرفى على الأقل · وقد كانت اشهر الخلافات المثيرة للجدل فى التاريخ الاسلامى هى انتقاد الغزالى العنيف للمسائل الرئيسية التى تناقضت فيها فلسفة ابن سينا مع فهمه للوحى المنزل فى القرآن ، وقد ركز فى كتابه « تهافت الفلاسفة » على ثلاثة من الأخطاء يراها فى طريقة تفكير هؤلاء الفلاسفة : فقد آمنوا بخلود المادة ، اذ ان تجليات الله تشبع المادة ولا تخلقها ، ثم انهم حددوا معرفتهم بالله بالعموميات والأفكار التي شكلت بنية خاصة وليس بالكائنات ذاتها ، وأن هذه النظرة لا تتفق مع الصورة القرآنية لله الذى يعنى بكل كائن حى فى فرديته ، وثالثا آمنوا بخلود الروح وليس الجسد ، والروح فى تصورهم كانت كائنا منفصلا يحقن فى الجسد المادى بفعل العقل الفعال ، وعند نقطة معينة ــ خلال عودتها الى الله ــ فان الجسد الذى ارتبطت به يشكل عائقا ، وكان من الضرورى أن تتحرر منه ، فلم يعد مجديا فى شىء ·

وما ذهب اليه الغزالى هو أن اله الفلاسفة ليس هو اله القرآن الذى يخاطب كل انسان يحكم عليه ويحبه ، ومن وجهة نظره لم تكن الخلاصات التى يمكن أن يتوصل اليها الذكاء الانسانى الناطق بدون توجيه خارجى متفقة مع تلك التى تجلت للبشر من خلال الرسل ، وهذا التحدى رد عليه بعد قرن ، أحد أبطال طريق الفلاسفة هو ابن رشد (١١٢٦ ــ ٩٨) ، الذى ولد وتعلم فى الأندلس حيث كان التراث الفلسفى حديثـــا وفكره راسخ الجذور ، وكرس ابن رشـــد نفســه للتفنيد التفصيلى لتفسير الغزالى للفلسفة فى كتاب يشير عنوانه الى عنوان كتاب الغزالى نفســه « تهــافت التهــافت » ، وفى عمل آخر « فصـــل المقــال » ، تناول صراحة ما بدا للغزالى من تناقض بين الوحى المنزل على الرسل وبين ما توصل اليه الفلاسفة ، فالفكر الفلسفى لم يكن غير شرعى كما ادعى الغزالى ، بل على

(*) ان كان المقصـــود بالعقل الأول هنا ــ الذات العليا ــ فان الفـكر السنى يرفض ذلك ، كما يرفض فكرة الاتحاد ، وفكرة الحلول سواء اتحاد الذات الالهيـة بالانسان أو حلولها فيه · وبصرف النظر عن وجهة النظر الفلسفية ، فالذى لا شك فيه أن مثل هذه الافكار ــ على المستوى العملى ــ غير مجدية ، وتعطل الشرائع والقوانين ، ومن المفهوم ان هذه الافكار كانت شائعة فى ديانات سابقة على الاسلام ــ (المراجع) ·

النقيض يمكن أن يبرره الرجوع الى القرآن [**ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك** ..] (٣) ، وكان واضحا من هذه الكلمات القرآنية أنه لا تعارض هناك بين ما توصل اليه الفلاسفة ونصوص القرآن .

واذا كانت هذه الشريعة حقا ، داعية الى النظـــر المؤدى الى معرفة الحق ، فانا ، معشر المسلمين ، نعلم ، على القطع ، أن النظر البرهانى لا يؤدى الى مخالفة ما جاء به الشرع فان الحق لا يضاد بالحق ، بل يوافقه ويشهد له (٤) .

كيف يمكن اذن شرح ما يمكن أن يبدو بينهما من تعارض ؟ وكانت اجابة ابن رشـــد هى أنه يجب ألا تؤخـذ كلمات القرآن على معناها الحرفى ، وعندما يبدو المعنى الحرفى للآيات متعارضا مع الحقائق التى توصل اليها الفلاسفة باعمال العقل ، فيجب تفسير هذه الآيات بالاستعارة ، ومعظم الناس غير قادرين على التفكير الفلسفى أو على قبول التفسير التمثيلى للقرآن لذلك يجب الا نخاطبهم بهـــا ، ويقتصر خطابنـا على القادرين على فهمه :

وأما من كان من غير أهل العلم ، فالواجب (فى حقه) حمله (ظاهريا)، والتأويل فى حقه كفـر ، لأنه يؤدى الى الكفر ، فمن أفشـاه له من أهل التأويل فقد دعاه الى الكفر ، .. ولهذا يجب ألا تثبت التأويلات الا فى كتب البراهين ، لأنها اذا كانت فى كتب البراهين لم يصل اليها الا من هو من أهل البرهان (٥) .

لقد كانت الفلسفة للخاصة فقط ، أما العامة فكان يكفيهم المعنى الحرفى ، والنبوة ضرورية لكليهما : فهى ضرورية للحفاظ على الخاصة وضرورية للعامة للتعبير عن الحقائق فى صور مقبولة ، أما المنطق الجدلى (الكلام) فكان للعقول من المرتبة المتوسطة لأنه استخدم المنطق لتأكيد مستوى الحقيقة الذى يناسب العامة ولكن كانت له خطورته لأن مبادئه العقلية لم تكن مثبتة بشكل كاف .

ويبدو أن أعمال ابن رشد لم يكن لها انتشار أو نفوذ مستمر على الفكر الاسلامى اللاحق رغم أن الترجمة اللاتينية لبعض كتبه كان لها تأثير عميق على الفلسفة المسيحية الغربية ، الا أن فكر ابن سينا ظل له أهمية

مركزية كبرى فى الفكر الدينى والفلسفى أيضا ، وبحلول القرن الثاني عشر كان هناك ـ رغم الغزالى ـ نوع من العتاب بين الكلام والفلسفة ، ومنذ عصر فخر الدين الرازى (١١٤٩ ـ ١٢٠٩) وما بعده بدأت أعمال الكلام بتفسيرات المنطق وطبيعة الكينونة وامتدت منها الى التفصيل العقلى لفكرة الله ، وبهذه الطريقة نشأ هيكل منطقى لتفسير القرآن والدفاع عنه ، ومنذ ذلك الوقت تناولت هذه الأعمال المسائل التى يجب قبولها كلية على أسس من الوحى ٠

ابن عربى وحكمة التصوف

وفى كتابات ابن سينا اشارة عن الاشراف ، وهو شعاع من النور المقدس الذى يمكن للبشر بواسطته الاتصال بهيكل المعقوليات ٠ وقد استخدم بعض الكتاب اللاحقين لفظ (اشراق) للاشارة الى الحكمة الصوفية القديمة للشرق ، واستخدم كمصطلح للصياغة المنهجية للحقيقة المطلقة فيما وراء ألفاظ القرآن ، وأعطى معنى لتجارب الصوفية ٠

وفى محاولة السهروردى لصياغة مثل هذه النظرية الثيوصوفية ، حدثت ضجة أدت الى اعدامه على يد حاكم حلب الأيوبى فى ١١٩١ ، وقد كان أكثر الصياغات دقة وبقاء هى تلك التى عبر عنها ابن عربى (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) ، وكان عربيا من الأندلس ، وكان والده صديقا لابن رشد ، والتقى بهذا الفيلسوف وشهد جنازته ، وقد قام بالدراسات المعتادة فى الأندلس ثم المغرب ، وانشغل بعدها بالسفر فى الأراضى الشرقية ، وقام بالحج الى مكة ، ويبدو أن هذا كان عاملا حاسما فى تشكيل فكره ، وأصبح واعيا ، من خلال رؤيا بأن الكعبة هى النقطة التى تشرق منها الحقيقة المطلقة على العالم المرئى ، ومنها بدأ أهم أعماله وهى « الفتوحات المكية » ، وبعد أن عاش فترة فى السلطنة السلجوقية فى الأناضول ، استقر فى دمشق حيث مات وقبره على جبل قاسيون الذى يطل على المدينة من الغرب وقدر له أن يصبح مزارا ٠

وقد حاول فى « الفتوحات » وأعماله الأخرى التعبير عن رؤية العالم كتدفق لا نهائى من الوجود الذى يبدأ من الذات العليا ويعود اليها ٠ كان تدفق النور هو الرمز المبدئى له ، ويمكن اعتبار هذه العملية فى أحد مفاهيمها كفيض من الحب الالهى ورغبة الكائن الأول لمعرفة نفسه برؤية وجوده منعكسا الى ذاته ٠ وكثيرا ما يورد الكتاب الصوفيون الحديث

القدسي : « كنت كنزا مخفيا وأردت ان أعرف ، ولهذا خلقت المخلوقات لأعرف » .

قد جرى ذلك الخلق بأن تجلى الله على أسمائه وصفاته ، ويمكن تناول الأسماء من ثلاثة جوانب ، اما بذاته كجزء من جوهر الذات العلية ، واما كأشكال أزلية أبدية ، واما كتجليات تتحقق فى كائنات عارضة الوجود ، وتعرف الأسماء حال فعلها كسادة يشاهدون فى صور أبدعها الخلاق ، تتجسد على شاكلتها المخلوقات الملموسة .

كانت كل المخلوقات اذن تجليات لأسماء معينة بواسطة الصور ولكن الانسان كان قادرا على جلائها جميعا . وهذه الفكرة عن الوضعية المتميزة للجنس البشرى ارتبطت بالميثاق الذى أخذه الله على بنى الانسان فيما قبل خلق العالم حسبما جاء فى القرآن ، وقد أطلق ابن عربى وغيره من الصوفية اسم « النور المحمدى » أو « الحقيقة المحمدية » على تلك النماذج الأصلية التى خلق الانسان على شاكلتها ، وكانت تلك هى « المرآة الصافية » التى شاهد الحق فيها صورته ، ويصبح البشر جميعا بمعنى ما ، تجليا للذات الالهية ، الا أن هناك معنى آخر تقتصر فيه تلك التجليات على صفوة محدودة . والأنبياء هم بشر متميزون تتجلى فيهم أسماء الله . وفى عمل مشهور « فصوص الحكم » كتب ابن عربى عن تسلسل الأنبياء من آدم عليه السلام حتى محمد ، وبين الأسماء التى مثلها كل منهم ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء أكثر هذه التجليات النبوية اكتمالا ، وكان هناك أيضا أولياء أصبحوا مرآة يشع منها نور الله بالمجاهدة فى التنسك والمعرفة ، وقد كان الأنبياء أولياء ، ولكن بعض الأولياء لم يكونوا أنبياء ، لأنهم لم يتولوا وظيفة ابلاغ وحى أو شريعة ، وكان هناك هيكل غير منظور من الرسل الذين حافظوا على نظام العالم وعلى رأسهم قطب لكل عصر ، وكان ابن عربى يعتبر نفسه قطبا ، بل خاتمهم أو أكثرهم كمالا .

وسواء أكان الانسان عارفا أم غير عارف ، فان عليه أن يعيش فى حدود الشريعة التى بعث بها النبى (ص) ، وابن عربى نفسه كان ملتزما بمدرسة بنى زيرى فى التفسير الحرفى الصارم للقانون المتجلى فى القرآن والحديث ، واعتقد بأن كل التجليات من خلال الأنبياء والمشرعين كانت وحيا لنفس الحقيقة ، فكل الناس يعبدون نفس الاله بأشكال مختلفة .

ويمكن أن نرى فيض الله من جانبه الآخر كتدفق الى الداخل فالمخلوقات مرايا تعكس المعرفة بالله الى الله ، وانحدار المخلوقات من الكائن الأول هي أيضا تسام اليه ، وطريق التسامي الذى تضيئة المعرفة يؤدى من خلال مراحل الى تسام دائم فى التقدم الروحى ، وهى مراحل (مراقى) على طريق معرفته بنفسه : « من يعرف نفسه يعرف ربه » ، فيمكن أن يصل على الطريق للصور الأولى ، والتجلى المنطقى الملموس لأسماء الله فى (عالم المثال) ، وفيما وراء ذلك يمكن أن تتجلى عليه رؤية الله ، وفيها ينكشف الحجاب لحظيا ويتجلى الله بنفسه للباحث عن الذات الالهية ، وهناك لحظتان فى مثل هذه الرؤية : اللحظة التى يتوقف الانسان فيها عن الاحساس والوعى بذاته وبذوات المخلوقات الأخرى فى خضم اشعاع رؤية الله (الفناء) وفى الأخرى يرى الله فى المخلوقات (البقاء) ، والتى يعيش ويتحرك بينها ولكنه يظل واعيا بهذه الرؤية .

وقد استخدم ابن عربى فى محاولاته لوصف حقيقة الكون كما تكشف عنها لحظات الرؤية اصطلاح « وحدة الوجود » ، وقد نشأ فيما بعد خلاف كبير حول معناه ، فقد كان يمكن فهمه بمعنى أن لا وجود سوى لله ، وأن كل ما عداه اما غير حقيقى أو هو جزء من الله ، ويمكن أيضا النظر اليه باعتباره اشارة الى التمييز الشائع بين الفلاسفة ما بين الكائن بالقوة ، والكائن بالفعل ، فالله فقط هو الكائن بالقوة ، وهو موجود بطبيعته الذاتية ، بينما تدين كل المخلوقات الأخرى بوجودها لفعل خلق أو انبعاث ، ويمكن أيضا أن تشير الى التجارب اللحظية من الرؤية عندما يفقد الباحث الوعى بذاته فى الوعى بتجلى الله ، فالله موجود فى ذاته أو أنه موجود فى ذات الله ، وتحل الصفات الحسنى محل صفاته الانسانية ، ومن الصعوبة التوفيق بين فكرة « وحدة الوجود » وفكرة الفصل بين الله ومخلوقاته والبعد اللانهائى بينهما فيما يبدو كتعاليم واضحة للقرآن ، اذا كان تفسيرها يتراوح بين تلك المعانى ، وقد سجل أحد العلماء عددا كبيرا من الأعمال النقدية التى تناولت ابن عربى فى عصور تالية ، وتكاد تتساوى معارضة من يرى اختلافه عن المفاهيم الأساسية للاسلام ، والذين دافعوا عنه ، وقد أصدر عدد كبير من فقهاء الدين والشريعة فتاوى معارضة له ، ولكن الحال لم يكن دائما على هذا المنوال (٧) ، وقد كان أكثرها دفاعا عن اتباعه للسنة شهادة السلطان سليم الأول (١٢ ــ ١٥٢٠) ، والذى قام باصلاح قبر ابن عربى بعد فتحه لسوريا عام (١٥١٦) ، وصدرت بهذه المناسبة فتوى لصالحه عن عالم عثمانى شهير هو كمال باشا زاده (١٤٦٨/٩ ــ ١٥٣٤) ، الا أن

أعماله ظلت قضية خلافية بين أساتذة الصوفية ، فرفض بعض أئمتهم قبولهـا كتعبير مشروع عن البحث عن المعـرفة ، وقد أبدى الشاذليـة في المغرب ، والنقشبندية في شرق العالم الاسلامي تشككا فيها ٠

ابن تيمية والتراث الحنبلي

ليس في الاسلام السنى كيان تعليمي سلطوى تدعمه قوة الحاكم ، وقد استمر طوال التـــاريخ الاســلامي ، تيار فكرى معـــاد للفلاسفة والثيوصـــوفيين (*) متناقض مع محـــاولات علم الكلام الذى كان يفسر ما استقر من الايمان بشكل عقلاني ٠

وقد ظل التراث الفكرى المستمد من تعاليم ابن حنبل حيا باقيا في البلاد الاسلامية المركزية المهمة خاصة في بغداد ودمشق ، وبالرغم من وجود عدد من الخلافات بين أتباع ابن حنبل فقد اتفقوا على احياء ما كانوا يعتبرونه الدين الحق للذيـن التزموا بوحى الله المنزل على محمـــد صلى الله عليه وسلم بشكل صـــارم ، وكان الاله في عقيـدتهم هو اله القرآن والحديث الذى يجب قبوله وعبادته في حقيقته كما أوحى بها ، وأن المسلم الحق هو ذلك المؤمن الذى لايقتصر ايمانه على التسليم بالله المتجلى ، ولكنه يجب أن يعمل طبقا لتعاليمه ، وأن المسلمين مجتمع واحد ، ويجب أن يظل موحدا ، ولا يخرج عنه أحد الا أولئك الذين عزلوا انفسهم برفضهم طاعة تعاليم الدين ، بنشر المذاهب التى لا تتفق مع الحق الذى أوحى للأنبياء ، وأنه يجب تفادى الجدل والتكهنات التى يمكن أن تؤدى الى التفكك والتعارض ٠

وفى سوريا فى القرن الثالث عشر فى ظل الحكم المملوكى عبر هذا التراث عن نفسه مرة أخرى من خلال صـــوت فردى قوى هو ابن تيمية (١٢٦٣ ـ ١٣٢٨) ٠ ولد في شـمال سـوريا وعاش معظم حياته بين القاهرة ودمشق ، وقد واجه موقفا جديدا ، حيث كان المماليك وجنودهم من المسلمين السنة ، ولكن كثيرا منهم كانوا حديثى عهد بالاسلام وعلى ايمان سطحى ، وكان من الضرورى تذكيرهم بمعنى دينهم ، وكان ابن تيمية يرى فى الأمة بأسرها ، أخطاء خطيرة منتشرة ، منها ما كان يمس سلامة الدولة مثل الشيعة والجماعات المنشقة ، ومنها ما يمكن أن يؤثر على ايمان المجتمع كافكار ابن سينا وابن عربى ٠

(*) Theosophy.

وفي مواجهة مثل هذه الأخطار أخذ ابن تيمية على عاتقه اعادة تعميق واقرار المسار الوسطى للحنابلة ، والذي لا يقبل حلولا وسطا فى التزامهم بالحق المنزل ، ولكنهم كانوا يقبلون بالتنوع داخل المجتمع بين الذين أسلموا ٠

فقد قال الرسول : « المسلم أخو المسلم » ، اذن ، كيف يسمح لمجتمع محمد صلى الله عليه وسلم بالانقسام حول هذه الآراء المتعارضة بحيث يمكن للفرد أن ينضم لجماعة ويكره الجماعة الأخرى ببساطة على أساس افتراضات أو خلافات شخصية وبلا دليل منزل من الله ؟ الوحدة علامة على الرحمة الالهية والخلاف عقاب من الله (٨) ٠

فالله واحد وكثرة ٠٠ واحد في جوهره — وكثرة فى صفاته التى يجب التسليم بها تماما كما وصفها القرآن الكريم ، وأهم هذه الصفات ذات الأثر على الحياة الانسانية هى مشيئته ، فقد خلق كل الأشياء من العدم وتجلى على بنى الانسان باظهار مشيئته فى الرسالات الموحاة للرسل وانتهت بمحمد صلى الله عليه وسلم ٠ وهو بعيد وقريب معا بشكل لا نهائى عن مخلوقاته ومنهم ، ويعلم الخصائص والعموميات ويعلم السر وأخفى ويحب أولئك الذين يطيعونه ٠

والحياة الانسانية يجب أن تعاش فى خدمة الله وفى هدى النبى والتسليم بكلمة الله الموحاة ، والالتزام المخلص لحياة الانسان فى المثاليات التى يتضمنها الوحى ، فكيف يمكن تفسير ارادة الله ؟ وقد نظر ابن تيمية كما فعل ابن حنبل أولا وقبل كل شئ الى القرآن ، وفهمه فهما حرفيا دقيقا ، وبعده الحديث وبعد ذلك الصحابة الذين يعطى اجماعهم للحديث مصداقية ، وبخلاف ذلك ، اعتمد الحفاظ على الحقيقة فى نقل المعرفة الدينية عن طريق المسلمين المهتمين ذوى العلم ، وكانت هناك حاجة مستمرة « للاجتهاد » من الأفراد القادرين عليه ، ويمكنهم ممارسته والقيام به بقدر من المرونة ، بالموافقة على تصرفات معينة لم تنص عليها الشريعة بشكل محدد ولكن أداءها يمكن أن يعود بالنفع ما لم تحرمها الشريعة ، ولم ينظر ابن تيمية لأولئك الذين مارسوا الاجتهاد كما لو كانوا يشكلون كيانا متضامنا ، فاجماع الدارسين والعلماء فى عصر ما كان له ثقل معين ولكن لايمكن اعتباره معصوما ٠

وقد كانت رؤيته للاســـلام متناقضـــة لبعض الأفكار التى وضعها ابن سينا : حول خلق العالم من عدم بفعل الارادة الالهية ، وليس بفعل الانبعاث ، وأن الله يعرف المخلوقات والكائنـات البشرية بخصوصيتها ، وهم يعرفونه ليس باعمال العقل ، ولكن بوحيـــه وتجليه ، وقد كانت معارضة ابن تيمية لأفكار ابن عربى أكثر حدة لأنها تسببت فى مشاكل أكثر صعوبة والحاحا للمجتمع بشكل عام ، ســـواء فى نظره أو نظـر الحنابلة ، فوجود الأولياء لم يكن أمرا مرفوضا ، اذ أنهم أولئك الذين توصـــلوا للحقـــائق الهاما وليس عن طريق الوحى ، وقد يتلقون هـــذه النعم الالهية والتى تجعلهم وكأنهم تجاوزوا القدرات البشرية ، ويجب احترام هؤلاء الرجال والنساء ، ولكن لا يجب أن تكون هناك أشكال أخرى من ظواهر الالتزام تجاههم ، فلا زيارات لقبورهم ولا صلوات عليها ، كما أن الاحتفال الصوفى (الذكر) بتكرار أسماء الله كان شكلا مشروعا من أشكال العبادة ولكن يقل فى القيمة الروحية عن شعائر الصلاة أو ترتيل القرآن ، والصوفية الغيبية التى فسر بها ابن عربى وآخرون التجارب الروحية الغامضة كانت مرفوضـــة تماما ، فالانسان ليس اشراقا للنور الالهى ولكنه كيان مخلوق ، ولا يمكن أن يتحد مع الكيان الالهى ، والطريقة الوحيدة التى يمكنه بها التقرب من الله هى طاعة مشيئته المنزلة .

وقد لعب ابن تيمية دورا مهما فى المجتمع الاسلامى فى عصره ، وبعد مماته ، وقد ظلت صياغته للتراث الحنبلى عنصرا متميزا فى التراث الدينى للمناطق الاسلامية المركزية ولكنه كان بشكل عام عنصرا كامنا ، حتى تصـــاعد الوعى به فى القرن التاسع عشر على أيدى حـــركة دينيـــة ذات آثار سياسية ، وهى الوهابية (*) التى أدت الى ظهور الدولة السعودية فى وسط الجزيرة العربية ، ورغم التناقض الصريح بين نظرته للاسلام ونظرة ابن عربى ، فان النزعة الغريزية للمجتمع السنى نحو التسامح جعل من الممكن لهما التعايش معـــا ، واستطاع بعض المسلمين بالفعـــل التوفيق بين الاثنين ، فقد سجل أحد الدارسين لقاءه فى حلب مع مجموعة من الصوفيين النقشبندية الذين كانـــوا يدرســـون أعمـــال ابن تيمية وابن عربى جنبا الى جنب ، فكان ابن تيمية فى نظرهم (امام الشريعة) وابن عربى (امام الحقيقة) التى يتوق لها الساعى على درب الصوفية ، وأن على المسلم الكامل أن يكون قادرا على توحيـــد هذين المفهومين لحقيقة الاسلام فى نفسه (٩) .

(*) يكره أصحاب هذه الدعوة هذا الاسم ويسمون أنفسهم بالسلفيين — (المراجع) .

تطور الشيعة

عاشت جماعات من الشيعة الاثنى عشرية بين أغلبية من المسلمين الناطقين بالعربية ممن أسلموا على الصورة السنية ، في تعارض أحيانا وفي سلام أحيانا أخرى . وبالتدريج طوروا نظرتهم الخاصة حول ما حدث في التاريخ وما كان يجب أن يحدث ، ونادوا بحق (على) في الخلافة واعتبروا الخلفاء الثلاثة الأول مغتصبين لحقه ، واعتبروا التاريخ الظاهرى للمسلمين وقضية السلطة السياسية انحرافا عن التاريخ الباطنى الحق .

وكان التاريخ الباطنى عند الشيعة هو الحفاظ على الحق الذى نزل به الوحى وتداوله بين سلسلة من الأئمة ، ووفقا لنظرية الامامة التى تطورت تدريجيا منذ القرن العاشر وما بعده ، جعل الله الامام حجة له فى العالم فى كل زمان كسلطة تعليمية لحقائق الدين ، ويحكم بين الناس بالعدل ، وأن الأئمة منحدرون عن النبى صلى الله عليه وسلم من نسل ابنته فاطمة وزوجها على الامام الأول ، وكل منهم اختاره من سبقه ، وكان معصوما فى تفسيره للقرآن وسنة النبى صلى الله عليه وسلم خلال العلم الخفى السرى الذى وهبهم الله اياه ، وكلهم كان بلا خطيئة .

واعتقد الشيعة من التيار الرئيسى بأن الخطوط المعروفة للأئمة قد انتهت بالامام الثانى عشر (محمد) الذى اختفى فى العام ٨٧٤ ، وهى الواقعة المعروفة بالخفية الصغرى لأنه كان من المعتقد أن الامام المختفى كان على اتصال بمريديه من المؤمنين عن طريق مبعوثيه وقد حدثت بعدها (الخفية الكبرى) عندما انتهت هذه الاتصالات المنتظمة ، ولم يعد الامام المختفى يرى الا فيما ندر ، وفى لمحات خاطفة من الأحلام أو الرؤى ، وسوف يظهر فى نهاية الزمن ليعيد سيادة العدالة ويكون هو المهدى (وهو مصطلح له معنى أكثر دقة فى الفكر الشيعى عنه فى التراث السنى الشعبى) .

وسيظل الجنس البشرى فى احتياج للهدى الى أن يظهر الامام ، واعتقد بعض الشيعة أن القرآن والحديث كما فسرهما الأئمة كانا ارشادا كافيا ، وكان هناك آخرون يعتقدون أن هناك احتياجا مستمرا للتفسير والقيادة ومنذ القرن الثالث عشر كانوا يتوجهون لرجال العلم الذين كانوا قادرين بثقافتهم وشخصياتهم وتعليمهم على تفسير الموروث من الايمان

بالاجتهاد ومنها جاء اللقب الذى أطلق عليهم (المجتهد) ، ولم يكونوا معصومين ولم يحظوا بوحي مباشر من الله ، ولكن كان بامكانهم تفسير تعاليم الأئمة حسب غاية جهدهم ، وقد ظهر فى كل جيل احتياج لمجتهدين جدد ، وكان المسلمون مضطرين لاتباع تعاليم مجتهدى عصرهم ٠

وقد ظهرت مع الزمن نظرية عقلانية لشرح وتبرير ايمان المسلمين من الشيعة ، وكان الشيعة الأول من التقليديين ، ولكن فى نهاية القرن العاشر قال المفيد (٩٤٥ - ١٠٤٤) بأن من الممكن تأكيد حقائق الدين بعلم الكلام ، ومنذ ذلك الوقت ضمت تعاليم الشيعة الأكثر انتشارا ، عناصر مستمدة من مدرسة المعتزلة ٠

وقد أدخل مفكرو الشيعة اللاحقون فى نظرياتهم عناصر من النظريات الأفلاطونية الجديدة التى أخذت شكلا اسلاميا على يدى ابن سينا وآخرين ، فمحمد صلى الله عليه وسلم وفاطمة والأئمة كانوا تجسيدا للعقول التى خلقت منها الدنيا ، وكان ينظر الى الأئمة كقادة روحيين عن طريق المعرفة بالله ، ولهم عند الشيعة نفس مكانة « أولياء الله » عند السنة ٠

وقد أدى نفس التركيز على استخدام العقل البشرى لشرح الدين الى تطوير المدرسة الشيعية للافتاء ، وكان ذلك نتاجا لمجموعة من العلماء فى العراق وبالأخص أولئك الذين عرفوا (بالمحقق) (١٢٠٥ - ٧٧) والعلامة الحلى (١٢٥٠ - ١٣٢٥) [الحسن بن يوسف الحلى ، فقيه الشيعة فى عصره ، ويعرف بالعلامة وبابن المطهر] وكانت أعمال محمد بن مكى العاملى امتدادا لأعمالهم (١٣٣٣/٤ - ٨٤) وهو المعروف باسم أول الشهداء بسبب الطريقة التى مات بها فى سوريا ، وقد جاءت مبادىء فتاوى الشيعة فى معظمها من السنة ولكن كانت هناك اختلافات ملحوظة ولها دلالة نابعة من نظرة الشيعة الخاصة للدين والدنيا ، فلم يقبلوا من أحاديث النبى - صلى الله عليه وسلم - سوى تلك التى انتقلت عن أحد أفراد أسرته ، كما أن أحاديث الأئمة وسيرهم كانت فى حكم القرآن والسنة بالرغم من أنها لا تنسخها ، ولم يكتسب اجماع الأمة نفس الأهمية التى اكتسبها فى السنة ، واذا كان هناك امام معصوم فان الاجماع الوحيد ذا الحجية هو اجماع المجتمع الملتف حول الامام ٠ كما أن استخدام العقل بشكل منطقي - من أولئك القادرين على استخدامه - كان له وضع مهم كمصدر للفقه ٠

وقد أصبحت أعمال المجتهدين المتعاقبين القائمة على المصادر ، بمرور الزمن ، كيانا من الفقه الشيعي الذى اختلف فى بعض جوانبه عن المدارس السنية الأربع ، وقد سمح الفقه الشيعي بعدة ضروب من الزواج المؤقت ولم تكن فيه حقوق والتزامات الزواج الكامل ، واختلفت قواعد المواريث أيضا عن الفقه السنى ، وظلت مسائل معينة موضع اختلاف بين العلماء ، وعلى وجه الخصوص التزامات الشيعة حيال من يحكمون العالم فى غياب الأئمة ، وليس لهم السلطة الشرعية بنفس المعنى الذى كان للأئمة ، ولكن هل كان شرعيا أداء الضرائب لهم أو الخدمة لديهم إذا استخدموا قوتهم فى دعم العدالة والقانون ؟ وفى غياب الإمام هل تصح صلاة وخطبة الجمعة ؟ وهل يمكن إعلان الجهاد ؟ وإذا كان كذلك فمن يحق له الدعوة اليه ؟ وقد أفتى الفقهاء أن بإمكان المجتهدين اعلان الجهاد ، ويمكنهم أيضا جمع وتوزيع الزكاة والهبات الخيرية ، وكانت هذه المهمة هى التى أضفت عليهم دورا اجتماعيا مستقلا ، وجعل من نزاهتهم محل اهتمام المجتمع ككل .

ومنذ بداية القرن العاشر على الأقل ، أصبحت أضرحة الأئمة مزارات ، وقد دفن أربعة منهم فى المدينة ، وستة فى العراق بالنجف (حيث قبر على) وكربلاء (ضريح الحسين) والكاظمية وسامراء وواحد فى مشهد فى خراسان ، وحول أضرحتهم ، نمت مدارس وخانات وجبانات لمقابر أبناء الأئمة وصحابة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان مشاهير العلماء يكرمون بالدفن فيها أيضا .

وليس هناك اختلاف بين أماكن عبادة السنة والشيعة ، فالكل يحجون الى مكة ويزورون قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، والشيعة يزورون أضرحة أئمة الصوفيين ، وفى بعض الأماكن كان المسلمون السنة يوقرون الأئمة وعائلاتهم ، وفى القاهرة أصبح ضريح رأس الحسين مزارا دينيا شعبيا .

وثمة احتفال سنوى واحد كان له معنى خاص لدى الشيعة هو « عاشوراء » ذكرى معركة كربلاء التى قتل فيها الامام الحسين كرم الله وجهه فى اليوم العاشر من شهر المحرم عام ٦٨٠ ، وأصبح ذلك اليوم عند الشيعة أكثر الأيام دلالة فى التاريخ ، حيث كان نقطة التحول فى مسار التاريخ المشهود نحو الطريق الذى أراده الله له ، فكان مقتل الحسين استشهادا لصالح المجتمع ووعدا بأن الله سيعيد الحق فى النهاية ليسود ويعيد

الأمور الى نصابها الصحيح ، وفي هذا اليوم يضع الشيعة شارات الحداد وتلقى الخطب فى المساجد عن تضحيات الحسين وبيان معانيها ، وعند نقطة معينة يتحول القص الى اعادة تمثيل درامى لها ٠

ومنذ مرحلة مبكرة من تاريخ الشيعة ، كان توقيرهم لأئمتهم يكاد يضفي عليهم صفات تفوق صفات البشر ويرفعهم الى مصاف الظواهر النابعة من روح الله ، وآمنوا أن هناك معنى خفيا وراء المعانى الظاهرة للقرآن ٠

وقد لاقت مثل هذه الأفكار تأييدا من الفاطميين فى فترة حكمهم مصر وسوريا ، فالاسماعيلية ـ وهى طائفة شيعية ينتمى اليها الفاطميون أو يدعون ذلك ـ لهم معتقدات جرى اخفاؤها (التعتيم عليها) فيما بعد ، بنظام فكرى طوره علماء الاسماعيلية تحت رعاية الفاطميين ، وتم نشره ـ أى هذا النظام الفكرى بمساعدة السلطة الفاطمية ٠

وقد كان المذهب الذى فضله الفاطميون هو الذى أعطى شرعيـــة لادعاءاتهم بأن الامامة انتقلت من جعفر الصادق الى حفيده محمد الامام الســابع وهو آخـر الأئمـة المشهودين من نسله ، ولزم لتبرير وشرح هذا الاعتقاد ، وضع تعريف (للامام) مبنى على نظرة تاريخية موحدة ٠ فكان المعتقد أن الجنس البشرى ، طوال التاريخ ، فى احتياج لمعلم يتولاه الرشـد الالهى ، وبلا خطيئة ، وكانت هناك سبع دورات لمثل هذا المعلم ، كل دورة تبدأ برسول (ناطق) ، يكشف الحقيقة للعالم ، يتبعه مفسر (وصى) يعلم مجموعة مختارة المعنى الباطنى لوحى الرسول ، هذا المعنى يختفى تحت الأشكال الظاهـرية لكل الأديان ، فاللـه واحـــد لا تدركه العقول ، ومنه تنبع المعرفة الدنيوية التى تشمل كل أشـــكال الكائنات المخلوقة ، وهذه الأشكال تتجسد بالانبعاث (الاشراق) ، ويتبع كل وصى سبعة أئمة يكون آخرهم رسول الحقبة التالية والناطق فى الحقبة السابعة والأخـــيرة هو المهـدى المنتظر الذى يعلن الحقيقة الباطنيـــة للكافة ٠ وتنتهى حقبة الشريعة الظاهرة وتبدأ حقبـــة المعرفة المعلنة عن طبيعـــة الكون ٠

وقد انتشرت العقيدة الشيعية للفاطمية لفترة من الزمن استمرت فى سوريا بشكل أوسع منها فى مصر والمغرب ، وعندما ضعفت قوة الفاطميين حتى حل محلها الأيوبيون ، انكمشت المجتمعات الاسماعيلية ، ولكنها ظلت باقية فى الجبال على طول الساحل السورى الشمالى ، وفى اليمن ، وكذلك

فى ايران ، واختلطت بهم فى الجبـــال الساحليـــة فى سوريا جماعتان تمثلان اختلافات عن المعتقدات الشيعية ، معتقد «الدروز» النابع من تعاليم « حمزة بن على » الذى ظل على الايمان بالفكرة الاسماعيلية من أن الأئمة هم تجسيد للقـــدرات المنبعثة من اله واحد ، وأكد أن الاله الواحـد حاضر فى كل الكائنات الحية ، وأخيرا تجسد فى الخليفة الفاطمى الحاكم (٩٩٦ ـ ١٠٢١) ، الذى اختفى عن نظر البشر ولكنه سوف يعود ٠ وكانت الجماعة الثانية هى النصيريين الذين يرجع أصلهم الى محمد بن نصير ، الذى دعا الى اله واحد لا يمكن وصفه ، انبعث منه هيكل من الكائنـات وأن « عليا » كان تجسيدا لأسمى ما فيهم ، ومنها جاء لقب العلويين الذى عرفوا به ٠

وكان هنـــاك مجتمعان من أصول أكثر غموضا وجدا أساسا فى العراق ، هما الزيديون فى الشمال ، وكان لهم دين شمل عناصر مستمدة من كل من المسيحية والاسلام ، وآمنوا بأن الله خالق الوجود ولكن ذلك الوجود قائم على هيكل من المخلوقات التابعة وأن المخلوقات البشرية سوف تصل الى الكمال تدريجيا فى سلسلة من الحيوات ، وكان فى جنـــوب العراق المانويون الذين حافظوا على التقاليد الدينية القديمة ، واعتقدوا أن الروح الانسانية البشرية تتسامى بالاستنارة الداخلية لتتوحد مع الله « الكائن الأعظم » ٠ وكان التعميد جزءا مهما من ممارستهم الدينية كاجراء للتطهير والتنقية ٠

وقد انسحبت تلك المجتمعات بانقطاعهـــا عن مصادر القوة والثروة فى المدن ، ونظرات الشك والعداء من الحكام السنيين ، وانكفأت على نفسها ، ومارست مناسكها التى اختلفت عن نسك الأغلبية ، وفى حين لم تكن مذاهب وشرائع الأباضية والزيدية مختلفة بشكل جوهـــرى عن السنة ، ولكن اختلافات الدروز والنصيريين بلغت حدا اعتبره شـــيوخ السنة واقعا ، على أحسن الفروض ، على أقصى حدود الاسلام ٠

وكانت هناك فترة حكموا فيها تحت الحكم المملوكى ، وكانت لهم أماكن خاصة لأداء عبادتهم الدينية التى كانت مختلفة عن عبادات السنة والشيعة، فكانت للدروز خلوة بسيطة تقع على تل مطل على البلدة أو القرية، حيث يعيش رجـــال العـلم والمعـــرفة والورع فى عزلة ، أو مجالس الاسماعيليين ، حيث انتقل تراث التعـليم على أيدى علمـــاء الدين فى المدارس أو فى بيوتهم ، وفى غياب الأئمة كانت لهم السلطة الروحية فى مجتمعاتهم ٠

التعاليم المسيحية واليهودية

كانت مراكز التجمع اليهودى والثقافة الدينية حتى بدايات العصور الحديثة واقعة فى دول يحكمها المسلمون ، وكان معظم اليهود ينتمون للتيار الرئيسى من الحياة اليهودية التى خضعت لتعاليم التلمود ، وهو المرجع الذى يفسر ويشرح الشريعة اليهودية والذى جمع فى بابل أو العراق ، ورغم أنه كانت هناك مجتمعات أصغر للقرائين الذين آمنوا بأن التوراة هى تعاليم الله الموحاة والمتجسدة فى مخطوطات هى المصدر الوحيد للشريعة وأن على كل دارس أن يدرسها لنفسه ، والسامريين(*) الذين انشقوا على التيار الرئيسى لليهودية فى العصور القديمة ٠

وفى باكورة العصور الاسلامية ، ظلت العراق هى المركز الرئيسى للتعليم الدينى اليهودى ، وفى أكاديميتيها الرئيسيتين ، عمل العلماء الذين اعتبروا حفظة التراث الشفهى الطويل للدين اليهودى ، وكانت ترسل اليهم الأسئلة عن مسائل التفسير من كل أنحاء العالم ، وبعد ذلك،ومع تفكك الامبراطورية العباسية مارست كليات «يوشيفوت» سلطة مستقلة تنامت فى مراكز التجمع اليهودية الرئيسية : القاهرة والقيروان ومدن أسبانيا الاسلامية ٠

ومنذ وقت مبكر فى الحقبة الاسلامية ، اعتمد اليهود من قاطنى البلاد التى كانت العربية فيها هى لغة الحكومة والسكان المسلمين ، العربية كلغة للأغراض الدنيوية بينما استمرت العبرية فى الاستخدامات الكهنوتية والدينية ، وقد كان تأثير الدين اليهودى والأفكار الفقهية كبيرا على تفصيل الاسلام فى نظام فكرى كان له بدوره تأثير على اليهودية ، وتطورت نظرية دينية يهودية وفلسفة تأثرت بعلم الكلام والفلسفة الاسلامية ، وازدهر أيضا الشعر العبرى الدينى والدنيوى فى الأندلس تحت تأثير الشعر العربى ٠ وبمجىء الموحدين فى القرن الثانى عشر ، انتهى تراث الثقافة والحياة اليهودية فى الأندلس ، ووجد موسى بن ميمون — مؤسس الميمونية (١١٣٥ — ١٢٠٤) وهو الرمز الأعظم للشخصية اليهودية فى العصور الوسيطة — بيئة أكثر تحررا فى القاهرة تحت حكم الأيوبيين عنها فى الأندلس التى جاء منها ، وقد احتوى كتابه « دلالة الحائرين » المكتوب بالعربية تفسيرا فلسفيا للديانة ، وشرحت أعماله الأخرى بالعربية

(*) نسبة الى السامرة فى فلسطين — (المراجع) ٠

والعبرية الفقه اليهودى ، وكان طبيبـــا للبـلاط لدى صـــلاح الدين وابنه وأعطت حياته دليلا على العلاقات الطيبة بين المسلمين واليهـــود فى الوضعية والتعليم فى مصر فى ذلك الوقت ، وفى القرون اللاحقة اتسعت الهوة ، ورغم أن بعض اليهـود ظلوا ناجحين مزدهرين كتجـار ، وأقوياء كمسئولين فى القاهرة وغيرها من المدن الاسلامية الكبيرة الا أن الفترة الذهبية للثقافة والتراث اليهودى فى عالم الاسلام بلغت نهايتها ٠

وقد كانت الفترة الاســـلامية الأولى فترة من العلاقات المثمرة بين المسلمين والمسيحيين مثلهم فى ذلك مثل اليهود ٠ وظل المسيحيون يشكلون أغلبية من السكان على الأقل فى ذلك الجزء من العالم الاسلامى الواقع الى غرب ايران ٠

وقد حسن مجيء الاسلام من وضعية كنائس النسطوريين والتوحيديين لعلاج الضعف والمعوقات التى عانوا منها تحت الحـــكم البيزنطى ، وكان البطريرك النسطورى شخصية مهمة فى بغداد ابان الخلافة العباسية ، وامتدت سلطة الكنيسة التى كان يرأسها شرقا حتى أواســـط آســـيا والصين ، وقد تطور الاسلام فى اطار بيئة مسيحية الى حد كبير ، ولعب العلماء المسيحيون دورا فى نقل الفكر العلمى والفلسفى الاغريقى اليونانى الى العربية ، واستمرت اللغات التى تحدث بها المسيحيون من قبل وكتبوا بها (اليونانية والسريانية والقبطية فى الشرق واللاتينية فى الأندلس) وكانت بعض الارســـاليات مراكز للفكر والتعليم مثل دير النطرون فى جنـــوب الأناضـــول ودير مار مطاى شمال العراق ، ووادى النطرون فى الصحراء الغربية من مصر ، وبمرور الوقت تغير الوضع ، فالأقلية الاسلامية المسيطرة تحولت الى أغلبية واكتسبت قوة واســـتقلالية وثقة بالنفس فى الحياة الثقافية والروحية ، وانتهت تقريبا فى الشرق سلطة الكنيسة النسطورية العالمية بغزوات تيمور لنك ، وفى الغرب اختفت المسيحية ، وفى الأندلس أدى التوسع التدريجى للدويلات المسيحية من الشمال الى تزايد التوتر بين المسلمين والمسيحيين ، وفى كل من الأندلس والدول الشرقيـــة التى عاش فيهـــا المسيحيون تخلى معظمهـــم عن لغتهـــم الأصلية ليستخدموا العربية ولكن لم يكن للعربية ذلك التأثير الحيوى بينهم مثل المجتمعات اليهودية حتى القرن التاسع عشر ٠

ورغم العلاقات السلسة الوثيقة بين المسلمين واليهود والمسيحيين ، بقيت هوة من الجهل والتعصب بينهم ، فكانوا يؤدون عباداتهم بشكل

منفصل (*) ، وكان لكل مكان عبادته وحجته الخاصة : القدس لليهود ، وقدس أخرى للمسيحيين ، وأضرحة محلية للقديسين ، وقد يكون الاختلاف فى المدن أكبر منه فى الريف · فالمجتمعات التى عاشت قريبة من بعضها البعض خاصة فى المناطق التى لم يكن تأثير الحكومة فيها واضحا مباشرا · عاشت فى تكافل وثيق مبنى على الاحتياج المتبادل أو الطاعة المشتركة للزعماء المحليين · وظلت الينابيع والأشجار والأحجار التى كانت تعتبر أماكن مقدسة أو للعلاج منذ ما قبل ظهور الاسلام أو حتى المسيحية فى بعض الأحيان مقدسة لأتباع مختلف الأديان ، ولذلك أمثلة ملحوظة فى العصور الحديثة ، ففى سوريا ، الخضر هو الروح الغامضة التى يعتبرها المسيحيون القديس جورج وكانت موقرة فى الينابيع والأماكن المقدسة الأخرى ، وفى مصر يحتفل الأقباط والمسلمون بعيد القديسة دميانة التى استشهدت خلال فترات اضطهاد المسيحيين فى الامبراطورية الرومانية ، وفى المغرب ، شارك المسلمون اليهود فى احتفالات حول مزارات وأضرحة لأولياء المسلمين واليهود ·

(*) وهل يتصور الكاتب الا يكون بينهم انفصال فى دور العبادة والحج ؟ !
(المترجم) ·

الفصل الثانى عشر

ثقافة القصور والشعب

الحكام ورعاة الثقافة

أدى تفكك الخلافة العباسية وسقوطها فى النهاية الى انهيار المؤسسة المركزية للسلطة والرعاية ، والتى مكنت من تنامى الحضارة والثقافة العربية الاسلامية ، فقد كان الشعراء ورجال العلم الدينى والدنيوى يلتقون فى بغداد ، حيث تتفاعل الثقافات المختلفة مع بعضها البعض لتنتج شيئا جديدا ، وقد صاحب الانقسام السياسى للبلاد نوع من التشتيت للطاقات والمواهب ، ولكنها أدت أيضا الى صعود عدد من القصور والعواصم لتكون مراكز للنتاج الثقافى والفنى ، ولم يكن الانقسام تاما : فقد أنجزت بالفعل لغة مشتركة للتعبير الثقافى ، وكانت حركة العلماء والدارسين والكتاب من مدينة لأخرى تحافظ عليها وتنميها ، وبمرور الوقت ازداد اتساع الاختلافات فى الأساليب والاهتمامات التى كانت موجودة على الدوام بين المناطق الرئيسية للعالم الاسلامى ، ولتبسيط الأمر ، ظلت العراق واقعة تحت تأثير الاشعاع الايرانى ، وشكلت مصر وسوريا وحدة ثقافية امتد أثرها الى أجزاء من الجزيرة العربية والمغرب ، وفى أقصى الغرب تنامت ثقافة أندلسية مختلفة فى بعض جوانبها عن ثقافة الشرق ٠

وقد تشكل المجتمع الأندلسى من خليط من عناصر مختلفة : المسلمين واليهود والمسيحيين ، والعرب والبربر والأسبان المحليين والجند المرتزقة من شرق وغرب أوروبا (الصقالبة والسلاف) ، جمعتهم معا الخلافة الأموية فى قرطبة ، وحول قصور الخلافة ، كانت هناك الصفوة الأندلسية من العائلات المستقرة ذات الأصول العربية المنحدرة من المهاجرين الأوائل من ذوى المال والنفوذ الاجتماعى ، المستمد من المناصب والمواقع الرسمية ومن السيطرة على الأرض ، وقد ظهرت بدايات الثقافة المتميزة الرفيعة ، فى هذه القصور وحولها ، فى الخلافات الأموية اللاحقة ، فكان

غالبية علماء الدين والفقه من المالكيين ولكن بعضهم التزم بالمذهب الظاهري (*) الذي دعا الى التفسير الحرفي للدين واختفى بعد فترة ، ودرس الأطباء والمسئولون الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وتجلت قوة الحكام والصفوة في المباني الفخمة الرائعة ، وكذلك في الشعر ·

وقد استمرت هذه الثقافة في الازدهار حول بعض القصور في الممالك الصغيرة التي انقسمت اليها الخلافة الأموية (ملوك الطوائف) · وقد جلب المرابطون الذين أتوا من تخوم الصحراء في المغرب ، معهم روحا متقشفة من الالتزام الصارم بالقانون المالكي (**) والشك في التكهن العقلاني الحر ، كما نشأت قوة خلفائهم (الموحدين) أيضا نتيجة نوع من احياء التقوى ، مع التركيز على وحدانية الخالق والالتزام بالقانون (***) ولكنه اكتسب مصداقية من الفكر الاسلامي في شرق العالم الاسلامي حيث أسسه وصاغه ابن تومرت ، وقد جاء الذين حملوا ذلك الفكر خلال المغرب والأندلس من شعوب البربر في جبال أطلس ، وكان عصرهم آخر العصور العظيمة للثقافة الأندلسية ، وكانت ذروته فكر ابن رشد الذي كان التعبير النهائي عن الروح الفلسفية بالعربية · كما قدر لابن عربي أن يكون بالغ الأثر على التراث الصوفي في الشرق والغرب لعدة قرون ، وبعد الموحدين اطفأت عملية التوسع المسيحي مراكز الحياة العربية الاسلامية واحدا تلو الآخر ، حتى لم تبق الا مملكة غرناطة ، وقد استمرت الحضارة والتقاليد التي أوجدتها بأشكال مختلفة في مدن المغرب ، ومراكش على وجه التحديد التي هاجر اليها الأندلسيون·

وقد كانت المباني أطول الآثار الفنية الانسانية عمرا ، وبقيت تعبيرا دائما عن الدين والثروة والقوة للحكام والنخبة ، وكانت المساجد الكبرى هي العلامات الدائمة الباقية بعد المسلمين الأوائل في البلاد التي فتحوها · وبزوغ المراكز المحلية للقوة والثروة الذي أعقب اضمحلال السيطرة العباسية ثم تلاشيها ، وأبدعت البنايات الخاصة بالشئون الدينية والحياة المدنية بأساليب مختلفة · وتطور نظام الأوقاف وشجع على تأسيس

(★) النص : Zahiri madhhab.

(★★) الفقه المالكي ، وقد أقررنا الأستاذ المترجم على ترجمته لأن المؤلف يقصد توضيح الأمور لقارئه ـ (المراجع) ·

(★★★) المقصود كما هو مفهوم الشريعة الاسلامية التي كانت بمثابة قانون تتوالى على استقائه من الأصول الفقهاء والعلماء ـ (المراجع) ·

مثل هذه المبـانى من المدارس والزوايـا ، والمستشفيات ، والنافورات العامة ، ووكالات التجار ، بنى بعضها موسرون من المتنفذين ، ولكن أكبرها بناه الحكام الذين بنوا أيضا القصور والقلاع ، ومراكز هذه المدن التي مازالت موجودة فى القاهرة وتونس وحلب ودمشق وفاس ومواقع الحج والقدس ، كانت معظمها نتـاج القرون اللاحقة لهذه الحقبة ، وكانت القاهرة هى الأكبر والأعظم بنيانا ، حيث القلعة وقصور المماليك على منحدرات تلال المقطم ، وأضرحة السلاطين ومسـاجدهم فى الجبـانات الشاسعة خارج أسوار المدينة والمجمعات كمسجد ومدرسة السلطان حسن التى بنيت على الجهات الأربع من فناء المسجد .

وبحلول القرن العاشر كان الشكل الأساسي للمبانى العامة قد تحدد: فالمسجد بالقبة والمحراب والمآذن والمداخل من الفناء المسور وفيه النافورة للوضوء ، وقصر الحاكم تعزله الأسوار أو المسافات عن المدينة ، ويمارس حياته في سلسلة من القاعات والأكشاك الواقعة في الحدائق ، وفي مثل هذه المبانى وفى الفترات الأولى ، لم تكن الواجهة الخارجية تعنى الكثير ، وانما الحوائط الداخلية هي التى كانت معبرة عن القوة أو العقيدة ، تزينها أشكال بنائية أو هندسية أو كتابات ، وفي الفترات اللاحقة كانت المبانى فى المدن المتباعدة تشترك الى حد ما في لغة الزينة ، فمن بغداد الى قرطبة تجد حوائط من الجص أو القيشانى أو الخشب المنحوت تحمل أنساقا من النقوش باللغة العربية ، ومن بعض النواحى ظهرت أنمـاط متميزة . فأصبح التركيز بشكل أكبر على المظهـر الخارجي للواجهات والمداخل التذكارية والقباب والمآذن ، وكانت بينها اختلافات ملحوظة ، وفى المدن المصرية والسورية في العصرين المملوكى والأيوبى ظهرت الواجهات ذات المداميك التبادلية من الألوان وهو ما يسمى بالطراز الأبلق ، وهو تراث رومانى كان مستخدما فى سوريا وامتد الى مصر ، ويشاهد أيضا فى الكنائس فى لمبارديا وتوسكانى فى ايطاليا ، وأصبحت القبة أكثر أهمية من الخارج ، تزين بأشكال هندسية متنوعة ومن الداخل ظهرت مشكلة الانتقال من القاعات الرباعية الشكل الى القباب المستديرة وأمكن حل هذه المشكلة باستخدام المتتاليات الزخرفية والمعلقـات والمقرنصـات التى غالبا ما كانت بغرض الزينة .

وفى أقصى الغرب من العالم العربى الاسلامى استحدث طراز انشائى متميز للمسجد العظيم فى قرطبة بممراته العديدة ، وزخارفها من الرخام المنحوت وأعمدتها المستقيمة ذات الأشكال المتميزة التى تعلوها العقود

على هيئة حدوة الحصان ، وقد تركت أسرتا الموحدين والمرابطين آثارهما في المساجد الكبرى في الأندلس ومراكش والجزائر وتونس ، وجامع القرويين في فاس من أعمال المرابطين يمكن أن يكون مثالا لذلك الطراز بفنائه الطويل الضيق ، والمئذنتين المتماثلتين في طرفيه وقاعة الصلاة بصفوف الأعمدة المتوازية مع الحائط الذى يقع عليه المحراب ، ويكسو السطح قيشاني أخضر ، وكانت المآذن في المغرب تميل الى المقطع المربع مع مربع أصغر يبرز من الافريز في أعلاها ، وبعضها كان فائق الطول والعظمة مثل مئذنة غرلادة في أشبيلية ومئذنة الكتبية في مراكش ٠

ولم تكن أكثر الآثار جمالا وبقاء في الطراز الأندلسي مسجدا ، بل كانت قصرا هو الحمراء في غرناطة ، بنى معظمه في القرن الرابع عشر ، ولم يكن مجرد قصر ، فهو أقرب الى أن يكون مدينة ملكية منفصلة عن المدينة الرئيسية الواقعة تحتها ، داخل أسوارها مجموعة من المباني،وتقع الثكنات والتحصينات الى الخارج ، وفي المراكز فناءان ملكيان ، فناء الريحان ، وفناء الأسود ، حيث تحوط أحواض المياه بالحدائق والمباني ، وفي نهاياتها تقع قاعات الاحتفالات ، وهو مبنى من الطوب الذى تغطيه زخارف غنية من الجص والخزف ، وتحمل نصوصا من القرآن والشعر العربي المكتوب خصيصا لها ، وكان وجود الماء يشير الى خصائص عامة للطرز المغربية والأندلسية من حيث أهمية الحدائق ، ففي قلب الحديقة تبني فسقية أو حوض تحيطها الحدائق والممرات بشكل مربع،وكانت الأزهار والشجيرات تختار وتزرع بعناية ، تحوطها أسوار وحوائط عالية من البناء المغطى بزخارف الجص ٠

كان تزيين الحوائط الداخلية يتم أساسا بالجص أو الخزف أو الخشب ٠ وفي القصور والحمامات العامة ، كانت هناك على حوائطها رسوم للمخلوقات البشرية والحيوانات تعبر عن عملية الصيد أو الحرب أو حفلات اللهو ، وهي الموضوعات التى يستحيل تصويرها في المساجد بسبب المذاهب أو التعاليم الدينية الصارمة التى تحرم تصوير الكائنات الحية ، باعتبارها محاولة لمحاكاة القدرة الالهية الخالقة المتفردة ، ولم تكن هناك صور معلقة ، ولكن قد تضاف رسوم الى بعض الكتب ، فكانت هناك مقتطفات من كليلة ودمنة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وتحوى صورا للطيور والحيوانات ، وأيضا من مقامات الحريرى وفيها صور من الحياة في المسجد ، والمكتبة ، والسوق ، والمنازل وبعضها أيضا لصور الادوات العلمية ، وقد استمر هذا التراث خلال العصر المملوكي ولكنه لم يكن بنفس قوته في ايران ٠

وقد كانت أعمال الزجاج والخزف والمعادن هى الأكثر أهمية فى تزيين وتجميل المنازل والمبانى العامة على السواء ، ولم تقتصر أهميتها على قيمتها الاستعمالية أو جمالها الشكلى ، ولكنها كانت تحمل صورا ترمز الى حقائق الدين أو قوة السلطة ، أو صورا للأشجار والأزهار والكلمات والحيوانات أو الحكام • وكان السيراميك فى البداية مصنوعا من الخزف المزجج ، وعرف بعدها الخزف ذو اللمعة المعدنية ، وكان يستورد الخزف الصينى الأبيض والأزرق ، ولكنهم قلدوه منذ القرن الرابع عشر ، وكانت مصر هى المركز الرئيسى للانتاج ، ولكن بعد تدمير الفسطاط فى القرن الثانى عشر هاجر الوطنيون الى سوريا وما وراءها ، وكانت تصنع الأوانى من البرونز والنحاس فى الموصل ودمشق والقاهرة وغيرها ، كما كانت تصنع المصابيح الزجاجية المتقنة للتعليق فى المساجد •

الشعر والقصة

لعب الشعر دورا مهما فى ثقافة الحكام والأغنياء، وأينما وجد راعون للشعراء ، ظهر شعراء يمتدحونهم ، وعادة ما اتخذ المديح شكلا مألوفا هو شكل القصيدة كما تطور على أيدى الشعراء فى العصر العباسى ، أما فى الأندلس فقد ظهرت أشكال جديدة من الشعر داخل وحول قصور بنى أمية وبعض خلفائهم ، كان أهمها الموشح الذى ظهر بنهاية القرن العاشر (*) ، وظل ينمو لمئات السنين لا فى الأندلس فقط ، وانما أيضا فى المغرب ، وهو قصيدة مقطعية غنائية لا ينتهى البيت فيها بنفس القافية ، ولكن يلتزم كل مقطع بنفس القوافى فى المواضع المناظرة ، والتى تتكرر طوال القصيدة ، أما البحور واللغة فقد كانت هى ذاتها المستخدمة فى القصيدة ، الا أن كل مقطع كان ينتهى (بخارجة) (**) ، جرى كثير من الجدل المدرسى حول أصولها ، وكانت تكتب بلغة أقرب الى الدارجة ، وأحيانا

(★) تذكر كتب تاريخ الأدب انه نشأ على يد مقدم بن معافر فى منتصف القرن الثالث للهجرة ، وتابعه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى ٣٢٨ هـ ثم انتشر بعد ذلك — (المراجع) •

(★★) الموشحات ، والمفرد موشحة ، سميت بذلك لانهم شبهوها بالمرأة المتزينة بالوشاح ، وقد خرجت الموشحات احيانا على اوزان الشعر العربى ، وتتكون الموشحة من عدة (ادوار) أو مقطوعات ينتهى كل منها بلازمة وتسمى (قفل — بضم القاف وتسكين الفاء) — (المراجع) •

كانت تكتب بلغة ليست عربية ، وهي الرطانة الرومانسية(*) الشائعة في ذلك العصر ، وكانت غالبا ما تتناول الغزل ، حيث يتحدث الشاعر عن نفسه بضمير الغائب ، وكانت موضوعات الموشحات تشمل نفس مواضيع الشعر العربي من وصف الطبيعة الى مدح الحكام ، والحب ، والابتهال الى الله والوجد الصوفي ، وفيما بعد ظهر شكل آخر هو الزجل ، وهو أيضا شعر مقطعي ولكنه مكتوب بالعربية الدارجة في الأندلس ٠

وكانت المشاعر الشخصية مرتفعة النبرة في بعض أشعار الحب الأندلسي ، كالتعبير عن المصير الفردي الذي ظهر في أشعار ابن زيدون (١٠٠٣ ــ ٧١) والذي نشأ في قرطبة في فترة اضمحلال الخلافة الأموية وكان نشيطا في المشاركة في الحياة السياسية في عصره ، وسجن على أيدي حكومة الخليفة ، وحاول الاحتماء واللجوء الى أحد الحكام المحليين أولا ، وبعدها لجأ الى حاكم محلي آخر في أشبيلية ، وعندما قهر حاكم أشبيلية قرطبة ، عاد اليها لفترة ٠ وقضى معظم حياته منفيا عن مدينته ، يذوب حنينا الى مسقط رأسه المفقود ، مشحونا بالأسى على شبابه الضائع ، والقصيدة صدى لبعض الأفكار التقليدية من القصيدة الكلاسيكية ولكن بشكل يعبر عن شخصيته ، وفي قصيدة له عن قرطبة يتذكر فيها المدينة وأيام شبابه ، ويبدؤها بصورة عن المطر الذي يهطل على أطلال مهجورة كان يسكنها الأحباء ، موشاة بالأزهار ، وكيف كانت تخطر بينها الفتيات كالصور الرقيقة في زمان أسعد أهله :

وأكرم بأيام العقاب السوالف

ولهو الاتراب بتلك المعاطف

بسود أثيث الشعر بيض السوالف

اذا رفلوا في وشي تلك المعاطف

فليس على خلع الأزار ملام

ثم يخاطب الأقدار التي منعت فضلها ؛ ولكنه يصور ذلك الساري في ليل النجوم التي ما زالت تتلألأ ويرسل معه تحية حب واشتياق الى قرطبة (١) ٠

(*) لا يفهم من هذه العبارة الرومانسية كمذهب ادبي ، وانما رطانة مجموعة اللغات ذات الأصول اللاتينية ، وهذا واضح من السياق ــ (المراجع) ٠

نفس اللمسة الشخصية من الأسى والمعاناة يمكن أن نلمسها فى قصائده العاطفية لولادة ، الأميرة الأموية التى أحبها فى شبابه والتى هجرته لشخص آخر (٢) :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا … والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله … كأنه رق لى فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم … كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت … بتنا لها نام الدهر سراقا
وزاد تألق فى ضاحى منابته … فازداد منه الضحى فى العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق … وسنان نبه الصبح أحداقا
ياعلقى الأخطر الأسنى الحبيب الى … نفسى اذا ما اقتنى الأحباب اعلاقا
كان التجارى بمحض الود من زمن … ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم … سلوتم وبقينا نحن عشاقا

وكان ذلك هو الازدهار الأخير للشعر الغنائى الأصيل قبل العصور الحديثة ، واستمر الانتاج الشعرى بوفرة كنشاط تقليدى للرجال المتعلمين، ولكن القليل منه استرعى الانتباه فى العصور اللاحقة ، والاستثناء الوحيد من هذا كان بعض الشعر الذى ألهمته الصوفية كشعر عمر بن الفارض (١١٨١ ـ ١٢٣٥) الذى تميز بصور عن الحب والنشوة ويحتمل أكثر من معنى ٠

وكان أحد أسباب ازدهار الشعر الأندلسى هو ذلك الخليط من البشر واللغات والثقافات ٠ كانت هناك خمس لغات مستخدمة على الأقل، اثنتان منها كانتا العربية والأندلسية المتميزة والرومانسية الدارجة التى تطورت لتصبح الأسبانية فيما بعد ، وكلتاهما كانت مستخدمة بدرجات متفاوتة عند المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت هناك أيضا ثلاث لغات مكتوبة هى العربية الفصحى واللاتينية والعبرية ، وقد استخدم المسلمون العربية ، والمسيحيون اللاتينية ، واليهود العربية والعبرية ، واليهود الذين كتبوا فى الفلسفة أو العلوم استخدموا العربية أساسا ، ولكن الشعراء كتبوا بالعبرية فى شكل جديد ، وللمرة الأولى تقريبا استخدم الشعر العبرى لأغراض أخرى خلاف الأغراض الدينية ٠ وتحت رعاية اليهود الأغنياء والمتنفذين الذين لعبوا دورا فى حياة القصور والمدن ، تبنى

الشعراء أشكالا من الشعر العربي كالقصيدة والموشح ، واستخدموهـا فى الأغراض الدنيوية والدينية على السواء وكان جودة هاليفى (١٠٧٥ — ١١٤١) أكثر هؤلاء الشعراء شهرة وبقاء ٠

كان الشعر الراقى مكتوبا بلغة وقواعد صارمة وحفل بموضوعات مألوفة وشاعت فيه أصداء أشعار الماضى ، ونشأ حوله أدب أكثر انتشارا ، ومن التبسيط المخل ، أن نعتبره أدبا شعبيا ٠ ولقى تقديرا فى طبقات واسعة من المجتمع وكان معظمه وليد المناسبات ، سريع الانطفاء ، يرتجل ولا يكتب ، وينتقل شفاهة وضاع معظمه مع الزمن ولكن بعضه بقى ، وقد انتشر الزجل الذى ظهر أولا فى الأندلس فى القرن الحادى عشر فى كل العالم الناطق بالعربية ، وكان هناك أيضا ترات من المسرحيات وخيال الظل ، الذى كتبه ابن دانيال فى القرن الثالث عشر ، ويؤدى بالعرائس أو الأيدى أمام الضوء وخلف شاشة وهو مازال موجودا حتى الآن ٠

وأكثر هذه الأنواع انتشارا وبقاء كان الرواية وقد نمت عبر العصور ملاحم عظيمة من الروايات عن أبطال ، وضاعت أصولها فى طيات الزمان ، وبقيت منها أشكال مختلفة فى الثقافات المختلفة ، ولابد أنها كانت متداولة بالشفاهة قبل أن تسجل كتابة ، وشملت قصص عنترة بن شداد ، ابن الجارية الذى أصبح بطلا قبليا عربيا ، والاسكندر الأكبر ، وبيبرس الذى انتصر على المغول وأسس الحكم المملوكى فى مصر ، وسيرة بنى هلال القبيلة العربية التى هاجرت الى بلاد المغرب ٠ وتختلف موضوعات هذه الملاحم ، بعضها قصص عن مغامرات أو أسفار تروى لمجرد القص ، وبعضها يتناول عالم القوى الخارقة وما وراء الطبيعة التى تحيط بالحياة البشرية ، والأرواح ، والسيوف ذات الصفات السحرية ، ومدن الأحلام ، وفى قلب تلك الملاحم تكمن فكرة البطل أو الجماعات البطولية عن رجل أو مجموعة من الرجال تقاوم قوى الشر ، من الناس أو الشياطين أو حتى نزواتهم الخاصة وتتغلب عليها ٠

وكانت هذه التراكيب تتلى فى مزيج من الشعر والنثر المسجوع والنثر المعتاد ، ولذلك أسباب فالسجع يعين على الحفظ ، وأيضا يفرق بين القصة وبين لغة الحياة العادية ، وكان الراوى يستطيع الانتقال من تركيبة الى أخرى وفقا للانطباع الذى يبغى أن يوصله للسامعين ، وللمستمعين فى الريف توقعات مختلفة عن تلك لدى سكان المدن ، وتختلف أيضا بين الأميين والمتعلمين ، وبمرور الوقت سجلت هذه القصص كتابة

على أيدى كتاب من ذوى المهارات الأدبية ، وكان هناك أيضا مجال للارتجال أو التعديل حسب احتياجات المكان أو الزمان ٠

لم يخضع تاريخ تطور هذه السير للدراســة الكافيــة وقد لا يكون ذلك ممكنا ، ومن الواضح رغم ذلك أن بعضــها تنامى تدريجيـا بمضى القرون واختلف من بلد لآخر ،وقد أظهرت دراســة عن سيرة عنترة أن جــذورها ترجع الى بعض القصص الشـعبية فى الجزيرة العربيــة قبل الاسلام ٠ ولكنها جمعت مواد أخرى بانتقالها من مكان لآخر ، وقد تشكل النص الحالى قبـل نهاية القرن الرابع عشر ، ومن المعتقـد أن مثل هذه العملية من التطور لها دلالة تفوق مجـرد الدلالة الأدبية ، حيث انها عملت على اضفاء الشرعية على الشعوب المستعربة أو التى أسلمت حديثا بتشكيل تاريخها على النسق العربى ، وكان رجال القبائل البدو الرحل من الصحارى عنــدما يقصــون روايتهم لسيرة عنترة أو بنى هــلال ينسبون لأنفسهم جذورا عربية ٠

وسلسلة القصص المعروفة بـ « ألف ليلة وليلة » تعرف فى أوروبا بـ « ليالى عربية » رغم أنها تختلف عن الروايات من نواح عدة ، الا أن لها صــدى فى بعض أفكارها ، ويبدو أنها تطورت بنفس الطريقة ، ولم تكن قصة مبنية على حياة ومغامرات رجل أو مجموعة من الرجال ، ولكنها قصص من أنواع مختلفة ، ارتبطت تدريجيا ببعضها من خلال راوية واحدة تحكى القصص لزوجها ليلة بعد ليلة ، ويعتقد أن لهذه المجموعة أصولا من القصص المترجمة من اللغــة البهلوية الى العربية فى القرون الاســـلامية الأولى ، وهناك بعض المؤشرات على حدوث ذلك الانتقال فى القرن العاشر، فى جزء من مخطوط أقدم ، ولكن أول نسخة كاملة ترجع الى القرن الرابع عشر ، وهذه السلسلة من القصص يبدو أنها نشأت فى بغداد بين القرنين العاشر والثانى عشر ، وامتدت الى القاهرة فى العصر المملوكى ، والقصص التى أضيفت أو اختلفت تعزى الى بغداد فى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد ، وهناك اضافات أيضا بعد ذلك من بعض القصص التى ظهرت مع الترجمات الأولى الى اللغات الأوربية فى القرن الثامن عشر ، وليست واردة اطلاقا فى المخطوطات الأولى ٠

وهناك عمل روائى آخر مختلف عن ذلك ، أنتج فى آخر العصــور العظيمــة من الحضـــارة الأندلســية فى عصر الموحدين ، وهى رواية « حى بن يقظــان » التى كتبها ابن طفيل (ت ١١٨٥/٦) وهى معـالجة فلسفية على شكل قصة تحكى عن طفل نشأ معزولا فى جزيرة ، ويرتقى

فى مراحل مختلفة من الفهم للدنيا والعالم من حوله بالتفكير المنفرد ، واستغرقت كل مرحلة سبع سنوات ولها شكل يناسبها من الفكر ، وفى النهاية يتوصل الى جماع الفكر الانسانى عندما يستوعب الكون والايقاع الأبدى للبعث والعودة للروح الواحدة تتحرك من مستوى الى آخر حتى مستوى النجوم ، وهى النقطة التى تتخذ فيها شكلها المادى ، ثم الروح التى تتوق للتحرك لأعلى ، الى الواحد . ومثل هذا الفهم لا يتاح الا للقلة .

وعندما يلتقى « حى » فى النهاية بكائن بشرى آخر ويرحل الاثنان من الجزيرة الى العالم المأهول ، ويدرك أن هناك هيكلا من القدرات البشرية ، وأن القلة فقط يمكنها التوصل الى الحقيقة باستخدام العقل وحده وقلة أخرى يمكنها التوصل اليها عن طريق اعمال العقل فى حل الرموز الدينية التى تصلهم فى الوحى والبعض الثالث يتقبل القوانين المبنية على هذه الرموز وليس بامكانهم تفسيرها عقليا ، والأغلبية من الناس لا تأبه بالحقيقة العقلانية أو قوانين الدين ولا يهتمون سوى بالأشياء فى هذا العالم ، وكل من هذه المجموعات الثلاث لها كمالها وأيضا حدودها ، وليس عليها السعى لأكثر من ذلك ، وعن زياراته للعالم المأهول لرجال المجموعة الثالثة يقول ابن طفيل :

... وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم ، واهتدى بمثل هديهم ، وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة وقلة خوضهم فيما لا يعنيهم ، والايمان بالمتشابهات ، والتسليم لها ، والاعراض عن البدع والأهواء ، والاقتداء بالسلف الصالح ، والترك لمحدثات الأمور ، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة والاقبال على الدنيا ، وحذرهم عنه غاية التحذير ، واعلم .. أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها الا بهذا الطريق ، وأنها ان رفعت عنه الى بقاع الاستبصار اختل ما هى عليه ، ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء ، وتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها (٣) .

الموسيقى

كانت الموسيقى فى أغلب العصور والأماكن زينة لحياة الأغنياء وذوى النفوذ ، وكانت مصاحبة لشعر من لون معين ، وقد كتبت الموشحات الأندلسية كى تغنى ، وعملت على استمرارها تقاليد بدأت فى النمو فى القرون الاسلامية الأولى والتى كانت بدورها استمرارا لتراث ايرانى قديم ، وفى العصور الأموية كانت الموسيقى من معالم القصور ، تعزف

للحاكم الذى يحـافظ على مكانته بالتستر خلف سـتارة ، وكتاب الأغانى يسجل مثـل هـذه المناسبة فى القصـور العباسية • يتحدث أحد ملحنى الأغانى قائلا :

•• حتى حاصرت الى دار قوراء ، فيها أسرة فى وسطها ، قد أضيف بعضها الى بعض ، فأمرنى الرجل بالصعود فصعدت ، واذا رجل جالس عن يمينه ثلاث جوار فى حجرهن العيـدان ، وفى حجر الرجل عود ، فرحب الرجل بى ، •• فلم ألبث أن خرج خادم من وراء الستر فقال للرجل : تغن ، •• [وبعد أن تغنى هؤلاء الأربعة تغنيت بغناء لى •• فقال الفضل ابن الربيع : هذا أمير المؤمنين قد أقبل اليك] (٤) •

وقد انتقل هذا الفـن من البلاط العبـاسى الى قصور الأمويين فى قرطبـة حيث ازدهر تراث أندلسى ومغربى مختـلف عن التراث الايرانى للقصور الشرقية •

وحيث ان الموسيقى كانت تنتقل شفاهة بشكل مباشر ، فلا توجد أى سـجلات لما كان يعزف أو يغنى حتى القرون اللاحقـة ، ولكن يمكن أن نعـلم بعض الأمور من أعمـال الذين كتبوا عن نظـرية الموسيقى • وفقا للمفكرين اليونان كان الفلاسفة المسلمون ينظرون للموسيقى باعتبـارها علما من العـلوم ، حيث يمكن تفسـير نظـام الأصوات وفقا للمبادىء الرياضية ، وكان تفسيرها مهمـا عندهم لأنهم اعتبروا الأصوات أصداء لموسيقى الأكوان ، وتلك الحركات السماوية التى نبع منها كل ما يتحرك فى الدنيـا ، وكانت أعمال ابن سـينا — الى جـانب ما فيها من تكهنات فلسفية — تتناول تفاصيل عن أنماط التلحين والأداء والأدوات ، وتبين أن الموسيقى فى القصور كانت صوتية أساسا ، حيث كانت الأشعار تغنى بمصاحبة الآلات الوترية بنوعيها : ما يعزف منها بدق الأوتار أو الأقواس والنايات وأدوات الايقاع ، وكانت الأصوات حسب « مقامات » متعارف عليها ، ولكن ضمن هذه الأنماط الثابتة، هناك مجال للارتجال والتنويعات والزخارف التى كانت تصـاحب الرقص ، الذى كانت تؤديه راقصـات محترفات فى القصور والمنازل الخاصة •

وقد كانت لكل طبقة من طبقات المجتمع فى الصحراء والريف والمدن موسيقاها الخاصـة للمناسـبات المهمـة من الحرب والحصـاد والعمل والزواج ، وكان لكل منطقة تراثها من الأغانى التى تغنى بمصاحبة دقات الطبول أو بدونها ، أو مع النايات أو الوتريات ، وبعض المناسبات أيضـا

كان يحتفــل فيها بالرقص ، ليس رقص الراقصات المحترفات ، ولكن يؤديه الرجال أو النساء فرادى أو مجموعات ، وربما تســببت هجرة الشعوب وانتشار اللغة العربية وما صاحبها في توحيــد ذلك التراث ولكن الاختلافات ظلت باقية من قرية لأخرى ، ومن قبيلة لأخرى •

وقد كانت موسيقى القصور مرتبطة بحياتها الدنيوية ، كما كانت الموسيقى الشعبية أيضا مرتبطة باحتفالاتهم الدنيوية ، وقد عارض رجال الدين ذلك ولم يوافقوا عليها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحــريم الموســيقى بالكامل ، لأنها سرعان ما لعبت دورا في الشعائر الدينيــة ، فللأذان ايقاعه الخاص ، وكان القرآن يجود بأشكال معتمدة، وكذلك الذكر كان مصحوبا بالموسيقى وبحركات جسمانية في بعض الطرق الصوفية ، ولذلك فقد كان من الأهمية لمن يكتبون في الفقــه أن يضعوا تعريفا للشروط التي يسمح فيها بعزف وسماع الموسيقى،وفي جزء مهم من كتاب « احياء علوم الدين » للامام الغزالي يعبر عن تأثير الموسيقى على القلب الانساني :

•• ولا منفــذ للقلب الا من دهليز الأســماع ، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو مساوئها ، •• ، فلا يظهر من القلب عنــد التحريــك الا ما يحويــه ، •• ، فالســماع للقــلب محــك صادق ، (٥) •

ولذلك،فمن الضروري تنظيم هذه القوة الطاغية فالموسيقى والشعر ليسا محرمين في حد ذاتهما ولكن طبقــا للظروف ، فهما جائزان عندما يثيران الرغبة للحج ، أو حث الرجال على القتال في المواقف التي يكون فيها القتال مشروعا أو لاثارة الأسى المحمود (أسى الانسان على نقائصه في واجبات الدين أو على خطاياه) (٦) أو الحب عندما يكون موضوع الحب مشروعا ، أو حب الله (ليس هناك صوت يطرق مسامع الانسان الا وكان من الله وفي الله) (٧) • الا أنها محرمة اذا كان المطرب يثير الاغراء أو تكون الأغنيــة خارجة أو ملحدة ، أو تثير الشهوات ، وقد حرمت آلات النفخ والآلات الوترية لارتباطها بالسكارى والمخنثين •

فهــم العــالم

لم تكن قراءة الكتب قاصرة على علماء الدين وأساتذته في المدارس ، ولكن كان يمارسها أيضا أفراد العائلات الحضرية الذين اكتسبوا القدرة على القراءة ، وكان أمامهم كم هائــل من الأعمال المكتوبة بالعربية ، وتنامى نوع من الوعي الثقافي بالذات في دراسة الثقافة المتراكمة بالعربية وفي التفكير فيها •

وكان الشرط اللازم لمثل هذا النشاط أن تكون الكتب متاحة بشكل ميسور ، وقد جعل التوسع فى صناعة الورق واستخدامه منذ القرن التاسع وما بعده من نسخ الكتب عملية سهلة ورخيصة ، وكان الكتاب يملى على الكتبة وبعدها يستمع الى النسخة أو تقرأ وتوثق بالاجازة وهى شهادة بصحة النقل ، وقد توسعت هذه العملية حتى ان الذين نسخوا الكتب فوضوا آخرين في نسخها وكانت النسخ تباع لدى الوراقين الذين تقع محالهم قريبا من المساجد الكبرى فى المدينة ، وكانت المكتبات تشترى نسخا من الكتب ٠

وكانت أول المكتبات الكبيرة التى وصلتنا أخبارها من انشاء الحكام ، فقد أقام المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) « بيت الحكمة » فى بغداد ، كما أنشأ الفاطميون « دار العلوم » فى القاهرة فى بداية القرن الحادى عشر وكلتاهما كانتا أكثر من مجرد مستودع للكتب،فكانتا أيضا مراكز للدراسة ونشر الأفكار التى يشجعها الحكام ، فقد كانت العلوم العقلانية مرغوبة فى عصر المأمون ، وعلوم الاسماعيلية رائجة فى القاهرة ، وفيما بعد تكاثرت المكتبات جزئيا لأنه أصبح من المتعارف عليه أن الكتب التى أسهمت فى العلم وتعليم الدين يمكن أن تتحول الى وقف ، وكان للعديد من المساجد والمدارس مكتبات ملحقة بها ليس فقط لاستخدام الدارسين وطلاب العلم فى دراساتهم الخاصة ، ولكن أيضا كمراكز للنسخ والتداول ٠

ولم يعترف الفقهاء الا بالكتب المتعلقة بالمعارف الدينية كموضوعات للوقف ، ولكن الحكام والأغنياء لم ينصاعوا بالضرورة لمثل هذا التمييز، وكانت للقصور والبيوت الكبيرة مكتبات يحوى بعضها كتبا مكتوبة بخط جميل ومزدانة بالصور ٠

وكان معظم من قرأ هذه الكتب أو كتبها ينتمون الى من يطلق عليهم الدارسون المحدثون « أدباء الذكريات » والذين تداولوا المعاجم والقواميس والحواشى على الأدب ودلائل العمل الادارى وقبل كل ذلك التاريخ والجغرافيا،وكانت كتابة التاريخ من خصائص الأدب الحضرى فى المجتمعات الإسلامية وكانت الموضوعات المعرفية الجزء الأكبر من الكتابات فى اللغات الرئيسية للاسلام بخلاف الأدب أو الكتابة الدينية ، ورغم أنها لا تشكل جزءا أساسيا من منهج المدرسة ، الا أن كتب التاريخ كانت تقرأ بشكل واسع بين الدارسين والطلاب ، وكذلك من القاعدة الشعبية الأوسع ، وكانت لها أهمية خاصة عند قطاع معين من القراء كالحكام ومن فى

خدمتهم • حيث شكل التاريخ ليس فقط سجلات للأمجاد والانجازات للأسر الحاكمة ، ولكن أيضا مجموعة من الأمثلة التى أحاطت بهم ، وتعتبر دروسا فى فنون الحكم •

ومع انتهاء وحدة الخلافة وظهور الأسر الحاكمة بقصورهم وبيروقراطيتهم وبرجوازيتهم تطورت كتابة التاريخ المحلى فى العالم الاسلامى ، وقد كتب الدارسون ومؤرخو القصور حوليات عن تاريخ المدينة أو المنطقة ، وفى مثل هذه الأعمال قد يكون هناك موجز عن التاريخ العام منقولا عن المؤرخين العظام فى العصر العباسى ، على أن يلى ذلك تحليل ونقد للأحداث والوقائع المحلية أو الأسرة الحاكمة مسجلة عاما بعد عام وسير أولئك الذين ماتوا خلال ذلك العام وقد استطاع ابن الأثير (١١٦٣ — ١٢٣٣) فى سوريا أن يضع أحداث عصره وموقعها فى سياق التاريخ العام ، وفى مصر غطت الفترة المملوكية التاريخ المحلى الذى كتبه المقريزى (ت ١٤٤٢) وابن اياس (ت ١٥٢٤) :

« فقد زلت أقدام كثير من الاثبات والمؤرخين الحفاظ فى مثل هذه الأحاديث والآراء ، وعلقت بأفكارهم ، ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن التباس ••• حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا •• فلذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأمصار فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها،وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل خبرة ، يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والا زيفه واستغنى عنه » (٨) •

وقد غطى التاريخ المحلى الذى كتبه المقريزى (ت١٤٤٢) وابن اياس (ت ١٥٢٤) فى مصر فترة الحكم المملوكى ، كما أن تاريخ ابن خلدون غطى تاريخ الأسر الحاكمة من العرب والبربر ، وسبقتها مقدمته الشهيرة التى يتناول فيها مبادىء الاختيار والتفسير فى الكتابة الجادة للتاريخ • نتوصل اليها فى ضوء مبادئه للشرح والتفسير اذا كانتا منسجمتين فمعلوماته صائبة سليمة والا فهى مختلقة غير صائبة •

وقد ظهر نتيجة الاهتمام بتنوع التجارب الانسانية فرع آخر من الكتابة هو الجغرافيا وأدب الرحلات،والذين كتبوا عن الجغرافيا خلطوا بين المعرفة المستمدة من الاغريق والايرانيين والهنود ، وبين ملاحظات العسكر والرحالة ، في حين اقتصر بعضهم على رواية قصص أسفارهم الخاصة ، وما شاهدوه بأنفسهم مثل كتابات ابن بطوطة (ت ١٣٧٧) التى كانت أكثرها ايغالا فى البلاد ، وأعطت مفهوما لامتداد العالم الاسلامي وتنوع المجتمعات الانسانية فيه ، وانكب الآخرون بشكل منظم على دراسة بلدان العالم وعلاقتها ببعضها لتسجيل اختلافات التنوع فى خصائصها الطبيعية عن الشعوب والعادات وتتبع المسارات التى ربطت بعضها ببعض ، والمسافات بينها ، وعليه ، فقد كتب المقدسي تواليفة للجغرافيا الطبيعية والانسانية عن العالم المعروف ، مبنية على تعليقاته الخاصة على ملاحظات شهود ثقات ، والياقوتى (ت١١٢٩) الذى ألف نوعا من المعاجم الجغرافية .

وقد اختلف ذوق البرجوازية عن ذوق علماء الدين وطلابه فى المدارس ، وخاصة العائلات التى قدمت أبناءها من الكتبة والمحاسبين والأطباء للحكام ، فكانت منجذبة بحكم طبيعة عملها للفكر الذى كان نتاجا للملاحظة والاستدلال المنطقى من المبادىء العقلانية ، وكانت تكهنات الفلاسفية تثير الشك عند مدارس الفقه وبعض الحكام ، ولكن الطرق الأخرى لاستعمال العقل للوعى بطبيعة الأشياء أثارت شكوكا أقل وكانت لها منافع عملية .

وقد كانت لعلم الفلك قيمة عملية ، لأنه وفر وسائل حساب التواريخ والمواقيت ، وكان ذلك أحد القطاعات التى جرى فيها استعمال اللغة العربية على نطاق واسع من البحر المتوسط الى المحيط الهندى ، وجعل بالامكان ربط التراث الاغريقى العلمى بنظائره من الهند وايران .

وهناك علم آخر كان أكثر شيوعا فى الاستعمال ، فقد اكتسب الأطباء أهمية كبرى فى المجتمعات الاسلامية من خلال عنايتهم بصحة الحكام والأعيان ، وأمكنهم اكتساب نفوذ سياسى كبير ، ولم يكن بامكانهم تحقيق أعمالهم بدون قدر من التفهم بطبيعة وأنشطة الجسم البشرى وعن العناصر الطبيعية التى يتكون منها ، وكان جوهر المعرفة الطبية الاسلامية مأخوذا من النظرية الفسيولوجية الطبية اليونانية وخاصة عن أعمال جالينوس الجامعة العظيمة ، وتأسست هذه النظرية على الاعتقاد بأن الجسم البشرى مكون من أربعة عناصر يتكون منها كل العالم المادى هى النار والهواء والتراب والماء ، وهذه العناصر يمكن خلطها بأكثر من طريقة .

وهذه الخلطات المختلفة أوجدت اختلافا فى الأمزجة والطبائع ، والتوازن المناسب من هذه العناصر يحافظ على صحة البدن ، وغيـابه يؤدى الى المرض الذى يحتاج الى فن الطبيب ٠

وقد تجلت عظمة مبادىء الطب خـلال العصر العباسى فى عملين عظيمين ، هما (الحاوى) الذى كتبه أبو بكر الرازى (٨٦٣ ــ ٩٢٥) ، و (القانون) لابن سينا ، وكانا مبنيين على أعمال كبار العلماء اليونانيين الا أنهما أثبتا تبلور تراث اسلامى متميز فى الطب ، وعملا على استمرار تداوله ، وقد كان كتاب ابن سينا الذى ترجم الى اللاتينية ولغات أخرى، أهم النصوص التى يعتمد عليها الطب الأوروبى حتى القرن السادس عشر على الأقـل ٠

وفن الطب كما تفهمه الأطبـاء المسلمون لم يكن يدرس بالمدارس ، ولكن بالتدريب العملى فى (البيمارستان) وهى المستشفيات التى كانت ترعاها الأوقاف فى المدن الرئيسية ، ويبدو أن الممارسين المسلمين العظام فى فن الشفاء قد أسهموا بأجل أعمالهم من واقع الممارسة ، فقد راقبوا تطور الأمراض ووصفوها ، وقد يكون ابن الخطيب (١٣١٣ ــ ٧٤) أول من تفهم ظاهرة الأوبئة والطاعون وانتشارها بالعدوى ، ودرسوا صناعة العقاقير من النباتـات الطبية وآثارهـا على الأجسـام البشرية ، وكانت الفارماكوبيا منتشرة ، ويقال ان الصيدلة كانت ابتكارا اسلاميا ، وكذلك أدركوا أهمية العوامل التى يمـكن أن تمنع اختلال التوازن بين العناصر مما يؤدى الى المرض فى اعتقادهم ، وهى النظام الغذائى الصحى والهواء النقى والتمارين الرياضية ٠

وفى القرون اللاحقة جرت محاولة لايجاد نظام بديل للعلوم الطبية هى (الطب النبوى) وكان هذا الكتاب رد فعل فى مواجهة التراث الذى وضعه جالينوس ، وكان نظاما مبنيا على الأحاديث النبوية والمشاهدات المسجلة عن ممارسات النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته حيال الصحة والمرض ، ولم يضعه رجال طب ، ولكن وضعه فقهاء وأصوليون ممن تبنوا نظرة صـارمة بأن القرآن والحديث يحويان كل ما هو ضرورى لتسـيير الحياة الانسانية ، وقد كان ذلك اعتقاد الأقلية حتى بين علماء الدين ، وقد عارضه رأى نقدى رزين لابن خلدون ، بأن هذا النوع من الطب يمكن أن يصيب أحيانا وبالصدفة ، ولكنه ليس مبنيا على المبادىء العقلية ، وأن الأحداث والآراء التى سجلت فيما يتعلق بحياة النبى لم تمثل جانبا من الوحى الالهى المقدس :

« فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات ، ... ، فلا ينبغى أن يحل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع » (٩) .

وقد كان هنـاك بين التعليم الرسمى للعلوم الدينية وبين تكهنات الفلاسفة منطقة واسعة من خلال المعتقدات والممارسات التى أمل الانسان أن يتمكن من خلالها من تفهم القوى الكونية والتحكم فيها ، وقد عكست مثل هذه المعتقدات الخوف والحيرة فى مواجهة ما لا يدرك من مصير قاس ، ولكنها قد تكون أكبر من ذلك ، فالخط الفاصل بين العلم والخرافة لم يكن بنفس وضوحه اليوم ، وقد آمن كثير من الرجال والنساء المتعلمين بمثل هذه المعتقدات والممارسـات ، لأنها كانت مبنية على أفكار واسـعة الانتشار ، ورفضها بعض الفلاسفة وعلماء الدين لأسباب مختلفة .

وقد كانت ادعاءات علماء الفلك مبنية على فكرة منتشرة ولها أساس سلفى جدير بالاحترام : ومؤداها أن العالم السماوى يحدد شئون العالم البشرى وأن الحدود ما بين العالمين تتمثل فى الكون والنجوم ، وفى دراسة تكوينها وحركتها بحيث تفسر ما مضى وما يأتى ، وحتى أن تجعل من الامكان تغييره ، وكانت هذه الفكرة منتشرة بين اليونانيين ، وتبناها بعض المفكرين الاسلاميين ، واتخذت شكلا اسلاميا محددا على أيدى المفكرين الصوفيين ، وهى أن أشياء العـالم ينظـر لها باعتبـارها انبعاثات من الله ، وقد طور علماء الفلك المسلمون تقنيات التكهنات والتأثيرات على سبيل المثال بكتابة الحروف والأرقام فى ترتيبـات معينـة على مواد من أنواع مختلفة (الأوفاق) . حتى ان بعض المفكرين المتميزين قبـلوا بادعاءات الفلكيين واعتقـدوا بأن النجـوم لها تأثير على صـحة الجسـد ، ولكن المشرعين المحافظين والفلاسفة العقلانيين رفضوا ذلك ، فكان ابن خلدون يرى أن لا أساس لها فى حقيقـة الوحى ، وأنها تؤدى الى انكار دور الله كقوة صمدية قادرة .

كذلك ساد الاعتقاد بين الكيميائيين (*) بأن الذهب والفضة يمكن انتاجهما من المعـادن الخسيسة اذا أمكن ايجاد طريقة لذلك ، وقد كانت لممارسات الكيمياء أسسها فى نظرية علمية مأخوذة عن اليونانيين،وذلك فى الفكرة القائلة بأن كل المعادن تشكل نوعا طبيعيا واحدا ، وتتميز عن بعضها البعض عن طريق العوارض وأن هذه العوارض تتغير ببطء لتصبح

(*) يسمون بالسيميائيين ، تمييزا لهم عن الكيميائيين ـ (المراجع) .

أكثر قيمــة ، وعليه فتحويلها الى فضة أو ذهب ليست حركة فى اتجاه معاكس لقوانين الطبيعة ، وانما هو تعجيل ، عن طريق التدخل الانسانى، بانجـاز عملية كانت جارية بالفعل ، ومرة أخرى كان هنـاك جـدل حول ذلك بين المتعلمين ، واعتقد ابن خلدون بأن من الممكن انتاج الذهب والفضة عن طريق السحر أو المعجزات الالهية ، وليس بالحرفة البشرية ، وحتى اذا كان ذلك ممكنا فليس مطلوبا ، لأنه اذا لم يعد الذهب والفضة نادرين، فلن يصلحا مقياسا للقيمة ٠

وقد كان الاعتقاد فى الأرواح والحاجة لايجاد طريقة ما للتحكم فيها والسيطرة عليها أكثر انتشارا ، بل كان عالميا فى الواقع ، فكان الجان عندهم أرواحا بأجساد من الأبخرة أو النـار يمكن أن تظهر للحواس ، وغالبا على هيئة حيوانات ، ويمكن أن يكون لها تأثير على حياة الانسان ، وكانت فى بعض الأحيان شريرة أو على الأقل خادعة مضللة ، ولهذا كان من الضرورى محاولة السيطرة عليها ، ويمكن أن يكون هناك أيضا أناس لهم القـدرة على السـيطرة على أفعال وحيـاة الآخرين ، اما لأنهم ذوو خصائص معينة لا سيطرة لهم عليها مثـل الحسد أو من خلال الممارسة المقصودة لأعمال معينة ، على سبيل المثال الاتيان ببعض الحركات الطقسية فى ظروف معينــة ، يمكن أن تستثير قوى ما وراء الطبيعة ، وكان هذا انعكاسا مشوشـا عن القوى التى يحوزها الفضلاء من أولياء الله منة منه ، وحتى ابن خلدون المتحفظ اعتقد بأن السحر موجود بالفعل ، وأن بامكان بعض الأفراد أن يتوصلوا الى السيطرة على الآخرين ، ولكنه اعتقد بعدم امكان تفسيرهـا ، وكان هناك اعتقاد سـائد بأن مثل هذه القوى يمكن التحكم فيها أو تحويلها بالتعاويذ والأحجبة التى توضع على أجزاء معينة من الجسم ، أو الترتيبات السحرية من الكلمات والأرقام ، أو ممارسات استخراج الأرواح بالغناء والطقوس مثل الزار وهو طقس ما زال واسع الانتشار فى وادى النيـل ٠

وقد ساد الاعتقاد فى كل ثقافات ما قبل العصـــور الحديثة بأن الأحلام تفتح بابا لعالم آخر خـلاف العالم المحسوس ويمكن أن تأتى عن طريقها رسائل من الله ، ويمكن أن تكشف أبعادا خفية عن روح الانسان، كما يمكن أن تأتى من الجن أو الشياطين ، ولابد أن الرغبة فى استكناه معنى الأحلام كان منتشرا واعتبر أمرا مشروعا بشكل عـام ، فالأحلام تخبرنا عن أشياء من المهم أن نعرفها، وقد نظر اليها ابن خلدون باعتبارها

أحد علوم الدين ، وحيدما ينتهى الاستيعاب الحسى بالنوم يمكن أن ينكشف للروح جانب من حقيقتها ، حيث انها انطلقت من جسدها ، فانها تستطيع استيعاب ما ينتمى الى عالمها ، وتعود بعد ذلك الى الجسد، بحيث تنقل ما استوعبته الى الخيال الذى يقوم باختلاق الصور المناسبة التى يمكن للنائم أن يحس بها كما لو كانت استيعابا حسيا ، وقد أخذ علماء المسلمين تفسير الأحلام عن اليونانيين ، ولكنهم أضافوا اليه ، وقيل عن كتب تفسير الأحلام الاسلامية انها أغنى الكتب فى هذا الفرع على الاطلاق ·

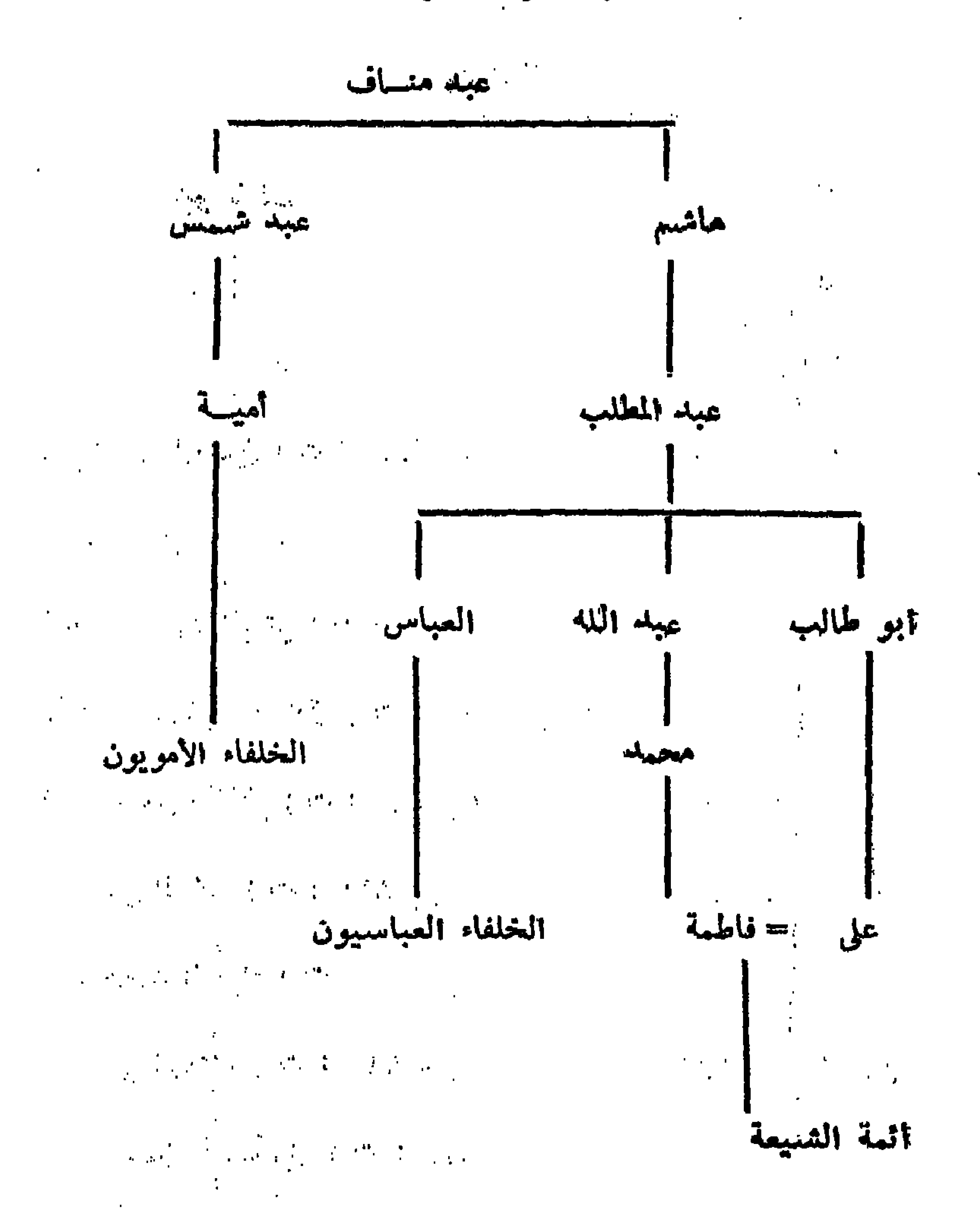


الأنساب والأسر الحاكمة

هـــــوامش

مراجـــع

أسرة الرســـول



عن كتاب ملخص دراسات الشرق الأوسط ، ج . ل . باشاراش ، سيتل ، ١٩٨٤ ، ص ١٧ .

أئمة الشيعة

عبد المطلب

أبو طالب	عبد الله
	محمد
أ ـ علي (ت : ٦٦١ م)	فاطمة
ب/٣ ـ الحسين (ت : ٦٨٠ م)	أ/٢ ـ الحسن (ت : ٦٦٩م)
ج/٤ ـ علي زين العابدين (ت : ٧١٤ م)	
د/٥ ـ محمد الباقر (ت : ٧٣١ م)	★ زيد (ت : ٧٤٠ م)
هـ/٦ ـ جعفر الصادق (ت : ٧٦٥ م)	
٧ ـ موسى الكاظم (ت : ٧٩٩ م)	د ـ اسماعيل (ت : ٧٦٠ م)
٨ ـ علي الرضا (ت : ٨١٨ م)	هـ ـ محمد المهدي
٩ ـ محمد الجواد (ت : ٨٣٥ م)	
١٠ـ علي الهادي (ت : ٨٦٨ م)	الخلفاء الفاطميون
١١ـ حسن العسكري (ت : ٨٧٤ م)	
١٢ـ محمد المنتظر	الأئمة النزاريون

الأرقام تشير الى تتابع الأئمة الذى يعترف به الشيعة الاثنا عشرية ٠
الحروف تشير الى تتابع الأئمة فى نظر الاسماعيلية ٠

★ يعترف به الزيديون كامام ٠

عن كتاب « ملخص دراسات الشرق الأوسط » ج٠ل٠ باشاراش ، سيتل ، ١٩٨٤ ، ص ٢١ ٠

الخلفـــاء

الراشدون

يسمى السنيون الخلفاء الأربعة الأوائل بالراشدين :

أبو بكر [٦٢٣ – ٦٣٤ م] ٠

عمر بن الخطاب [٦٣٤ – ٦٤٤ م] ٠

عثمان بن عفان [٦٤٤ – ٦٥٦ م] ٠

علي بن أبي طالب [٦٥٦ – ٦٦١ م] ٠

الأمويون

معاوية بن أبي سفيان [٦٦١ – ٦٨٠ م] ٠

يزيد الأول [٦٨٠ – ٦٨٣ م] ٠

معاوية الثاني [٦٨٣ – ٦٨٤ م] ٠

مروان الأول [٦٨٤ – ٧٠٥ م] ٠

الوليد الأول [٧٠٥ – ٧١٥ م] ٠

سليمان [٧١٥ – ٧١٧ م] ٠

عمر بن عبد العزيز [٧١٧ – ٧٢٠ م] ٠

يزيد الثاني [٧٢٠ – ٧٢٤ م] ٠

هشام [٧٢٤ – ٧٤٣ م] ٠

الوليد الثاني [٧٤٣ – ٧٤٤ م] ٠

يزيد الثالث [٧٤٤ م] ٠

ابراهيم [٧٤٤ م] ٠

مروان الثاني [٧٤٤ – ٧٥٠ م] ٠

العبـــاسيون

أبو العباس السفاح [٧٤٩ ـ ٧٥٤ م] ·

المنصور [٧٥٤ ـ ٧٧٥ م] ·

المهدى [٧٧٥ ـ ٧٨٣ م] ·

الهادى [٧٨٣ ـ ٧٨٦ م] ·

هارون الرشيد [٧٨٦ ـ ٨٠٩ م] ·

الأمين [٨٠٩ ـ ٨١٣ م] ·

المعتصم [٨١٣ ـ ٨٤٢ م] ·

الواثق [٨٤٢ ـ ٨٤٧ م] ·

المتوكل [٨٤٧ ـ ٨٦١ م] ·

المستعين [٨٦٢ ـ ٨٦٦ م] ·

المعتز [٨٦٦ ـ ٨٦٩م] ·

المهتدى [٨٦٩ ـ ٨٧٠ م] ·

المعتمد [٨٧٠ ـ ٨٩٢ م] ·

المعتضد [٨٩٢ ـ ٩٠٢م] ·

المكتفى [٩٠٢ ـ ٩٠٨ م] ·

المقتدر [٩٠٨ ـ ٩٣٢ م] ·

القاهر [٩٣٢ ـ ٩٣٤ م] ·

المتقى [٩٤٠ ـ ٩٤٤ م] ·

المستكفى [٩٤٤ ـ ٩٧٤ م] ·

الطائع [٩٧٤ ـ ٩٩١ م] ·

القادر [٩٩١ ـ ١٠٣١ م] ·

القائم [١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م] ·

المقتدى [١٠٧٥ ـ ١٠٩٤ م] ·

المسترشد [١٠٩٤ ـ ١١٣٥ م] ٠

الراشد [١١٣٥ ـ ١١٣٦ م] ٠

المقتفى [١١٣٦ ـ ١١٦٠ م] ٠

المستنجد [١١٦٠ ـ ١١٧٠ م] ٠

المستضىء [١١٧٠ ـ ١١٨٠ م] ٠

الناصر [١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م] ٠

الظاهر [١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ م] ٠

المستنصر [١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م] ٠

المستعصم [١٢٤٢ ـ ١٢٥٨ م] ٠

عن الدول الاسلامية ، س ٠٠أ بروزورث ، ادنبرج ، ١٩٦٧ ٠

الأسر الحاكمة فى القرنين التاسع عشر والعشرين

السلاطين العثمانيون

سليم الثالث [١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ م] .

مصطفى الرابع [١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ م] .

محمد الثانى [١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ م] .

عبد المجيد الأول [١٨٣٩ ـ ١٨٦١ م] .

عبد العزيز [١٨٦١ ـ ١٨٧٦ م] .

مراد الخامس [١٨٧٦ م] .

عبد الحميد الثانى [١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م] .

محمد الثانى الرشاد [١٩٠٩ ـ ١٩١٨ م] .

محمد الخامس وحيد الدين [١٩١٨ ـ ١٩٢٢ م] .

عبد الحميد الثانى (اعترف به خليفة وليس سلطانا) [١٩٢٢ ـ ١٩٢٤ م] .

ملوك العربية السعودية

عبد العزيز [١٩٢٦ ـ ١٩٥٣ م] .

سعود [١٩٥٣ ـ ١٩٦٤ م] .

فيصل [١٩٦٤ ـ ١٩٧٥ م] .

خالد [١٩٧٥ ـ ١٩٨٢ م] .

فهد [١٩٨٢ ـ الآن] .

أسرة محمد على

محمد على ، والى مصر [١٨٠٥ – ١٨٤٨ م] ٠

ابراهيم ، وال [١٨٤٨ م] ٠

عباس ، وال [١٩٤٨ – ١٨٥٤ م] ٠

اسماعيل ، خديو [١٨٦٣ – ١٨٧٩ م] ٠

سعيد ، وال [١٨٥٤ – ١٨٦٣ م] ٠

توفيق ، خديو [١٨٧٩ – ١٨٩٢ م] ٠

عباس حلمى ، خديو [١٨٩٢ – ١٩١٤] ٠

حسين كامل ، سلطان [١٩١٤ – ١٩١٧ م] ٠

فؤاد الأول ، سلطان ، ثم ملك [١٩١٧ – ١٩٣٦ م] ٠

فاروق ، ملك [١٩٣٦ – ١٩٥٢ م] ٠

فؤاد الثانى ، ملك [١٩٥٢ – ١٩٥٣ م] ٠

العلويون فى المغرب

سليمان ، سلطان [١٧٩٦ – ١٨٢٢ م] ٠

عبد الرحمن ، سلطان [١٨٢٢ – ١٨٥٩ م] ٠

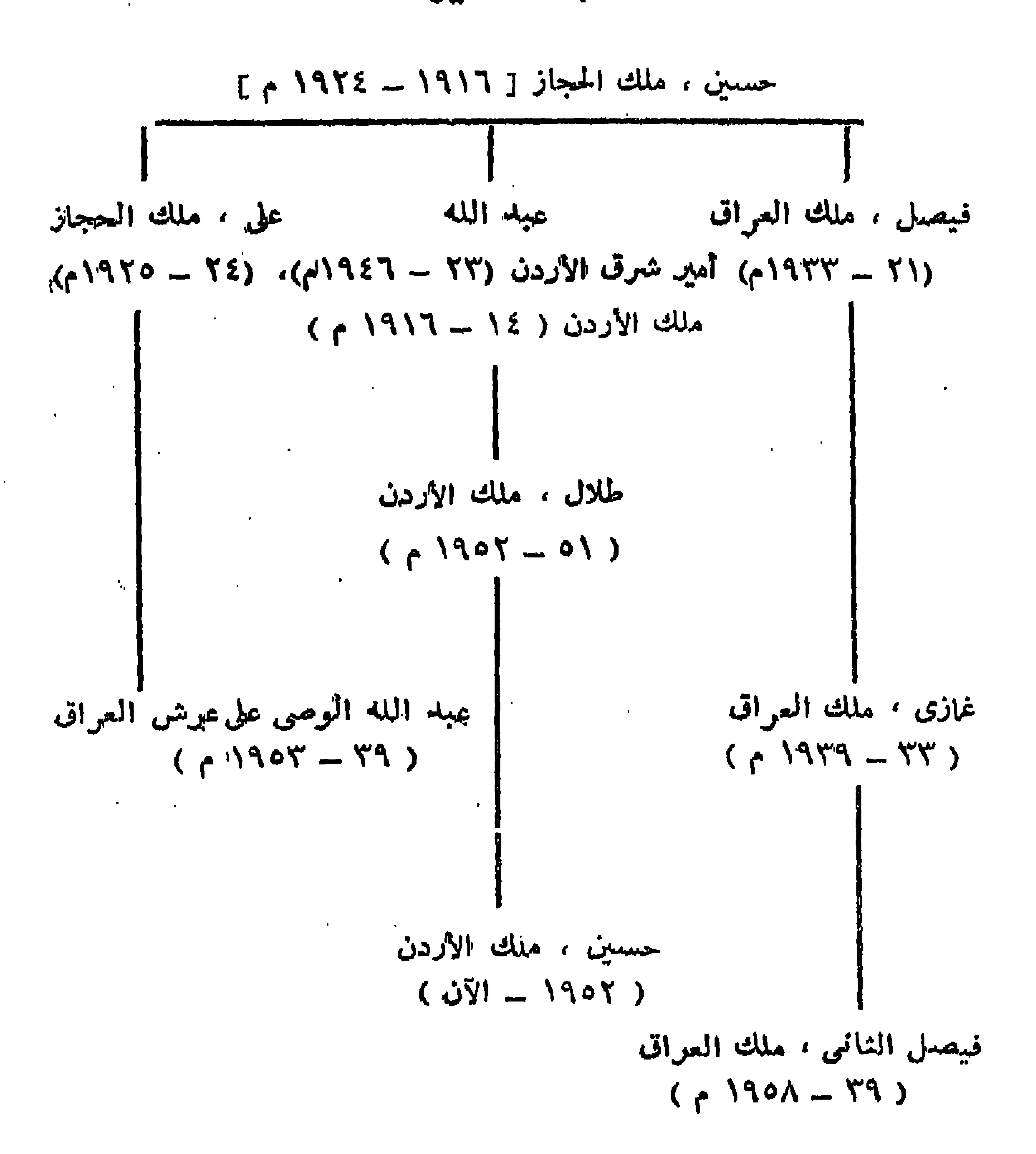
محمد ، سلطان [١٨٥٩ – ١٨٧٣ م] ٠

عبد العزيز ، سلطان [١٨٩٤ – ١٩٠٨ م] ٠

يوسف ، سلطان [١٩١٢ – ١٩٢٧ م] ٠

الحسن الثانى [١٩٦١ – الآن] ٠

الهاشـــميون



الهـــوامش

الهوامش الواردة في هذا الكتاب تم اختصارها الى الحد الادنى ، حيث انها لم تتعد الإشارة الى النصوص المباشرة ، الا أن قليلا منها أشار الى مراجع نقلت مادتها بلا تصرف ، وكلما تيسرت لى ترجمة انجليزية يعتمد عليها أخذت منها مباشرة أو استعنت بها في الترجمة ٠

المقدمة :

(١) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، (القاهرة) ، ص ٣٣ ٠

(٢) نفس المرجع ، ص ١٦٣ ٠

(٣) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، م٠ت٠ الطنجى ، (القاهرة ١٩٥١) ، ص ٢٤٦ ٠

الفصل الأول :

(١) R. B. Serjeant « Haram and Hawta » A.R. Badawi

(٢) البستاني وآخرون ، المجانى الحديثة ، الجزء الاول ، (بيروت ، ١٩٤٦) ، ص ١٠٣ ٠

(٣) نفس المرجع ، ص ١١٢-١١٣ ٠

(٤) نفس المرجع ، ص ٨٨ ٠

(٥) A. Guillaume « The life of Mohamad » (London 1955).

(٦) قرآن كريم ، ٩٦ : ١-٨ ٠

الفصل الثاني :

(١) The formation of Islamic art » Grabar (New Haven 1973)

(٢) محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ ، تحقيق م٠ ابراهيم ، ج ٧ ، (القاهرة ، ١٩٦٦) ، ص ٤٢١ - ٤٣١ ٠

(٣) نفس المرجع ، ص ٦١٤-٦٢٢ ٠

(٤) الخطيب البندارى ، تاريخ بغداد ، الجزء ١ ، (القاهرة ١٩٣١) ، ص ١٠٠ ٠

الفصل الثـالث :

(١) R. W. Bulliet « Conversion to Islam in Medieval Period » (Cambridge, Mas).

(٢) أبو الطيب المتنبى ، ديوان ، تحقيق ع· عزام ، (القاهرة ١٩٤٤) ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ·

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٢٢ـ٣٢٥ ·

(٤) عمرو بن بحر الجاحظ « النبل وذم الكبر » (لندن ١٩٦٩) ·
C. Pellat : The life and works of Jahiz (London, 1969), p. 533.

(٥) محمد أبو ريحان البيرونى ، تحقيق ماللهند ، (حيدر آباد ، ١٩٥٨) ص ٥ ·

(٦) المرجع نفسه ·

(٧) المرجع نفسه ·

(٨) كتاب « الصينية فى الطب » ، ص (١٢) ·

(٩) المشاعر الدينية فى مصر الاسلامية فى العصور الوسطى » ، مجلة مدرسـة الدراسات الشرقية والافريقية ، مجلد ٤٣ (١٩٨٠) ·

الفصل الرابع :

(١) J. Crone & M. Hinds, God's Caliph Cambridge, 1986.

(٢) القرآن الكريم ·

(٣) محمد بن ادريس الشافعى ، الرسالة ، تحقيق محمد شاكر ٢٧٢ ، القاهرة ، ١٩٥٠ ·

(٤ ـ ٥) القرآن الكريم ·

(٦) أحمد بن عبد الله الاصبهانى ، حلية الأولياء ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٨ ·

(٧) محمد بن على الترمذى ، كتاب خاتم الاولياء ، (المراجع : لعله خطأ مطبعى أو أن الأمر التبس على المؤلف ، فلا نعلم للترمذى كتاب بهذا الاسم) ·

(٨) الأصبهانى ، حلية الأوليـاء ، مجلد ١٠ ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٧٩ ·

(٩) يعقوب بن اسحق الكندى ، فى الفلسفة (فى رسائل الكندى الفلسفية لأبى رضا ، القاهرة ، ١٩٥٠ ·

(١٠) أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة ، عيون الأنبا فى طبقات الأطبا ، (بيروت ١٩٧٩) ، جزء ١ ، ص ٤٣ · (ليس له مقـابل فى المتن ، ولعـله خطأ مطبعى ـ (المراجع) ·

(١١) A. I. Sabra The Scientific Enterprise (London 1976).

الفصـل السادس :

(١) انظر : R. M. Adams « Land Behind Baghdad », Chicago 1965.

(٢) انظر : م· بريت « ابن خلدون وتعريب شـمال افريقيا » ·

(٣) انظر : L. Abul-Lughod « Veiled Sentiments), (Berkely 1986)..

الفصـل السابع :

(١) ابن الحاج ، المدخل ، (القاهرة ١٩٢٩) ، جزء ١ ، ص ٥ـ٢٤٦ ٠

(٢) قران كريم ، ٤٠ : ٤٠ ، ١٦ : ٩٧ ٠

(٣) انظر R. Le Tourneau « Fes avant le protectorat » (Casablanca (1949).

(٤) انظر « رحـلة » محمد بن عبد الله بطوطة ٠

الفصـل الثامن :

(١) انظر : لابيدوس « المدن الاسلامية فى أواخر العصور الوسطى » ١٩٦٧ ٠

(٢) انظر : Burgoyne, Richards « Mamluk Jerusalem » (London 1987).

(٣) انظر : لطائف المتن والأخلاق » الامام الشعرانى ٠

(٤) قران كريم ، ٥ : ٥٩ ٠

(٥) « الدولة والحكومة فى العصور الاسلامية المتوسـطة » ٠ لامبتون (أكسفورد ، ١٩٨١) ٠

(٦) نصيحة الملوك للغزالى ، (طهران ١٩٧٢) ٠

(٧) انظر : نظام الملك « كتاب الحكومة » (لندن ١٩٧٨) ٠

(٨) انظر : المرجع نفسـه ٠ Ibid.

الفصـل التاسع :

(١) قران كريم ٣ : ١٠٥ ٠

(٢) انظر : جيلوم « حياة محمد » ، ص ٦٥١ ٠

(٣) انظر : Grunebaum « Mohammadan Festivals » (NY. 1951).

(٤) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ١٥٢ ٠

(٥) قران كريم ٣ : ٩٧ ٠

(٦) قران كريم ٩ : ١٢٧ ٠

(٧) Moslem Devotions C. Padwick, (London 1961).

(٨) قران كريم ، ١٢ : ١٠١ ٠

الفصل العاشر :

(١) انظر : ابن أبى زيد القيروانى ، « الرسالة » بيرش .

(٢) انظر : Udovitch « Partnership and Profit in medieval Islam »

(٣) انظر : نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية .
مجلد ٤٢ ص ٣٩ (١٩٧٩)

(٤) انظر : Burgoyne « Mamluk Jerusalem » ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٥) ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنبا ، جزء ٣ ، ص ٤٢ ـ ٣٤٤ .

(٦) الغزالى ، المنقذ من الضلال ، تحقيق صليبة وعياد ، الطبعة الثالثة ، (دمشق ١٩٣٩) ، ص ١٢٧ .

(٧) الغزالى ، فيصل التفرقة بين الاسلام والزنادقة ، تحقيق س . دنيا ، (القاهرة ، ١٩٦١) ، ص ٢٠٢

(٨) احياء علوم الدين ، الجزء الثالث ، الكتاب الثانى (القاهرة ١٩١٦) ص ٥٢ .

(٩) الغزالى ، المنقذ ، ص ١٣٢ .

(١٠) الغزالى ، احياء ، الجزء ٣ ، الكتاب ١ ، مجلد ٢ ، ص ١٧ .

الفصل الحادى عشر :

(١) الحسين بن عبد الله ابن سينا « حياة ابن سينا » W. Gohlman

(٢) قرآن كريم ٢٤ : ٣٥ـ٣٩ .

(٣) قرآن كريم ٣ : ١٩١ .

(٤) محمد بن أحمد بن رشد ، فصل المقال ، تحقيق ج . ف . حورانى ، (ليدن ، ١٩٥٩) .

O, Yahia, Histoire et classification De L'Oeuvre d'Ibn Arabi (Damascus 1964).

(٥) نفس المرجع ، ص ١٧ .

(٦) محيى الدين بن عربى ، شجرة الكون ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٤٥ .

(٧ ـ ٨) أحمد بن تيمية ، مجموعات الرسائل الكبرى (القاهرة ، ١٩٠٥) جزء ١ ، ص ٣٠٩ـ٣٠٧ .

(٩) انظر : O. Yahia Vol. 1, p. 13.

الفصل الثانى عشر :

(١) أحمد بن عبد الله بن زيدون ، ديوان ، تحقيق ك البستانى ، (بيروت ١٩٥١) ، ص ٢٩ـ٣٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٨ـ٤٩ ٠

(٣) محمد بن عبد الملك بن طفيل ، حى بن يقظان ، تحقيق صليبة وعياد ، الطبعة الخامسة ، (دمشق ١٩٤٠) ، ص ١ـ١٩٢ ٠

(٤) أبو الفرج الاصبهانى ، كتاب الاغانى ، (بيروت ١٩٥٥) ، جزء ١ ، ص ٩٤ـ ٢٩٨ ٠

(٥) الغزالى ، احياء ، جزء ٣ ، كتاب ٨ ، مجلد ٢ ، ص ٢٣٧ ٠

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ٠

(٧) نفس المرجع ، ص ٢٤٩ ٠

(٨) ابن خلدون ، ص ٢٨ ٠

(٩) ابن خلدون ، ص ٣ ـ ٤٩٤ ٠

اقرأ فى هذه السلسلة

برتراند رسل
احلام الاعلام وقصص اخرى

ى· رادو نكايارم جابوتنسكى
الالكترونيات والحياة الحديثة

الدس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت· و· فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ر· ج· فوربس و أ· ج· ديكستر هوز
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستردبل راى
الأرض الغامضة

والتر الن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د· قدرى حفنى وآخرون
الانسان المصرى على الشاشة

اولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود · صيانتها
تصنيفها — عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د· محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة · الانجليزية
والفرنسية

د· عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
اصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادبنيت
القوة النفسية للأهرام

د· صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكيتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل واحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبرج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض · ماركس
والماركسيون

ف· ع· ادينكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
ادب الاطفال « فلسفته ، فنونه
وسائطه »

د· نعمة رحيم العزاوى
احمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د· فاضل احمد الطائى
اعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د· السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى
منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د· روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الاخلاق
للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

أ· سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر
القديمة

د· ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور
الوسطى

د· ليناور تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية ازاء مصر

د· جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى
السنة

بيير البير
الصحافة

د· غبريال وهبة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى
فى الفن التشكيلى

د· رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة
البلشفية وبعدها

د· محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم
متغير

فرانكلين ل· باومر
الفكر الأوروبى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى
الوطن العربى

د· محى الدين احمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج· داندلى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د· جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت
واين توجد

مائة من العلماء الامريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى
حرب الفضاء

د· السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د· مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
« الشعر — الدراما — الحكاية —
القصة القصيرة »

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

انطونى دى كرسبنى وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكى ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوى
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية

رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. انور عبد الملك
الشارع المصرى والفكر

وات وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد . س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الامثال الشعبية فى عهد محمد على

الان كاسبيار
التذوق السينمائى

سامى عبد المعطى
التخطيط السياحى فى مصر بين النظرية والتطبيق

فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمى المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون
٢ ج

روى روبرتسون
الهيروين والايدز واثرهما فى المجتمع

دور كاس ماكليتوك
صور افريقية . نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د. محمود سرى طه
الكومبيوتر فى مجالات الحياة

بيتر لورى
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الاعضاء فى الالف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى

جون . ر. بورر وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبى
الفكر التاريخى عند الاغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر

م. هـ كنج واخرون
التغذية فى البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد ابو سديره
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان هو
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الاساطير الافريقية والرومانية

د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسى ـ تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة .
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيبليوجرافى
روائع الآداب العالمية ج ١

روى آرمز
لغة الصورة فى السينما المعاصرة

ناجاى متشيو
الثورة الاصلاحية فى اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل البى وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

ادامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاوركسترالى

ابو القاسم الفردوسى
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلى
قيام الدولة العثمانية

تونى بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور شين ين ينج وآخرون
مختارات من الآداب الأسيوية

ناصر خسرو علوى
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس اوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى
٧ ج

جان لويس بورى وآخرون
فى النقد السينمائى الفرنسى

العثمانيون فى أوروبا
بول كولز

موريس بير برابر
صناع الخلود

زيجمونت هبز
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الافستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكولز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقد السينمائى الأمر

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن اورمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ج

مونى براح واخرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ ج

صابر محمد الجرار
ماستريخت

ابرار كريم الله
من هم التتار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه ٢ ج

سوريال عبد الملك
حديث النهر من روائع الآداب الهندية

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة اسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى ألف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية ٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة ٢ ج

بادى اونيمود
افريقيا - الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتزمان
كوننا المتمدد

سوندارم
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ويليام هـ. ماثيوز
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى ٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
أنواع الفيلم الأميركى

مارى ب. ناش
الحمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف بندهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق ٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم افضل

نورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى
والأمن القومى العربى)

د. ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينز
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٣ جـ

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين
والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ جـ

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ازرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهارى فيلدمان
ديناميه الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت أ. كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند ، وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الويز جرايتر
موتسارت

على عبد الرءوف البمبى
مختارات من الشعر الاسبانى

روبرت سكولز وآخرون
آفاق أدب الخيال العلمى

ب. س ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س. هوارد
اشهر الرحلات الى غرب افريقيا

و. بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيانو
تاريخ أوروبا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال فى المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

د. مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م. و. ثرنج
ضمير المهندس

ا. ر. جرنى
الحيثيون

ستينو موسكاتى
الحضارات السامية

د. ألبرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٥١٨٨

ISBN — 977 — 01 — 5187 - 4

يتناول حوراني في كتابه هذا، تاريخ الشعوب العربية، واستطرادات ضرورية للعالم الإسلامي غير العربي، بحيدة وموضوعية، وقد يختلف معه القارئ في بعض تحليلاته، لكنه لا يسعه إلا أن يقدم جهده في التوثيق والتعليل، وفي هذا الجزء الأول ينتهي حوراني في سرده التاريخي حتى قبيل قيام الدولة العثمانية، ليتابع عرضه بعد ذلك في الجزء الثاني من قيام الدولة العثمانية حتى العصر الحاضر متعرضا لوقائع تاريخية ذات أهمية خاصة كحرب ١٩٥٦، وحرب ١٩٦٧، على مالا يخفى على القارئ من أهمية هذه الفترة.

٦٠٠ قـــرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب